

فتح البصائر في مقام القرآن

تفسير سلفي أشري خال من الإسرائيليات والبدليات المذهبية والكلامية
يفني عن جميع التفاسير ولا تغني غيرها عنه

تأليف

السيد الإمام العلامة الملك المؤيد محمد الله الباري
أبي الطيب "صديقه بن حسن بن علي الحسين القنبري البغاري"
"١٢٤٨-١٣٠٧هـ"

عني بطبعه وقدم له وراجعته

خادم العالم

عبدالله بن إبراهيم الأنصاري

الجزء الثاني عشر

المكتبة العصرية
مستبداء بيروت

جميع الحقوق محفوظة

١٤١٢هـ - ١٩٩٢م



شركة انتشارات شریف لاینفاری
للطباعة والنشر والتوزيع

المكتبة العجوة للطباعة والنشر

الدائرة الوطنية للتوثيق
المطبعة العجوة للنشر

بکیروت - ص.ب ٨٣٥٥ - تلکس ٢٠١٢٧٤
مسیدا - ص.ب ٢٤١ - تلکس ٢٩١٩٨٤

الجزء الثاني عشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ويشتمل على :

- سورة ص.
- سورة الزمر.
- سورة غافر.
- سورة فطت.
- سورة الشورى.
- سورة الزخرف.
- سورة الدخان.
- سورة الجاثية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة ص

وهج مكية . قال القرطبي : فج قول الجميع . قال ابن عباس : نزلت بمكة وعنه قال : لما مرض أبو طالب دخل عليه رطل من قريش فيهم أبو جهل فقال : « ان ابن أخيك يشتم آلهتنا ويفعل ويفعل ويقول ويقول . فلو بعثت إليه فنهيت فبعث إليه . فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فدخل البيت . وبينهم وبين أبي طالب قدر مجلس رجل . فخشي أبو جهل أن يجلس اليه طالب ويكون أرقه عليه فوثب فجلس فجاء ذلك المجلس . فلم يجد رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلساً قرب عمه فجلس عند الباب فقال له أبو طالب : « أج ابن أخك ما بال قومك يشكونك يزعمون أنك تشتم آلهتهم وتقول وتقول . قالوا : « يا عم أنت أريدك وأكثروا عليه من القول وتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « يا عم أنت أريدك على كلمة واحدة يقولونها تدين لهم بها العرب وتؤذي اليهم بها العجم الجزية » . ففزعوا لكلمته ولقوله . فقال القوم : « كلمة واحدة نعم وأبيك عشرا » . قالوا : « فما حج ؟ قال : « لا إله إلا الله » . فقاموا فزعين ينفذون ثيابهم وهم يقولون : « أجعل الآلهة آلهة واحداً ان هذا لشيء عجاب » ﴿١﴾ فنزل فيهم ص والقرآن ضج الذكور اليه قوله بل لما يدعوا عذاب » أخرجه الترمذي وصححه والنسائي وأحمد وابن أبي شيبة وعبد بن حميد والماكر وصححه وابن مردويه والبيهقي فج الدلائل وابن جرير وابن المنذر .

(١) رواه احمد والترمذي ١٥٥/٢ عن ابن عباس رضي الله عنها وقال الترمذي هذا حديث حسن صحيح ورواه الحاكم ٤٣٢/٢ . الطبري ١٢٥/٢٣ والواحيدي ٢٠٩ والسيوطي ٢٩٥/٥ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

صَّ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَذَّابٌ ﴿٣﴾ أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٤﴾

﴿صَّ﴾ قرأ الجمهور صاد بسكون الدال كسائر حروف التهجى في أوائل السور فإنها ساكنة الأواخر على الوقف ، وقرىء بكسرهما من غير تنوين لالتقاء الساكنين ، وهذا أقرب وقيل وجه الكسر أنه من صادى يصادى إذا عارض ، والمعنى صاد القرآن بعملك أي عارضه وقابله ، فاعمل به وهذا حكاية النحاس عن الحسن البصري ، وقال انه فسر قراءته هذه بهذا ، وعنه أن المعنى اتله وتعرض لقراءته ، وقرىء صاد بفتح الدال والفتح لالتقاء الساكنين وقيل نصب على الإغراء وقيل معناه صاد محمد صلى الله عليه وسلم قلوب الخلق واستمالها حتى آمنوا به ، ورويت هذه القراءة عن أبي عمرو وروي عن أبي إسحق أيضاً أنه قرىء ، صاد بالكسر والتنوين تشبيهاً لهذا الحرف بما هو غير متمكن من الأصوات وقرىء صاد بالضم من غير تنوين على البناء نحو منذ وحيث ، كما قرىء به في ق و ن .

وقد بسط السمين الكلام على توجيهه الكل وقال الحفناوي يجوز السكون على الحكاية والفتح لمنع الصرف للعلمية والتأنيث باعتبار أن هذا الأسم علم على السورة ، والجر مع التنوين نظراً إلى كون السورة قرآناً ويقال لها سورة داود وقد اختلف في معنى صَّ فقال الضحاك معناه صدق الله وقال عطاء صدق محمد صلى الله عليه وسلم وقال سعيد بن جبير هو بحر يحبي الله به الموق بين النفختين وقال محمد بن كعب هو مفتاح اسم الله وقال قتادة هو اسم من أسماء الله وعنه هو اسم من أسماء الرحمن وقال محمد هو فاتحة السورة

وقال ابن عباس ص محمد صلى الله عليه وسلم وقيل هو مما استأثر الله بعلمه وهو أعلم بمراده به وهذا هو الحق كما قدمنا في فاتحة سورة البقرة قيل وهو اسم للحروف مسروداً على غمط التعديد أو اسم للسورة أو خبر مبتدأ محذوف أو منصوب بإضمار أذكر أو إقرأ .

﴿والقرآن﴾ هي واو القسم ، والإقسام بالقرآن فيه تنبيه على شرف قدره وعلو محله ، ومعنى ﴿ذي الذكر﴾ أنه مشتمل على الذكر الذي فيه بيان كل شيء ، وقال مقاتل ؛ معنى ذي الذكر ذي البيان ، وقال الضحاك وابن عباس ذي الشرف والعظمة ، كما في قوله ﴿لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم﴾ أي شرفكم أو الشهرة ، وقيل ذي الموعظة ، وقيل فيه ذكر ما يحتاج إليه في أمر الدين ، وقيل فيه ذكر أسماء الله تعالى وتمجيده ، وقيل فيه ذكر العقائد والشرائع والمواعيد ، وجواب القسم قوله ﴿إن ذلك لحق﴾ قاله الزجاج والكسائي والكوفيون . وقال الفراء لا نجده مستقيماً لتأخره جداً عن قوله والقرآن . ورجح هو وثعلب أن الجواب قوله ﴿كم أهلكننا﴾ وقال الأخفش الجواب هو ﴿إن كلُّ إلا كذب الرسل﴾ وقيل هو صاد لأن معناه حق فهو جواب لقوله والقرآن كما تقول حقاً والله وجب والله ذكره ابن الأنباري وروي أيضاً عن ثعلب والفراء ، وهو مبني على أن جواب القسم يجوز تقدمه وهو ضعيف ، وقيل الجواب محذوف والتقدير لتبعثن ونحو ذلك ، وقال الحوفي تقديره لقد جاءكم الحق ونحوه ، وقال الزمخشري إنه لمعجز والمحلي ﴿إنك لمن المرسلين﴾^(١)

وقال ابن عطية تقديره ما الأمر كما يزعم الكفار من تعدد الآلهة ، والقول بالحذف أولى ، وقيل إن قوله ص مقسم به وعلى هذا القول تكون الواو في والقرآن للعطف عليه ، ولما كان الإقسام بالقرآن دالا على صدقه ،

(١) وقد رجح الطبري في تفسيره : قول قتادة وجماعة من المفسرين : ان الجواب محذوف تقديره او القرآن ذي الذكر لا كما يقول الكفار - والله أعلم :

وأنه حق وأنه ليس بمحل للريب قال سبحانه ﴿بل الذين كفروا في عزة وشقاق﴾ فأضرب عن ذلك وكأنه قال لا ريب فيه قطعاً ، ولم يكن عدم قبول المشركين له لريب فيه ، بل هم في عزة عن قبول الحق أي تكبر وتجبر وشقاق ، أي امتناع عن قبول الحق ، يعني ليس الحامل لهم عليه الدليل ، بل مجرد الحمية والخصام ، والتقليد ، والعزة عند العرب الغلبة والقهر ، يقال : من عَزَبَ أي من غلب أخذ السلب ، ومنه ﴿وعزني في الخطاب﴾ ، أي غلبني ، والشقاق مأخوذ من الشق وهو الخلاف والعداوة ، وقد تقدم بيانه ، والتنكير فيها للدلالة على شدتها وتفاقمها ، وقرىء في غرة أي في غفلة عما يجب عليهم من النظر ، واتباع الحق ، والأول أولى ، ثم خوفهم سبحانه وهددهم بما فعله من قبلهم من الكفار فقال :

﴿كم أهلكنا من قبلهم من قرن﴾ يعني الأمم الخالية المهلكة بتكذيب الرسل ، أي كم أهلكنا الذين كانوا أمنع من هؤلاء ، وأشد قوة ، وأكثر أموالاً و﴿كم﴾ هي الخبرية الدالة على التكثير ، وهي في محل نصب بأهلكنا على أنها مفعول به ، ومن قرن تمييز ، و(من) في (من قبلهم) هي لا ابتداء الغاية .

﴿فنادوا ولات حين مناص﴾ النداء هنا هو نداء الاستغاثة منهم عند نزول العذاب بهم ، وليس الحين حين مناص ، قال الحسن نادوا بالتوبة ، وليس حين التوبة ، ولا حين ينفع العمل ، والمناص مصدر ناص ينوص ، وهو الفوت والتأخر ، ولات بمعنى ليس ، بلغة أهل اليمن ، وقال النحاة هي لا التي بمعنى ليس زيدت عليها التاء كما في قولهم رب وربت وثمر وثمرت قال الفراء النوص التأخر ، وأنشد قول امرئ القيس :

أمن ذكر ليلى إذ نأتك تنوص فتقصر عنها خطوة وتبوص^(١)

(١) غريب القرآن ٣٧٦ والطبري ١٢٠/٢٣ ومختار الشعر الجاهلي ١٢٧/١ وديوان امرؤ القيس ١٧٧

قال يقال ناص عن قرنه ينوص نوصاً ومناصاً أي فر وراغ قال الفراء ويقال ناص ينوص إذا تقدم ، وقيل المعنى أنه قال بعضهم لبعض مناص أي عليكم بالفرار والهزيمة ، فلما أتاهم العذاب قالوا مناص فقال الله ولات حين مناص قال سيبويه والخليل لات مشبهة بليس ، والاسم فيها مضمر ، أي ليس حيننا حين مناص ، وقال الزجاج التقدير وليس أوانا ، قال ابن كيسان والقول قول سيبويه ، والوقف عليها عند الكسائي بالهاء ، وبه قال المبرد والأخفش . وقال الأخفش إنها لا النافية للجنس زيدت عليها التاء ، وخصت بنفي الأحيان وقال الكسائي والفراء والخليل وسيبويه والأخفش التاء تكتب منقطعة عن حين ، وكذلك هي في المصاحف ، وقال أبو عبيدة: تكتب متصلة بحين فقال : ولا تحين ، وقد يستغنى بحين عن المضاف إليه ، قال أبو عبيدة: لم نجد العرب تزيد هذه التاء إلا في حين وأوان ، الآن .

قلت قد يزيدها في غير ذلك أيضاً ، وقال ابن عباس ليس بحين نزو ولا فرار ، وأخرج ابن أبي من طريق عكرمة عنه قال : نادوا النداء حين لا ينفعهم وأنشد :

تذكرت ليل حين لات تذكر وقد بنت منها والمناص بعيد

وعنه قال : ليس هذا حين زوال ، وعنه قال : لا حين فرار وقرأ الجمهور لات بفتح التاء وقرئ بكسرهما كجبر وجملة لات حين مناص في محل نصب على الحال من ضمير نادوا .

﴿وعجبوا أن جاءهم منذر منهم﴾ أي عجب الكفار الذين وصفهم الله سبحانه بأنهم في عزة وشقاق أن جاءهم رسول من أنفسهم ينذرهم بالعذاب إن استمروا على الكفر وأن وما في حيزها محل نصب بنزع الخافض ، أي من أن لجاءهم ، وهو كلام مستأنف مشتمل على ذكر نوع من أنواع كفرهم .

﴿وقال الكافرون هذا ساحر كذاب﴾ قالوا هذا القول لما شاهدوا ما جاء به من المعجزات الخارجة عن قدرة البشر ، أي هذا المدعي للرسالة ساحر فيما يظهره من المعجزات ، كذاب فيما يدعيه من أن الله أرسله ، قيل ووضع الظاهر موضع المضمّر لإظهار الغضب عليهم وأن ما قالوه لا يتجاسر على مثله إلا المتوغلون في الكفر ، المنهمكون في الغي ، إذ لا كفر أغلظ من أن يسموا من صدقه الله : كاذبا ساحراً ، ويتعجبوا من التوحيد ، وهو الحق الأبلج ، ولا يتعجبوا من الشرك ، وهو باطل الجلج ، ثم أنكروا ما جاء به صلى الله عليه وسلم من التوحيد وما نفاه من الشركاء لله فقالوا :

﴿أجعل الآلهة أي صيرها﴾ إلهاً واحداً ﴿وقصرها على الله سبحانه﴾ إن هذا لشيء عجاب ﴿أي الأمر بالغ في العجب إلى الغاية تعجبوا من هذا القصر والحصر وقالوا : كيف يسع الخلق كلهم إله واحد، ومنشؤه أن القوم ما كانوا أصحاب نظر واستدلال بل كانت أوهامهم تابعة للمحسوسات فلما وجدوا في الشاهد أن الفاعل الواحد لا تفي قدرته وعلمه بحفظ الخلائق قاسوا الغائب على الشاهد ، وأن أسلافهم لكثرتهم وقوة عقولهم كانوا مطبقين على الشرك توهموا أن كونهم على هذه الحال محال أن يكونوا مبطلين فيه ، ويكون الإنسان الواحد محقاً ، فلعمري لو كان التقليد حقاً كانت هذه الشبهة لازمة ، قاله الكرخي .

قال الجوهري : العجيب الأمر الذي يتعجب منه وكذلك العجاب بالضم ، والعجاب بالتشديد أكثر منه ، قرأ الجمهور عجاب بالتخفيف وقرئ بتشديد الجيم ، قال مقاتل : بالتخفيف لغة أزد شنوءة ، قيل : والعجاب بالتخفيف والتشديد يدل على أنه قد تجاوز الحد في العجب كما يقال : الطويل للذي فيه طول والطوال للذي قد تجاوز حد الطول وكلام الجوهري يفيد اختصاص المبالغة بعجاب مشدد الجيم لا بالمخفف وقد قدمنا في صدر هذه السورة سبب نزول هذه الآيات .

وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمْسُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمَلَةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْلَقُ ﴿٧﴾ أَمْ نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴿١٠﴾

﴿وانطلق الملاء منهم﴾ المراد بالملاء الأشراف كما هو مقرر في غير موضع من تفسير الكتاب العزيز ، عن ابن عباس قال : نزلت حين انطلق أشراف قریش إلى أبي طالب فكلّموه في النبي صلى الله عليه وسلم قائلين ، بعضهم للبعض : ﴿ أن امشوا ﴾ أي امضوا على ما كنتم عليه ولا تدخلوا في دينه .

﴿واصبروا على آلهتكم﴾ أي اثبتوا على عبادتها وقيل : المعنى وانطلق الأشراف منهم فقالوا للعوام : امشوا واصبروا على آلهتكم ، وان هي المفسرة للقول المقدر ، أو لقوله : (وانطلق) لأنه مضمن معنى القول ويجوز أن تكون مصدرية معمولة للمقدر ، أو للمذكور ، أي بأن امشوا وقيل : المراد بالانطلاق الاندفاع في القول ، وامشوا من مشت المرأة إذا كثرت ولادتها أي اجتمعوا وأكثروا وهو بعيد جداً ، وخلاف ما يدل عليه الانطلاق والمشي بحقيقتها ، وخلاف ما تقدم في سبب النزول .

وجملة ﴿ إن هذا لشيء يراد ﴾ تعليل لما تقدمه من الأمر بالصبر ، أي يريد محمد بنا وآلهتنا ويود تمامه من غير صارف يلويه ولا عاطف يشبهه ليعلو علينا ، ونكون له أتباعاً فيتحكم فينا بما يريد فيكون هذا الكلام خارجاً مخرج التحذير منه والتنفير عنه .

وقيل : إن هذا الأمر يريد به الله سبحانه ، وما أراده ويحكم بإمضائه فهو كائن لا محالة ، ولا ينفع فيه إلا الصبر فاصبروا على عبادة آلهتكم . وقيل المعنى إن دينكم لشيء يراد أي يطلب ليؤخذ منكم ، وتغلبوا عليه أو أن هذا

الأمر شيء من نوائب الدهر يراد بنا فلا انفكاك لنا منه ، أو أمر يراد بأهل الأرض والأول أولى .

﴿ ما سمعنا بهذا ﴾ الذي يقوله محمد من التوحيد ﴿ في الملة الآخرة ﴾ وهي ملة النصرانية فإنها آخر الملل قبل ملة الإسلام كذا قال محمد بن كعب القرظي وقتادة ومقاتل والكلبي والسدي ، وبه قال ابن عباس ، وقال مجاهد : يعنون به ملة قريش ، أي التي أدركنا عليها آباءنا وعن قتادة مثله وقال الحسن المعنى ما سمعنا أن هذا يكون في آخر الزمان ، وقيل إن المعنى ما سمعنا من اليهود والنصارى أن محمداً رسول الله .

﴿ إن هذا الا اختلاق ﴾ أي ما هذا إلا كذب اختلقه محمد وافتراه من تلقاء نفسه وافتعله ، ثم استنكروا أن يخص الله رسوله بمزية النبوة دونهم فقالوا : ﴿ أنزل عليه الذكر من بيننا ﴾ والاستفهام للانكار ، أي كيف يكون ذلك ونحن الرؤساء والأشراف ، قال الزجاج : قالوا : كيف أنزل على محمد القرآن من بيننا ؟ ونحن أكبر سناً وأعظم شرفاً منه ، وهذا مثل قولهم ﴿ لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ فأنكروا أن يتفضل الله سبحانه على من يشاء من عباده بما شاء . ولما ذكر استنكارهم لنزول القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم دونهم ، بين السبب الذي لأجله تركوا التصديق برسول الله صلى الله عليه وسلم فيما جاء به فقال :

﴿ بل هم في شك من ذكرى ﴾ أي من القرآن أو الوحي ، لإعراضهم عن النظر الموجب لتصديقه ، وإهمالهم للأدلة الدالة على أنه حق منزل من عند الله ﴿ بل لما يذوقوا عذاب ﴾ أي بل السبب أنهم لم يذوقوا عذابي فاعتروا بطول المهلة . ولو ذاقوا عذابي على ما هم عليه من الشرك والشك لصدقوا ما جئت به من القرآن ، ولم يشكوا فيه ، وذوقهم له متوقع فإذا ذاقوه زال عنهم الشك ، وصدقوا ، وتصديقهم لا ينفعهم حينئذ لأنهم صدقوا مضطرين فقلوه : بل لما يذوقوا إضراب عن الإضراب الأول خلاف ما يفهم من

الكشاف من تعلقه بالكلامين قبله .

﴿ أم ﴾ أي بل أ ﴿ عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب ؟ ﴾ أي مفاتيح نعم ربك وهي النبوة وما هو دونها من النعم ، حتى يعطوها من شاءوا فما لهم ولإنكار ما تفضل الله به على هذا النبي واختاره له واصطفاه لرسالته والمعنى أن النبوة عطية من الله يتفضل بها على من يشاء من عباده لا مانع له فإنه العزيز الغالب القاهر الذي لا يغلب الوهاب المعطي بغير حساب ، الذي له أن يهب كل ما يشاء لمن يشاء ثم رشح ذلك فقال :

﴿ أم لهم ملك السموات والأرض وما بينهما ﴾ أي : بل ألهم ملك هذه الأشياء حتى يعطوا من شاءوا ويمنعوا من شاءوا ويعترضوا على إعطاء الله سبحانه ما شاء لمن شاءوا المعنى أنه ليس لهم مدخل في أمر هذا العالم الجسماني الذي هو جزء يسير من خزائنه ، فمن أين لهم أن يتصرفوا فيها .

وقوله ﴿ فليرتقوا في الأسباب ﴾ جواب شرط محذوف أي إن كان لهم ذلك فليصعدوا في الأسباب أي المعارج والمناهج ، والطرق التي توصلهم إلى السماء أو إلى العرش حتى يستووا عليه ويحكموا بما يريدون من عطاء ومنع ويدبروا أمر العالم بما يشتهون أو فليصعدوا وليمنعوا الملائكة من نزولهم بالوحي على محمد صلى الله عليه وسلم .

والأسباب أبواب السموات التي تنزل الملائكة منها ، قاله مجاهد وقتادة ، قال الربيع بن أنس : الأسباب أدق من الشعر وأشد من الحديد ولكن لا ترى ، وقال السدي في الأسباب في الفضل والدين ، وقيل : فليعملوا في أسباب القوة إن ظنوا أنها مانعة ، وهو قول أبي عبيدة وقيل : الأسباب الحبال أي إن وجدوا حبالا يصعدون فيها إلى السماء فعلوا والأسباب عند أهل اللغة كل شيء يتوصل به إلى المطلوب كائناً ما كان وفي هذا الكلام تهكم بهم وتعجيز لهم ، قال ابن عباس الأسباب السماء أي لأنها أسباب الحوادث السفلية

جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو
الْأَوْنَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِنَّ كُلَّ إِلَّا كَذَبَ
الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنْظُرُهُمْ هَؤُلَاءِ إِلَّا الصَّيْحَةُ وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا
رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾

﴿ جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب ﴾ هذا وعد من الله سبحانه لنبيه صلى الله عليه وسلم بالنصر عليهم ، والظفر ، و﴿ جند ﴾ مرتفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أي هم جند حقير ، يعني الكفار مهزوم مكسور عما قريب ، فلا تبال بهم ، ولا تظن أنهم يصلون إلى شيء مما يضمرونه بك من الكيد ، و(ما) في قوله : ما هنالك هي صفة لجند ، لإفادة التعظيم أو التحقير ، أي جند أي جند ، وقيل هي زائدة ، يقال : هزمت الجيش كسرته ، وهزمت القرية إذا تكسرت ، وهذا الكلام متصل بما تقدم ، وهو قوله : ﴿ بل الذين كفروا في عزة وشقاق ﴾ وهم جند من الأحزاب مهزومون فلا تحزن لعزتهم وشقاقهم ، فإني أسلب عزهم وأهزم جمعهم ، وقد وقع ذلك والله الحمد في يوم بدر ، وفيما بعده من مواطن الله ، وهو إخبار بالغيب ، وقيل : مشار به إلى نصرته الإسلام ، وقيل : إلى حفر الخندق ، يعني إلى مكان ذلك ، قال الرازي : والأصح عندي حمله على يوم فتح مكة ، لأن المعنى أنهم جند سيصيرون مهزومين في الموضع الذي ذكروا فيه هذه الكلمات ، وذلك الموضع هو مكة وما ذاك إلا في يوم الفتح .

﴿ كذبت قبلهم ﴾ استئناف مقرر لمضمون ما قبله ببيان أحوال العتاة الطغاة الذين هؤلاء جند من جنسهم بما فعلوا من الكفر والتكذيب ، وفعل بهم من العقاب والعذاب ﴿ قوم نوح ﴾ أي كذبوا رسولهم نوحاً ، وكذا يقدر

فيما بعده ، وتأنيت قوم باعتبار المعنى . وهو أنهم أمة وطائفة وجماعة .

﴿وعاد وفرعون ذو الأوتاد﴾ قال المفسرون كانت له أوتاد يعذب بها الناس وذلك أنه كان إذا غضب على أحد وتد يديه ورجليه ورأسه على الأرض ، وقيل : كانت له أوتاد وحبال يلعب بها بين يديه ، وما أبرد هذا القول ، وقيل ذو القوة والبطش ، وقيل : المراد بالأوتاد الجموع والجنود الكثيرة ، يعني أنهم كانوا يقوون أمره ويشدون سلطانه ، كما تقوى الأوتاد ما ضربت عليه فالكلام خارج مخرج الاستعارة على هذا قال ابن قتيبة ، العرب تقول : هم في عز أو في ملك ثابت الأوتاد ويريدون ملكاً دائماً شديداً ، وأصل هذا أن البيت من بيوت الشعر إنما يثبت ويقوم بالأوتاد ، وقيل : المراد بالأوتاد هنا البناء المحكم ، أي وفرعون ذو الأبنية المحكمة ، قال الضحاك : والبنيان يسمى أوتاداً والأوتاد جمع وتد ، وفيه لغات أفصحها فتح الواو وكسر التاء ويقال : وتد بفتحها . وود بإدغام التاء في الدال بوزن وج ، وودت وهي لغة أهل نجد قال الأصمعي : ويقال وتد وتد مثل شغل شاغل .

﴿وتمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة﴾ أي الغيضة ، وهي الأشجار الملتفة المجتمعة ، وقد تقدم تفسيرها في سورة الشعراء ومعنى : ﴿أولئك الأحزاب﴾ أنهم الموصوفون بالقوة والكثرة كقولهم فلان هو الرجل ، وقريش - وإن كانوا حزباً كما قال الله تعالى فيما تقدم : ﴿جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب﴾ ولكن هؤلاء الذين قصهم الله علينا من الأمم السالفة هم أكثر منهم عدداً ، وأقوى أبداناً ، وأوسع أموالاً وأعماراً . وقيل ، إن المعنى أن مشركي قريش من أولئك الأحزاب ، وهم هم ، ومنهم وجد التكذيب ، وهذه الجملة مستأنفة أو خبر ، والمبتدأ قوله . وعاد كذا قال أبو البقاء وهو ضعيف ، بل الظاهر أن (عاد) وما بعده معطوفات على قوم نوح ، والأولى أن تكون هذه الجملة خبراً لمبتدأ محذوف أو بدلاً من الأمم المذكورة .

﴿إن كل﴾ أي ما كل حزب من هذه الأحزاب ﴿إلا كذب الرسل﴾

لأن تكذيب الحزب لرسوله المرسل إليه تكذيب لجميع الرسل لأن دعوتهم واحدة ، وهي التوحيد ، أو هو من مقابلة الجمع بالجمع ، والمراد تكذيب كل حزب لرسوله ، والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال ، أي ما كان أحد من الأحزاب في جميع أحواله إلا وقع منه تكذيب الرسل ، وفي تكرير التكذيب وإيضاحه بعد إبهامه ، والتنويع في تكريره بالجملة الخبرية ، أولاً ، وبلاستثنائية ثانياً ، وما في الاستثنائية من الوضع على وجه التوكيد ، أنواع من المبالغة المسجلة عليهم باستحقاق أشد العقاب وأبلغه ؛ ثم قال :

﴿ فحق عقاب ﴾ أي فحق عليهم عقابي بتكذيبهم . ومعنى حق ثبت ووجب وإن تأخر فكأنه واقع بهم . وكل ما هو آت قريب . وقرئ عقاب بإثبات الياء وحذفها مطابقة لرؤوس الآي . وفي الآية زجر وتخويف للسامعين .
﴿ وما ينظر ﴾ أي ما ينتظر ﴿ هؤلاء ﴾ أي كفار مكة ﴿ إلا صيحة واحدة ﴾ وهي النفخة الكائنة عند قيام الساعة^(١) . وقيل : هي النفخة الثانية . وعلى الأول المراد من عاصر نبينا صلى الله عليه وسلم من الكفار . وعلى الثاني المراد كفار الأمم المذكورة أي ليس بينهم وبين ما أعد الله لهم من عذاب النار إلا أن ينفخ في الصور النفخة الثانية . وقيل : المراد بالصيحة عذاب يفجأهم في الدنيا وجملة :

﴿ ما لها من فوق ﴾ في محل نصب صفة لصيحة ، قال الزجاج . فوق بفتح الفاء وضمها لغتان بمعنى واحد^(٢) ، وهو الزمان الذي بين حلبي الحالب ، ورضعتي الراضع ، وهو مشتق من الرجوع أيضاً ، لأنه يعود اللبن إلى الضرع بين الحلبتين ، ويقال . أفاق من مرضه أي رجع إلى الصحة ، ولهذا قال مجاهد ومقاتل . إن الفواق الرجوع ، وقال قتادة : ما لها من مثوية

(١) قال ابن كثير : وهذه الصيحة هي نفخة الفزع التي يأمر الله تعالى اسرافيل أن يطولها فلا يبقى أحد .

(٢) عن أنس بن مالك قال رسول الله عليه وسلم : العيادة فوق الناقة «رواه السيوطي في الجامع الصغير» .

وقال السدي : ما لها من إفاقة ، وقيل : ما لها من مرد قال الجوهري : ما لها من نظرة وراحة وإفاقة.

وقال ابن عباس : ما لها من رجعة . والفيقة اسم اللبن الذي يجتمع بين الحلبتين وجمعها فيق وفواق وأما أفأويق فجمع الجمع قال الفراء والسدوسي وأبو عبيدة وابن زيد والسدي الفواق بفتح الفاء الراحة والافاقة أي لا يفيقون فيها كما يفيق المريض والمغشى عليه . وبالضم الانتظار ، ومعنى الآية أن تلك الصيحة هي ميعاد عذابهم . فإذا جاءت لم ترجع ولا ترد عنهم ، ولا تصرف منهم ، ولا تتوقف مقدار فواق ناقة ، وهي ما بين حلبتي الحالب لها ، وهذا في المعنى كقوله تعالى ﴿ فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ .

﴿ و ﴾ لما سمعوا ما توعدهم الله به من العذاب ﴿ قالوا ﴾ استهزاء وسخرية ﴿ ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب ﴾ والقط في اللغة النصيب من القط ، وهو القطع ؛ وبهذا قال قتادة وسعيد بن جبیر ، قال الفراء : القط في كلام العرب الحظ والنصيب ، ومنه قيل للصك قط . قال أبو عبيدة والكسائي . القط الكتاب بالجوائز ، والجمع القطوط ، وأصله من قط الشيء أي قطعه ، ومنه قط القلم ومعنى الآية سؤالهم لربهم أن يعجل لهم نصيبهم وحظهم من العذاب ، وهو مثل قوله ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ﴾ وقال السدي : سألوا ربهم أن يمثل لهم منازلهم من الجنة ليعلموا حقيقة ما يوعدون به .

وقال اسمعيل بن أبي خالد : المعنى عجل لنا أرزاقنا ، وبه قال سعيد بن جبیر والسدي . وقال أبو العالية والكلبي ومقاتل لما نزل قوله : ﴿ وأما من أوتي كتابه بشماله ﴾ قالت قریش : زعمت يا محمد أنا نؤتي كتابنا بشمالنا فعجل لنا قطنا يوم الحساب ، قال ابن عباس : سألوا الله أن يجعل لهم ، وقال : قطنا نصيبنا من الجنة ، ثم أمر الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم أن يصبر على ما يسمعه من أقوالهم فقال :

أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ
يُسَبِّحُنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ
وَأَيَّنَّا لَهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ ﴿٢٠﴾

﴿ اصبر على ما يقولون ﴾ من أقوالهم الباطلة التي هذا القول المحكي عنهم من جهلتها ، وصن نفسك أن تزل فيما كلفت من مصابرتهم ، وتحمل أذاهم ، قيل : وهذه الآية منسوخة بآية السيف ، وقيل محكمة وهو الصحيح . ولما فرغ من ذكر قرون الضلالة وأمم الكفر والتكذيب وأمر نبيه صلى الله عليه وسلم بالصبر على ما يسمعه ، زاد في تسليته وتأسيته بذكر قصة داود وما بعدها فقال :

﴿ واذكر عبدنا داود الأيد ﴾ أي أذكر قصته فإنك تجد فيها ما تتسلى به ، والأيد : القوة ، قاله ابن عباس ، ومنه رجل أيد أي قوي ، وتأيد الشيء تقوى ، والأيد مفرد بوزن البيع ، وهو مصدر ، وليس جمع يد ، يقال : آد الرجل يثيد أيداً وإياداً بالكسر إذا قوي واشتد ، فهو أيد مثل سيد وهين ، ومنه قولهم : أيدك الله تأييداً والمراد ما كان فيه عليه السلام من القوة على العبادة ، قال الزجاج وكانت قوة داود على العبادة أتم قوة .

ومن قوته ما أخبرنا به نبينا صلى الله عليه وسلم « أنه كان يصوم يوماً ويفطر يوماً ، وكان يصلي نصف الليل ، وكان لا يفر إذا لاقى العدو »^(١) .

(١) روى بمعناه البخاري ١٤/٣ ومسلم ٨١٦/٢ باختلاف يسير في ألفاظه وأبو داود والنسائي وابن ماجه وغيرهم .

وجملة ﴿ إنه أبواب ﴾ تعليل لكونه ذا الأيد ، والأواب الرجاء عن كل ما يكرهه الله سبحانه إلى ما يحبه ، ولا يستطيع ذلك إلا من كان قوياً في دينه وقيل : معناه كلما ذكر ذنبه استغفر منه وتاب عنه ، وهذا داخل تحت المعنى الأول ، يقال آب يؤوب إذا رجع . وقال ابن عباس الأواب المسيح بلغة الحبشة .

وأخرج الديلمي عن مجاهد قال : سألت ابن عمر عن الأواب فقال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه فقال « هو الذي يذكر ذنوبه في الخلا فيستغفر الله » وعن ابن عباس قال الأواب الموقن .

﴿ إنا سخرنا الجبال معه ﴾ استئناف مسوق لتعليل قوته في الدين ، وكونه رجاءً إلى مرضاته تعالى ، وإيثار مع على اللام لما أشير إليه في سورة الأنبياء من أن تسخير الجبال لم يكن بطريق التصرف الكلي فيها إليه كتسخير الريح وغيرها لسليمان بل بطريق التبعية له والافتداء به ، قيل كان تسخيرها أنها تسير معه إذا أراد سيرها إلى حيث يريد .

﴿ يسبحن ﴾ ولم يقل مسبحات ليدل على حدوث التسبيح من الجبال شيئاً فشيئاً ، وحالاً بعد حال ، أي يقدس الله سبحانه وينزهه ، عما لا يليق به . ويسبحن في محل نصب على الحال ، وفي هذا بيان ما أعطاه الله من البرهان والمعجزة ، وهو تسبيح الجبال معه ، قال مقاتل كان داود إذا ذكر الله ذكرت الجبال معه ، وكان يفقه تسبيح الجبال ، وقال محمد بن إسحق أوتي داود من حسن الصوت ما يكون له في الجبال دوي حسن ، فهذا معنى تسبيح الجبال ، والأول أولى ، ومعنى يسبحن يصلين ، ومعه متعلق بسخرنا .

﴿ بالعشي ﴾ أي وقت صلاة العشاء ﴿ والاشراق ﴾ أي وقت صلاة الضحى وهو أن تشرق الشمس ويتناهى ضوءها ، والمعنى كان داود يسبح إثر صلاته عند طلوع الشمس وغروبها ، وقال الكلبي أي غدوة وعشية ، يقال أشرقت الشمس إذا أضاءت ، وذلك وقت الضحى ، وأما شروقها فطلوعها ،

قال الزجاج شرقت الشمس إذا طلعت ، وأشرقت إذا أضاءت .

عن عطاء الخراساني عن ابن عباس قال لم يزل في نفسي من صلاة الضحى حتى قرأت هذه الآية وعنه قال لقد اتى عليّ زمان وما أدري وجه هذه الآية حتى رأيت الناس يصلون الضحى ، أخرجه ابن المنذر وابن مردويه .

وأخرج الطبراني في الأوسط وابن مردويه عنه قال كنت أمر بهذه الآية فما أدري ما هي ، حتى حدثني أم هانئ بنت أبي طالب « أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل عليها يوم الفتح فدعا بوضوء فتوضأ ثم صلى الضحى ، ثم قال يا أم هانئ هذه صلاة الإشراق »^(١) . والأحاديث في صلاة الضحى كثيرة جداً ، قد ذكرها الشوكاني في شرحه للمنتقى .

﴿ والاطر محشورة ﴾ أي وسخرنا له الطير حال كونها محشورة أي مجموعة إليه من كل ناحية ، تسبح الله معه ، قيل كانت تجمعها إليه الملائكة ، وقيل كانت تجمعها الريح ﴿ كل له أبواب ﴾ أي كل واحد من داود والجال والاطر رجاء إلى طاعة الله وأمره والضمير في له راجع إلى الله عز وجل ، وقيل إلى داود أي لأجل تسبيح داود مسبح ، فوضع أبواب موضع مسبح ، والأول أولى ، وقد قدمنا أن الأبواب الكثير الرجوع إلى الله سبحانه .

﴿ وشددنا ملكه ﴾ أي قويناه وثبتناه بالنصر في المواطن على أعدائه ، وإلقاء الرعب منه في قلوبهم ؛ وقيل بكثرة الجنود ، كان يبني حول محرابه كل ليلة ستة أو ثلاثة وثلاثون ألف رجل يحرسونه ، وكان أشد ملوك الأرض سلطاناً .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس « قال استعدى رجل من بني إسرائيل عند داود على رجل من عظمائهم فقال إن هذا غصبي بقرأ لي ، فسأل داود الرجل عن ذلك ، فجحده ، فسأل الآخر البينة فلم تكن له بينة فقال لهما

(١) راجع ما ذكرناه في سورة النور آية ٣٦ .

داود قوما حتى أنظر في أمركما ، فقاما من عنده ؛ فأقى داود في منامه ف قيل له
 اقتل الرجل الذي استعدى ، فقال إن هذه رؤيا ولست أعجل حتى أثبت :
 فأقى الليلة الثانية في منامه فأمر أن يقتل الرجل فلم يفعل ثم أتى الليلة
 الثالثة ؛ ف قيل له اقتل الرجل أو تأتيك العقوبة من الله فأرسل داود إلى الرجل
 فقال إن الله أمرني أن أقتلك قال تقتلني بغير بينة ولا تثبت قال نعم والله
 لأنفذ أمر الله فيك فقال الرجل لا تعجل عليّ حتى أخبرك أني والله ما أخذت
 بهذا الذنب ولكني كنت اغتلت والد هذا فقتلته فبذلك أخذت ؛ فأمر به داود
 فقتل ، فاشتدت هيئته في بني إسرائيل وشدد به ملكه فهو قول الله وشددنا
 ملكه .

﴿ وآتيناه الحكمة ﴾ المراد بها النبوة والمعرفة بكل ما يحكم به ، وقال
 مقاتل : الفهم والعلم ، وقيل الزبور وعلم الشرائع ، وقيل الإصابة في الأمور
 وقيل كل كلام وافق الحق فهو الحكمة ، وقال مجاهد : العدل وقال أبو العالية
 العلم بكتاب الله ، وقال شريح : السنة ، ولا مانع من حمل الآية على الكل .

﴿ وفصل الخطاب ﴾ المراد به الفصل في القضاء ، وبه قال الحسن
 والكلبي ومقاتل وحكى الواحدي عن الأكثر أن فصل الخطاب الشهود والأيمان
 لأنها إنما تنقطع الخصومة بهذه وبه قال أبي ابن كعب ، وقال علي ابن أبي
 طالب رضي الله تعالى عنه البينة على المدعي واليمين على من أنكر . وقيل :
 الفصل بين الحق والباطل ، وقاله شريح والشعبي وقتادة أيضاً ، وقيل : هو
 الإيجاز يجعل المعنى الكثير في اللفظ القليل ، وقيل : بيان الكلام ، وقيل علم
 الحكم والتبصر بالقضاء والمعاني متقاربة .

وعن أبي موسى الأشعري قال : « أول من قال : أما بعد ، داود عليه
 السلام ، وهو فصل الخطاب » ، أخرجه ابن أبي حاتم والديلمي ، وعن
 الشعبي أنه سمع زياد بن أبيه يقول : فصل الخطاب الذي أوتيته داود : أما
 بعد أخرجه سعيد بن منصور ، ولما مدحه الله سبحانه بما تقدم ذكره أردف
 ذلك بذكر هذه القصة الواقعة له ، لما فيها من الأخبار العجيبة وقال :

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴾ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَأَحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴾ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجَّةً وَلِي نَجَّةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴾ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجَّتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنْ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ ﴿٢٤﴾

﴿ وهل أتاك نبأ الخصم ﴾ ومعنى الاستفهام هنا التعجب ، والتشويق إلى استماع ما بعده لكونه أمراً غريباً ، كما تقول لمخاطبك هل تعلم ما وقع اليوم ؟ ثم تذكر له ما وقع قال مقاتل : بعث الله إلى داود ملكين جبريل وميكائيل لينبئه على التوبة فأتياه وهو في محرابه قال النحاس : ولا خلاف بين أهل التفسير أن المراد بالخصم هنا الملكان ، والخصم مصدر يقع على الواحد والاثنين والجماعة ، ومعنى قوله :

﴿ إذ تسوروا المحراب ﴾ أتوه من أعلى سوره ، ونزلوا إليه ، والسور الحائط المرتفع ، وجاء بلفظ الجمع في تسوروا مع كونها اثنين نظراً إلى ما يحتمله لفظ الخصم من الجمع ، والمحراب الغرفة لأنهم تسوروا عليه وهو فيها ، كذا قال يحيى بن سلام .

وقال أبو عبيدة : إنه صدر المجلس ، ومنه محراب المسجد ، وقيل : إنها كان إنسيين ولم يكونا ملكين ، والعامل في إذ النبأ أي هل أتاك الخبر الواقع في وقت تسورهم ؟ وبهذا قال ابن عطية ومكي وأبو البقاء ، وقيل :

العامل فيه . أتاك ، وقيل : معمول للخصم ، وقيل : معمول لمحذوف ، أي وهل أتاك نبأ تحاكم الخصم .

عن ابن عباس أن داود حدث نفسه إذا ابتلى أنه يعتصم ، فقليل له . إنك ستبتلى وستعلم الذي تبتلى فيه فخذ حذرك ، فقليل له . هذا اليوم الذي تبتلى فيه فأخذ الزبور ودخل المحراب ، وأغلق باب المحراب ، وأخذ الزبور في حجره وأقعد منصفاً يعني خادماً على الباب ، وقال : لا تأذن لأحد عليّ اليوم فبينما هو يقرأ الزبور إذ جاء طائر مذهب كأحسن ما يكون للطير فيه من كل لون فجعل يدور بين يديه فدنا منه فأمكن أن يأخذه فتناوله بيده ليأخذه فاستوفز من خلفه فأطبق الزبور ، وقام إليه ليأخذه فطار فوق على كوة المحراب ، فدنا منه ليأخذه فأفضى فوق على خص فأسرف عليه لينظر أين وقع ؟ فإذا هو بامرأة عند بركتها تغتسل من الحيض ، فلما رأت ظله حركت رأسها فغطت جسدها أجمع بشعرها وكان زوجها غازياً في سبيل الله فكتب داود إلى رأس الغزاة انظر أوريا فاجعله في حملة التابوت ، وكان حملة التابوت ، إما أن يفتح عليهم ، وإما أن يقتلوا ، فقدمه في حملة التابوت فقتل ، فلما انقضت عدتها خطبها داود ، فاشترطت عليه إن ولدت غلاماً أن يكون الخليفة من بعده ، وأشهدت عليه خمسين من بني إسرائيل ، وكتبت عليه بذلك كتاباً فما شعر بفتنته أنه افتتن حتى ولدت سليمان ، وشب فتسور عليه الملكان المحراب وكان شأنهما ما قص الله في كتابه ، وخر داود ساجداً فغفر الله له ، وتاب عليه . أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف وابن أبي حاتم^(١) .

وأخرج الحاكم وصححه والبيهقي في الشعب قال ، ما أصاب داود ما

(١) رواه الطبري من رواية الصوفي عن ابن عباس ١٤٦/٢٣ والصوفي ضعيف ورواه عن السدي ١٤٧/٢٣

وقال ابن كثير : ولم يثبت عن المعصوم فيها حديث يجب اتباعه وأكثرها مأخوذ من الاسرائيليات . وقال عياض في الشفا : فلا يجب ان يلتفت إلى ما سطره الاخباريون عن أهل الكتاب الذين بدلوا وغيروا . والله أعلم .

أصابه بعد القدر إلا من عجب بنفسه وذلك أنه قال ، يا رب ما من ساعة من ليل ولا نهار إلا وعابد من آل داود يعبدك يصلي لك أو يسبح أو يكبر ، وذكر أشياء فكره الله ذلك فقال ، يا داود إن ذلك لم يكن إلا بي فلولا عوني ما قويت عليه ، وعزتي وجلالي لأكلنك إلى نفسك يوماً ، قال يا رب فأخبرني به فأخبر به فأصابته الفتنة ذلك اليوم .

وأخرج أصل القصة الحكيم الترمذي في نوادر الأصول وابن جرير وابن أبي حاتم عن أنس مرفوعاً بإسناد ضعيف .

وأخرجها ابن جرير من وجه آخر عن ابن عباس مطولة وأخرجها جماعة عن جماعة من التابعين .

قال صاحب الكشف بعد ذكر هذه القصة هذا ونحوه مما يقبح أن يحدث به عن بعض المتسمين بالصلاح من أفناء المسلمين فضلاً عن بعض أعلام الأنبياء اهـ . . .

وقال القاضي عياض ، لا يجوز أن يلتفت إلى ما سطره الأخباريون من أهل الكتاب الذين بدلوا وغيروا نقله بعض المفسرين ، ولم ينص الله على شيء من ذلك ، ولا ورد في حديث صحيح ، والذي نص عليه الله في قصة داود ﴿ وظن داود أنما فتناه ﴾ وليس في قصة داود وأوريا خبر ثابت وهذا هو الذي ينبغي أن يعول عليه من أمر داود .

قال الرازي : حاصل القصة يرجع إلى السعي في قتل رجل مسلم بغير حق ، وإلى الطمع في زوجته وكلاهما منكر عظيم ، فلا يليق بعاقل أن يظن بداود عليه السلام هذا ، وقال غيره : إن الله أثنى على داود قبل هذه القصة وبعدها وذلك يدل على استحالة ما نقلوه من القصة فكيف يتوهم عاقل أن يقع بين مدحين ذم ولو جرى ذلك من بعض الناس لاستهجنه العقلاء ، ولقالوا أنت في مدح شخص كيف تجري ذمه أثناء مدحك والله تعالى منزّه عن مثل هذا في كتابه القديم .

وروى سعيد بن المسيب والحارث الأعور عن علي بن أبي طالب أنه قال من حدثكم بحديث داود على ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين جلدة وهو حد الفرية على الأنبياء وروى أنه حَدَّثَ بذلك عمر بن عبد العزيز وعنده رجل من أهل الحق فكذب المحدث به ، وقال إن كانت القصة على ما في كتاب الله فما ينبغي أن يلتبس خلافها ، وأعظم بأن يقال غير ذلك وإن كان على ما ذكرت وكف الله عنها سترًا على نبيه فما ينبغي إظهارها عليه فقال عمر سماعي هذا الكلام أحب إلي مما طلعت عليه الشمس .

قال النسفي : والذي يدل عليه المثل الذي ضربه الله بقصته عليه السلام ليس إلا طلبه إلى زوج المرأة أن ينزل له عنها فحسب ، وإنما جاءت على طريق التمثيل والتعريض دون التصريح ، لكونها أبلغ في التوبيخ من قبل ان التأمل إذا أداه إلى الشعور بالمعرض به كان أوقع في نفسه وأشد تمكناً من قلبه ، وأعظم أثراً فيه ، مع مراعاة حسن الادب بترك المجاهرة انتهى قال أبو السعود : وأما ما يذكر من أنه عليه السلام تزوج امرأة أوريا فهو إفك مبتدع مكروه ، ومكر مخترع تمجه الأسماع ، وتنفر عنه الطباع ، ويل لمن ابتدعه وأشاعه ، وتباً لمن اخترعه وأذاعه ، وسيأتي الكلام على ذنب داود عليه السلام في آخر هذه القصة .

﴿ إذ ﴾ بدل من الأولى ، وقيل هو معمول لتسوروا ، وقال الفراء إن أحد الطرفين المذكورين بمعنى لما ﴿ دخلوا على داود ففرع منهم ﴾ لأنها أتياه ليلاً في غير وقت دخول الخصوم ، ودخلوا عليه بغير إذنه ، ولم يدخلوا من الباب الذي يدخل منه الناس ، قال ابن الأعرابي : وكان محراب داود من الامتناع بالإرتفاع بحيث لا يرتقي إليه آدمي بحيلة .

﴿ قالوا لا تخف ﴾ جملة مستأنفة كأنه قيل : فماذا قالوا لداود لما فرع منهم ﴿ خصمان ﴾ أي نحن خصمان وجاء فيما سبق بلفظ الجمع ، وهنا

بلفظ التثنية لما ذكرنا من أن لفظ الخصم يحتمل المفرد والمثنى والمجموع ، فالكل جائز قال الخليل : هو كما تقول : نحن فعلنا كذا إذا كنتما اثنين : وقال الكسائي جمع لما كان خبراً فلما انقضى الخبر وجاءت المخاطبة أخبر الإثنين عن أنفسهما فقالا : خصمان وقوله .

﴿ بغى بعضنا على بعض ﴾ هو على سبيل الفرض والتقدير أو على سبيل التعريض ، لأن من المعلوم أن الملكين لا يبغيان ؛ ثم طلبا منه أن يحكم بينهما بالحق ونهياه عن الجور فقالا : ﴿ فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط ﴾ أي لا تجر في حكمك يقال : شط الرجل وأشط شططاً وإشطاطاً إذا جار في حكمه وتجاوز الحد قال أبو عبيدة شططت عليه وأشططت فيه أي جرت فهو مما اتفق فيه فعل وأفعل وقال الأخفش معناه لا تسرف وقيل لا تفرط وقيل لا تمل والمعنى متقارب والأصل فيه البعد من شطت الدار إذا بعدت قال أبو عمر : والشطط مجاوزة القدر في كل شيء .

﴿ وآهدنا إلى سواء الصراط ﴾ أي وسطه ومحجته أي العدل والصواب ، والمعنى أرشدنا إلى الحق وأحملنا عليه ثم لما أخبراه عن الخصومة إجمالاً شرعاً في تفصيلها وشرحها فقال : ﴿ إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ﴾ المراد بالأخوة هنا أخوة الدين ، قاله ابن مسعود ، أو الصحبة أو الالفة أو أخوة الشركة والخلطة ، والنعجة هي الأنثى من الضأن ، وقد يقال لبقر الوحش : نعجة ويعبر بها عن المرأة لما هي عليه من السكون والعجز وضعف الجانب وقد يكتنى عنها بالبقرة والحجر والناقة لأن الكل مركوب قال الواحدي النعجة البقرة الوحشية والعرب تكتني عن المرأة بها وتشبه النساء بالنعاج من البقر ، قرأ الجمهور تسع وتسعون بكسر التاء ، وقرئ بفتحها ، قال النحاس وهي لغة شاذة ، وإنما عنى بهذا داود لأنه كان له تسع وتسعون امرأة وعنى بقوله :

﴿ ولي نعجة واحدة ﴾ أوريا زوج المرأة التي أراد أن يتزوجها داود^(١) كما تقدم بيان ذلك ﴿ فقال أكفلنيها ﴾ أي ضمها إليّ وانزل لي عنها حتى أكفلها

(١) راجع تعليقات المطيعي رقم ١ في الاستدراك آخر الكتاب .

وأصير بعلاً لها قال ابن كيسان اجعلها كفلي ونصيبني قال ابن مسعود ما زاد داود على أن قال اكفلنيها وعن ابن عباس قال ما زاد داود على أن قال تحول لي عنها وهذا يخالف ما سبق عنه^(١) .

﴿وعزني في الخطاب﴾ أي غلبني يقال عزه يعزه عزاً إذا غلبه ، وفي المثل من عزبز أي من غلب أخذ السلب ، والإسم العزة ، وهي القوة قال عطاء المعنى إن تكلم كان أفصح مني ، وإن حارب كان أبطش مني لقوة ملكه فالغلبة كانت له عليّ لضعفي في يده ، وإن كان الحق معي ، وهذا كله تمثيل ، وقرئ وعازني أي غالبني من المعازة وهي المغالبة .

﴿قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه﴾ أي بسؤاله نعجتك ليضمها إلى نعاجه التسع والتسعين إن كان الأمر على ما تقول واللام هي الموطئة للقسم ، وهي وما بعدها جواب القسم المقدر ، وجاء بالقسم في كلامه مبالغة في إنكار ما سمعه من طلب صاحب التسع والتسعين النعجة أن يضم إليه النعجة الواحدة التي مع صاحبه ولم يكن معه غيرها ويمكن أنه إنما قال بهذا بعد أن سمع الإعراف من الآخر قال النحاس ويقال إن خطيئة داود هي قوله لقد ظلمك لأنه قال ذلك قبل أن يتثبت .

﴿وإن كثيراً من الخلطاء﴾ وهم الشركاء واحدهم خليط ، وهو المخالط في المال ﴿ليبغي﴾ اللام لام التوكيد وقعت في خبر إن أي يتعدى ﴿بعضهم على بعض﴾ ويظلمه غير مراعاة لحقه ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ فإنهم يتحامون ذلك ، ولا يظلمون خليطاً ولا غيره والإستثناء متصل ﴿وقليل ما هم﴾ أي وقليل هم ، وما زائدة لتوكيد القلة والتعجيب وقليل هي موصولة وهم مبتدأ وقليل خبره ، عن ابن عباس قال يقول قليل الذي هم فيه .

(١) قال المفسر (ص ١٦٠) «ولي نعجة واحدة» أوربا . الخ . وجاء التعليق هكذا : كان على المصنف ان لا يقحم قصة اوريا الاسرائيلية في مفهوم الآيات ، لا سيما وقد سبق له انه نقل ان الصحابة رفضوا هذه القصة .

﴿وظن داود انما فتناه﴾ قال أبو عمرو والفراء : ظن بمعنى أيقن ، ومعنى فتناه إبتليناه ، وقال ابن عباس . اختبرناه ، والمعنى أنه عند أن تخصها إليه ، وقال ما قال ، علم عند ذلك أنه المراد وأن مقصودهما التعريض به وبصاحبه الذي أراد أن ينزل له عن امرأته ، قال الواحدي قال المفسرون ، فلما قضى بينهما داود نظر أحدهما إلى صاحبه فضحك فعند ذلك علم داود بما أراده قرأ الجمهور فتناه بالتخفيف للتاء وتشديد النون وقرئ بالتشديد للتاء والنون وهي مبالغة في الفتنة ، وقرأ الضحاك أفتناه ، وقرئ فتناه بتخفيفها وإسناد الفعل إلى الملكين .

﴿فاستغفر ربه﴾ لذنبه ﴿وخر راکعاً﴾ أي ساجداً ، وعبر بالركوع عن السجود لأن كل واحد منهما فيه انحناء ، وقيل : خر ساجداً بعد ما كان راکعاً ، قال ابن العربي لا خلاف بين العلماء أن المراد بالركوع هنا السجود فإن السجود هو الميل والركوع هو الانحناء وأحدهما يدخل في الآخر ولكنه قد يختص كل واحد منهما بهيئته ثم جاء هذا على تسمية أحدهما بالآخر وقيل المعنى للسجود راکعاً أي مصلياً وقيل : بل كان ركوعهم سجوداً ، وقيل : بل كان سجودهم ركوعاً .

﴿وأناب﴾ أي رجع إلى الله بالتوبة من ذنبه ، قال المفسرون : سجد داود أربعين يوماً لا يرفع رأسه إلا لحاجة أو لوقت صلاة مكتوبة ثم يعود ساجداً إلى تمام أربعين لا يأكل ولا يشرب وهو يبكي حتى نبت العشب حول رأسه وهو ينادي ربه عز وجل ويسأله التوبة ثم أنزل الله له التوبة والمغفرة وقد اختلف المفسرون في ذنب داود الذي استغفر له وتاب عنه على أقوال .

الأول : أنه نظر إلى امرأة الرجل الذي أراد أن تكون زوجة له كذا قال سعيد بن جبير وغيره قال الزجاج ولم يتعمد داود النظر إلى المرأة لكنه عاود

النظر إليها وصارت الأولى له والثانية عليه .

الثاني : أنه أرسل زوجها في جملة الغزاة .

الثالث : أنه نوى إن مات زوجها أن يتزوجها .

الرابع : أن أوريا بن حنان كان خطب تلك المرأة فلما غاب خطبها داود فزوجت منه لجلالته ، فاغتم لذلك أوريا فعتب الله عليه حيث لم يتركها لخطبها .

الخامس : أنه لم يجزع على قتل أوريا كما كان يجزع على من هلك من الجند ، ثم تزوج امرأته فعاتبه الله على ذلك لأن ذنوب الأنبياء وإن صغرت فهي عظيمة .

السادس : أنه حكم لأحد الخصمين قبل أن يسمع من الآخر كما قدمنا ، وأقول الظاهر من الخصومة التي وقعت بين الملكين تعريضاً لداود عليه السلام أنه طلب من زوج المرأة الواحدة أن ينزل له عنها ويضمها إلى نسائه ، ولا ينافي هذا العصمة الكائنة للأنبياء فقد نبهه الله على ذلك وعرض له بإرسال ملائكته إليه ليتخاصموا في مثل قصته حتى يستغفر لذنبه ويتوب منه ، فاستغفر وتاب عنه .

وقد قال تعالى : ﴿ وعصى آدم ربه فغوى ﴾ وهو أبو البشر ، وأول الأنبياء ووقع لغيره من الأنبياء ما قصه الله علينا في كتابه ، وفي الآية ما يدل على صدور الذنب منه ، وهو قوله ﴿ وظن داود أنما فتناه ﴾ وقوله ﴿ فاستغفر ربه ﴾ وقوله ﴿ وأناب ﴾ وقوله : ﴿ فغفرنا له ذلك ﴾ والجواب عن هذا بأن حسنات الأبرار سيئات المقربين ليس كما ينبغي ، والأولى ما ذكرناه ، ثم أخبر سبحانه أنه قبل استغفاره وتوبته فقال :

فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٢٥﴾ يٰدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٧﴾

﴿ فغفرنا له ذلك ﴾ الذنب الذي استغفر منه قال عطاء الخراساني وغيره إن داود بقي ساجداً أربعين يوماً حتى نبت الرعي حول وجهه ، وغمر رأسه قال ابن الأنباري : الوقف على قوله : ذلك تام . ثم يبدأ الكلام بقوله .

﴿ وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾ والزلفى القربة والكرامة بعد المغفرة لذنبه ، قال مجاهد الزلفى الدنو من الله عز وجل يوم القيامة والمراد بحسن المآب حسن المرجع وهو الجنة .

وأخرج ابن مردويه عن عمر بن الخطاب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنه ذكر يوم القيامة فعظم شأنه وشدته قال : ويقول الرحمن عز وجل لداود عليه السلام : مر بين يدي ، فيقول داود : يا رب أخاف أن تدحضني خطيئتي ، خذ بقدمي ، فيأخذ بقدمه عز وجل فيمر قال فتلك الزلفى التي قال الله ﴿ وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾ » .

وأخرج أحمد والبخاري وأبو داود والترمذي والنسائي وابن مردويه والبيهقي في سننه عن ابن عباس أنه قال في السجود في ﴿ ص ﴾ ليست من عزائم السجود وقد « رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يسجد فيها » وأخرج النسائي وابن مردويه بسند جيد عنه أيضاً « أن النبي صلى الله عليه

وسلم سجد في ﴿صَ﴾ وقال : سجدها داود توبة ونسجدها شكراً^(١) .

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم سجد في ﴿صَ﴾ وعن أنس مثله مرفوعاً ، أخرجه ابن مردويه وأخرج الدارمي وأبو داود وابن خزيمة وابن حبان والدارقطني والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في سننه عن أبي سعيد قال «قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر ﴿صَ﴾ فلما بلغ السجدة نزل فسجد وسجد الناس معه ؛ فلما كان يوم آخر قرأها فلما بلغ السجدة تهبأ الناس للسجود فقال إنما هي توبة ولكني رأيتمكم تهبأتم للسجود فتزل فسجد» .

﴿يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض﴾ لما تم سبحانه قصة داود أردفها ببيان تفويض أمر خلافة الأرض إليه ، والجملة مقولة لقول مقدر معطوف على غفرنا أي وقلنا له : يا داود إنا استخلفناك على الأرض ، أو جعلناك خليفة لمن قبلك من الأنبياء لتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتدبر أمر الناس ، وفيه دليل على أن حاله بعد التوبة بقيت على ما كانت عليه لم تتغير قط .

﴿فاحكم بين الناس بالحق﴾ أي بالعدل الذي هو حكم الله بين عباده لأن الأحكام إذا كانت مطابقة للشريعة الحقة الإلهية انتظمت مصالح العالم واتسعت أبواب الخيرات ، وإذا كانت الأحكام على وفق الأهوية وتحصيل مقاصد الأنفس أفضى إلى تخريب العالم ووقوع الهرج فيه ؛ والمرج في الخلق وذلك يفضي إلى هلاك ذلك الحاكم .

﴿ولا تتبع الهوى﴾ أي هوى النفس في الحكم بين العباد وفيه تنبيه لداود عليه السلام أن الذي عوتب عليه ليس بعدل ، وإن فيه شائبة من اتباع هوى النفس .

﴿فيضلك عن سبيل الله﴾ بالنصب على أنه جواب النهي ، والفاعل

(١) النسائي ٣١٩/٢ السنن الكبرى .

هو الهوى ، ويجوز أن يكون الفعل مجزوماً بالعطف على النهي ، وإنما حرك لالتقاء الساكنين ، فعلى الوجه الأول يكون المنهي عنه الجمع بينهما وعلى الثاني يكون النهي عن كل واحد منهما على حدة ، وسبيل الله هو طريق الجنة أو دلائله التي نصبها على الحق تشريعاً وتكويناً .

﴿ إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد ﴾ تعليل للنهي عن اتباع الهوى ، والوقوع في الضلال ﴿ بما نسوا يوم الحساب ﴾ الباء للسببية ، ومعنى النسيان الترك ، قال الزجاج : أي بتركهم العمل لذلك اليوم صاروا بمنزلة الناسين ، وإن كانوا ينظرون ويذكرون ولو أيقنوا بيوم الحساب لآمنوا في الدنيا .

وقال عكرمة والسدي : في الآية تقديم وتأخير ، والتقدير ، ولهم عذاب يوم الحساب بما نسوا أي تركوا القضاء بالعدل والأول أولى .

﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ﴾ مستأنفة مقررة لمضمون ما قبلها من أمر البعث والحساب أي ما خلقنا هذه الأشياء خلقاً باطلاً خارجاً عن الحكمة الباهرة ، بل خلقناها للدلالة على قدرتنا . فانتصاب باطلاً على المصدرية أو على الحالية أو على أنه مفعول لأجله ، والإشارة بقوله ﴿ ذلك ﴾ إلى المنفي قبله وهو مبتدأ وخبره : ﴿ ظن الذين كفروا ﴾ أي مظنونهم فإنهم يظنون أن هذه الأشياء خلقت لا لغرض ويقولون : إنه لا قيامة ولا بعث ولا حساب ، وذلك يستلزم أن يكون خلق هذه المخلوقات باطلاً .

﴿ فويل للذين كفروا من النار ﴾ الفاء لإفادة ترتب ثبوت الويل لهم على ظنهم الباطل أي فويل لهم بسبب النار المترتبة على ظنهم وكفرهم ، كما أن وضع الموصول موضع ضميرهم للإشعار بعلية للصلة ، لاستحقاقهم الويل ، ثم وبخهم وبكتهم فقال :

أَمْ جَعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ
 كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾
 وَهَبْنَا لِدَاوُدَ دَسُلَيْمَنَ نَعَمَ الْعَبْدَ إِنَّهُ ءَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّفِيْنَتُ
 الْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾
 رُدُّوْهَا عَلَيَّ فطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾

﴿ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض ﴾
 قال مقاتل : قال كفار قريش للمؤمنين : إنا نعطي في الآخرة كما تعطون
 فنزلت وأم هي المنقطعة المقدرة ببيل ، والهمزة للإضراب الانتقالي عن تقرير أمر
 البعث والحساب والجزاء ، بما مر من نفي خلق العالم خالياً عن الحكم
 والمصالح إلى تقريره وتحقيقه بما في الهمزة من إنكار التسوية بين الفريقين ،
 ونفيها على أبلغ وجه وأكده ؛ أي بل أنجعل الذين آمنوا بالله وصدقوا رسله
 وعملوا بفرائضه كالكفرة المفسدين في أقطار الأرض بالمعاصي .

قال ابن عباس في الآية الذين آمنوا عليّ وحمزة وعبيدة بن الحارث
 والمفسدون في الأرض عتبة وشيبة والوليد ثم أضرب سبحانه إضراباً آخر
 وانتقل عن الأول إلى ما هو أظهر استحالة منه فقال :

﴿ أم نجعل المتقين كالفجار ﴾ أي بل أنجعل أتقياء المؤمنين كأشقياء
 الكافرين والمنافقين ؟ وحمل الفجار على المنهمكين في معاصي الله سبحانه من
 المسلمين ، مما لا يساعده المقام ، وقيل المراد بالمتقين الصحابة ولا وجه
 للتخصيص بغير مخصص والإعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، ويجوز
 أن يراد بهذين الفريقين عين الأولين ويكون التكرير باعتبار وصفين آخرين هما
 أدخل في إنكار التسوية من الوصفين الأولين .

﴿ كتاب ﴾ أي القرآن كتاب ﴿ أنزلناه إليك ﴾ يا محمد ﴿ مبارك ﴾ أي

كثير الخير والبركة ﴿لِيدَبَرُوا آيَاتِهِ﴾ أي التي من جملتها هذه الآيات المعربة عن أسرار التكوين والتشريع ، وهو متعلق بأنزلناه ؛ وفي الآية دليل على أن الله سبحانه إنما أنزل القرآن للتدبر والتفكر في معانيه لا لمجرد التلاوة بدون تدبر ، قال الحسن قد قرأ هذا القرآن عبيد وصبيان لا علم لهم بتأويله حفظوا حروفه وضعوا حدوده ، قرأ الجمهور ليدبروا بالادغام ، وقرئ لتدبروا بالتاء الفوقية على الخطاب وهي قراءة علي رضي الله تعالى عنه والأصل لتدبروا .

﴿وليتذكر أولو الألباب﴾ أي ليتعظ أهل العقول والبصائر والألباب جمع لب وهو العقل .

﴿ووهبنا لداود سليمان﴾ أخبر سبحانه بأن من جملة نعمه على داود أنه وهب له سليمان ولداً ثم مدح سليمان فقال ﴿نعم العبد﴾ أي سليمان فالخصوص بالمدح محذوف ، وقيل : إن المدح هنا بقوله نعم العبد هو لداود ، والأول أولى وجملة ﴿إنه أواب﴾ تعليل لما قبلها من المدح والأواب الرجاء إلى الله بالتوبة ، كما تقدم بيانه .

﴿إذ عرض عليه بالعشي﴾ أي اذكر ما صدر عنه وقت أن عرض عليه ﴿الصافنات الجياد﴾ وقيل : هو متعلق بنعم ، وهو مع كونه غير متصرف لا وجه لتقييده بذلك الوقت ، قيل : متعلق بأواب ، ولا وجه لتقييده كونه أواباً بذلك الوقت ، والعشي من الظهر أو العصر إلى آخر النهار . والصافنات جمع صافن .

وقد اختلف أهل اللغة في معناه ، فقال القتيبي والفراء الصافن في كلام العرب الواقف من الخيل أو غير هاو به قال قتادة ومنه الحديث «من أحب أن يتمثل له الناس صففونا فليتبوأ مقعده من النار»^(١) ، أي يديمون القيام له وقال

(١) لم نره بهذا اللفظ ورواه الترمذي ١٠٠/٢ من حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه قال : من سره أن يتمثل به الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار « ورواه أبو داود ٥٢٢٩ . واحد ٩١/٤ باختلاف في الرواية .

الزجاج هو الذي يقف على إحدى اليدين ويرفع الأخرى ، ويجعل على الأرض طرف الحافر منها ، حتى كأنه يقوم على ثلاث وهي الرجلان وإحدى اليدين وقد يفعل ذلك بإحدى رجله ، وهي علامة الفراهة .

وقال أبو عبيدة الصافن الذي يجمع يديه ويسويهما وأما الذي يقف على سنبكه فاسمه المتخيم ، والحياد جمع جواد يقال للفرس ذكراً كان أو أنثى إذا كان شديد العدو ، وقيل : إنها الطوال الأعناق ، مأخوذ من الجيد وهو العنق وقيل الذي يجود في الركض ، قيل كانت مائة فرس . وقيل كانت عشرين ألفاً قيل كانت عشرين فرساً ، وعن إبراهيم التيمي قال كانت عشرين ألف فرس ذات أجنحة فعقرها ، وقيل إنها خرجت له من البحر وكانت لها أجنحة^(١)

وعن أبي هريرة قال الصافنات الجياد خيل خلقت على ما شاء وعن مجاهد قال صفون الفرس رفع إحدى يديه حتى يكون على أطراف الحافر والحياد السراع لأنه يجود بالركض وصفها بالصفون لأنه لا يكون في الهجان ، وإنما هو في العراب ، وقيل : وصفها بالصفون والجودة ليجمع لها بين الوصفين المحمودين ، واقفة وجارية يعني إذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة في مواقفها ، وإذا جرت كانت سراعاً خفافاً في جريها ، قيل إن سليمان غزا أهل دمشق ونصيبين فأصاب ألف فرس ، وقيل ورثها من أبيه وأصابها أبوه من العمالة .

﴿ فقال ﴾ اعترافاً بما صدر منه وندماً عليه وتمهيداً لما يعقبه من الأمر بردها وعقرها والتعقيب باعتبار آخر العرض الممتد دون ابتدائه ﴿ إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي ﴾ انتصاب حب على أنه مفعول أحببت بعد تضمينه معنى آثرت ، قال الفراء يقول آثرت حب الخير ، وكل من أحب شيئاً فقد آثره وقيل انتصابه على المصدرية بحذف الزوائد ، والناصب له أحببت ، وقيل هو مصدر تشبيهي أي حباً مثل حب الخير ، والأول أولى ، والمراد بالخير هنا

(١) قد يكون في هذا القول غرابة لأننا لم نسمع بخيل لها أجنحة إلا أنه ليس بمستبعد لأن الله وهب لسليمان ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده .

الخيل ، قاله الزجاج ، وقال الفراء الخير والخيل في كلام العرب واحد ، وأنها تعاقب بين الرء واللام فتقول انهملت العين وانهمرت وختلت وخترت ، قال النحاس وفي الحديث ، الخيل معقود بنواصيها الخير فكأنها سميت خيراً لهذا وقيل لما فيها من المنافع وعن بمعنى علي ، أي آثرت حب الخيل على ذكر ربي يعني صلاة العصر ، وبه قال علي ، وقال ابن عباس الخير المال ، وقيل أحببت بمعنى لزمت ، وقيل بمعنى قعدت من أحب البعير إذا سقط وبرك من الإعياء ، وقيل بمعنى أردت .

﴿ حتى توارت بالحجاب ﴾ يعني الشمس ولم يتقدم لها ذكر ولكن المقام يدل على ذلك ، قال الزجاج إنما يجوز الإضمار إذا جرى ذكر الشيء أو دليل الذكر ، وقد جرى هنا الدليل . وهو قوله بالعشي ، والتواري الاستتار عن الأبصار والحجاب ما يحجبها عن الأبصار ، قال قتادة وكعب الحجاب جبل أخضر محيط بالخلاتق وهو جبل قاف ، وسمي الليل حجاباً لأنه يستر ما فيه ويقال إن الحجاب جبل دون قاف بمسيرة سنة تغرب الشمس من ورائه وفيه بعد وبرودة^(١) ، وعن ابن مسعود قال توارت من وراء ياقوتة خضراء فخضرة السماء منها ، وعن ابن عباس قال كان سليمان لا يكلم إعظاماً له فلقد فاتته صلاة العصر وما استطاع أحد أن يكلمه ، وقيل الضمير للخيل أي حتى توارت في المسابقة عن الأعين ، والأول أولى .

وقوله ﴿ ردها علي ﴾ من تمام كلام سليمان أي أعيدوا عرضها علي مرة أخرى ، قال الحسن إن سليمان لما شغله عرض الخيل حتى فاتته صلاة العصر

(١) قال المفسر (ص ١٦٨) «حتى توارت بالحجاب» قال قتادة وكعب : الحجاب جبل أخضر محيط بالخلاتق ، وهو جبل قاف الخ . وكان تعليق الأستاذ طويلاً وخلاصته أنه لا يوجد في الدنيا جبل اسمه جبل قاف ، وقد حصرت جبال الدنيا الآن وعرف الإنسان جميع الجبال وأسماءها وأماكنها .

غضب الله ، وقال ردوها عليّ ، أي أعيدوها ، وقال ابن عباس ردوها أي الخيل وقيل الضمير يعود إلى الشمس ، ويكون ذلك معجزة له ، وإنما أمر بإرجاعها بعد مغيبها لأجل أن يصلي العصر ، والأول أولى .

﴿ فطفق مسحاً بالسوق والأعناق ﴾ الفاء هي الفصيحة التي تدل على محذوف في الكلام والتقدير هنا فردوها عليه قال أبو عبيدة طفق يفعل مثل ما زال يفعل ، وهو مثل ظل وبات وانتصاب مسحاً على المصدرية بفعل مقدر ، أي يمسح مسحاً لأن خبر طفق لا يكون إلا فعلاً مضارعاً ، وقيل : هو مصدر في موضع الحال والاول أولى والسوق جمع ساق والاعناق جمع عنق والمراد أنه طفق يضرب أعناقها وسوقها بالسيف ، يقال مسح علاوته أي ضرب عنقه قال الفراء المسح هنا القطع قال : والمعنى أنه أقبل يضرب سوقها وأعناقها لأنها كانت سبب فوت صلاته ، وكذا قال أبو عبيدة قال الزجاج ولم يكن يفعل ذلك إلا وقد أباحه الله له ، وجاز أن يباح ذلك لسليمان . ويحظر في هذا الوقت .

وقد اختلف المفسرون في تفسير هذه الآية فقال قوم المراد بالمسح ما تقدم وقال آخرون منهم الزهري وقتادة أن المراد به المسح على سوقها وأعناقها لكشف الغبار عنها حيالها ، والقول الأول أولى بسياق الكلام فإنه ذكر أنه آثرها على ذكر ربه حتى فاتته صلاة العصر ، ثم أمرهم بردها عليه ليعاقب نفسه بإفساد ما ألهاه عن ذلك . وما صده عن عبادة ربه ، وشغله عن القيام بما فرضه الله عليه ، ولا يناسب هذا أن يكون الغرض من ردها عليه هو كشف الغبار عن سوقها وأعناقها بالمسح عليها بيده ، أو بثوبه ، ولا متمسك لمن قال إن إفساد المال لا يصدر عن نبي فإن هذا مجرد استبعاد باعتبار ما هو المقرر في شرعنا مع جواز أن يكون في شرع سليمان أن مثل هذا مباح .

على أن إفساد المال المنهي عنه في شرعنا إنما هو مجرد إضاعته لغير غرض صحيح وأما لغرض صحيح فقد جاز مثله في شرعنا ، كما وقع منه صلى الله عليه وسلم من إكفاء القدور التي طبخت من الغنيمة قبل القسمة ، ولهذا نظائر كثيرة في الشريعة ، ومن ذلك ما وقع من الصحابة من إحراق طعام المحتكر ، قال ابن عباس مسحاً عقراً بالسيف ، أي قطع سوقها وأعناقها بالسيف .

قال الرازي : التفسير الحق المطابق لألفاظ القرآن أن تقول : إن رباط الخيل كان مندوباً إليه في دينهم كما أنه كذلك في ديننا . ثم إن سليمان احتاج إلى غزو فجلس وأمر بإحضار الخيل وأمر بإجرائها وذكر أي لا أحبها لأجل الدنيا ونصيب النفس ، وإنما أحبها لأمر الله تعالى ، وتقوية دينه ، وهو المراد بقوله عن ذكر ربي ، ثم إنه أمر بإعدادها وإجرائها حتى توارت بالحجاب ثم أمر برد الخيل إليه فلما عادت إليه طفق يمسح والغرض من ذلك المسح أمور :

الأول : تشريفها لكونها من أعظم الأعوان في دفع العدو .

الثاني : أنه أراد أن يظهر أنه في ضبط السياسة والمملكة يبلغ إلى أنه يباشر الأمور بنفسه .

الثالث : أنه أعلم بأحوال الخيل وأمراضها وعيوبها من غيره فكان يمسح حتى يعلم ما فيها مما يدل على المرض ، فهذا التفسير الذي ذكرناه ينطبق عليه لفظ القرآن ولا يلزمنا شيء من تلك المنكرات والمحظورات انتهى وما أبرد هذا التفسير من الرازي ، وأبعده عن النظم القرآني والحق ما ذكرناه فإن اللغة تشهد بضرب السوق والأعناق ، ولا وجه للعدول عنه إلى تأويل ركيك ، وتوجيه بعيد ، بناء على عصمة الأنبياء عليهم السلام .

وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَالْقَيْنَاعِلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي
 مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرٍ وَرُخَاءَ حَيْثُ
 أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾

﴿ولقد فتنا سليمان﴾ أي ابتليناه واختبرناه بسلب ملكه قال الواحدي
 قال أكثر المفسرين : تزوج سليمان امرأة من بنات الملوك فعبدت الصنم في
 داره ، ولم يعلم بذلك سليمان ، فامتحن بسبب غفلته عن ذلك وقيل : إن
 سبب الفتنة أنه تزوج سليمان امرأة يقال لها جرادة وكان يحبها حباً شديداً
 فاختصم إليه فريقان أحدهما من أهل جرادة فأحب أن يكون القضاء لهم ، ثم
 قضى بينهم بالحق .

وقيل السبب أنه احتجب عن الناس ثلاثة أيام لا يقضي بين أحد ،
 وقيل إنه تزوج جرادة هذه وهي مشركة لأنه عرض عليها الإسلام فقالت :
 اقتلني ولا أسلم .

وقال كعب الأحبار : إنه لما ظلم الخيل بالقتل سلب ملكه ، وقال
 الحسن إنه قارب بعض نسائه في شيء من حيض أو غيره .

وقيل إنه أمر أن لا يتزوج امرأة إلا من بني إسرائيل فتزوج امرأة من
 غيرهم .

وقيل إن سبب فتنته ما ثبت في الحديث الصحيح « أنه قال : لأطوفن
 الليلة على تسعين امرأة تأتي كل واحدة بفارس يقاتل في سبيل الله ، ولم يقل
 إن شاء الله » وقيل غير ذلك والمصير إلى الحديث متعين .

قال النسفي وأما ما يروى من حديث الخاتم والشيطان وعبادة الوثن في بيت سليمان فمن أباطيل اليهود انتهى ، أقول حديث الخاتم أخرجه النسائي وغيره وقواه السيوطي كما سيأتي فكونه من أباطيل اليهود ليس على ما ينبغي^(١) ثم بين سبحانه ما عاقبه به فقال :

﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّه جَسَداً﴾ قال أكثر المفسرين هذا الجسد الذي ألقاه الله على كرسي سليمان هو شيطان اسمه صخر ، وكان متمرداً عليه غير داخل في طاعته . ألقى الله شبه سليمان عليه ، وما زال يحتال حتى ظفر بخاتم سليمان وذلك عند دخول سليمان الكنيف لأنه كان يلقيه إذا دخل الكنيف فجاء صخر في صورة سليمان فأخذ الخاتم من امرأة من نساء سليمان فقعد على سرير سليمان ، وأقام أربعين يوماً على ملكه ، وسليمان هارب كان ملكه مرتباً على لبسه ، فإذا لبسه سخرت له الجن والإنس والرياح وغيرها وإذا نزعها زال عنه الملك .

قيل وكان خاتمه من الجنة نزل به آدم كما نزل بعضا موسى والحجر الأسود وبعود البخور وبأوراق التين وقد نظم الخمسة بعضهم في قوله :

وآدم معه أنزل العود والعصا لموسى من الأس النبات المكرم
وأوراق تين واليمين بمكة وختم سليمان النبي المعظم
لكن يفتقر ذلك إلى دليل يدل له من الأخبار المرفوعة الصحيحة .

وقال مجاهد إن شيطانا قال له سليمان كيف تفتنون الناس ؟ قال أرني خاتمك أخبرك ، فلما أعطاه إياه نبذه في البحر فذهب ملكه وقعد الشيطان على

(١) حاول المفسر (١٧٠) ان يصحح حديث خاتم سليمان ، وقد قال عنه النسفي انه من أباطيل اليهود ، والمفسر في محاولته احتج بتقوية السيوطي له ، فجاء التعليق هكذا : لا يبعد ان يدس اليهود بعض الأباطيل على المسلمين ليفسدوا هذا الدين الذي قوض ملكهم ، وأما تقوية السيوطي فلا وزن لها لما عرف عنه من تصحيح الضعيف . وأما ما نقله عن كعب الأخبار قبل ذلك بسطرين من ظلم سليمان فأرجو ان لا يقيم له القارئ وزناً .

كرسيه ومنعه الله نساء سليمان ، فلم يقربهن ، وكان سليمان يستطعم فيقول
أتعرفوني ؟ أطعموني ، فيكذبوه حتى أعطته امرأة يوماً حوتاً فشق بطنه فوجد
خاتمه في بطنه فرجع إليه ملكه وهو معنى قوله^(١) :

﴿ ثم أناب ﴾ أي رجع إلى ملكه بعد أربعين ، وقيل معنى أناب رجع إلى الله
بالتوبة من ذنبه ، وهذا هو الصواب ، قيل فتن سليمان بعدما ملك عشرين
سنة وملك بعد الفتنة عشرين سنة أخرج الحاكم وصححه والفرياي والحكيم
الترمذي عن ابن عباس ، قال الشيطان الذي كان على كرسيه يقضي بين
الناس أربعين يوماً ، وكان لسليمان امرأة يقال لها جرادة وكان بين بعض أهلها
وبين قوم خصومة فقضى بينهم بالحق إلا أنه ود أن الحق كان لأهلها فأوحى
الله إليه أن سيصيبك بلاء فكان لا يدري أيأتيه من السماء ؟ أم من
الأرض ؟ .

وأخرج النسائي وابن جرير وابن أبي حاتم بسند قال السيوطي قوي عن
ابن عباس « قال أراد سليمان أن يدخل الخلاء فأعطى جرادة خاتمه وكانت
جرادة امرأته ، وكانت أحب نسائه إليه فجاء الشيطان في صورة سليمان فقال
لها: هاتي خاتمي فأعطته فلما لبسه دانت له الإنس والجن والشياطين ، فلما خرج
سليمان من الخلاء قال هاتي خاتمي قالت قد أعطيته سليمان قال أنا سليمان
قالت كذبت لست سليمان ، فجعل لا يأتي أحداً يقول أنا سليمان إلا كذبه
حتى جعل الصبيان يرمونه بالحجارة ، فلما رأى ذلك عرف أنه من أمر الله وقام
الشيطان يحكم بين الناس ؛ فلما أراد الله أن يرد على سليمان سلطانه ألقى في
قلوب الناس انكار ذلك الشيطان فأرسلوا إلى نساء سليمان فقالوا لهن تنكرن

(١) ذكر المؤلف (ص ١٧١) عن مجاهد بضعة أسطر فجاء تعليق الأستاذ هكذا : هذا الكلام بأقاصيص
الف ليلة وليلة أشبه ، وأبعد ما يكون عن سير المرسلين .

من أمر سليمان شيئاً؟ قلن نعم إنه يأتينا ونحن نحض وما كان يأتينا قبل ذلك فلما رأى الشيطان أنه قد فطن له ظن أن أمره قد انقطع فكتبوا كتباً فيها سحر وكفر فدفنوها تحت كرسي سليمان ، ثم أثاروها وقرأوها على الناس ، وقالوا : بهذا كان يظهر سليمان على الناس ويغلبهم . فأكفر الناس سليمان ، فلم يزالوا يكفرونه ، وبعث ذلك الشيطان بالخاتم فطرحه في البحر فتلقتة سمكة فأخذته وكان سليمان يعمل على شط البحر بالأجر فجاء رجل فاشترى سمكاً فيه تلك السمكة التي في بطنها الخاتم فدعا سليمان فقال : تحمل لي هذا السمك ؟ قال نعم بكم ؟ قال بسمكة من هذا السمك فحمل سليمان السمك ثم أنطلق به إلى منزله ، فلما انتهى الرجل إلى باب داره أعطاه تلك السمكة التي في بطنها الخاتم فأخذها سليمان فشق بطنها فإذا الخاتم في جوفها فأخذه فلبسه فلما لبسه دانت له الجن والإنس والشياطين وعاد إلى حاله وهرب الشيطان حتى لحق بجزيرة من جزائر البحر فأرسل سليمان في طلبه وكان شيطاناً مريداً فجعلوا يطلبونه ولا يقدرّون عليه حتى وجدوه يوماً نائماً فجاءوا فبنوا عليه بنياناً من رصاص فاستيقظ فوثب ، فجعل لا يثب في مكان من البيت إلا انبأط معه الرصاص فأخذه فأوثقوه وجاءوا به إلى سليمان فأمر به فنقر له تحت من رخام ، ثم أدخله في جوفه ثم شد بالنحاس ، ثم أمر به فطرح في البحر فذلك قوله ﴿ ولقد فتننا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ﴾ يعني الشيطان الذي كان سلط عليه^(١) .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال صخر الجنّي تمثل على كرسيه على صورته .

(١) ذكر المؤلف (ص ١٧١) عن النسائي وابن جرير قصة طويلة عن خاتم سليمان ، وهي قصة موضوعة ؛ وما يدل على وضعها ان الشيطان جاء في صورة سليمان ، والشيطان لا يتصور بصورة الأنبياء وغيرهم .

﴿ قال ﴾ سليمان ﴿ رب اغفر لي ﴾ ما صدر عني من الذنب الذي ابتليتني لأجله وطلب المغفرة دأب الأنبياء والصلحاء ، هضماً للنفس وإظهاراً للذل والخشوع ، وطلباً للترقي في المقامات ثم لما قدم التوبة والاستغفار جعلها وسيلة إلى إجابة طلبته فقال :

﴿ وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي ﴾ قال أبو عبيدة معناه لا يكون لأحد من بعدي ، وقيل لا ينبغي لأحد أن يسلبه مني بعد هذه السلبة أو لا يصح لأحد من بعدي لعظمته ، وليس هذا من سؤال نبي الله سليمان عليه السلام للدنيا وملكها ، والشرف بين أهلها بل المراد بسؤاله الملك أن يتمكن به من إنقاذ حكم الله سبحانه والأخذ على يد المتمردين من عباده من الجن والإنس ولو لم يكن من المقتضيات لهذا السؤال منه إلا ما رآه عند قعود الشيطان على كرسيه من الأحكام الشيطانية الجارية في عباد الله لكفى .

وجملة ﴿ إنك أنت الوهاب ﴾ تعليل لما قبلها مما طلبه من مغفرة الله له وهبة الملك الذي لا ينبغي لأحد من بعده ، لا بالأخيرة فقط ، فإن المغفرة أيضاً من أحكام وصف الوهابية قطعاً قاله أبو السعود .

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن عفريتاً من الجن جعل يتفلت عليّ البارحة ليقطع عليّ صلاتي ، وإن الله أمكنني منه فلقد هممت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تصبحوا فتنظروا إليه كلكم ، فذكرت قول أخي سليمان : ﴿ وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي ﴾ فردّه الله خاسئاً^(١) ثم ذكر سبحانه إجابته لدعوته وإعطاءه لمسأله فقال :

﴿ فسخرنا له الريح ﴾ أي ذللناها له ، وجعلناها منقادة لأمره ثم بين

(١) رواه البخاري ٣٢٩/٦ و ٤٢٠/٨ ومسلم ٣٨٤/١ والسيوطي في الدر ٣١٣/٥ .

كيفية التسخير لها بقوله : ﴿ تجري بأمره رخاء ﴾ أي لينة الهبوب ليست بالعاصف مأخوذ من الرخاوة والمعنى أنها ريح لينة لا ترعزع ولا تعصف مع قوة هبوبها وسرعة جريها ولا ينافي هذا قوله في آية أخرى ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره ، لأن المراد أنها في قوة العاصفة ولا تعصف وقيل إنها كانت تارة رخاء وتارة عاصفة ، على ما يريده سليمان ويشتهي ، وهذا أولى في الجمع بين الآيتين .

﴿ حيث أصاب ﴾ قال الزجاج إجماع أهل اللغة والمفسرين على أن معنى حيث أصاب حيث أراد ، وحقيقته حيث قصد ، وقال الأصمعي وابن الأعرابي العرب تقول أصاب الصواب ، وأخطأ الجواب . وقيل معنى أصاب بلغة حمير أراد ، وليس من لغة العرب ، وقيل هو بلسان هجر والأول أولى وهو مأخوذ من إصابة السهم للغرض .

﴿ و ﴾ سخرنا له ﴿ الشياطين ﴾ وقوله : ﴿ كل بناء وغواص ﴾ بدل من الشياطين أي كل بناء منهم ، وغواص منهم ، يبنون له ما يشاء من المباني ، ويغوصون في البحر فيستخرجون له الدر منه . وهو أول من استخرج اللؤلؤ من البحر .

﴿ وآخرين مقرنين في الأصفاد ﴾ معطوف على كل داخل في حكم البذل ، وهم مردة الجن والشياطين ، سخرنا له حتى قرنهم في الأصفاد يقال : قرنهم في الحبال إذا كانوا جماعة كثيرة ، والأصفاد الأغلال واحدا صفد ، قال الزجاج : هي السلاسل فكل ما شددته شداً وثيقاً بالحديد وغيره فقد صفدته قال أبو عبيدة : صفدت الرجل فهو مصفود ، وصفدته فهو مصفد ، قال يحيى ابن سلام : ولم يكن يفعل ذلك إلا بكفارهم ، فإذا آمنوا أطلقهم ولم يسخرهم .

هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحَسَنَ مَّآبٍ ﴿٤٠﴾ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ ۖ أَنِّي مَسْنِي الشَّيْطَانُ يَنْصُبْ عَلَيَّ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ أَرْكُضُ بِرَجُلِكَ هَذَا مَغْتَسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾

﴿ هذا ﴾ أي ما تقدم من تسخير الريح والشياطين له أو من الملك والمال والبسطة ، وهو بتقدير القول ، أي وقلنا له : هذا ﴿ عطاؤنا ﴾ الذي أعطيناه من الملك العظيم الذي طلبته .

﴿ فامنن أو أمسك ﴾ أي فأعط من شئت وامنع من شئت ، قاله الحسن والضحاك وغيرهما ، وقال ابن عباس : أعتق من الجن من شئت ، وأمسك منهم من شئت ﴿ بغير حساب ﴾ لا حساب عليك في ذلك الإعطاء والإمساك ، أو عطاؤنا لك بغير حساب ، لكثرتة وعظمته ، وقال قتادة : إن قوله هذا عطاؤنا إشارة إلى ما أعطيه من قوة الجماع ، وهذا لا وجه لقصر الآية عليه ، لو قدرنا أنه قد تقدم ذكره من جملة تلك المذكورات فكيف يدعي اختصاص الآية مع عدم ذكره ؟

﴿ وإن له عندنا لزلفى ﴾ أي قربة في الآخرة ﴿ وحسن مآب ﴾ أي حسن مرجع وهو الجنة .

﴿ واذكر عبدنا أيوب ﴾ أيوب عطف بيان ، وعدم تصدير قصة سليمان بهذا العنوان لكمال الاتصال بينه وبين داود عليهما السلام حتى كأن قصتيهما قصة واحدة ﴿ وأيوب ﴾ هو ابن عيصو بن إسحق .

﴿ إذ نادى ربه ﴾ بدل اشتغال من عبدنا ﴿ أني مسني الشيطان ﴾ قرأ الجمهور بفتح الهمزة على أنه حكاية لكلامه الذي نادى به ربه ، ولو لم يحكه لقال : إنه مسه ، وقرئ بكسرها على إضمار القول وفي ذكر قصة أيوب إرشاد لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الاقتداء به في الصبر على المكروه .

﴿ بنصب ﴾ قرأ الجمهور بضم النون وسكون الصاد فقليل : هو جمع نصب بفتحيتين نحو أسد وأسد ، وقيل هو لغة في النصب نحو رشد ورشد وقرىء بضميتين ، وبفتحيتين وبفتح وسكون وهذه القراءات باختلاف اللغات . وقال أبو عبيدة : إن النصب بفتحيتين التعب والإعياء ، وعلى بقية القراءات الشر والبلاء .

﴿ وعذاب ﴾ أي ألم ، قال قتادة ومقاتل : النصب في الجسد والعذاب في المال ، قال النحاس : وفيه بعد ، كذا قال ، والأولى تفسير النصب بالمعنى اللغوي وهو التعب والإعياء وتفسير العذاب بما يصدق عليه مسمى العذاب ، وهو الألم وكلاهما راجع إلى البدن .

وقد أخرج أحمد في الزهد وابن أبي حاتم وابن عساكر عن ابن عباس خبراً طويلاً في قصة أيوب «أوله أن الشيطان عرج إلى السماء فقال : يا رب سلطني على أيوب ، قال الله تعالى : لقد سلطتك على ماله وولده ولم أسطك على جسده الحديث بطوله»^(١) ، وفيه نكارة شديدة فإن الله سبحانه لا يمكن الشيطان من نبي من أنبيائه ويسلطه عليه ، هذا التسليط العظيم ، وأسند المس إلى الشيطان مع أن الله سبحانه هو الذي مسه بذلك إما لكونه لما عمل بوسوسته عوقب على ذلك بذلك النصب والعذاب ، فقد قيل إنه أعجب بكثرة ماله ، وقيل استغاثه مظلوم فلم يغثه ، وقيل إنه قال ذلك على طريقة الأدب وقيل إنه قال ذلك لأن الشيطان وسوس إلى أتباعه فرفضوه وأخرجوه من ديارهم وقيل المراد به ما كان يوسوسه الشيطان إليه حال مرضه وابتلائه من

(١) ذكر المؤلف (ص ١٧٥) بضعة تفاسير لقول أيوب (اني مسني الشيطان) فجاء التعليق هكذا : لماذا لا يكون مس الشيطان متصلاً بعمل أيوب كني ورسول الى قومه حيث كان يوسوس لقومه فيكذبون وينقضون ما عقده مع أيوب من المواثيق، فكان عمل الشيطان له صلة مباشرة بإرهاق أيوب ومسه بالتعب.

تحسين الجزع ، وعدم الصبر على المصيبة ، وقيل غير ذلك .

﴿ اركض برجلك ﴾ أي قلنا له اركض كذا قال الكسائي والركض الدفع بالرجل ، يقال : ركض الدابة إذا ضربها بها وقال المبرد الركض التحريك ، قال الأصمعي يقال ركضت الدابة ، ولا يقال ركضت هي لأن الركض إنما هو تحريك راكبها رجله ، ولا فعل لها في ذلك ، وحكى سيويه ركضت الدابة فركضت مثل جبرت العظم فجبر .

﴿ هذا مغتسل بارد وشراب ﴾ هذا أيضاً من مقول القول المقدر ، وفي الكلام حذف والتقدير فركض برجله فنبعت عين فقلنا له هذا مغتسل الخ وظاهر النظم الكريم أن الاغتسال والشرب كانا من عين واحدة والمغتسل هو الماء الذي يغتسل به والشراب الذي يشرب منه ، وقيل إن المغتسل هو المكان الذي يغتسل فيه ، قال قتادة : هما عينان بأرض الشام في أرض يقال لها الجابية فاغتسل من إحداها فأذهب الله ظاهر دائه وشرب من الأخرى فأذهب الله باطن دائه ، وكذا قال الحسن ، وقال مقاتل نبعت عين جارية فاغتسل فيها فخرج صحيحاً ، ثم نبعت عين أخرى فشرب منها ماء عذباً بارداً .

﴿ ووهبنا له أهله ﴾ معطوف على مقدر كأنه قيل فاغتسل وشرب فكشفنا عنه بذلك ما به من ضر ووهبنا له أهله قيل أحياهم الله بعد أن أماتهم وقيل جمعهم بعد تفرقهم ، وقيل غيرهم مثلهم ، ثم زاده مثلهم معهم ، وهو معنى قوله :

﴿ ومثلهم معهم ﴾ فكانوا مثلى ما كانوا من قبل ابتلائه ﴿ رحمة منا وذكرى لأولي الألباب ﴾ أي وهبناهم له لأجل رحمتنا إياه وليتذكر بحاله أولو الألباب ، فيصبروا على الشدائد كما صبر ، ويلجأوا إلى الله كما لجأ ليفعل بهم ما فعل به من حسن العاقبة : وقد تقدم في سورة الأنبياء تفسير هذه الآية مستوفى فلا نعيده .

وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا
فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ وَادْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ
وَأِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾

﴿ وخذ ﴾ معطوف على اركض ، أو على وهبنا ، أو التقدير وقلنا له خذ
﴿ بيدك ضغثاً ﴾ هو عثكال النخل بشماريخه ، وقيل هو قبضة من حشيش
مختلط رطبها بيباسها ، وقيل الحزمة الكبيرة من القضبان ، وأصل المادة تدل
على جمع المختلطات ، قال الواحدي الضغث ملء الكف من الشجر والحشيش
والشماريخ ، وعن ابن عباس قال : الضغث هو الأسل ، وقال أيضاً الضغث
القبضة من المرعى الرطب ، وقال أيضاً الحزمة .

﴿ فاضرب به ﴾ أي بذلك الضغث ﴿ ولا تحنث ﴾ في يمينك والحنث
الإثم ويطلق على فعل ما حلف على تركه ، أو ترك ما حلف على فعله ، لأنها
سببان فيه ، وكان أيوب قد حلف في مرضه أن يضرب امرأته مائة جلدة ،
واختلف في سبب ذلك فقال سعيد بن المسيب إنها جاءت بزيادة على ما كانت
تأتيه به من الخبز فخاف خيانتها فحلف ليضربها .

وقال يحيى بن سلام وغيره ، إن الشيطان أغواها أن تحمل أيوب على أن
يذبح سحنةً تقرباً إليه فإنه إذا فعل ذلك بريء . فحلف ليضربها إذا عوفي
مائة جلدة ، وقيل باعت ذؤابتها برغيفين إذ لم تجد شيئاً وكان أيوب يتعلق بها
إذا أراد القيام ، فلهذا حلف ليضربها وأخرج أحمد في الزهد عن ابن عباس
قال : إن إبليس قعد على الطريق وأخذ تابوتاً يداوي الناس فقالت امرأة
أيوب : يا عبدالله إن ههنا مبتلى من أمره كذا وكذا فهل لك أن تدأويه ،

قال : نعم بشرط إن أنا شفيته أن يقول أنت شفيتني لا أريد منه أجراً غيره فأتت أيوب فذكرت له ذلك ، فقال : ويحك ذاك الشيطان ، لله عليّ إن شفاني الله أن أجلكم مائة جلدة ، فلما شفاه الله أمره أن يأخذ ضغثاً فيضربها به ، فأخذ عذقاً فيه مائة شمر أخضضها به ضربة واحدة^(١) .

وأخرج أحمد والطبراني عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف قال « حملت وليدة في بني ساعدة من زنا فقيل لها : ممن حملك ؟ قالت من فلان المقعد ، فسئل المقعد فقال : صدقت فرفع ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : خذوا عثكولاً فيه مائة شمر أخضضها فاضربوه ضربة واحدة . وله طرق أخرى .

وقد اختلف العلماء هل هذا خاص بأيوب أو عام للناس كلهم ؟ وأن من حلف خرج من يمينه بمثل ذلك ؟ قال الشافعي : إذا حلف ليضربن فلاناً مائة جلدة أو ضرباً ولم يقل ضرباً شديداً ولم ينو بقلبه فيكفيه مثل هذا الضرب المذكور في الآية حكاه ابن المنذر عنه ، وعن أبي ثور وأصحاب الرأي ، وقال عطاء هو خاص بأيوب ، ورواه ابن القاسم عن مالك ، ثم أثنى الله سبحانه على أيوب فقال :

﴿ إنا وجدناه ﴾ أي علمناه ﴿ صابراً ﴾ على البلاء الذي ابتليناه به فإنه ابتلي بالبلاء العظيم في جسده وذهاب ماله وولده وأهله فصبر وليس في شكواه إلى الله إخلال بذلك فإنه ليس جزعاً تمنى العافية وطلب الشفاء ، والشكاية المذمومة إنما هي إذا كانت للمخلوقين ، قال ابن مسعود أيوب رأس الصابرين يوم القيامة .

﴿ نعم العبد ﴾ أي أيوب ﴿ إنه أواب ﴾ أي رجع إلى الله تعالى بالاستغفار والتوبة .

(١) انظر ما كتبه ابن الجوزي في كتابه زاد السير ١٤٣/٧ .

﴿واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب﴾ أي أذكر صبرهم على ما أصابهم تتأس بهم ، قرأ الجمهور عبادنا بالجمع ، وقرئ بالافراد ؛ فعلى قراءة الجمهور يكون إسحق وإبراهيم ويعقوب عطف بيان ، وعلى القراءة الأخرى يكون إبراهيم عطف بيان ، وما بعده عطف على عبادنا لا على إبراهيم ، وقد يقال لما كان المراد بعبادنا الجنس جاز إبدال الجماعة منه ، وقيل إن إبراهيم وما بعده بدل ، أو النصب بإضمار أعني ، وعطف البيان أظهر وقراءة الجمهور أبين ، وقد اختارها أبو حاتم وأبو عبيدة .

﴿أولي الأيدي والأبصار﴾ الأيدي جمع اليد أي الجارحة فكني بذلك عن الأعمال لأن أكثر الأعمال إنما يزاول باليد ، وقيل جمع اليد التي بمعنى القوة والقدرة ، قال قتادة أعطوا قوة في العباد ونصراً في الدين قال الواحدي وبه قال مجاهد وسعيد بن جبير والمفسرون قال النحاس أما الأبصار فمتفق على أنها البصائر في الدين والعلم وأما الأيدي فمختلف في تأويلها فأهل التفسير يقولون إنها القوة في الدين ، وقوم يقولون الأيدي جمع يد ، وهي النعمة أي هم أصحاب النعم الذين أنعم الله عز وجل عليهم وقيل هم أصحاب النعم على الناس والإحسان إليهم لأنهم قد أحسنوا وقدموا خيراً واختار هذا ابن جرير ، قرأ الجمهور الأيدي بإثبات الياء وقرئ بغير ياء فقليل معناها معنى الأولى وإنما حذفت الياء لدلالة كسرة الدال عليها وقيل الأيد القوة إلا أن الزمخشري قال وتفسيره بالأيد من التأييد قلق غير متمكن انتهى وكأنه إنما قلق عنده لعطف الابصار عليه . فهو غير مناسب للأيد من التأييد وقد يقال إنه لا يراد حقيقة الجوارح إذ كل أحد كذلك إنما المراد الكناية عن العمل الصالح والتفكر ببصيرته فلم يقلق حينئذ إذ لم يرد حقيقة الابصار وكأنه قيل أولى القوة والتفكر بالبصيرة ، وقد نحا الزمخشري إلى شيء من هذا قبل ذلك ، قاله السمين ، قال ابن عباس القوة في العبادة والأبصار ، الفقه في الدين ؛ وعنه قال الأيدي النعمة وقيل أولى الاعمال الجليلة ، والعلوم الشريفة فعبر بالأيدي عن الاعمال وبالأبصار عن المعارف لأنها أقوى مبادئها .

إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾
 وَأَذْكُرْ اسْمَ عَلِيلٍ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّا لِلْمُتَّقِينَ لِحُسْنِ
 مَثَابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّاتٍ عِدْنٍ مُمْقِنَةٍ لَهُمْ الْأَنْبُوبُ ﴿٥٠﴾ مُتَكِينَ فِيهَا يُدْعَوْنَ فِيهَا بِفِكَهَةٍ كَثِيرَةٍ
 وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ وَعِنْدَهُمْ قَصِرَتُ الْأَطْرَفُ الْأَرْبَابُ ﴿٥٢﴾ هَذَا مَا تُوْعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥٣﴾
 إِنَّ هَذَا الرِّزْقُ نَامَالُهُ مِنْ تَفَادٍ ﴿٥٤﴾

﴿إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار﴾ تعليل لما وصفوا به من شرف العبودية ، وعلو الرتبة في العلم والعمل ، قرأ الجمهور بخالصة بالتنوين وعدم الإضافة على أنها مصدر بمعنى الإخلاص ، فيكون ذكرى منصوباً به أو بمعنى الخلوص ، فيكون ذكرى مرفوعاً به أو يكون خالصة اسم فاعل على بابه ، وذكرى بدل منها ، أو بيان لها أو منصوبة بإضمار أعني أو مرفوعة على إضمار مبتدأ ، والدار مفعول به بذكرى أو ظرف إما على الاتساع أو على إسقاط الخافض ، وعلى كل تقدير فخالصة صفة لموصوف محذوف ، والباء للسببية ، أي بسبب خصلة خالصة لا شوب فيها ، وقرئ باضافة خالصة إلى ذكرى ، على أن الإضافة للبيان ، لأن الخالصة قد تكون ذكرى وغير ذكرى ، كما في قوله ﴿شهاب قبس﴾ لأن الشهاب يكون قبساً وغيره ، أو على أن خالصة مصدر مضاف إلى مفعوله ، والفاعل محذوف ، أي بأن أخلصوا ذكر الدار وتناسوا عند ذكرها ذكر الدنيا ، أو مصدر بمعنى الخلوص مضاف إلى فاعله ، قال مجاهد معنى الآية استصفيناهم بذكر الآخرة فأخلصناهم بذكرها ، وقال قتادة كانوا يدعون إلى الآخرة وإلى الله ، وقال السدي : أخلصوا بخوف الآخرة .

قال الواحدي : فمن قرأ بالتنوين في خالصة كان المعنى جعلناهم لنا

خالصين بأن خلصت لهم ذكرى الدار ، والخالصة مصدر بمعنى الخلوص ، والذكرى بمعنى التذكر ، أي خلص لهم تذكر الدار ، وهو أنهم يذكرون التأهب لها ويزهدون في الدنيا ، وذلك من شأن الأنبياء وأما من أضاف فالمعنى أخلصناهم بأن خلصت لهم ذكرى الدار ، والخالصة مصدر مضاف إلى الفاعل والذكرى على هذا المعنى الذكر .

قال ابن عباس أخلصوا بذكر دار الآخرة أن يعلموا لها وقيل : ذكرى الدار الثناء الجميل في الدنيا . وهذا شيء قد أخلصهم به ، فليس يذكر غيرهم في الدنيا بمثل ما يذكرون به يقويه قوله ﴿ وجعلنا لهم لسان صدق عليا ﴾ قاله النسفي ، وفيه بعد . وقال ابن جزي : معناه إنا جعلناهم خالصين لنا أو خصصناهم دون غيرهم ، وأما الباء على الأول فهي للتعليل . وعلى الثاني هي لتعدية الفعل انتهى .

﴿ وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار ﴾ الاصطفاء الاختيار ، والأخيار ، جمع خير بالتشديد والتخفيف كأموات في جمع ميت مشدداً ومخففاً ، والمعنى إنهم عندنا لمن المختارين من أبناء جنسهم من الأخيار .

﴿ واذكر إسماعيل ﴾ قيل وجه ذكره مفردا بعد ذكر أبيه وأخيه وابن أخيه للإشعار بأنه عريق في الصبر الذي هو المقصود بالذكر هنا .

﴿ واليسع ﴾ هو ابن أخطوب بن العجوز استخلفه إلياس على بني إسرائيل ثم استنبىء .

﴿ وذا الكفل ﴾ اختلف في نبوته ولقبه ، وهو ابن عم اليسع أو هو بشر بن أيوب بعثه الله بعد أبيه ، وسماه ذا الكفل وكان مقيماً بالشام حتى مات ، وعمره خمس وسبعون سنة ، وقد تقدم ذكر اليسع . والكلام فيه في الأنعام ، وتقدم ذكر ذي الكفل والكلام فيه في سورة الأنبياء ، والمراد من ذكر هؤلاء أنهم من جملة من صبر من الأنبياء وتحمل الشدائد في دين الله ، أمر الله

رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يذكرهم ليسلك مسلكهم في الصبر .

﴿ وكل ﴾ أي كل المتقدمين من داود إلى هنا ﴿ من الأخيار ﴾ الذين اختارهم الله سبحانه لنبوته واصطفاهم من خلقه ﴿ هذا ذكر ﴾ إشارة إلى ما تقدم من ذكر أوصافهم الناطقة بمحاسنهم ، أي هذا ذكر جميل في الدنيا ، وشرف يذكرون به أبداً ، جملة جيء بها إيذاناً بأن القصة قد تمت ، وأخذ في أخرى .

﴿ وإن للمتقين ﴾ مع هذا الذكر الجميل ﴿ لحسن مآب ﴾ في الآخرة والمآب المرجع ، وهذا شروع في بيان أجرهم الجزيل الآجل ، بعد بيان ذكرهم الجميل في العاجل وهو باب آخر من أبواب التنزيل ، والمعنى إنهم يرجعون في الآخرة إلى مغفرة الله ورضوانه ، ونعيم جنته . ثم بين حسن المرجع فقال :

﴿ جنات عدن ﴾ قرئ بالنصب بدلاً أو عطف بيان لحسن مآب وعدن وهو في الأصل الإقامة ، يقال عدن بالمكان إذا أقام فيه ، وقيل هو اسم لقصر في الجنة ، وقرئ برفع جنات على أنها خبر مبتدأ محذوف ، أي هي جنات عدن .

﴿ مفتحة لهم الأبواب ﴾ حال من جنات ، والعامل فيها ما في المتقين من معنى الفعل ، والأبواب مرتفعة باسم المفعول ، كقوله : وفتحت أبوابها ، والرباط بين الحال وصاحبها ضمير مقدر ، أي منها أو الألف واللام لقيامه مقام الضمير ، إذ الأصل أبوابها ، وقيل ارتفاع الأبواب على البدل من الضمير في مفتحة العائد على جنات ، وبه قال أبو علي الفارسي ، أي مفتحة هي الأبواب ، قال الفراء : المعنى مفتحة لهم أبوابها ، والعرب تجعل الألف واللام خلفاً من الإضافة ، وقال الزجاج المعنى مفتحة لهم الأبواب منها ، قال الحسن إن الأبواب يقال لها : انفتحي فتفتح انغلقي فتغلق ، وقيل : تفتح لهم الملائكة الأبواب حال كونهم ﴿ متكئين فيها ﴾ أي في الجنات .

﴿ يدعون فيها بفاكهة كثيرة ﴾ أي بألوان متنوعة متكررة من الفواكه
 ﴿ وشراب ﴾ كثير فحذف كثير للدلالة الأول عليه ، والاقتصار على دعاء
 الفاكهة للايذان بأن مطاعمهم لمحضر التفكه والتلذذ دون التغذية ، قيل :
 الجملة مستأنفة لبيان حالهم فيها أو حال مما ذكر .

﴿ وعندهم قاصرات الطرف ﴾ أي قاصرات طرفهن على أزواجهن ،
 وحاسبات العين لا ينظرن إلى غيرهم ، وقد مضى بيانه في سورة الصافات .

﴿ أتراب ﴾ أي متحدات في السن والشباب ، أو متساويات في الحسن
 والجمال وقال مجاهد المعنى أنهم متواخيات لا يتباغضن ولا يتغايرن ولا
 يتحاسدن ، بنات ثلاث وثلاثين سنة ، وقيل لدات أي مقاربات في
 الولادة ، لأن التحاب بين الأقران أثبت أو بعضهن لبعض أو نصف لا عجوز
 فيهن ولا صبية ، قال الشهاب : لدات جمع لدة كعدة أصلها ولد ، وهو
 كالترب من يولد معك في وقت واحد ، كأنهما وقعا على التراب في زمن
 واحد ، والأتراب جمع ترب ، واشتقاقه من التراب ، لأنه يمسهن في وقت
 واحد ، لاتحاد مولدهن والمعاني متقاربة .

﴿ هذا ما توعدون ليوم الحساب ﴾ أي هذا الجزاء الذي وعدتم به
 لأجل يوم الحساب ، فإن الحساب علة للوصول إلى الجزاء ، والمعنى في يوم
 الحساب ، قرأ الجمهور توعدون على الخطاب التفاتاً ، وقرئ بالتحية على
 الخبر ، واختار هذه القراءة أبو عبيدة وأبو حاتم لقوله : وإن للمتقين ، فإنه
 خبر .

﴿ إن هذا ﴾ المذكور من النعم والكرامات والجنات وأوصافها
 ﴿ لرزقنا ﴾ الذي أنعمنا به عليكم وأعطيناكموه ﴿ ما له من نفاذ ﴾ أي لا
 ينقطع ولا يفنى أبداً ، ومثله قوله ﴿ عطاءً غير مجذوذ ﴾ فنعم الجنة لا تنقطع
 عن أهلها .

هَذَا وَابْتَكَ لِلطَّغْيِينَ لَشْرَمَاتٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَنُفْسُ الْمَهَادُ ﴿٥٦﴾ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ
 حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴿٥٨﴾ هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْجَأَ
 بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَمَرْجَأٌ بِكُمْ أَنْتُمْ قَدْ مَتَمُّوهُ لَنَا فَنُفْسُ الْقَرَارِ ﴿٦٠﴾
 قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضَعُفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾

﴿ هذا ﴾ أي الأمر هذا أو هذا كما ذكر أو هذا ذكر فيوقف على هذا ،
 قال ابن الأنباري : وهذا وقف حسن ، قال ابن الأثير هذا في هذا المقام من
 الفصل الذي هو خير من الوصل وهي علاقة وكيدة بين الخروج من الكلام
 إلى كلام آخر ، أي خذ هذا كيت وكيت ، وفيه بحث إذ يلزم حينئذ عطف
 الإخبار على الإنشاء ، ولذا لم يذكر الزمخشري هذا التقدير ثم ذكر سبحانه ما
 لأهل الشر بعد أن ذكر ما لأهل الخير فقال :

﴿ وإن للطاغين ﴾ الذين طغوا على الله وكذبوا رسله ﴿ لشر مآب ﴾ أي
 لشر منقلب ينقلبون إليه ثم بين ذلك فقال : ﴿ جهنم ﴾ بدل أو عطف بيان .

﴿ يصلونها ﴾ أي يصلون جهنم ، ويدخلونها ﴿ فبئس المهاد ﴾ أي بش
 ما مهدوا لأنفسهم وهو الفراش ، مأخوذ من مهد الصبي ، أو المراد بالمهد
 الموضع : والمخصوص بالذم محذوف ، أي بئس المهاد هي كما في قوله : ﴿ لهم
 من جهنم مهاد ﴾ شبه الله سبحانه ما تحتهم من نار جهنم بالمهاد .

﴿ وهذا فليذوقوه حميم وغساق ﴾ أي هذا حميم وغساق ليزوقوه ، قاله
 الفراء والزجاج ، أي يقال لهم في ذلك اليوم هذه المقالة ، والحميم الماء الحار
 الذي قد انتهى حره ، والغساق ما سال من جلود أهل النار من القيح ، ومن
 الصيد ، من قولهم : غسقت عينه إذا انصبت ، والغسق الانصباب ، قال

النحاس : ويجوز أن يكون المعنى الأمر هذا ، وارتفاع حميم وغساق على أنهما خبران لمبتدأ محذوف ، أي هو حميم وغساق ، ويجوز أن يكون هذا في موضع نصب بإضمار فعل يفسره ما بعده ، أي ليدوقوا هذا فليذوقوه ويجوز أن يكون حميم مرتفعاً على الابتداء ، وخبره مقدر قبله أي منه حميم ومنه غساق ، وقيل : الغساق ما قتل برده ، ومنه قيل الليل غاسق لأنه أبرد من النهار ؛ وقيل : هو الزمهرير وقيل الغساق المتنن ، وقيل هو عين في جهنم يسيل إليها كل ذوب حية وعقرب وقال قتادة هو ما يسيل من فروج النساء الزواني ومن تن لحوم الكفرة وجلودهم .

وقال محمد بن كعب : هو عصارة أهل النار ، وقال السدي : الغساق الذي يسيل من دموع أهل النار يسقونه مع الحميم ، وكذا قال ابن زيد ، وقال مجاهد ومقاتل . هو الثلج البارد الذي قد انتهى برده ، وتفسير الغساق بالبارد أنسب بما تقتضيه لغة العرب وأنسب أيضاً بمقابلة الحميم ، قرأ أهل المدينة وأهل البصرة وبعض الكوفيين بتخفيف السين من غساق ، وقرئ بالتشديد وهما لغتان بمعنى واحد ، كما قال الأخفش ، وقيل معناهما مختلف فمن خفف فهو اسم مثل عذاب وجواب وصواب ، ومن شدد قال هو اسم فاعل للمبالغة نحو ضراب وقتال .

وقال ابن عباس غساق الزمهرير وأخرج أحمد والترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في البعث عن أبي سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو أن دلوا من غساق يهرق في الدنيا لأنتن أهل الدنيا » قال الترمذي بعد إخراجهم لا نعرفه إلا من حديث رشدين بن سعد ، قلت ورشدين فيه مقال معروف .

﴿ وآخر من شكله ﴾ قرأ الجمهور وآخر مفرداً مذكراً ، وقرئ آخر بضم الهمزة على أنه جمع وأنكر الأولى لقوله ﴿ أزواج ﴾ وأنكر عاصم

والجحدري الثانية ، وقال لو كانت آخر لقال من شكلها ، وارتفاع آخر على أنه مبتدأ ، وخبره أزواج ، ويجوز أن يكون من شكله خبراً مقدماً ، وأزواج مبتدأ مؤخر ، والجملة خبر آخر ، ويجوز أن يكون خبر آخر مقدراً أي ولهم آخر ومن شكله أزواج جملة مستقلة ، ومعنى الآية على الأولى وعذاب آخر ، أو مذوق آخر أو نوع آخر من شكل ذلك العذاب ، أو المذوق أو النوع الأول ، والشكل المثل وعلى الثانية ومذوقات آخر وأنواع آخر من شكل ذلك المذوق أو النوع المتقدم ، وإفراد الضمير في شكله على تأويل المذكور أي من شكل المذكور ، ومعنى أزواج أجناس وأنواع وأشباه وحاصل معنى الآية أن لأهل النار حمياً وغساقاً وأنواعاً من العذاب من مثل الحميم والغساق ، قال الواحدي : قال المفسرون : هو الزمهرير ، ولا يتم هذا الذي حكاه عن المفسرين إلا على تقدير أن الزمهرير أنواع مختلفة ، وأجناس متفاوتة ليطابق معنى أزواج أو على تقدير أن لكل فرد من أهل النار زمهريراً .

وجملة ﴿ هذا فوج ﴾ حكاية لقول الملائكة ، هم خزنة النار ، وذلك أن القادة والرؤساء إذا دخلوا النار ودخل بعدهم الأتباع قالت الخزنة للقادة : هذا فوج يعنون الأتباع ﴿ مقتحم معكم ﴾ أي داخل معكم إلى النار بشدة ، والافتحام الإلقاء في الشيء بشدة فإنهم يضربون بمقامع من حديد حتى يقتحموها بأنفسهم خوفاً من تلك المقامع ، وقيل : الاقتحام ركوب الشدة والدخول فيها ، وفي المختار قحم في الأمر رمى بنفسه فيه من غير روية ، وبابه خضع ، وأقحم فرسه النهر فانقحم ، أي أدخله فدخل واقتحم الفرس النهر دخله .

وقوله ﴿ لا مرحباً بهم ﴾ من قول القادة والرؤساء لما قالت لهم الخزنة ذلك قالوا لا مرحباً بهم أي لا اتسعت منازلهم في النار ، والرحب السعة ، والمعنى لا كرامة لهم ، وهذا إخبار من الله سبحانه بانقطاع المودة بين الكفار ، وأن المودة التي كانت بينهم تصير عداوة . وجملة لا مرحباً بهم دعائية لا محل لها من الإعراب ، وقال السمين في مرحباً وجهان أظهرهما أنه مفعول بفعل مقدر

أي لا أتيتم مرحباً أو لا سمعتم مرحباً ، والثاني أنه منصوب على المصدر ، قال أبو البقاء أي لا رحبتكم داركم مرحباً . بل ضيقاً ، والجملة المنفية إما مستأنفة سيقت للدعاء عليهم بضيق المكان ، وقوله : بهم بيان للمدعو عليهم ، وإما حالية ، وقد يعترض عليه بأنه دعاء ، والدعاء لا يقع حالاً ، والجواب أنه على إضمار القول أي مقولاً في حقهم لا مرحباً بهم ، وقيل إنها من تمام قوله الخزنة ، والأول أولى ، كما يدل عليه جواب الأتباع الآتي :

﴿إنهم صالوا النار﴾ تعليل من جهة القائلين لا مرحباً بهم ، أي إنهم صالوا النار كما صليناها ومستحقون لها كما استحققناها .

﴿قالوا : بل أنتم لا مرحباً بكم﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر أي قال الأتباع عند سماع ما قاله الرؤساء لهم : بل أنتم أحق بما قلتم لنا ثم عللوا ذلك بقولهم : ﴿أنتم قدمتموه لنا﴾ أي العذاب أو الصلي لنا وأوقعتمونا فيه ، ودعوتونا إليه بما كنتم تقولون لنا من أن الحق ما أنتم عليه ، وأن الأنبياء غير صادقين فيما جاءوا به .

﴿فبئس القرار﴾ أي بئس المقر جهنم لنا ولكم ، ثم حكى عن الأتباع أيضاً أنهم أردفوا هذا القول بقول آخر وهو :

﴿قالوا ربنا من قدم لنا هذا﴾ أي من دعانا إليه وسوغه لنا ، قال الفراء المعنى من سوغ لنا هذا وسنه ، وقيل معناه من قدم لنا هذا العذاب بدعائه إيانا إلى الكفر .

﴿فزده عذاباً ضعفاً في النار﴾ أي عذاباً بدعائه إيانا فصار ذلك ضعفاً ، ومثله قوله سبحانه ﴿ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار﴾ وقوله : ﴿ربنا آتهم ضعفين من العذاب﴾ ، والضعف أن يزيد عليه مثله ، وقيل المراد بالضعف هنا الحيات والعقارب ، قال ابن مسعود : أي أفاعي وحيات .

وَقَالُوا مَا لَنَا لَنَرِي رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَخَذْنَاهُمْ سِحْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ
 الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقُّ تَخَاصُمِ أَهْلِ النَّارِ ﴿٦٤﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَنْ إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ
 الْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَنبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾
 أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَائِكَةِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِنْ يُوحَىٰ إِلَىٰ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا
 نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾

﴿ وقالوا ﴾ أي كفار مكة كأبي جهل وأمية بن خلف وأصحاب القلب وهم في النار . ﴿ ما لنا لا نرى رجالاً كنا نعدُّهم من الأشرار ﴾ أي الأراذل الذين لا خير لهم ولا جدوى ، وقيل : إنما سموهم أشراراً لأنهم كانوا على خلاف دينهم ، قيل : هو من قول الرؤساء ، وقيل من قول الطاغين المذكورين سابقاً قال الكلبي : ينظرون في النار فلا يرون من كان يخالفهم من المؤمنين معهم فيها ، فعند ذلك قالوا هذا القول ، وقيل يعنون فقراء المؤمنين كعمار وخباب وصهيب وبلال وسالم وسلمان ، وقيل أرادوا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم على العموم .

﴿ اتخذناهم سحرياً ﴾ في الدنيا فأخطأنا ﴿ أم زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ ﴾ فلم نعلم مكانهم ، قاله مجاهد والإنكار المفهوم من الاستفهام متوجه إلى كل واحد من الأمرين ، قال الحسن كل ذلك قد فعلوا اتخذوهم سحرياً وزَاغَتْ عَنْهُمْ أَبْصَارُهُمْ ، قال الفراء والاستفهام هنا بمعنى التوبيخ والتعجب ، قرئ بحذف همزة اتخذناهم في الوصل ، وعلى هذا يحتمل أن يكون الكلام خبراً محضاً ، وتكون الجملة في محل نصب صفة ثانية لرجالاً ، وأن يكون المراد الاستفهام وحذفت أدواته للدلالة أم عليها ، فتكون أم على الوجه الأول منقطعة بمعنى بل والهمزة أي بل أزاغت عنهم الأبصار؟ على معنى توبيخ أنفسهم على الاستسحار ثم الإضراب والانتقال منه إلى التوبيخ على الازدراء والتحقير ،

وعلى الثاني أم هي المتصلة ، وقرئ بهمزة استفهام سقطت لاجلها همزة الوصل ولا محل للجملة حينئذ ، وفيه التوبيخ لانفسهم على الامرين جميعاً لان أم على هذه القراءة هي للتسوية ، وقرئ سخرىاً بضم السين وبكسرهما ، قال أبو عبيدة من كسر جعله من الهزء ، ومن ضم جعله من التسخر .

﴿ إن ذلك ﴾ أي ما تقدم من حكاية حالهم ﴿ لحق ﴾ أي لواقع ثابت في الدار الآخرة لا يتخلف البتة ﴿ تحاصم أهل النار ﴾ خبر مبتدأ محذوف ويجوز أن يكون خبراً بعد خبر ، وهذا على قراءة الجمهور برفع تحاصم والمعنى أن ذلك الذي حكاه الله عنهم لحق لا بد أن يتكلموا به . وهو تحاصم أهل النار فيها ، وما قالته الرؤساء للأتباع . وما قالته الأتباع لهم والجملة بيان لاسم الإشارة وفي الإيهام أولاً والتبيين ثانياً مزيد تقرير له قرأ ابن أبي بنصيب تحاصم على أنه بدل من ذلك أو بإضمار أعني وقرئ تحاصم بصيغة الماضي فتكون جملة مستأنفة وإنما سماه تحاصماً لان قول القادة للاتباع : لا مرحباً بكم وقول الأتباع للقادة بل أنتم لا مرحباً بكم من باب الخصومة ثم أمر الله سبحانه رسوله الله صلى الله عليه وسلم أن يقول قولاً جامعاً بين التخويف والإرشاد إلى التوحيد فقال :

﴿ قل إنما أنا منذر ﴾ أي مخوف لكم من عذاب الله وعقابه لا ساحر ولا شاعر كما ادعيتم وإنما اقتصر على الإنذار لأنه إنما يناسبهم الإنذار ﴿ وما من إله ﴾ يستحق العبادة ﴿ إلا الله الواحد ﴾ الذي لا شريك له ﴿ القهار ﴾ لكل شيء سواه ﴿ رب السموات والأرض وما بينهما ﴾ من المخلوقات ﴿ العزيز ﴾ الذي لا يغالبه مغالب ﴿ الغفار ﴾ لمن أطاعه ، وقيل معنى العزيز المنيع الذي لا مثل له ، ومعنى الغفار الستار لذنوب خلقه ، ثم أمره الله سبحانه أن يبالي في إنذارهم ، ويبين لهم عظم الأمر وجلالته فقال :

﴿ قل هو نبي عظيم ﴾ أي ما أنذرتكم به من العقاب ، وما بينته لكم من التوحيد هو خبر عظيم ونبأ جليل ، من شأنه العناية به والتعظيم له

والاعتناء به أمراً وائتماراً ، وعدم الاستخفاف به ومثل هذه الآية قوله ﴿ عم يتساءلون عن النبأ العظيم ﴾ ؟ وقال مجاهد وقتادة ومقاتل هو القرآن . فإنه نبأ عظيم لأنه كلام الله ، قال الزجاج قل النبأ الذي أنبأتكم به عن الله نبأ عظيم ، يعني ما أنبأهم به من قصص الأولين ، وذلك دليل على صدقه ونبوته ، لأنه لم يعلم ذلك إلا بوحي من الله .

﴿ أنتم عنه معرضون ﴾ صفة ثانية للنبأ أو جملة مستأنفة ، وهذا توبيخ لهم وتقريع لكونهم أعرضوا عنه ، ولم يتفكروا فيه ، فيعلموا صدقه ، ويستدلوا به على ما أنكروه من البعث .

﴿ ما كان لي من علم بالملا الأعلى ﴾ استئناف مسوق لتقرير أنه نبأ عظيم ، وارد من جهته تعالى ، يذكر نبأ من أنبأه على التفصيل من غير سابقة معرفة به ، ولا مباشرة سبب من أسبابها المعتادة ، فإن ذلك حجة بينة دالة على أن ذلك بطريق الوحي من عند الله تعالى ، وإن سائر أنبائه أيضاً كذلك ، وأن الأنبياء لا يعلمون الغيب أصلاً ، إلا ما يوحى إليهم من جهته سبحانه وتعالى ، والملا الأعلى هم الملائكة وزاد أبو السعود وآدم عليه السلام وإبليس عليه اللعنة .

﴿ إذ يختصمون ﴾ أي ما كان لي فيما سبق علم بوجه من الوجوه بحال الملا الأعلى ، وقت اختصاصهم والضمير راجع إلى الملا الأعلى والخصومة الكائنة بينهم هي في أمر آدم ، قال ابن عباس : قال الملائكة حين شوروا في خلق آدم فاختصموا فيه ، وقالوا : لا تجعل في الأرض خليفة ، وعنه قال هي الخصومة في شأن آدم حيث قالوا : ﴿ أجعل فيها من يفسد فيها ﴾ ؟

وأخرج عبد الرزاق وأحمد وعبد بن حميد والترمذي وحسنه وابن نصر في كتاب الصلاة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أتاني الليلة ربي في أحسن صورة أحسبه قال : في المنام .

قال يا محمد هل تدري فيم يختصم الملا الأعلى ؟ قلت لا ، فوضع يده

بين كتفي حتى وجدت بردها بين ثديي ، أو في نحري ، فعلمت ما في السموات والأرض ، ثم قال لي : يا محمد هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت نعم في الكفارات والكفارات المكث في المساجد بعد الصلوات ، والمشي على الأقدام إلى الجماعات ، وإبلاغ الوضوء في المكاره ^(١) الحديث .

وأخرج الترمذي وصححه ومحمد بن نصر والطبراني والحاكم وابن مردويه من حديث معاذ بن جبل نحوه بأطول منه وقال « وإسباغ الوضوء في السبرات » ^(٢) وأخرج الطبراني وابن مردويه من حديث جابر بن سمرة نحوه بأخصر منه ، وأخرج أيضاً من حديث أبي هريرة نحوه ، وفي الباب أحاديث ، وقيل : الضمير لقريش أي يختصمون فيهم بعضهم يقول : بنات الله ، وبعضهم يقول غير ذلك والأول أولى .

﴿ إن يوحى إليّ إلا أنا نذير مبين ﴾ جملة معترضة بين اختصاصهم المجمل ، وبين تفصيله بقوله ﴿ إذ قال ربك للملائكة ﴾ ، والمعنى ما يوحى إليّ إلا أنني نذير أبين لكم ما تأتون من الفرائض والسنن وما تدعون من الحرام والمعصية ، قاله الفراء وقال : كأنك قلت ما أوحى إليّ إلا الإنذار قرأ الجمهور بفتح همزة أنما على أنها وما في حيزها في محل رفع ، لقيامها مقام الفاعل أي ما يوحى إليّ إلا الإنذار ، أو إلا كوني نذيراً مبيناً ، أو في محل نصب أوحى بعد إسقاط لام العلة ، والقائم مقام الفاعل على هذا الجار والمجرور ، وقرأ أبو جعفر بكسر الهمزة لأن في الوحي معنى القول وهي القائمة مقام الفاعل على سبيل الحكاية كأنه قيل ما يوحى إليّ هذه الجملة المتضمنة لهذا الإخبار وهو أن أقول لكم إنما أنا نذير مبين والقصر هنا إضافي أي لا ساحر ولا كذاب كما زعمتم ، وخصه بالذكر لأن الكلام مع المشركين وحاله معهم مقصور على الإنذار ولما ذكر سبحانه خصومة الملائكة إجمالاً فيما تقدم ذكره هنا تفصيلاً فقال :

(١) وتام الحديث : راجع زاد المسير ١/ ١٥٥

(٢) السِّبَرَات جمع سَبْرَة ، وهي الغداة الباردة .

إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقَهُ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾

﴿ إذ قال ربك للملائكة ﴾ إذ هذه بدل من ﴿ إذ يختصمون ﴾ لاشتغال ما في حيز هذه على الخصومة ، وقيل هي منصوبة بإضمار اذكر ، والأول أولى إذا كانت خصومة الملائكة في شأن من يستخلف في الارض .

وأما إذا كانت في غير ذلك مما تقدم ذكره فالثاني أولى ﴿ إني خالق ﴾ أي فيما سيأتي من الزمن ﴿ بشراً ﴾ أي جسماً من جنس البشر وهو آدم عليه السلام مأخوذ من مباشرته للأرض أو من كونه بادي البشرة أي ظاهر الجلد ليس على جلده صوف ولا شعر ولا وبر ولا ريش ولا قشر .

وقوله ﴿ من طين ﴾ متعلق بمحذوف هو صفة لـ ﴿ بشراً ﴾ أو بـ ﴿ خالق ﴾ ومعنى ﴿ فإذا سويته ﴾ صورته على صورة البشر وصارت أجزاؤه مستوية وأتمته .

﴿ ونفخت ﴾ أي أجريت ﴿ فيه من روحي ﴾ أي من الروح الذي أملكه ، ولا يملكه غيري وقيل هو تمثيل ولا نفخ ولا منفوخ فيه ، والمراد جعله حياً بعد أن كان جماداً لا حياة فيه ، ويأباه ظاهر النظم الكريم فالأول أولى ، وقد مر الكلام عليه في سورة النساء والنفخ إجراء الروح إلى تجويف جسم صالح لإمساكها وإضافة الروح إليه تشريف لآدم عليه السلام والروح جسم لطيف يحيا به الإنسان بنفذه فيه وبه قال جمهور المتكلمين قاله الكرخي ؛ وقال النووي في شرح مسلم إنه الأصح عند أصحابنا ، وهو مشتبك بالبدن اشتباك الماء بالعود الأخضر ، وقال كثير منهم إنها عرض وهي الحياة التي صار البدن بوجودها حياً ، وقال الفلاسفة وكثير من الصوفية إنها ليست بجسم ولا

عرض ، بل جوهر مجرد قائم بنفسه غير متحيز ، متعلق للبدن للتدبير والتحرك غير داخل فيه ولا خارج عنه ووافقهم على ذلك الغزالي والراغب .
واحتج للأول بوصفها في الأخبار بالهبوط والعروج والتردد في البرزخ
أهـ .

وقيل جوهر شريف قدسي يسري في بدن الإنسان سريان الضوء في الفضاء أو كسريان النار في الفحم ، ذكره الخازن ، وأقول علم الروح مما استأثر الله تعالى بعلمه ، ولا يعلمه أحد من خلقه كائناً من كان ، والخوض في معرفته من فضول الأعمال ولغو الكلام ، وقد قال الله عز وجل ﴿ قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾

﴿ فقعوا له ساجدين ﴾ هو أمر من وقع يقع ، والسجود هنا هو سجود التحية لا سجود العبادة ، وفيه دليل على أن المأمور به ليس مجرد الانحناء كما قيل ، أي اسقطوا له ساجدين ، وقد مضى تحقيقه في سورة البقرة .

﴿ فسجد الملائكة ﴾ في الكلام حذف تدل عليه الفاء والتقدير : فخلقه فسواه ونفخ فيه من روحه فسجد له الملائكة ﴿ كلهم ﴾ يفيد أنهم سجدوا جميعاً ولم يبق منهم أحد وقوله ﴿ أجمعون ﴾ يفيد أنهم اجتمعوا على السجود في وقت واحد فالأول لقصد الإحاطة والثاني لقصد الاجتماع ، قال في الكشف فأفادا معاً أنهم سجدوا عن آخرهم ما بقي منهم ملك إلا سجد ، أنهم سجدوا جميعاً في وقت واحد ، غير متفرقين في أوقات وقيل إنه أكد بتأكيدين للمبالغة في التعميم ، وكان هذا السجود قبل دخول آدم الجنة أو بعده قولان .

﴿ إلا إبليس ﴾ الاستثناء متصل على تقدير أنه كان متصفاً بصفات الملائكة داخلاً في عدادهم فغلبوا عليه ، أو منقطع على ما هو الظاهر من عدم دخوله فيهم ، أي لكن إبليس ﴿ استكبر ﴾ أي أنف من السجود جهلاً منه بأنه طاعة لله ﴿ و ﴾ كان استكباره استكبار كفر فلذلك ﴿ كان من الكافرين ﴾ أي

صار منهم لمخالفته لأمر الله ، واستكباره عن طاعته ، أو كان من الكافرين في علم الله سبحانه ، وقد تقدم الكلام على هذا مستوفى في سورة البقرة والأعراف وبني إسرائيل والكهف وطه .

ثم إن الله سبحانه سأل عن سبب تركه للسجود الذي أمره به ﴿ قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي ﴾ وقرئ بالإنفراد أي ما صرفك وصدك عن السجود لما توليت خلقه من غير واسطة أب وأم وأضاف خلقه إلى نفسه تكريماً له وتشريفاً ، مع أنه سبحانه خالق كل شيء ، كما أضاف إلى نفسه الروح والبيت والناقة والمساجد .

قال مجاهد : اليد هنا لمعنى التأكيد والصلة مجازاً ، كقوله : ﴿ ويبقى وجه ربك ﴾ وقيل أراد باليد القدرة ، يقال : مالي بهذا الأمر يد ، ومالي به يدان ، أي قدرة ، وقيل : التثنية في اليد للدلالة على أنها ليست بمعنى القوة والقدرة ، بل للدلالة على أنها صفتان من صفات ذاته سبحانه ، وهو الأولى ، وقيل : التثنية لإبراز كمال الاعتناء بخلقه عليه السلام المستدعي لاجلاله وتعظيمه قصداً إلى تأكيد الإنكار وتشديد التوبيخ ، ما في قوله ﴿ لما خلقت ﴾ هي المصدرية أو الموصولة ، وقرئ لما بالتشديد مع فتح اللام على أنها ظرف بمعنى حين ، كما قال أبو علي الفارسي .

وعن عبد الله بن عمر قال : « خلق الله أربعاً بيده العرش وجنة عدن والقلم وآدم » أخرجه ابن جرير وأبو الشيخ في العظمة والبيهقي ، وعن عبد الله بن الحارث قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « خلق الله ثلاثة أشياء بيده خلق آدم بيده وكتب التوراة بيده ، وغرس الفردوس بيده » ، أخرجه ابن أبي الدنيا في صفة الجنة ، وأبو الشيخ في العظمة والبيهقي في الأسماء والصفات .

﴿ أستكبرت ﴾ قرئ بهمزة الاستفهام وهو استفهام توبيخ وتقريع فتكون أم في قوله : ﴿ أم كنت ﴾ متصلة أي أتركت السجود لاستكبارك الحادث أم لاستكبارك القديم المستمر ؟ وقرئ بألف الوصل فتكون أم منقطعة

والمعنى أستكبرت عن السجود الذي أمرت به ؟ بل أكنت ﴿ من العالين ﴾ أي المستحقين للترفع عن طاعة أمر الله المتعالين عن ذلك ، وجملة : ﴿ قال أنا خير منه ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر ، ادعى اللعين لنفسه أنه خير من آدم ، أي ولو كنت مساوياً له في الشرف لكان يقبح أن أسجد له ، فكيف وأنا خير منه ، وفي ضمن كلامه هذا أن سجود الفاضل للمفضول لا يحسن ،

ثم علل ما ادعاه من كونه خيراً منه بقوله :

﴿ خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾ وفي زعمه أن عنصر النار أشرف من عنصر الطين وأفضل منه ، لأن الأجرام الفلكية أشرف من الأجرام العنصرية ، والنار أقرب العناصر من الفلك ، والأرض أبعداها منه ، وأيضاً النار لطيفة نورانية والأرض كثيفة ظلمانية ، وهما خير منهما ، وذهب عنه أن النار إنما هي بمنزلة الخادم لعنصر الطين إن احتيج إليها استدعيت كما يستدعي الخادم ، وإن استغنى عنها طردت ، وأيضاً فالطين يستولي على النار فيطفئها وأيضاً فهي لا توجد إلا بما أصله من عنصر الأرض وأن مآل النار إلى الرماد الذي لا ينتفع به ، والطين أصل كل ما هو نام نابت كالإنسان والشجرة . ومعلوم أن الإنسان والشجرة المثمرة خير من الرماد وأفضل ، وعلى كل حال فقد شرف آدم بشرف وكرم بكرامة لا يوازيها شيء من شرف العناصر ، وذلك أن الله تعالى خلقه بيديه ونفخ فيه من روحه ، وأمر بالسجود له والجواهر في أنفسها متجانسة ، وإنما تشرف بعارض من عوارضها .

﴿ قال فاخرج منها ﴾ مستأنفة كالتي قبلها أي فاخرج من الجنة أو من زمرة الملائكة ، وقيل من الخلقة التي كنت عليها لأنه كان يفتخر بخلقته فغير الله خلقته واسود بعد ما كان أبيض ، وقبح بعدما كان حسناً ، وأظلم بعد ما كان نورانياً ، وهذا يدل على أنه لم يكن كافراً حين كان بين الملائكة ، ولأن الله تعالى لم يحك عنه إلا الاستكبار عن السجود ، فهذا دليل على أنه صار كافراً حين لم يسجد ، ذكره الطيبي ، ثم علل أمره بالخروج بقوله .

﴿ فإنك رجيم ﴾ أي مرجوم بالكواكب ، مطرود من كل خير ، ملعون

بترك أمره .

وإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَا أَغْوِيَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنَّهُ هُوَ الْوَدَّاعُ ﴿٨٧﴾ وَلَنَعْلَمَنَّ نَبَاهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾

﴿ وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين ﴾ أي طردني لك عن الرحمة وإبعادي لك منها إلى يوم الجزاء فأخبر الله سبحانه وتعالى أن تلك اللعنة مستمرة له دائمة عليه ما دامت الدنيا ، ثم في الآخرة يلقي من أنواع عذاب الله وعقوبته وسخطه ما هو به حقيق ، وليس المراد أن اللعنة تزول عنه في الآخرة ، بل هو ملعون أبداً ولكن لما كان له في الآخرة ما ينسى عنده اللعنة ويذهل عند الوقوع فيه منها صارت كأنها لم تكن بجنب ما يكون فيه .

﴿ قال رب فانظري ﴾ مستأنفة كما تقدم فيما قبلها أي أمهلني وأخرني ولا تعاجلني ﴿ إلى يوم يبعثون ﴾ يعني آدم وذريته للجزاء بعد فنائهم ، وأراد بذلك أن يجد فسحة لإغوائهم ، ويأخذ منهم ثأره ﴿ قال فإنك من المنظرين ﴾ أي الممهلين .

﴿ إلى يوم الوقت المعلوم ﴾ الذي قدره الله لفناء الخلائق وهو عند النفخة الآخرة ، وقيل : هو النفخة الأولى قيل إنما طلب إبليس الإنظار إلى يوم البعث ليتخلص من الموت لأنه إذا أنظر إلى يوم البعث لم يموت قبل البعث وعند مجيء البعث لا يموت فحينئذ يتخلص من الموت ، فأجيب بما يبطل مراده وينقض عليه مقصده وهو الإنظار إلى يوم الوقت المعلوم وهو الذي يعلمه الله ولا يعلمه غيره ، فلما سمع اللعين إنظار الله له إلى ذلك الوقت .

﴿ قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين ﴾ فأقسم بعزة الله أنه يضل بني آدم بتزيين الشهوات والمعاصي لهم ، وإدخال الشبهة عليهم حتى يصيروا غاوين جميعاً ، ولا ينافيه قوله تعالى : ﴿ فيما أغويتني ﴾ فإن إغواءه تعالى إياه أثر من آثار قدرته تعالى وعزته ، وحكم من أحكام قهره وسلطنته ، فمآل الإقسام بهما واحد ، ولعل اللعين أقسم بهما جميعاً فحكى تارة قسمه بإحدهما وأخرى بأخرى .

ثم لما علم أن كيده لا ينجع إلا في أتباعه وأحزابه من أهل الكفر والمعاصي استثنى من لا يقدر على إضلاله ولا يجد السبيل إلى إغوائه فقال ﴿ إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ أي الذين أخلصتهم لطاعتك ، وعصمتهم مني ، وقد تقدم تفسير هذه الآيات في سورة الحجر وغيرها .

﴿ قال فالحق والحق أقول ﴾ مستأنفة كالجمل التي قبلها قرأ الجمهور بنصب الحق في الموضعين ، على أنه مقسم به حذف منه حرف القسم ، فانتصب ، أو هما منصوبان على الإغراء أي الزموا الحق أو مصدران مؤكدان لمضمون قوله :

﴿ لأملأن جهنم ﴾ وقرئ برفع الأول ونصب الثاني ، فرفع الأول على أنه مبتدأ وخبره مقدر ، أي فالحق مني أو فالحق أنا أو خبره لأملأن أو هو خبر مبتدأ محذوف ، وأما نصب الثاني فبالفعل المذكور بعده ، أي وأنا أقول الحق ، وأجاز الفراء وأبو عبيدة أن يكون منصوباً بمعنى حقاً لأملأن جهنم واعترض عليهما بأن ما بعد اللام مقطوع عما قبلها ، وروي عن الفراء وسيبويه أيضاً أن المعنى فالحق أن أملأ جهنم وروي عن ابن عباس ومجاهد أنها قرأ برفعها فرفع الأول على ما تقدم ؛ ورفع الثاني بالابتداء ؛ وخبره الجملة المذكورة بعده والعائد محذوف .

وقرئ بخفضهما على تقدير حرف القسم ، قال الفراء : كما يقول الله عز وجل لأفعلن كذا ، وغلطه أبو العباس ثعلب ، وقال : لا يجوز خفض

بحذف مضمّر ، وقيل : جملة لأملأن جواب القسم على قراءة الجمهور ، وجملة والحق أقول معترضة بين القسم وجوابه .

﴿ منك ﴾ أي من جنسك من الشياطين ﴿ ومن تبعك منهم ﴾ أي من ذرية آدم ، فأطاعوك إذ دعوتهم إلى الضلالة والغواية ، و﴿ أجمعين ﴾ تأكيد للمعطوف والمعطوف عليه ، وجوز الزمخشري أن يكون تأكيداً للضمير في منهم خاصة ، أي لأملأن جهنم من الشياطين ومن تبعهم من جميع الناس ، لا تفاوت في ذلك بين ناس وناس ، ثم أمر الله سبحانه رسوله أن يخبرهم بأنه إنما يريد بالدعوة إلى الله امتثال أمره ، لا عرض الدنيا الزائل فقال :

﴿ قل ما أسألكم عليه من أجر ﴾ الضمير في عليه راجع إلى تبليغ الوحي ولم يتقدم له ذكر ولكنه مفهوم من السياق ، وقيل هو عائد إلى ما تقدم من قوله ﴿ أنزل عليه الذكر من بيننا ﴾ وقيل : الضمير راجع إلى القرآن ، وقيل إلى الدعاء إلى الله على العموم ، فيشمل القرآن وغيره من الوحي ، ومن قول الرسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمعنى ما أطلب منكم من جعل تعطونيّه عليه قال ابن عباس قل يا محمد : ما أسألكم على ما أدعوكم إليه من أجر عرض دنيا .

﴿ وما أنا من المتكلفين ﴾ أي المتصنعين بما ليسوا من أهله حتى انتحل النبوة وأتقول القرآن من تلقاء نفسي وأقول ما لا أعلم أو أدعوكم إلى غير ما أمرني الله بالدعوة إليه ، والتكلف التصنع .

وفي البخاري ومسلم وغيرهما عن مسروق قال : بينما رجل يحدث في المسجد فقال فيما يقول ﴿ يوم تأتي السماء بدخان مبين ﴾ قال : دخان يكون يوم القيامة يأخذ بأسماع المنافقين وأبصارهم ويأخذ المؤمنين كهيئة الزكام ، قال قمنا حتى دخلنا على عبدالله وهو في بيته وكان متكئاً فاستوى قاعداً فقال يا أيها الناس من علم منكم علماً فليقل به ، ومن لم يعلم فليقل : الله أعلم فإن من العلم أن يقول العالم لما لا يعلم : الله أعلم قال الله تعالى لرسوله صلى الله

عليه وسلم : ﴿ قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين ﴾

وأخرج البخاري عن عمر قال : « نهينا عن التكلف » ، وأخرج الطبراني والحاكم والبيهقي عن سلمان قال : « نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نتكلف للضيف »^(١) .

﴿ إن هو إلا ذكر للعالمين ﴾ أي ما هذا القرآن أو الوحي أو ما أدعوكم إليه إلا ذكر من الله عز وجل للجن والإنس العقلاء دون الملائكة ، لأن المراد بالذكر الموعظة والتخويف ، وتذكير العواقب ، وهذا إنما يناسب المتكلفين ، وهم الثقلان فقط ، تأمل .

﴿ ولتعلمن ﴾ أيها الكفار ﴿ نبأ ﴾ أي ما أنبأ به من الوعد والوعيد وغيرهما أو ما أخبر به من الدعاء إلى الله وتوحيده ، والترغيب إلى الجنة ، والتحذير من النار .

﴿ بعد حين ﴾ قال قتادة والزجاج والفراء بعد الموت ، وقال عكرمة وابن زيد : يوم القيامة ، وقال الكلبي من بقي علم ذلك لما ظهر أمره وعلا ، ومن مات علمه بعد الموت ، وقال السدي وذلك يوم بدر وقيل عند ظهور الإسلام وفشوه ، وكان الحسن يقول يا ابن آدم عند الموت يأتيك الخبر اليقين ، وفيه من التهديد ما لا يخفى .

(١) أخرجه في الصحيحين الأعمش وانظر صحيح الجامع الصغير ٦٧٤٨ برواية نهي عن التكلف للضيف .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الزمر

ويقال لها سورة الغرف

﴿ وهي إثنان وسبعون آية ، وقيل خمس وسبعون آية وهي مكية ﴾
في قول الحسن وعكرمة وجابر بن زيد . وأخرج النحاس في
نسخه عن ابن عباس قال : نزلت بمكة ، سورة ثلاث آيات نزلت بالمدينة
في وحشي . قاتل حمزة : ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم ﴾
الثلاث آيات . وقال آخرون إلا سبع آيات : من قوله : ﴿ قل يا عبادي
الذين ﴾ آخر السبع . وأخرج النسائي عن عائشة قالت : « كان
يصوم رسول الله صلوات الله عليه وسلم حتى نقول ما يريد أن يفطر .
ويفطر حتى نقول ما يريد أن يصوم . وكان يقرأ في كل ليلة بنج
إسرائيل والزمر »^(١) . وأخرجه الترمذي عنها بلفظ « كان رسول الله
صلوات الله عليه وسلم لا ينام حتى يقرأ الزمر وبنج إسرائيل » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾

﴿بسم الله الرحمن الرحيم تنزيل الكتاب﴾ ارتفاعه على أنه خبر مبتدأ محذوف هو اسم إشارة أي هذا تنزيل ، وقال أبو حيان إن المبتدأ المقدر لفظ هو ليعود على قوله ﴿إن هو إلا ذكر للعالمين﴾ كأنه قيل وهذا الذكر ما هو؟ فقيل هو تنزيل الخ ، وقيل ارتفاعه على أنه مبتدأ ، وخبره الجار والمجرور بعده ، أي تنزيل كائن من الله العزيز ، وإلى هذا ذهب الزجاج والفراء ، وأجاز الفراء والكسائي النصب على أنه مفعول به لفعل مقدر ، أي اتبعوا أو اقرأوا تنزيل الكتاب ، وقال الفراء يجوز نصبه على الاغراء أي الزموا والكتاب هو القرآن .

﴿من الله العزيز الحكيم﴾ صلة للتنزيل ، أو خبر بعد خبر ، أو خبر مبتدأ محذوف ، أو متعلق بمحذوف على أنه حال عمل فيه اسم الإشارة المقدر .

﴿إنا أنزلناه إليك الكتاب بالحق﴾ أي أنزلناه بسبب الحق ، وإثباته وإظهاره ، أو متلبسين بالحق ، أو متلبساً أو بداعية الحق واقتضائه للإنزال ، والمراد كل ما فيه من إثبات التوحيد والنبوة والمعاد وأنواع التكليف .

قال مقاتل يقول لم ننزله باطلاً لغير شيء ، وهذا ليس بتكرار ، لأن

الأول كالعنوان للكتاب ، والثاني لبيان ما في الكتاب ، أو المراد بالثاني هو الأول وإظهار لتعظيمه ومزيد الإعثناء بشأنه .

﴿ فاعبد الله مخلصاً له الدين ﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها أي محضاً له الدين من الشرك والرياء بالتوحيد ، وتصفية السر . والإخلاص أن يقصد العبد بعمله وجه الله سبحانه ، والدين العبادة والطاعة ، ورأسها توحيد الله ، وأنه لا شريك له .

وفي الآية دليل على وجوب النية وإخلاصها عن الشوائب لأن الاخلاص من الأمور القلبية التي لا تكون إلا بأعمال القلب وقد جاء في السنة الصحيحة أن ملاك الأمر في الأقوال والأفعال النية كما في حديث « إنما الأعمال بالنيات »^(١) وحديث « لا قول ولا عمل إلا بالنية » .

﴿ ألا لله الدين الخالص ﴾ مستأنفة مقررة لما قبلها من الأمر بالإخلاص ، أي إن الدين الخالص من شوائب الشرك وغيره هو الله وما سواه من الأديان فليس بدين الله الخالص ، الذي أمر به . قال قتادة الدين الخالص شهادة أن لا إله إلا الله .

وقد أخرج ابن مردويه عن يزيد الرقاشي أن رجلاً قال « يا رسول الله إنا نعطي أموالنا إلتماس الذكر فهل لنا في ذلك من أجر ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا ، قال يا رسول الله إنما نعطي إلتماس الأجر والذكر فهل لنا أجر ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله لا يقبل إلا ما أخلص له »^(٢) ثم تلا هذه الآية ، وقال الحسن الدين الاسلام .

ولما أمر سبحانه بعبادته على وجه الاخلاص ، وأن الدين الخالص له لا لغيره ، بين بطلان الشرك الذي هو مخالف للاخلاص فقال :

(١) سبق ذكره .

(٢) رواه النسائي (٥٩/٢) واسناده حسن كما قال الحافظ الواقفي في تخريج الاحياء ٣٢٨/٤ .

﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء﴾ الموصول عبارة من المشركين ، ومحلّه الرفع على الابتداء ، وخبره قوله ﴿إن الله يحكم بينهم﴾ وجملته ﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾ في محل نصب على الحال بتقدير القول والاستثناء مفرغ من أعم العلل ، والمعنى والذين لم يخلصوا العبادة لله بل شابوها بعبادة غيره قائلين ما نعبدهم لشيء من الأشياء إلا ليقربونا إلى الله تقريباً ، فالزلفى اسم أقيم مقام المصدر ، والضمير في نعبدهم راجع إلى الأشياء التي كانوا يعبدونها من الملائكة وعيسى والأصنام ، وهم المرادون بالأولياء ، والمراد بالزلفى الشفاعة كما حكاه الواحدي عن المفسرين .

قال قتادة : كانوا إذا قيل لهم من ربكم وخالفكم ؟ ومن خلق السموات والأرض ؟ ومن أنزل من السماء ماء ؟ قالوا الله . فيقال لهم : ما معنى عبادتكم للأصنام ؟ قالوا ﴿ليقربونا إلى الله زلفى﴾ ويشفعوا لنا عنده . قال الكلبي : جواب هذا الكلام قوله في سورة الأحقاف : ﴿فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً آلهة﴾ .

﴿إن الله يحكم بينهم﴾ أي بين أهل الأديان يوم القيامة فيجازي كلاً بما يستحقه ، فيدخل المؤمنين الجنة والكافرين النار وقيل بين المخلصين للدين وبين الذين لم يخلصوا وحذف الأول لدلالة الحال عليه ، وقيل : بين المتنازعين من الفريقين ﴿فيما هم فيه يختلفون﴾ أي في الذي اختلفوا فيه من الدين بالتوحيد والشرك ، فإن كل طائفة تدّعي أن الحق معها .

﴿إن الله لا يهدي﴾ أي لا يرشد لدينه ولا يوفق للاهتداء إلى الحق ﴿من هو كاذب﴾ في زعمه أن الآلهة تقربه إلى الله ﴿كفار﴾ أي كفر باتخاذها آلهة ، وجعلها شركاء لله لأنه فاقد للبصيرة غير قابل للاهتداء ، لتغييره الفطرة بالتمرن في الضلال ، والتمادي في الغي ، والجملّة تعليل لما ذكر من حكمه ، والكفار صيغة المبالغة تدل على أن كفر هؤلاء قد بلغ إلى الغاية ، وقرأ الحسن والأعرج كذاب على صيغة المبالغة ككفار ، ورويت هذه عن أنس .

لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَا صُطِفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنْ الْأَنْعَامِ ثَمَنِيَّةً ۚ أَزْوَاجٌ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ۚ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾

﴿لو أراد الله أن يتخذ ولداً لا صطفى﴾ هذا مقرر لما سبق من إبطال قول المشركين بأن الملائكة بنات الله لتضمنه استحالة الولد في حقه سبحانه على الإطلاق ، فلو أراد أن يتخذ ولداً لا تمتنع اتخاذ الولد حقيقة ، ولم يتأت ذلك إلا بأن يصطفى ﴿مما يخلق﴾ أي يختار من جملة خلقه .

﴿ما يشاء﴾ أن يصطفيه إذ لا موجود سواه إلا وهو مخلوق له ولا يصح أن يكون المخلوق ولداً للخالق لعدم المجانسة بينهما ، فلم يبق إلا أن يصطفيه عبداً ، كما يفيد التعبير بالاصطفاء ، مكان الاتحاد ، فمعنى الآية لو أراد أن يتخذ ولداً لوقع منه شيء ليس هو من اتخاذ الولد ، بل إنما هو الاصطفاء لبعض مخلوقاته ، ولهذا نزه سبحانه نفسه عن اتخاذ الولد على الإطلاق فقال : ﴿سبحانه﴾ أي تنزيهاً له عن ذلك وجملة ﴿هو الله الواحد﴾ مبينة لتنزهه بحسب الصفات بعد تنزهه بحسب الذات ، أي هو المستجمع لصفات الكمال المتوحد في ذاته فلا مماثل له .

﴿القهار﴾ لكل مخلوقاته ، ومن كان متصفاً بهذه الصفات استحال

وجود الولد في حقه ، لأن الولد مماثل لوالده ، ولا مماثل له سبحانه ، ومثل هذه الآية قوله سبحانه ﴿ لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا ﴾ والآية إشارة إلى قياس استثنائي حذفت صفراه ، ونتيجته تقريرهما ، لكنه لم يصطف أي لم يتخذ ولداً ، وهذا النفي باعترافهم شامل لسائر الخلائق ، فلم يرد اتخاذ الولد ، تأمل .

ثم لما ذكر سبحانه كونه منزهاً عن الولد بكونه إلهاً واحداً قهاراً ذكر ما يدل على ذلك من صفاته فقال : ﴿ خلق السموات والأرض بالحق ﴾ أي لم يخلقهما باطلاً لغير شيء ومن كان هذا الخلق العظيم خلقه استحال أن يكون له شريك أو صاحبة أو ولد ، ثم بين كيفية تصرفه في السموات والأرض فقال :

﴿ يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل ﴾ التكوير في اللغة طرح الشيء بعضه على بعض ، يقال كور المتاع ، إذا ألقى بعضه على بعض ، ومنه كور العمامة ، فمعنى تكوير الليل على النهار تغشيته إياه حتى يذهب ضوؤه ، ومعنى تكوير النهار على الليل تغشيته إياه حتى تذهب ظلمته ، وهو معنى قوله تعالى ﴿ يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً ﴾ هكذا قال قتادة وغيره قال الضحاك : أي يلقي هذا على هذا ، وهذا على هذا ، وهو مقارب للقول الأول .

وقيل معنى الآية أن ما نقص من الليل دخل في النهار ، وما نقص من النهار دخل في الليل ، وهو معنى قوله ﴿ يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ﴾ ومنتهى النقصان تسع ساعات ، ومنتهى الزيادة خمس عشرة ساعة ، وقيل : المعنى أن هذا يكر على هذا ، وهذا يكر على هذا كروراً متتابعاً ، قال الراغب تكوير الشيء إدارته ، وضم بعضه على بعض ، ككور العمامة أه .

وقيل التكوير اللف واللي ، وقال ابن عباس : يكور يحمل ، والإشارة بهذا التكوير المذكور في الآية إلى جريان الشمس في مطالعها ، وانتقاص الليل والنهار ، وازديادهما . قال الرازي : إن النور والظلمة عسكران عظيمان وفي كل يوم يغلب هذا ذاك وذاك هذا .

ثم ذكر تسخيرَه لسلطان النهار وسلطان الليل وهما الشمس والقمر فقال : ﴿ وسخر الشمس والقمر ﴾ أي جعلهما منقادين لأمره بالطلوع والغروب لمنافع العباد ثم بين كيفية هذا التسخير فقال : ﴿ كل يجري لأجل مسمى ﴾ أي يجري في فلكه إلى أن تنصرم الدنيا وذلك يوم القيامة : وقد تقدم الكلام على الأجل المسمى لجريهما مستوفى في سورة يس .

﴿ ألا هو العزيز الغفار ﴾ ألا حرف تنبيه ، وتصدير الجملة بها لإظهار كمال الاعتناء بضمونها . والمعنى تنبهوا أيها العباد فالله هو الغالب الساتر لذنوب خلقه بالمغفرة ، ثم بين سبحانه نوعاً آخر من قدرته وبديع صنعته فقال :

﴿ خلقكم من نفس واحدة ﴾ وهي نفس آدم ﴿ ثم جعل منها زوجها ﴾ جاء بـثم للدلالة على ترتب خلق حواء على خلق آدم وتراخيه عنه لأنها خلقت منه ، والعطف إما على مقدر وهو صفة لنفس قال الفراء والزجاج : التقدير خلقكم من نفس خلقها واحدة ، ثم جعل منها زوجها ، ويجوز أن يكون العطف على معنى واحدة . أي من نفس انفردت بالأيجاد ثم جعل الخ ، والتعبير بالجعل دون الخلق مع العطف بـثم للدلالة على أن خلق حواء من ضلع آدم أدخل في كونه آية باهرة ، دالة على كمال القدرة ، لأن خلق آدم هو على عادة الله المستمرة^(١) في خلقه ، وخلقها على الصفة المذكورة لم يجر به عادة لكونه لم يخلق سبحانه أنثى من ضلع رجل غيرها ، وقد تقدم تفسير هذه الآية مستوفى في سورة الأعراف . ثم بين سبحانه نوعاً آخر من قدرته الباهرة وأفعاله الدالة على ما ذكر فقال : ﴿ وأنزل لكم من الأنعام ﴾ عبر بالإنزال لما يروي أنه خلقها في الجنة ، ثم أنزلها فيكون الإنزال حقيقة كما قيل في قوله ﴿ وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ﴾ فإن آدم لما أهبط إلى الأرض أنزل معه

(١) إن خلق آدم لم يكن على عادة الله المستمرة في خلقه ، لأنه خلق من تراب وعلى غير مثال سابق ، فخلقه ربما يكون أدخل في كمال القدرة من خلق حواء .

أما بنوه فقد خلقوا على عادة الله المستمرة في خلقه ، وهي التناسل . ولعل هذا ما قصد إليه المؤلف من التعبير بكاف المخاطبين وميم الجمع في قوله تعالى : « خلقكم من نفس واحدة » .

الحديد ، ويحتمل أن يكون مجازاً ؛ لأنها لما لم تعيش إلا بالنبات والنبات إنما يعيش بالماء ، والماء منزل من السماء ، كانت الأنعام كأنها منزلة لأن سبب سببها منزل . وهذا يسمى التدرج ، ومنه قوله تعالى ﴿ قد أنزلنا عليكم لباساً ﴾ وقيل : إن أنزل بمعنى أنشأ وجعل ، أو بمعنى أعطى ، وقيل : جعل الخلق إنزالاً لأن الخلق إنما يكون بأمر ينزل من السماء .
﴿ ثمانية أزواج ﴾ هي ما في قوله ﴿ من الإبل اثنين ومن البقر اثنين ومن الضأن اثنين ، ومن المعز اثنين ﴾ ويعني بالاثنتين في الأربع المواضع الذكر والأنثى ، والزوج ما معه آخر من جنسه يزواجه ، ويحصل منهما النسل ، فيطلق لفظ الزوج على المفرد إذا كان معه آخر من جنسه لا ينفك عنه ، ويحصل منهما النسل ، وكذا يطلق على الإثنين فهو مشترك ، والمراد هنا الإطلاق الأول ، وقد تقدم تفسير هذه الآية في سورة الأنعام ، ثم بين سبحانه نوعاً آخر من قدرته البديعة فقال :

﴿ يخلقكم في بطون أمهاتكم ﴾ قرأ حمزة بكسر الهمزة والميم وقرأ الكسائي بكسر الهمزة وفتح الميم ، وقرأ الباقر بضم الهمزة وفتح الميم ، وإنما قال ﴿ في بطون أمهاتكم ﴾ مع أن الإنسان والحيوان مشترك في هذا الخلق لتغليب من يعقل ، ولشرف الإنسان على سائر الخلق ﴿ خلقاً ﴾ كائناً ﴿ من بعد خلق ﴾ الجملة استثنائية لبيان ما تضمنته من الأطوار المختلفة في خلقهم ، وخلقاً مصدر مؤكد للفعل المذكور ، ومن بعد خلق صفة له . قال قتادة والسدي نطفة ثم علقه ثم مضغة ثم عظماً ثم لحماً . وقال ابن زيد خلقكم خلقاً في بطون أمهاتكم من بعد خلقكم في ظهر آدم .

﴿ في ظلمات ثلاث ﴾ هي ظلمة البطن وظلمة الرحم ؛ وظلمة المشيمة ؛ قاله مجاهد وقتادة والضحاك ، وقال سعيد بن جبير ظلمة المشيمة ، وظلمة الرحم وظلمة الليل وقال أبو عبيدة ظلمة صلب الرجل ، وظلمة بطن المرأة ؛ وظلمة الرحم والرحم داخل البدن والمشيمة داخل الرحم قال ابن الأعرابي يقال لما يكون فيه الولد المشيمة والكيس والغلاف ؛ والجمع مشيم بحذف الهاء ، ومشاييم ، ويقال لها من غيره السلى ، والاشارة بقوله ﴿ ذلكم

الله ربكم ﴿إليه سبحانه باعتبار افعاله السابقة والاسم الشريف خبره وربكم خبر آخر .

﴿له الملك﴾ الحقيقي في الدنيا والآخرة لا شراكة لغيره فيه ، وهو خبر ثالث وقوله : ﴿لا إله إلا هو﴾ خبر رابع ﴿فأنى تصرفون﴾ أي فكيف تنصرفون عن عبادته ؟ وتتقلبون عنها إلى عبادة غيره ؟ أو تصرفون عن طريق الحق بعد هذا البيان ، ولما ذكر سبحانه النعم التي أنعم بها على عباده ، وبين لهم من بديع صنعته ، وعجيب فعله ، ما يوجب على كل عاقل أن يؤمن به عقبه بقوله : ﴿إن تكفروا فإن الله غني عنكم﴾ أي غير محتاج إليكم ولا إلى إيمانكم ولا عبادتكم له ، فإنه الغني المطلق .

﴿و﴾ مع كون كفر الكافر لا يضره كما أنه لا ينفعه إيمان المؤمن ، فهو أيضاً ﴿لا يرضى لعباده الكفر﴾ أي لا يرضى لأحد من عباده الكفر ، ولا يحبه ، ولا يأمر به ، ولا يفعل فعل الراضي بأن يأذن فيه ويقر عليه ، ويشيب فاعله ويمدحه ، بل يفعل فعل الساخط بأن ينهي عنه ويدم عليه ، ويعاقب مرتكبه ، وإن كان بإرادته إذ لا يخرج شيء عنها .

قال أبو السعود : عدم رضاه بكفر عباده لأجل منفعتهم ودفع مضرتهم ، رحمة عليهم لا لتضرره تعالى به انتهى . ومثل هذه الآية قوله ﴿إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد﴾ ومثلها ما ثبت في صحيح مسلم من قوله صلى الله عليه وسلم : «يا عبادي لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم كانوا على قلب أفجر رجل منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً»^(١) .

وقد اختلف المفسرون في هذه الآية هل هي على عمومها ؟ وأن الكفر غير مرضي لله سبحانه على كل حال كما هو الظاهر ، أو هي خاصة ، والمعنى لا يرضى لعباده المؤمنين الكفر ، وقد ذهب إلى التخصيص حبر الأمة ابن عباس رضي الله تعالى عنه ، وتابعه على ذلك عكرمة والسدي وغيرهما ، ثم اختلفوا في الآية اختلافاً آخر ، فقال قوم : إنه يريد كفر الكافر ولا يرضاه

وقال الآخرون : إنه لا يريد ولا يرضاه ، والكلام في تحقيق مثل هذا يطول جداً .
وقد استدل القائلون بتخصيص هذه الآية والمثبتون للإرادة مع عدم الرضا بما ثبت في آيات كثيرة من الكتاب العزيز أنه سبحانه ﴿ يضل من يشاء ويهدي من يشاء ﴾ ﴿ وما تشاؤون إلا أن يشاء الله ﴾ ونحو هذا مما يؤدي معناه كثير في الكتاب العزيز .

قال ابن عباس في قوله : (إن تكفروا) إلخ يعني الكفار الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم ، فيقولوا لا إله إلا الله ، ثم قال : ﴿ ولا يرضى لعباده الكفر ﴾ وهم عباده المخلصون ، الذين قال فيهم ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾ فألزمهم شهادة أن لا إله إلا الله ، وحببها إليهم أخرجه ابن جرير فيكون عاماً في اللفظ خاصاً في المعنى ، كقوله ﴿ عينا يشرب بها عباد الله ﴾ يريد بعض العباد وقال عكرمة لا يرضى لعباده المسلمين الكفر ، وعن قتادة قال ، والله ما رضي الله لعبده صلته ، ولا أمره بها ، ولا دعاه إليها ، ولكن رضي لكم طاعته ، وأمركم بها ، ونهاكم عن معصيته ، ثم لما ذكر سبحانه أنه لا يرضى لعباده الكفر بين أنه يرضى لهم الشكر فقال :

﴿ وإن تشكروا يرضه لكم ﴾ أي يرضى لكم الشكر ، المدلول عليه بقوله . وإن تشكروا أي يشكم عليه ، وإنما رضي لهم سبحانه الشكر لأنه سبب سعادتهم في الدنيا والآخرة . كما قال سبحانه ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾ لا لانتفاعه به ، قرىء بإسكان الهاء من يرضه ، وبإشباع الضمة على الهاء . واختلف الباؤون والقراءات كلها سبعة .

﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ أي لا تحمل نفس حاملة للوزر حمل نفس أخرى ، وهذا بيان لعدم سراية كفر الكافر لغيره أصلاً ، وقد تقدم تفسير هذه الآية مستوفى ﴿ ثم إلى ربكم مرجعكم ﴾ يوم القيامة ﴿ فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ من خير وشر ، وفيه تهديد شديد ﴿ إنه عليم بذات الصدور ﴾ أي بما تضره القلوب وتستره ، فكيف بما تظهره وتبديه ، وهذا تعليل بالتنبيه بالأعمال .

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ، مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَلَهُ نِعْمَةٌ مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوَ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّیُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَنِتٌ ءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾﴾

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ﴾ أي ضرر كان في جسمه أو ماله أو أهله أو ولده من بلاء ومرض أو فقر أو خوف أو شدة لأن اللفظ مطلق فلا معنى لتقييده ، والمس في الأعراض مجاز . وجواب إذا قوله ﴿دعا ربه منيباً إليه﴾ أي راجعاً إليه مستغيثاً به في دفع ما نزل به تاركاً لما كان يدعوه ويستغيث به من ميت أو حي ، أو صنم أو غير ذلك في حال الرخاء لعلمه أنها بمعزل عن القدرة على كشف ضرره .

﴿ثُمَّ إِذَا خَوَلَهُ نِعْمَةٌ مِّنْهُ﴾ أي أعطاه وملكه ، ويقال خوله الشيء أي ملكه إياه ولا يستعمل في الجزاء ، بل في ابتداء العطية ﴿نسي ما كان يدعو إليه من قبل﴾ أي نسي الضر الذي كان يدعو الله إلى كشفه عنه من قبل أن يخوله ما خوله وقيل نسي الدعاء الذي كان يتضرع به وتركه أو نسي ربه الذي كان يدعوه ، ويتضرع إليه ، ثم جاوز ذلك إلى الشرك بالله وهو معنى قوله : ﴿وجعل لله أنداداً﴾ أي شركاء من الأصنام أو غيرها ، يستغيث بها ويعبدها ؛ وقال السدي : يعنى أنداداً من الرجال يعتمد عليهم في جميع أموره ﴿ليضل عن سبيله﴾ أي ليضل الناس عن طريق الله التي هي الإسلام والتوحيد قرأ الجمهور بضم الياء ، وقرأ بفتحها ، وهما سبعيتان ، واللام للعاقبة ، ثم أمر الله سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم أن يهدد من كان متصفاً بتلك الصفة فقال :

﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ أي تمتعاً قليلاً أو زماناً قليلاً فمتاع الدنيا قليل قال الزجاج لفظه لفظ الأمر ومعناه التهديد والوعيد وفيه إشعار بأن الكفر

نوع تشه لا سند له ، وإقناط للكافرين من التمتع في الآخرة ، ولذلك علله بقوله :

﴿ إنك من أصحاب النار ﴾ على سبيل الاستئناف للمبالغة أي مصيرك إليها عن قريب ، وإنك ملازمها ومعدود من أهلها على الدوام ، وهو تعليل لقلة التمتع ، وفيه من التهديد أمر عظيم ، قيل : نزلت في عتبة بن ربيعة ، وقيل : في أبي حذيفة المخزومي ، وقيل : هو عام في كل كافر ، وهو الأوفق بقواعد الشريعة .

ثم لما ذكر سبحانه صفات المشركين وتمسكهم بغير الله عند اندفاع المكروهات عنهم ذكر صفات المؤمنين فقال :

﴿ آمن هو قانت ﴾ هذا إلى آخره من تمام الكلام المأمور به رسول الله صلى الله عليه وسلم والمعنى أذلك الكافر أحسن حالاً ومالاً آمن هو قائم بطاعات الله في السراء والضراء ، في ساعات الليل ، مستمر على ذلك ، غير مقتصر على دعاء الله سبحانه عند نزول الضرر به ؟ قرىء : آمن بالتشديد وبالتخفيف ، فعلى القراءة الأولى (أ) داخله على (من) الموصولة ، وأدغمت الميم في الميم وأم هي المتصلة ، ومعادلها محذوف ، أي الكافر خير ؟ أم الذي هو قانت ؟ وقيل ، هي المنقطعة مقدرة ببيل والهمزة ، أي بل آمن هو قانت كالكافر ؟ وعلى الثانية الهمزة للإستفهام ، والاستفهام للتقرير ، ومقابله محذوف ، أي آمن هو قانت كمن كفر ؟ وقال الفراء إن الهمزة في هذه القراءة للنداء ، ومن منادى ، وهي عبارة عن النبي صلى الله عليه وسلم المأمور بقوله :

﴿ قل تمتع بكفرك قليلاً ﴾ والتقدير : يا من هو قانت قل : كيت وكيت ، وقيل : التقدير يا من هو قانت إنك من أصحاب الجنة ، ومن القائلين بأن الهمزة للنداء الفراء ، وضعف ذلك أبو حيان وقال هو أجنبى عما قبله وعما بعده ، وقد سبقه إلى هذا التضعيف أبو علي الفارسي ، واعترض على هذه القراءة من أصلها أبو حاتم والأخفش ولا وجه لذلك ، فإنها إذا ثبتت

الرواية بطلت الدراية .

وقد اختلف في تفسير القانت هنا ف قيل المطيع ، وقيل : الخاشع أو القائم في صلاته ، وقيل : الداعي لربه ، قال النحاس : أصل القنوت الطاعة فكل ما قيل فيه فهو داخل في الطاعة .

﴿ آناء الليل ﴾ جمع إني بكسر الهمزة والقصر كمي وأمعاء ، وقيل : واحدها أنو ، يقال : مضى من الليل أنيان وأنوان والمراد بآناء الليل ساعاته وأوقاته ، وقيل : جوفه ، وقيل : ما بين المغرب والعشاء ، وقيل : أوله وأوسطه وآخره .

﴿ ساجداً وقائماً ﴾ منصوبان على الحال ، أي جامعاً بين السجود والقيام في الصلاة ، وقدم السجود على القيام لكونه أدخل في العبادة ، والآية دلت على ترجيح قيام الليل على النهار ، وأنه أفضل منه وذلك لأن الليل أستر فيكون أبعد عن الرياء ، ولأن ظلمة الليل تجمع الهم وتمنع البصر عن النظر إلى الأشياء ، وإذا صار القلب فارغاً عن الاشتغال بالأحوال الخارجية رجع إلى المطلوب الأصلي ، وهو الخشوع في الصلاة ، ومعرفة من يصلي له .

وقيل لأن الليل وقت النوم ومظنة الراحة فيكون قيامه أشق على النفس ، فيكون الثواب فيه أكثر قال ابن عباس : من أحب أن يهون الله عليه الوقوف يوم القيامة فليره الله في ظلمة الليل ، ذكره القرطبي .

﴿ يحذر الآخرة ﴾ أي يحذر عذاب الآخرة قاله سعيد بن جبير ومقاتل ﴿ ويرجو رحمة ربه ﴾ فيجمع بين الرجاء والخوف وما اجتمعا في قلب رجل إلا فاز قيل : وفي الكلام حذف تقديره كمن لا يفعل شيئاً من ذلك ، كما يدل عليه السياق ، قيل : الرحمة هنا المغفرة ، وقيل : الجنة ، وهذا يدل على أن جانب الرجاء أكمل ، وأولى أن ينسب إلى الله تعالى .

وعن ابن عمر أنه تلا هذه الآية وقال « ذاك عثمان بن عفان »^(١) . وفي

(١) قاله السيوطي في الدر (٣٢٣/٥) .

لفظ نزلت في عثمان بن عفان وعن ابن عباس قال : نزلت في عمار بن ياسر .
وأخرج الترمذي والنسائي وابن ماجه عن أنس قال « دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على رجل وهو في الموت فقال كيف تجدك ؟ قال أرجو الله وأخاف ذنوبي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله الذي يرجو ، وأمنه الذي يخاف » أخرجه من طريق سيار بن حاتم عن جعفر بن سليمان عن ثابت عن أنس قال الترمذي : غريب ، وقد رواه بعضهم عن ثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلًا .
ثم أمر الله سبحانه رسوله أن يقول لهم قولاً آخر ، يتبين به الحق من الباطل فقال :

﴿ قل هل يستوي الذين يعلمون ﴾ إن ما وعد الله به من البعث والثواب والعقاب حق ﴿ والذين لا يعلمون ﴾ ذلك أو الذين يعلمون ما أنزل الله على رسله والذين لا يعلمون ذلك أو المراد العلماء والجهال ، ومعلوم عند كل من له عقل أنه لا استواء بين العلم والجهل ، ولا بين العالم والجاهل . قال الزجاج أي كما لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون كذلك لا يستوي المطيع والعاصي .

وقيل المراد بالذين يعلمون هم العاملون بعلمهم ، فإنهم المتفعلون به لأن من لم يعمل بمنزلة من لم يعلم ، وقيل : افتتح الله الآية بالعمل وختمها بالعلم ، لأن العمل من باب المجاهدات والعلم من باب المكاشفات ، وهو النهاية فإذا حصل للانسان دل ذلك على كماله وفضله .

﴿ إنما يتذكر أولو الألباب ﴾ أي إنما يتعظ بوعظ الله ويتدبر ويتفكر فيه أصحاب العقول الصافية ، والقلوب النيرة ، وهم المؤمنون لا الكفار ، فإنهم وإن زعموا أن لهم عقولاً فهي كالعدم ، وهذه الجملة ليست من جملة الكلام المأمور به ، بل من جهة الله سبحانه بعد الأمر بما ذكر من القوارع الزاجرة عن الكفر والمعاصي ، لبيان عدم تأثيرها في قلوب الكفرة لاختلال عقولهم .

قُلْ يَاعِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ
 اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١١﴾ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ
 الدِّينَ ﴿١٢﴾

﴿ قل يا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ ﴾ لما نفى سبحانه المساواة بين
 من يعلم من لا يعلم ، وبين أنه ﴿ إنما يتذكر أولو الألباب ﴾ أمر رسوله
 صلى الله عليه وسلم بأن يأمر المؤمنين من عباده بالثبات على تقواه والإيمان به ،
 والمعنى يأيها الذين صدقوا بتوحيد الله اتقوا ربكم بطاعته واجتناب معاصيه ،
 وامثال أوامره وإخلاص الإيمان له ، ونفي الشركاء عنه ، والمراد : قل لهم
 قولي هذا بعينه ، ثم لما أمر الله سبحانه المؤمنين بالتقوى ، بين لهم ما في هذه
 التقوى من الفوائد فقال :

﴿ للذين أحسنوا ﴾ أي عملوا الأعمال الحسنة ﴿ في هذه الدنيا ﴾ على
 وجه الاخلاص ﴿ حسنة ﴾ عظيمة وهي الجنة ، وقوله ﴿ في هذه الدنيا ﴾ متعلق
 بأحسنوا وقيل بحسنة على أنه بيان لمكانها ، فيكون المعنى للذين أحسنوا في
 العمل حسنة في الدنيا بالصحة والعاقبة ، والظفر والغنمية ، والأول أولى ، ثم
 لما كان بعض العباد قد يتعسر عليه فعل الطاعات ، والإحسان في وطنه أرشد
 الله سبحانه من كان كذلك إلى الهجرة فقال :

﴿ وأرض الله واسعة ﴾ وبلاده كثيرة ، فليهاجر إلى حيث تمكنه طاعة الله
 والعمل بما أمر به ، والترك لما نهى عنه ، كما هو سنة الأنبياء والصالحين ، فإنه
 لا عذر له في التفريط أصلاً ؛ ومثل ذلك قوله سبحانه ﴿ ألم تكن أرض الله
 واسعة فتهاجروا فيها ﴾ وقد مضى الكلام في الهجره مستوفى في سورة
 النساء .

وقيل المراد بالأرض الواسعة هنا أرض الجنة ، رغبتهم في سعتها وسعة نعيمها كما في قوله ﴿جنة عرضها السموات والأرض﴾ والجنة قد تسمى أرضاً . قال تعالى ﴿وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوا من الجنة حيث نشاء﴾ والأول أولى .

وقيل ارتحلوا من مكة وتحولوا إلى بلاد آخر ؛ واقتدوا بالأنبياء والصالحين في مهاجرتهم إلى غير بلادهم ، ليزدادوا إحساناً إلى إحسانهم وطاعة إلى طاعتهم ؛ وفيه حث على الهجرة من البلد الذي يظهر فيه المعاصي وقيل من أمر بالمعاصي في بلد فليهرب منه ثم لما بين سبحانه ما للمحسنين إذا أحسنوا ؛ وكان لا بد في ذلك من الصبر على فعل الطاعة ؛ وعلى كف النفس عن الشهوات ، أشار إلى فضيلة الصبر وعظيم مقداره فقال :

﴿إنما يوفي الصابرون﴾ على مفارقة أوطانهم وعشائرتهم وعلى غيرها من تجرع الغصص ، واحتمال البلاء في طاعة الله : بزيادة ﴿أجرهم﴾ في مقابلة صبرهم وما كابدوه من العسر ﴿بغير حساب﴾ أي بما لا يقدر على حصره حاصر ولا يستطيع حسابه حاسب وإن كان معلوماً محصياً عند الله . قال عطاء : بما لا يهتدي إليه عقل ولا وصف . وقال مقاتل أجرهم الجنة وأرزاقهم فيها بغير حساب .

وقيل قوله إنما يوفي الصابرون ترغيب في التقوى المأمور بها . وإيثار الصابرين على المتقين للإيذان بأنهم حائزون لفضيلة الصبر ، كحيازتهم لفضيلة الإحسان لما أشير إليه من استلزام التقوى لهما مع ما فيه من زيادة حث على المصابرة والمجاهدة في تحمل مشاق الهجرة .

والحاصل أن الآية تدل على أن ثواب الصابرين وأجرهم لا نهاية له لأن كل شيء يدخل تحت الحساب فهو متناه ، وما كان لا يدخل تحت الحساب فهو

غير متناه ، وهذه فضيلة عظيمة ، ومثوبة جليلة ، تقتضي من كل راغب في ثواب الله ، وطامع فيما عنده من الخير أن يتوفر على الصبر ويزم نفسه بزمائه ، ويقيدها بقيده ، فان الجزع لا يرد قضاء قد نزل ، ولا يجلب خيراً قد سلب ، ولا يدفع مكروها قد وقع ، وإذا تصور العاقل هذا حق تصور ، وتعقله حق تعقله ، علم أن الصابر على ما نزل به قد فاز بهذا الأجر العظيم ، وظفر بهذا الخير الخطير ، وغير الصابر قد نزل به القضاء شاء أم أبى . ومع ذلك فاته من الأجر ما لا يقادر قدره ، ولا يبلغ مداه ، فضم إلى مصيئته مصيبة أخرى ولم يظفر بغير الجزع ، وما أحسن قول من قال :

أرى الصبر محموداً وعنه مذاهب فكيف إذا ما لم يكن عنه مذهب
هناك يحق الصبر والصبر واجب وما كان منه للضرورة أوجب

قال علي بن أبي طالب : كل مطيع يكال له كيلاً ويوزن له وزناً إلا الصابرين ، فإنه يحثى لهم حثياً ، وروي أنه يؤق بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ، ولا ينشر لهم ديوان ، ويصب عليهم الأجر حتى يتمنى أهل العافية في الدنيا لو أن أجسادهم تقرض بالمقاريض ، لما يذهب به أهل البلاء من الفضل ، ثم أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يخبرهم أولاً بما أمر به من التوحيد والإخلاص فقال :

﴿ قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين ﴾ أي أعبد عبادته خالصة من الشرك والرياء وغير ذلك ، قال مقاتل : « إن كفار قريش قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم ما يملكك على الذي أتيتنا به ؟ ألا تنظر إلى ملة أبيك وجدك ؟ وسادات قومك يعبدون اللات والعزى فتأخذ بها » ، (١) فأنزل الله الآية ، وقد تقدم بيان معنى الآية في أول هذه السورة ، ثم أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يخبرهم ثانياً بأنه مأمور بأن يكون أول من أطاع وانقاد وأسلم فقال :

(١) ذكره الخازن في تفسيره دون مسنده .

وَأُمِرْتُ لِأَن أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلْ
 اللَّهُ أَعْبَدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ﴿١٤﴾ فَأَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا
 أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ
 النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ يَعْبَادُونَ ﴿١٦﴾

﴿ وأمرت لأن أكون أول المسلمين ﴾ من هذه الأمة وكذلك كان صلى الله عليه وسلم فإنه أول من خالف دين آبائه ودعا إلى التوحيد ، ومعنى الأولية السبق بحسب الزمان ، فالمراد بالسبق السبق بحسب الدعوة ، فإن الأفضل أن من يدعو الغير إلى خلق كريم أن يدعو نفسه إليه أولاً ، ويتخلق به حتى يؤثر في الغير كسنة الأنبياء والصالحين ، لا الملوك والمتجبرين ، واللام للتعليل ، أي وأمرت بما أمرت به لأجل أن أكون ، وقيل : أنها مزيدة للتوكيد ، والأول أولى ، ثم أمره ثالثاً أن يخبرهم بخوفه من العذاب على تقدير العصيان فقال :

﴿ قل إني أخاف إن عصيت ربي ﴾ بترك إخلاص العبادة له ، وتوحيده والدعاء إلى ترك الشرك ، وتضليل أهله ﴿ عذاب يوم عظيم ﴾ وهو يوم القيامة قال أكثر المفسرين : المعنى إني أخاف إن عصيت ربي بإجابة المشركين إلى ما دعوني إليه من عبادة غير الله .

قال أبو حمزة اليماني وابن المسيب : هذه الآية منسوخة بقوله : ﴿ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ وفي هذه الآية دليل على أن الأمر للوجوب لأن قبله ﴿ إنما أمرت أن أعبد الله ﴾ ، فالمراد عصيان هذا الأمر ، وفيه زجر الغير عن المعاصي ، لأنه مع جلالة قدره وشرف طهارته ونزاهته ، ومنصب نبوته إذا كان خائفاً حذراً من المعاصي فغيره أولى بذلك ، ثم أمره رابعاً أن

يخبرهم بأنه امتثل الأمر وانقاد ، وعبد الله وأخلص له الدين على أبلغ وجه ، وآكده ، إظهاراً لتصلبه في الدين ، وحسماً لأطماعهم الفارغة ، وتهيداً لتهديدهم فقال :

﴿ قل الله أعبد ﴾ التقديم مشعر بالاختصاص ، أي لا أعبد غيره لا استقلالاً ولا على جهة الشراكة ، ومعنى ﴿ مخلصاً له ديني ﴾ أنه خالص لله غير مشوب بشرك ولا رياء ولا غيرهما ، وقد تقدم تحقيقه في أول السورة ، قال الرازي : فإن قيل ما معنى التكرير في قوله ﴿ إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين ﴾ ، وقوله ﴿ قل الله أعبد مخلصاً له ديني ﴾ قلنا ليس هذا بتكرير لأن الأول إخبار بأنه مأمور من جهة الله بالایمان والعبادة والثاني إخبار بأنه أمر أن لا يعبد أحداً غير الله .

﴿ فاعبدوا ما شئتم ﴾ أن تعبدوه ﴿ من دونه ﴾ هذا الأمر للتهديد والتقريع والتوبيخ ، كقوله ﴿ اعملوا ما شئتم ﴾ وفيه إيذان بأنهم لا يعبدون الله تعالى ، وقيل إن الأمر على حقيقته ، وهو منسوخ بآية السيف ، والأول أولى .

﴿ قل إن الخاسرين ﴾ الكاملين في الخسران هم ﴿ الذين خسروا أنفسهم وأهلهم يوم القيامة ﴾ بتخليد الأنفس في النار وبعدم وصولهم إلى الحور المعدة لهم في الجنة لو آمنوا لأن من دخل النار فقد خسر نفسه وأهله ، وأهلي جمع أهل وأصله أهلون أو أهلين والمراد بأهلهم أهل الآخرة ، وقيل أزواجهم وخدمهم وقيل أهلهم في الدنيا لأنهم إن كانوا من أهل النار فقد خسروهم ، كما خسروا أنفسهم ، وإن كانوا من أهل الجنة فقد ذهبوا عنهم ذهاباً لا رجوع بعده .

قال الزجاج وهذا يعني به الكفار ، فإنهم خسروا أنفسهم بالتخليد في النار ، وخسروا أهلهم لأنهم لم يدخلوا مدخل المؤمنين الذين لهم أهل في الجنة ، قال ابن عباس في الآية هم الكفار الذين خلقهم للنار ، زالت عنهم الدنيا وحرمت عليهم الجنة ، وعنه قال أهلهم من أهل الجنة ، كانوا أعدوا

لهم لو أطاعوا الله فغيبوهم .

﴿ ألا ذلك هو الخسران المبين ﴾ مستأنفة لتأكيد ما قبلها وتصديرها بحرف التنبيه للاشعار بأن هذا الخسران الذي حل بهم قد بلغ من العظم الى غاية ليس فوقها غاية ، وكذلك تعريف الخسران ووصفه بكونه مبيناً ، فإنه يدل على أنه الفرد الكامل من أفراد الخسران وأنه لا خسران يساويه ولا عقوبة تدانيه ثم بين سبحانه هذا الخسران الذي حل بهم والبلاء النازل عليهم بعد تهويله بطريق الابهام فقال :

﴿ لهم من فوقهم ظلل من النار ﴾ الظلل عبارة عن أطباق النار أي لهم من فوقهم أطباق وسرادقات وقطع كبار من النار تلتهب عليهم وإطلاق الظلل عليها تهكم وإلا فهي محرقة والظلة تقي من الحر .

﴿ ومن تحتهم ظلل ﴾ أي أطباق من النار وفراش ومهاد وسمي ما تحتهم ظلالاً لأنها من إطلاق اسم أحد الضدين على الآخر ، أو أن الظلة التحتانية لما كانت مشابهة للظلة الفوقانية في الايذاء والحرارة سميت باسمها لأجل المماثلة والمشابهة أو لأنها تظل من تحتها من أهل النار لأن طبقات النار صارت في كل طبقة منها طائفة من طوائف الكفار ، ومثل هذه الآية قوله ﴿ لهم في جهنم مهاد ومن فوقهم غواش ﴾ وقوله : ﴿ يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴾ .

﴿ ذلك ﴾ أي ما تقدم ذكره من وصف عذابهم في النار وهو مبتدأ وخبره قوله ﴿ يخوف الله به عباده ﴾ المؤمنين أي يحذرهم بما توعد به الكفار من العذاب ليخافوه فيتقوه وهو معنى ﴿ يا عباد فاتقون ﴾ أي اتقوا هذه المعاصي الموجبة لمثل هذا العذاب على الكفار ، ووجه تخصيص العباد بالمؤمنين أن الغالب في القرآن إطلاق لفظ العباد عليهم وقيل هو للكفار ، وأهل المعاصي وقيل هو عام للمسلمين والكفار .

وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ
يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُوا
الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ أَلَّا يَذَّكَّرَ أَلَمْ يَأْتِ الْفُلَّانَ نَذِيرٌ أَنَّمَا هِيَ
ذَاتُ مَخَافٍ وَسَوْءٌ مُّكَادِرٌ ﴿١٩﴾

﴿والذين اجتنبوا الطاغوت﴾ هو بناء مبالغة في المصدر كالرحموت والعظموت وهو الأوثان والشیطان ، وقال مجاهد وابن زيد : هو الشیطان وقال الضحاك والسدي : هو الأوثان وقيل : انه الكاهن ، وقيل : هو اسم أعجمي مثل طالوت وجالوت ، وقيل : انه اسم عربي مشتق من الطغيان إلا أن فيها قلباً بتقديم اللام على العين ، وفيها مبالغات ، وهي التسمية بالمصدر كأن عين الشیطان طغيان ، وإن البناء بناء مبالغة وهو للاختصاص إذ لا تطلق على غير الشیطان قال الأخفش : الطاغوت جمع ، ويجوز أن يكون واحده مؤنثاً ، والمعنى أعرضوا عن عبادته وخصوا عبادتهم بالله عز وجل ، وقوله :

﴿أن يعبدوها﴾ في محل نصب على البدل من الطاغوت ، بدل اشتمال كأنه قال اجتنبوا عبادة الطاغوت ، وقد تقدم الكلام على تفسير الطاغوت مستوفى في سورة البقرة .

﴿وأناوبوا الى الله﴾ معطوف على اجتنبوا ، والمعنى رجعوا إليه بالكلية ، وأقبلوا على عبادته ، معرضين عما سواه ﴿لهم البشرى﴾ بالثواب الجزيل وهو الجنة ، وهذه البشرى إما على السنة الرسل ، أو على السنة الملائكة عند حضور الموت أو عند البعث أو من الله تعالى لقوله ﴿تحيتهم يوم يلقونه سلام﴾ ولا مانع أن يكون من الله ومن الملائكة ، فان فضل الله واسع .

وقيل : لهم البشرى في الدنيا بالثناء عليهم بصالح أعمالهم ، وعند الوضع في القبر ، وفي الآخرة عند الخروج من القبر وعند الوقوف للحساب ، وعند جواز الصراط وعند دخول الجنة ، وفي الجنة ، ففي كل موقف من هذه

المواقف تحصل لهم البشارة ، بنوع من الخير والراحة والروح والريحان .

﴿ فبشر عباد ﴾ المراد بالعباد هنا العموم فيدخل الموصوفون بالاجتناب والانابة إليه دخولاً أولياً وقيل : المراد بهم هم الموصوفون باجتناب الأوثان والانابة إلى الله فالمقام للضمير ، وإنما أتى به ظاهراً توصلاً لوصفهم بما ذكر .

﴿ الذين يستمعون القول ﴾ الحق من كتاب الله وسنة رسوله ﴿ فيتبعون أحسنه ﴾ أي محكمه ، ويعملون به قال السدي : يتبعون أحسن ما يؤمرون به فيعملون بما فيه ، وقيل : هو الرجل يسمع الحسن والقبيح فيتحدث بالحسن وينكف عن القبيح فلا يتحدث به ، وقيل : يستمعون القرآن وغيره فيتبعون القرآن .

وقيل : يستمعون الرخص والعزائم فيتبعون العزائم ويتركون الرخص ، وقيل : يأخذون بالعفو ويتركون العقوبة ، وعن ابن عمر قال . كان سعيد بن زيد وأبو ذر وسلمان يتبعون في الجاهلية أحسن القول والكلام لا إله إلا الله قالوا بها ، فأنزل الله على نبيه ﴿ يستمعون القول فيتبعون أحسنه ﴾ الآية ثم أثنى الله سبحانه على هؤلاء المذكورين فقال :

﴿ أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب ﴾ أي هم الذين أوصلهم إلى الحق ، وهم أصحاب العقول الصحيحة ، لأنهم الذين انتفعوا بعقولهم ، ولم ينتفع من عداهم بعقولهم ، وأخرج ابن مردويه عن أبي سعيد قال : « لما نزلت فبشر عبادي الذين أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم منادياً فنادى من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة فاستقبل عمر الرسول فردّه ، فقال يا رسول الله خشيت أن يتكل الناس فلا يعملون ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو يعلم الناس قدر رحمة ربي لاتكلوا ، ولو يعلمون قدر سخط ربي وعقابه لاستصغروا أعمالهم » . وهذا الحديث أصله في الصحيح من حديث أبي هريرة .

وفي الآية إشارة إلى إثارة الاتباع ، وترك التقليد ، لأن الله قد أثنى على المتبعين بكونهم مهديين ، وسماهم أولي الألباب ، ولم يثن على التقليد ولا على أهله في موضع من القرآن الكريم ، بل ذمه وذمهم في غير موضع كما تقدم مراراً ثم ذكر سبحانه من سبقت له الشقاوة وحرمة السعادة فقال :

﴿ أفمن حق عليه كلمة العذاب ﴾ من هذه موصولة في محل رفع على الابتداء ، وخبرها محذوف ، أي كمن يخاف ، أو فأنت تخلصه أو تتأسف عليه أو شرطية وجوابه قوله ﴿ أفأنت تنقذ من في النار ﴾ فالفاء فاء الجواب ، دخلت على جملة الجزاء وأعيدت الهمزة الإنكارية لتأكيد معنى الإنكار ، وقال سيبويه إنه كرر الاستفهام لطول الكلام ، وقال الفراء المعنى أفأنت تنقذ من حقت عليه كلمة العذاب ؟ والمراد بها قوله تعالى لابليس : ﴿ لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين ﴾ وقوله ﴿ لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين ﴾ وقيل قوله هؤلاء في النار ولا أبالي .

ومعنى الآية التسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه كان حريصاً على إيمان قومه فأعلمه الله أن من سبق عليه القضاء وحقت عليه كلمة الله لا يقدر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينقذه من النار ، بأن يجعله مؤمناً ، قال عطاء يريد أبا لهب وولده ومن تخلف من عشيرة النبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان .

وفي الآية مجاز بإطلاق المسبب وإرادة السبب ، وتنبيه على أن المحكوم عليه بالعذاب بمنزلة الواقع في النار ، وأن اجتهاده في دعائهم إلى الإيمان سعي في إنقاذهم من النار ، وأصل الكلام : أفأنت تهدي من هو منغمس في الضلال ؟ فوضع النار موضع الضلال ، وضعاً للمسبب موضع السبب لقوة أمره ، ثم عقب المجاز بما يناسبه من قوله تنقذ بدل تهدي فهو ترشيح ، ولما ذكر سبحانه فيما سبق أن لأهل الشقاوة ظلاً من فوقهم من النار ومن تحتهم ظلاً استدرك عنهم من كان من أهل السعادة فقال :

لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَ اللَّهُ
 لَا يَخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعٌ فِي
 الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرْتَهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ
 حُطًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٢١﴾

﴿ لكن الذين اتقوا ربهم ﴾ وهم الذين خوطبوا بقوله ﴿ يعباد فاتقون ﴾ ووصفوا بما عدد من الصفات الفاضلة ، وهم المخاطبون أيضا فيما سبق بقوله . ﴿ يعباد الذين آمنوا اتقوا ربكم ﴾ الآية ، وقيل لكن ليست للاستدراك لأنه لم يأت قبله نفي ، بل هو إضراب عن قصة الى قصة مخالفة للأولى .

﴿ لهم غرف من فوقها غرف ﴾ أي منازل في الجنة رفيعة ، فوقها منازل هي أرفع منها ، وذلك لأن الجنة درجات بعضها فوق بعض وقوله لهم غرف في معنى وعدهم الله بذلك ، وعدا لا يخلفه وأنها ﴿ مبنية ﴾ بناء المنازل في إحكام أساسها وقوة بنائها ، وإن كانت منازل الدنيا ليست بشيء بالنسبة إليها .

﴿ تجري من تحتها الأنهار ﴾ أي من تحت تلك الغرف الفوقانية والتحتانية وفي ذلك كمال لبهجتها ، وزيادة لرونقها وانتصاب ﴿ وعد الله ﴾ على المصدورية المؤكدة لمضمون الجملة لأن قوله لهم غرف في معنى وعدهم الله ذلك ، وجملة :

﴿ لا يخلف الله الميعاد ﴾ مقررة للوعد ، أي لا يخلف الله ما وعد به الفريقين من الخير والشر ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن أهل الجنة يتراوون أهل الغرف من فوقهم كما يتراوون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق ، أو المغرب ، لتفاضل ما بينهم ، فقالوا يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم ،

قال بلى والذي نفسي بيده ، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين»^(١) ، متفق عليه .

ولما ذكر سبحانه الجنة ووصفها بوصف يوجب الرغبة والشوق إليها أتبعه بذكر الدنيا ووصفها بوصف يوجب الرغبة عنها ، والنفرة منها ، فذكر تمثيلاً لها في سرعة زوالها وقرب اضمحلالها ، مع ما في ذلك من ذكر نوع من أنواع قدرته الباهرة ، وصنعه البديع فقال :

﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء ﴾ أي من السحاب مطراً ﴿ فسلكه ﴾ أي فأدخله وأسكنه ﴿ ينابيع ﴾ أي عيوناً ومسالك ومجاري وركايا ﴿ في الأرض ﴾ كالعروق في الجسد ، والينابيع جمع ينبوع من نبع الماء ينبع ، والينبوع عين الماء والأمكنة التي ينبع منها الماء من خلال الأرض أو نفس الماء الجاري والمعنى :

أدخل الماء النازل من السماء في الأرض ، وجعله فيها عيوناً جارية أو جعله في ينابيع أي في أمكنة ينبع منها الماء فهو على الوجه الثاني منصوب بنزع الخافض ، قال مقاتل : فجعله ركايًا وعيوناً في الأرض ، وقال ابن عباس ما في الأرض ماء إلا نزل من السماء ، ولكن عروق في الأرض تغيره ، فذلك قوله ﴿ فسلكه ينابيع في الأرض ﴾ فمن سره أن يعود الملع عذباً فليصعده .

﴿ ثم يخرج به ﴾ أي بذلك الماء من الأرض ، وصيغة المضارع لاستحضار الصورة ﴿ زرعاً مختلفاً ألوانه ﴾ من أصفر وأخضر وأبيض وأحمر ؛ أو من بر وشعير وغيرهما إذا كان المراد بالألوان الأصناف ، وشمل لفظ الزرع جميع ما يستنتب حتى المقات .

﴿ ثم يهيج ﴾ أي يجف وييبس يقال : هاج النبت يهيج هيجاً إذا تم جفافه وحاد له أن ينتشر عن منبته ، قال الجوهري : يقال : هاج النبت هياجاً

إذا يبس ، وأرض هايجة يبس بقلها ، أو اصفر ، وأهاجت الريح النبات أيبسته ، قال المبرد قال الأصمعي يقال : هاجت الأرض تهيج إذا أدبر نبتها وولى قال وكذلك هاج النبات ﴿ فتراه ﴾ بعد خضرته ونضارته ، وحسن رونقه ﴿ مصفراً ﴾ قد ذهب خضرته وزالت نضارته .

﴿ ثم يجعله حطاماً ﴾ أي متفتتاً متكسراً ، من تحطم العود إذا تفتت من اليبس ، ويقال للدابة إذا أسنت حطمة ، ويتعدى بالحركة فيقال : حطمته حطماً من باب ضرب فانحطم ، وحطمته بالتشديد مبالغة ، قرأ الجمهور : ثم يجعله بالرفع عطفاً على ما قبله ، وقرئ بالنصب بإضمار أن ولا وجه لذلك .

﴿ إن في ذلك ﴾ المذكور من الأفعال الخمسة التي أولها أنزل ﴿ لذكرى لأولي الألباب ﴾ أي لتذكيراً لأهل العقول الصحيحة ، فإنهم الذين يتعقلون الأشياء على حقيقتها ، فيتفكرون ويعتبرون ، ويعلمون بأن الحياة الدنيا حالها كحال هذا الزرع في سرعة التصرم ، وقرب التقضي ، وذهاب بهجتها ، وزوال رونقها ونضارتها ، فإذا أنتج لهم التفكير والاعتبار العلم بذلك لم يحصل منهم الاغترار بها ، والميل اليها ، وإيثارها على دار النعيم الدائم والحياة المستمرة ، واللذة الخالصة ، ولم يبق معهم شك في أن الله قادر على البعث والحشر ، لأن من قدر على هذا قدر على ذلك .

وقيل : هو مثل ضربه الله للقرآن ولصدور من في الأرض ، والمعنى أنزل من السماء قرآناً فسلكه في قلوب المؤمنين ، ثم يخرج به ديناً بعضه أفضل من بعض ، فأما المؤمن فيزداد إيماناً وبقيناً ، وأما الذي في قلبه مرض فانه يهيج كما يهيج الزرع ، وهذا بالتغيير أشبه منه بالتفسير ، ثم لما ذكر سبحانه ﴿ إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب ﴾ ذكر شرح الصدر للاسلام لأن الانتفاع الكامل لا يحصل إلا به فقال :

أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ۖ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبِهِمْ مِّن ذِكْرِ
 اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَبِهًا مَّثَانِيَ
 تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ
 ذَٰلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ ﴿٢٣﴾

﴿ أفمن شرح الله صدره للإسلام ﴾ أي وسعه لقبول الحق وفتحته
 للاهتداء الى سبيل الخير ، قال السدي : وسع صدره للإسلام للفرح به ،
 والطمانينة إليه . وشرح الصدر للإسلام عبارة عن تكميل الاستعداد له ، فإنه
 محل للقلب الذي هو منبع الروح التي تتعلق بها النفس القابلة للإسلام ،
 فانشراحه مستدع لانشراح القلب ، والكلام في الهمزة والفاء كما تقدم في
 ﴿ أفمن حق ﴾ ومن الخ مبتدأ وخبرها محذوف تقديره كمن قسا قلبه ، وطبع
 الله عليه ، وخرج صدره فلم يهتد .

ودل على هذا الخير المحذوف قوله : ﴿ فويل للقاسية قلوبهم ﴾
 والمعنى أفمن وسع الله صدره للإسلام فقبله واهتدى بهديه ﴿ فهو ﴾ بسبب
 ذلك الشرح ﴿ على نور ﴾ أي على بيان وبصيرة ويقين وهداية ﴿ من ربه ﴾
 يفيض عليه كمن قسى قلبه لسوء اختياره ؟ فصار في ظلمات الضلالة وبلبات
 الجهالة .

قال قتادة : النور كتاب الله به يؤخذ وإليه ينتهي . قال الزجاج تقدير الآية
 أفمن شرح الله صدره كمن طبع على قلبه فلم يهتد لقسوته ؟ قال ابن عباس

من شرح الله صدره للإسلام أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه .

وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال : « تلا النبي صلى الله عليه وسلم هذه الآية قلنا : يا نبي الله كيف انشرح صدره ؟ قال : إذا دخل النور القلب انشرح وانفسح ، قلنا : فما علاقة ذلك يا رسول الله ؟ قال الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور والتأهب للموت قبل نزول الموت » .
وأخرج ابن مردويه عن محمد بن كعب القرظي مرفوعاً مرسلًا .

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن ابن عمر أن رجلاً قال : « يا نبي الله أي المؤمنين أكيس ؟ قال أكثرهم ذكراً للموت وأحسنهم له استعداداً ، وإذا دخل النور في القلب انفسح واستوسع ، فقالوا ما آية ذلك يا نبي الله ؟ قال الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل نزول الموت » ، وأخرجه عن أبي جعفر عبد الله بن المسور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بنحوه ، وزاد فيه ثم قرأ ﴿ أفمن شرح الله صدره للإسلام ﴾ .

﴿ فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله ﴾ قال الفراء والزجاج أي عن ذكر الله كما تقول اتخمت عن طعام أكلته ومن طعام أكلته والمعنى أنه غلظ قلبه وجفا عن قبول ذكر الله والقسوة جمود وصلابة تحصل في القلب ، يقال قسى القلب إذا صلب ، وقلب قاس أي صلب لا يرق ولا يلين ، وقيل المعنى من أجل ذكره الذي من حقه أن تنشرح له الصدور ، وتطمئن به القلوب ، والمعنى أنه إذا ذكر الله اشمأزوا ، والأول أولى ، ويؤيده قراءة من قرأ عن ذكر الله ، أي إذا ذكر الله عندهم أو آياته ازدادت قلوبهم قساوة ، كقوله : ﴿ فزادتهم رجساً إلى رجسهم ﴾ .

وقيل إن النفس إذا كانت خبيثة الجواهر كدرة العنصر بعيدة عن قبول

الحق فإن سماعها لذكر الله لا يزيدها إلا قسوة وكدورة كحر الشمس يلين الشمع ويعقد الملح ، فكذلك القرآن يلين قلوب المؤمنين عند سماعه ، ولا يزيد الكافرين إلا قسوة .

قال مالك بن دينار ما ضرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب ، وما غضب الله تعالى على قوم إلا نزع منهم الرحمة ، وأخرج الترمذي ، وابن مردويه وابن شاهين في الترغيب في الذكر ، والبيهقي في الشعب ، عن ابن عمر ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب ، وإن أبعد الناس من الله القلب القاسي »^(١).

والإشارة بقوله ﴿ أولئك ﴾ الى القاسية قلوبهم ﴿ في ضلال مبين ﴾ أي غواية ظاهرة واضحة ثم ذكر سبحانه بعض أوصاف كتابه العزيز فقال :

﴿ الله نزل أحسن الحديث ﴾ يعني القرآن الذي فيه مندوحة عن سائر الأحاديث ، وسماه حديثاً لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحدث به قومه ، ويخبرهم بما ينزل عليه منه ، وفيه بيان أن أحسن القول المذكور سابقاً هو القرآن ، وفي إيقاع الاسم الشريف مبتدأ ؛ وبناء نزل عليه تفخيم لشأن أحسن الحديث والوصف بهذا لوجهين .

أحدهما من جهة اللفظ ، لأن القرآن من أفصح الكلام وأجزله وأبلغه ، وليس هو من جنس الشعر ، ولا من جنس الخطب والرسائل ، بل هو نوع يخالف الكل في أسلوبه ، والثاني من جهة المعنى لأنه كتاب منزّه عن التناقض والاختلاف ، مشتمل على أخبار الماضين وقصص الأولين ، وعلى أخبار الغيوب الكثيرة ، وعلى الوعد والوعيد ، والجنة والنار وغير ذلك .

(١) روى ابن ماجه (٤١٩٣) لا تكثروا الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب . وروى البوصيري في الزوائد (ق ١/٢٥٨) والترمذي (٥٠/٢) .

﴿ كتاباً ﴾ بدل من أحسن الحديث أو حال منه ﴿ متشابهاً ﴾ صفة لكتاب أي يشبه بعضه بعضاً في الحسن والاحكام ، وصحة المعاني وقوة المباني ، وبلوغه إلى أعلى درجات البلاغة ، والدلالة على المنافع العامة ، وقال قتادة يشبه بعضه بعضاً في الآي والحروف ، وقيل يشبه كتب الله المنزلة على أنبيائه ، عن ابن عباس قال : قالوا يا رسول الله لو حدثتنا فنزل ﴿ الله نزل أحسن الحديث ﴾ الآية .

﴿ مثاني ﴾ صفة أخرى لكتاب وهو جمع مثني أو مثني وانه من التثنية بمعنى التكرير أي تنثني فيه القصص وتكرر فيه المواعظ والأحكام وقيل ينثني في التلاوة فلا يمل سماعه ولا يسأم قارئه قرأ الجمهور مثاني بفتح الياء وقرئ بسكونها تخفيفاً واستثقالاً لتحريكها أو على أنها خبر مبتدأ محذوف أي هو مثاني .

قال ابن عباس القرآن كله مثاني وعنه قال القرآن يشبه بعضه بعضاً ويرد بعضه الى بعض ، وعنه قال كتاب الله مثاني ثني فيه الأمر مراراً وصح وصف الواحد بالجمع لأن الكتاب جملة ذات تفاصيل وتفاصيل الشيء هي جملته لا غير ألا تراك تقول القرآن أسباع وأخماس وسور وآيات فكذلك تقول أحكام وأقاصيص ومواعظ مكررات ، ونظيره قولك الانسان عروق وعظام وأعصاب . أو منصوب على التمييز من (متشابهاً) كما تقول رأيت رجلاً حسناً شمائل ، والمعنى متشابهة مثانية .

قال الرازي في تبين معنى مثاني إن أكثر الأشياء المذكورة في القرآن متكررة زوجين زوجين ، مثل الأمر والنهي والعام والخاص والمجمل والمفصل ، وأحوال السموات والأرض والجنة والنار ، والنور والظلمة ، واللوح والقلم والملائكة والشياطين والعرش والكرسي والوعد والوعيد والرجاء ، والخوف ، والمقصود في ذلك البيان أن كل شيء ما سوى الحق زوج ، وأن الفرد الأحد الحق هو الله ولا يخفى ما في كلامه هذا من التكلف والبعد عن

مقصود التنزيه .

﴿ تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ﴾ أي تضطرب وتتحرك وتشمئز صفة الكتاب أو حال منه ، لأنه وإن كان نكرة فقد تخصص بالصفة ، أو مستأنفة لبيان ما يحصل عند سماعه من التأثير لسامعيه ، والاقشعرار التقبض . يقال اقشعر جلده إذا تقبض ، وتجمع من الخوف ، ووقف شعره ومنه القشعريرة ، والمعنى أنها تأخذهم منه قشعريرة .

قال الزجاج : إذا ذكرت آيات العذاب اقشعرت جلود الخائفين لله ، وهي تغير يحدث في جلد الانسان عند ذكر الوعيد ، والوجل والخوف . وقيل المراد بالجلود القلوب والأول أولى لذكرها فيما بعد . قال الواحدي : وهذا قول جميع المفسرين .

وقيل : المعنى إن القرآن لما كان في غاية الجزالة والبلاغة ، فكانوا إذا رأوا عجزهم عن معارضته اقشعرت الجلود منه إعظاماً له ، وتعجباً من حسنه وبلاغته . عن عبد الله بن عبد الله بن الزبير قال : قلت لجدي أسماء كيف كان يصنع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا قرأوا القرآن ؟ قالت : « كانوا كما نعتهم الله تدمع أعينهم ، وتقشعر جلودهم ، قلت : فإن ناساً ههنا إذا سمعوا ذلك تأخذهم عليه غشية ، قالت : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » .

﴿ ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ﴾ عدى تلين بإلى لتضمينه فعلاً يتعدى بها ، كأنه قيل : سكنت واطمأنت إلى ذكر الله لينة غير منقبضة ، ومفعول ذكر الله محذوف ، والتقدير الى ذكر الله رحمته وثوابه وجنته وحذف للعلم به .

قال بعض العارفين : إذا نظروا إلى عالم الجلال طاشوا ، وإذا لاح لهم

عالم الجمال عاشوا . قال قتادة : هذا نعت أولياء الله نعتهم بأنهم تقشعر جلودهم وتطمئن قلوبهم الى ذكر الله ، ولم ينعتهم بذهاب عقولهم ، والغشيان عليهم إنما ذلك في أهل البدع وهو من الشيطان .

وروي أن ابن عمر مر برجل من أهل العراق ساقط فقال : ما بال هذا . قالوا : انه إذا قرىء عليه القرآن أو سمع ذكر الله سقط ، فقال ابن عمر : إنا لنخشى الله وما نسقط ، وعنه قال : إن الشيطان يدخل في جوف أحدهم ، ما كان هذا صنيع أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

وذكر عند ابن سيرين الذين يصرعون إذا قرىء عليهم القرآن فقال : بيننا وبينهم أن يقعد أحدهم على ظهر بيت باسطاً رجله ، ثم يقرأ عليه القرآن من أوله إلى آخره . فإن رمى بنفسه فهو صادق .

وذكرت الجلود وحدها أولاً ثم قرنت بها القلوب ثانياً لأن محل الخشية القلب فكان ذكرها يتضمن ذكر القلوب ، وقيل : إن المكاشفة في مقام الرجاء أكمل منها في مقام الخوف ، لأن الخير مطلوب بالذات ، والخوف ليس بمطلوب ، وإذا حصل الخوف اقشعر منه الجلد ، وإذا حصل الرجاء اطمأن اليه القلب ، ولان الجلد .

﴿ ذلك ﴾ الكتاب الموصوف بتلك الصفات ﴿ هدى الله يهدي به من يشاء ﴾ أن يهديه من عباده ، وقيل الإشارة إلى ما وهبه الله لهؤلاء من خشية عذابه ورجاء ثوابه ﴿ ومن يضل الله ﴾ أي يجعل قلبه مظلماً قاسياً غير قابل للحق ﴿ فما له من هاد ﴾ يهديه الى الحق ، ويخلصه من الضلال ، قرأ الجمهور من هاد بغير ياء وقرىء بالياء ، ثم لما حكم على القاسية قلوبهم بحكم في الدنيا وهو الضلال ، حكم عليهم في الآخرة بحكم آخر وهو العذاب فقال :

أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَاْتَتْهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَاِذَا قَهُمُ اللَّهُ الْحَزَنَى فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَنْذَكُرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَنْقُورُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَكِّسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مِيتٌ وَإِنَّهُمْ مَمِيتُونَ ﴿٣٠﴾

﴿ أفمن يتقي بوجهه ﴾ الاستفهام للانكار وقد تقدم الكلام فيه ، وهذه الفاء الداخلة على من في قوله : أفمن حق عليه عاطفه ومن مبتدأ والخبر محذوف لدلالة المقام عليه ، والمعنى أفمن شأنه أن يقي نفسه بوجهه الذي هو أشرف أعضائه ﴿ سوء العذاب يوم القيامة ﴾ لكون يده قد صارت مغلوله إلى عنقه كمن هو آمن لا يعتريه شيء من ذلك ، ولا يحتاج إلى الاتقاء ؟ قال الزجاج المعنى أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب كمن يدخل الجنة ؟ .

قال عطاء وابن زيد يرمي به مكتوفاً في النار ، فأول شيء تمس النار منه وجهه . وقال ابن عباس : ينطلق به الى النار مكتوفاً ثم يرمي به فيها ، فأول ما يمس وجهه النار . وقال مجاهد يجز على وجهه في النار . قال الأخفش المعنى أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب أفضل ؟ أم من سعد ؟ مثل قوله تعالى ﴿ أفمن يلقى في النار خيراً أم من يأتي آمناً يوم القيامة ﴾ ثم أخبر سبحانه عما يقوله الخزنة للكفار فقال :

﴿ وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون ﴾ وهو معطوف على يتقي أي ويقال لهم ، وجاء بصيغة الماضي للدلالة على التحقيق ، ووضع الظاهر موضع المضممر للتسجيل عليهم بالظلم ، والإشعار بعله الأمر في قوله . ذوقوا قال عطاء أي جزاء ما كنتم تعلمون ، ومثل هذه الآية قوله ﴿ هذا ما كنزتم

لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون ﴿١﴾ وقد تقدم الكلام على معنى الذوق في غير موضع ثم أخبر سبحانه عن حال من قبلهم من الكفار فقال :

﴿ كذب الذين من قبلهم ﴾ أي من قبل الكفار المعاصرين لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ، والمعنى أنهم كذبوا رسلهم ﴿ فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون ﴾ أي من جهة لا يحتسبون إتيان العذاب منها ، وذلك عند أمنهم وغفلتهم عن عقوبة الله لهم بتكذيبهم ﴿ فأذاقهم الله الخزي ﴾ أي الذل والهوان ﴿ في الحياة الدنيا ﴾ بالمسخ والخسف ، والقتل والأسر والجلاء ، وغير ذلك .

﴿ ولعذاب الآخرة أكبر ﴾ لكونه في غاية الشدة مع دوامه ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ أي لو كانوا ممن يعلم الأشياء ويتفكر فيها ويعمل بمقتضى علمه لآمنوا وما كذبوا ، قال المبرد : يقال لكل ما نال الجارحة من شيء قد ذاقته أي وصل إليها كما تصل الحلاوة والمرارة الى الذائق لهما ، قال : والخزي المكروه .

﴿ ولقد ﴾ اللام موطئة للقسم ﴿ ضربنا للناس في هذا القرآن ﴾ أي جعلنا وأوجدنا وبيننا ﴿ من كل مثل ﴾ قد قدمنا تحقيق المثل وكيفية ضربه في غير موضع ، ومعنى من كل مثل ما يحتاجون اليه في أمر دينهم ، وليس المراد ما هو أعم من ذلك ، فهو هنا كما في قوله ﴿ ما فرطنا في الكتاب من شيء ﴾ أي من شيء يحتاجون اليه في أمر دينهم ، وقيل : المعنى ما ذكرنا من إهلاك الأمم السالفة مثل لهؤلاء ﴿ لعلهم يتذكرون ﴾ يتعظون فيعتبرون .

﴿ قرآناً عربياً ﴾ حال مؤكدة من هذا ، وتسمى هذه حالاً موطئة لأن الحال في الحقيقة هو عربياً وقرآناً توطئة له ، نحو جاءني زيد رجلاً صالحاً ، كذا قال الأخفش ، ويجوز أن ينتصب على المدح ، قال الزجاج . عربياً منتصب على الحال ، وقرآناً توكيد .

﴿ غير ذي عوج ﴾ أي لا اختلاف فيه بوجه من الوجوه ، قال الضحاك :

أي غير مختلف ، قال النحاس : أحسن ما قيل في معناه قول الضحاك ،
وقيل : غير متضاد ، وقيل : غير ذي لبس ، وقيل غير ذي لحن ، وقيل : غير
ذي شك ؛ كما قال الشاعر :

وقد أتاك يمين غير ذي عوج من الإله وقول غير مكذوب

وقال ابن عباس : غير مخلوق ، وقيل : معناه صحيح مستقيم يفهم ولا
يلتبس بخلافه من الباطل ﴿ لعلمهم يتقون ﴾ علة أخرى بعد العلة الأولى وهي
لعلمهم يتذكرون ، أي لكي يتقوا الكفر والكذب ، وقيل : علة لقوله : لعلمهم
يتذكرون فالأول سبب في الثاني ، ثم ذكر سبحانه مثلاً من الأمثال القرآنية
للتذكير والایفاظ فقال :

﴿ ضرب الله مثلاً ﴾ أي تمثيل حالة عجيبة بأخرى مثلها ، ثم بين المثل
فقال : ﴿ رجلاً فيه شركاء متشاكسون ﴾ قال الكسائي : نصب رجلاً لأنه تفسير
للمثل ، وقيل منصوب ينزع الخافض ، أي ضرب الله مثلاً برجل ، وقيل إن
رجلاً هو المفعول الأول ، ومثلاً هو المفعول الثاني ، وآخر المفعول الأول
ليتصل بما هو من تمامه ، وقد تقدم تحقيق هذا في سورة يس ، وجملة . فيه
شركاء في محل نصب صفة لرجل ، والتشاكس التخالف ، وأصله سوء الخلق
وعسره ، وهو سبب التخالف والتشاجر ، ويقال التشاكس بالخاء
المعجمة ، قال الفراء ؛ أي مختلفون ، وقيل : متنازعون ، وقال المبرد
متعاسرون من شكس يشكس شكساً فهو شكس ، مثل عسر يعسر عسراً فهو
عسر ، وشكس بكسر الكاف هو القياس قال الجوهري التشاكس الاختلاف ،
قال : ويقال رجل شكس بالتسكين أي صعب الخلق ، وهذا مثل من أشرك
بالله وعبد آلهة كثيرة ، ثم قال :

﴿ ورجلاً سلماً لرجل ﴾ أي خالصاً له . وهذا مثل من يعبد الله وحده ،
قرأ الجمهور . سلماً بفتح السين واللام ، وقرئ بكسر السين وسكون اللام ،
وقرأ ابن عباس ومجاهد والجدري وابن كثير ويعقوب سلماً اسم فاعل من سلم له فهو

سالم ، واختارها أبو عبيد ، قال لأن السالم الخالص ضد المشترك والسلم ضد الحرب ، ولا موضع للحرب ههنا ، وأجيب عنه بأن الحرف إذا كان له معنيان لم يحمل إلا على أولاهما ، فالسلم وإن كان ضد الحرب فله معنى آخر بمعنى سالم من سلم له كذا إذا خلص له ، وأيضا يلزمه في سالم ما ألزم به لأنه يقال شيء سالم أي لا عاهة به ، واختار أبو حاتم القراءة الأولى ، والحاصل أن قراءة الجمهور هي على الوصف بالمصدر للمبالغة أو على حذف مضاف ، أي ذا سلم ، ومثلها قراءة سعيد بن جبسر ومن معه ، قال ابن عباس ، رجلاً مسلماً أي ليس لأحد فيه شيء ، ثم جاء سبحانه بما يدل على التفاوت بين الرجلين فقال :

﴿ هل يستويان مثلاً ﴾ وهذا الاستفهام للانكار والاستبعاد، والمعنى هل يستوي هذا الذي يخدم جماعة شركاء ؟ أخلاقهم مختلفة ، ونياتهم متباينة ، يستخدمه كل واحد منهم فيتعب وينصب ، مع كون كل واحد منهم غير راض بخدمته ، وهذا الذي يخدم واحداً لا ينازعه غيره إذا أطاعه رضي عنه ، وإذا عصاه عفا عنه ؟ فإن بين هذين من الاختلاف الظاهر الواضح ما لا يقدر عاقل أن يتفوه باستوائهما لأن أحدهما في أعلى المنازل ، والآخر في أدناها ، وانتصاب مثلاً على التمييز المحول عن الفاعل لأن الأصل هل يستوي مثلهما ؟ أي حالهما وصفتهما ؟ وأفرد التمييز ولم يشنه لأن الأصل في التمييز الافراد لكونه مبنياً للجنس ، وقال السمين وأفرد التمييز لأنه مقتصر عليه أولاً في قوله ضرب الله مثلاً ، وقرىء مثلين فطابق حالي الرجلين .

وجملة ﴿ الحمد لله ﴾ مقررة لما قبلها من نفي الاستواء بطريق الاعتراض وللإيذان للموحدين بما في توحيدهم لله من النعمة العظيمة المستحقة لتخصيص الحمد به ، أي الحمد لله على عدم استواء هذين الرجلين ، وقيل : الجملة اعتراضية فإن قوله ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ إضراب انتقالي من بيان عدم الاستواء على الوجه المذكور إلى بيان أن أكثر الناس ، وهم المشركون ، فإنهم لا يعلمون ذلك مع كمال ظهوره ووضوحه ،

فيقعون في ورطة الشرك والضلال .

قال الواحدي والبغوي والمراد بالأكثر الكل ، والظاهر خلاف ما قالاه ، فإن المؤمنين بالله يعلمون ما في التوحيد من رفعة شأنه ، وعلو مكانه ، وأن الشرك لا يماثله بوجه من الوجوه ، ولا يساويه في وصف من الأوصاف ، ويعلمون أن الله سبحانه يستحق الحمد على هذه النعمة ، وأن الحمد مختص به .

ثم أخبر سبحانه رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بأن الموت يدركه ويدركهم لا محالة ، فقال :

﴿ إِنَّكَ مِيتٌ وَأَنْهُمْ مِيتُونَ ﴾ وذلك إنهم كانوا يتربصون برسول الله صلى الله عليه وسلم الموت ، فأخبر أن الموت يعمهم جميعاً ، فلا معنى للتربص ، وشماتة الفاني بالفاني وهذا تمهيد لما يعقبه من الخصام يوم القيامة ، قرأ الجمهور ميت وميتون بالتشديد ، وقرىء مائت ومائتون ، وبها قرأ عبد الله بن الزبير ، وقد استحسنت هذه القراءة بعض المفسرين لكون موته وموتهم مستقبلاً ، ولا وجه للاستحسان فان قراءة الجمهور تفيد هذا المعنى ، قال الفراء والكسائي : الميت بالتشديد من لم يموت وسيموت ، والميت بالتخفيف من قد مات وفارقه الروح قال الخليل : أنشد أبو عمرو :

وتسألني تفسير ميت وميت فدونك قد فسرت إن كنت تعقل
فمن كان ذا روح فذلك ميت وما الميت إلا من إلى القبر يحمل

وقال السمين : ولا خلاف بين القراء في تثقيل مثل هذا ؟ قال قتادة : نعت إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، نفسه ونعت إليهم أنفسهم ، ووجه هذا الاخبار الإعلام للصحابة بأنه يموت ، فقد كان بعضهم يعتقد أنه لا يموت مع كونه توطئة وتمهيداً لما بعده أخرج النسائي وغيره عن ابن عمر قال : لقد لبثنا برهة من دهرنا ونحن نرى أن هذه الآية نزلت فينا وفي أهل الكتابين من قبلنا ، حتى رأيت بعضنا يضرب وجوه بعض بالسيف ، فعرفت أنها نزلت فينا .

ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخَصِّمُونَ ﴿٣١﴾ * فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ
 عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالْصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ۗ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِي
 جَاءَ بِالْصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ
 رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ
 أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾

﴿ ثم إنكم ﴾ أيها الناس جميعاً مؤمنكم وكافرکم ﴿ يوم القيامة عند ربكم تختصمون ﴾ فيما بينكم من المظالم ، قيل : يعني المحق والمبطل ، وقيل : تخاصمهم يا محمد وتحتج عليهم بأنك قد بلغتهم وأنذرتهم ، وهم يخاصمونك ، أو يخاصم المؤمن الكافر ، والظالم المظلوم ، عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : « من كان عنده مظلمة لأخيه من عرض أو مال فليتحلله اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم ، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته ، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحملت عليه » . رواه البخاري .

وعنه قال : « إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : أتدرون من المفلس ؟ قالوا : المفلس فينا من لا درهم ولا متاع له فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن المفلس من يأتي يوم القيامة بصلاة وزكاة وصيام ويأتي قد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطي هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ، ثم طرح في النار » ^(١) ، أخرجه

(١) مسلم ١٨/٨ والترمذي ٢٩١/٣ وأحمد ٣٠٣/٢ والبخاري ٣٥/٨ (معلق).

مسلم .

وعن ابن عمر قال : نزلت علينا هذه الآية وما ندري ما تفسيرها حتى وقعت الفتنة ، فقلنا هذا الذي وعدنا ربنا أن نختصم فيه ، أخرج ابن جرير وأخرج النسائي وغيره عنه قال : لقد لبثنا برهة من دهرنا ونحن نرى أن هذه الآية نزلت فينا ، وفي أهل الكتابين من قبلنا ، حتى رأيت بعضنا يضرب وجوه بعض بالسيف ، فعرفت أنها نزلت فينا .

وعن الزبير بن العوام قال : لما نزلت : إنك ميت إلى قوله : تختصمون قلت : « يا رسول الله أكرر علينا ما يكون بيننا في الدنيا مع خواص الذنوب ؟ قال : نعم ليكررن عليكم ذلك حتى يؤدي إلى كل ذي حق حقه ، قال الزبير : فوالله إن الأمر لشديد » ، أخرج الترمذي ، وقال : حديث حسن صحيح .

وعن أبي سعيد الخدري قال : لما نزلت هذه الآية كنا نقول : ربنا واحد ، وديننا واحد ، ونبينا واحد ، فما هذه الخصومة ؟ فلما كان يوم صفين وشد بعضنا على بعض بالسيوف قلنا : نعم هو هذا وعن ابراهيم لما نزلت هذه الآية قالوا : كيف نختصم ونحن إخوان ؟ فلما قتل عثمان قالوا هذه خصومتنا ثم بين سبحانه حال كل فريق من المختصمين فقال :

﴿ فمن ﴾ أي لا أحد ﴿ أظلم ممن كذب على الله ﴾ فزعم أن له ولداً أو شريكاً أو صاحبة ﴿ وكذب بالصدق إذ جاءه ﴾ وهو ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من دعاء الناس إلى التوحيد ، وأمرهم بالقيام بفرائض الشرع ، ونهيهم عن محرماته ، وإخبارهم بالبعث والنشور ، وما أعد الله للمطيع والعاصي ، وقوله : (إذ جاءه) ظرف لكذب بالصدق أي كذب بالقرآن في وقت مجيئه . أي فاجأه بالكذب لما سمعه من غير وقفة ، ولا إعمال روية بتمييز بين حق وباطل كما يفعل أهل النُصْفَةِ فيما يسمعون ، ثم استفهم سبحانه استفهاماً تقريرياً فقال :

﴿ أليس في جهنم مثوى للكافرين ﴾ أي أليس لهؤلاء المفتقرين المكذبين بالصدق ؟ والمثوى المقام وهو مشتق من ثوى بالمكان إذا أقام به ، يثوى ثواء وثوياً ، مثل مضى مضاء ومضياً ، وحكى أبو عبيدة أنه يقال : أثوى ، وأنكر ذلك الأصمعي وقال : لا نعرف أثوى ثم ذكر سبحانه فريق المؤمنين المصدقين فقال :

﴿ والذي جاء بالصدق وصدق به ﴾ الموصول في موضع رفع بالابتداء وهو عبارة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن تابعه . وقيل الذي جاء بالصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والذي صدق به أبو بكر ، قاله علي بن أبي طالب ، وعن أبي هريرة مثله ، وقال مجاهد الذي جاء بالصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والذي صدق به علي بن أبي طالب .

وقال السدي الذي جاء بالصدق جبريل ، والذي صدق به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال قتادة ومقاتل وابن زيد الذي جاء بالصدق النبي صلى الله عليه وسلم والذي صدق به المؤمنون . وقال النخعي الذي جاء بالصدق وصدق به هم المؤمنون الذين يجيئون بالقرآن يوم القيامة .

وقيل إن ذلك عام في كل من دعا إلى توحيد الله وأرشد إلى ما شرعه لعباده ، واختار هذا ابن جرير وهو الذي اختاره من هذه الأقوال ، ويؤيده قراءة ابن مسعود ، والذين جاؤوا بالصدق وصدقوا به ، وقرئ صدق به بالتخفيف ، أي صدق به الناس ، قال ابن عباس الذي جاء بالصدق يعني بلا إله إلا الله وصدق به يعني برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقيل الذي جاء بالصدق هو جبريل جاء بالقرآن وصدق به محمد صلى الله عليه وآله وسلم . وقيل الذي جاء بالصدق الأنبياء وصدق به الأتباع والكل صحيح .

قالوا والوجه في العربية أن يكون جاء وصدق لفاعل واحد ، لأن التغاير يستدعي إضمار الذي وذاً غير جائز وإضمار الفاعل من غير تقدم الذكر وذا بعيد . ولفظ الذي كما وقع في قراءة الجمهور وإن كان مفرداً فمعناه الجمع .

لأنه يراد به الجنس كما يفيد قوله ﴿ أولئك هم المتقون ﴾ أي المتصفون بالتقوى التي هي عنوان النجاة ، قال ابن عباس : يعني اتقوا الشرك : ثم ذكر سبحانه ما لهؤلاء الصادقين المصدقين في الآخرة فقال :

﴿ لهم ما يشاؤون عند ربهم ﴾ أي لهم كل ما يشاؤون من رفع الدرجات ، ودفع المضرات ، وتكفير السيئات ، وجلب المنافع ، وفي هذا ترغيب عظيم وتشويق بالغ ﴿ ذلك ﴾ أي ما تقدم ذكره من جزائهم ، وهو مبتدأ وخبره ﴿ جزاء المحسنين ﴾ أي الذين أحسنوا في أعمالهم ، وقد ثبت في الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، « إن الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه ، فإنه يراك »^(١) ، ثم بين سبحانه ما هو الغاية مما لهم عند ربهم فقال :

﴿ ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ﴾ فان ذلك هو أعظم ما يرجونه من دفع الضرر عنهم ، لأن الله سبحانه إذا غفر لهم ما هو الأسوأ من أعمالهم غفر لهم ما دونه بطريقة الأولى ، واللام متعلقة بيشاؤون أو بالمحسنين أو بمحذوف قرأ الجمهور أسوأ على أنه أفعل تفضيل وقيل : ليست للتفضيل بل بمعنى سىء الذي عملوا أو بهذا الاعتبار عم الأسوأ جميع معاصيهم وقرىء أسواء بألف بين الهمزة والواو بزنة أحمال جمع سوء .

ولما ذكر الله سبحانه ما يدل على دفع المضار عنهم ، ذكر ما يدل على جلب أعظم المنافع اليهم فقال :

﴿ ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون ﴾ إضافة الأحسن إلى ما بعده ليست من إضافة المفضل إلى المفضل عليه بل من إضافة الشيء إلى بعضه قصداً إلى التوضيح من غير اعتبار تفضيل ، قال مقاتل : يجزيهم بالمحاسن من أعمالهم ولا يجزيهم بالمساوىء ، وعم الأحسن جميع حسناتهم ، ولولا هذا التأويل لاقتضى النظم أنه يكفر عنهم أقبح السيئات فقط ويجزيهم على أفضل الحسنات فقط .

أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ ﴿٣٧﴾

﴿ أليس الله بكاف عبده ﴾ قرأ الجمهور بالافراد ، وقرئ بالجمع فعلى الأولى المراد النبي صلى الله عليه وسلم ، أو الجنس ويدخل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، دخولاً أولياً وعلى الثانية المراد الأنبياء ، أو المؤمنون أو الجميع ، واختار أبو عبيدة الأولى لقوله عقبه : ﴿ ويخوفونك ﴾ والاستفهام للانكار لعدم كفايته سبحانه على أبلغ وجه ، كأنها بمكان من الظهور لا يتيسر لأحد أن ينكره ، وقيل المراد بالعبد والعباد ما يعم المسلم والكافر قال الجرجاني : إن الله كاف عبده المؤمن وعبده الكافر ، هذا بالثواب وهذا بالعقاب . وقرئ بكافي عباده بالاضافة ويكافي بصيغة المضارع .

وقوله ﴿ ويخوفونك ﴾ يجوز أن يكون في محل نصب على الحال إذ المعنى أليس كافيك حال تخويفهم إياك ﴿ بالذين من دونه ﴾ هي المعبودات التي يعبدونها ، قالوا : لتكفن عن شتم آلهتنا أو ليصيبنك منهم خبل أو جنون كأن المعنى أنه كافيك في كل حال حتى في هذه الحال ، ويجوز أن تكون مستأنفة ﴿ ومن يضلل الله ﴾ أي من حق عليه القضاء بضلاله حتى غفل عن كفاية الله لعبده محمد ، وخوفه بما لا ينفع ولا يضر ﴿ فما له من هاد ﴾ يهديه إلى الرشd ويخلصه من الضلالة .

﴿ ومن يهد الله فما له من مضل ﴾ يخرج من الهداية ويوقعه في الضلالة ﴿ أليس الله بعزيز ﴾ أي غالب لكل شيء قاهر له ﴿ ذي انتقام ﴾ ينتقم من عصاته بما يصبه عليهم من عذابه ، وما ينزله بهم من سوط عقابه ، وإظهار الاسم الجليل في موضع الاضمار لتحقيق مضمون الكلام وتربية المهابة

وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ
 مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ
 هِيَ مُمَسِّكَتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَتَقَوَّمُ
 أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ
 يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿٤٠﴾

﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ﴾ ذكر سبحانه
 اعترافهم إذا سئلوا عن الخالق بأنه الله سبحانه لوضوح البرهان على تفرده
 بالخالقية ، مع عبادتهم للأصنام والأوثان ، واتخاذهم الآلهة من دون الله وفي
 هذا أعظم دليل على أنهم كانوا في غفلة شديدة ، وجهالة عظيمة لأنهم إذا
 علموا أن الخالق لهم ولما يعبدون من دون الله هو الله سبحانه ، فكيف
 استحسنت عقولهم عبادة غير خالق الكل ، وتشريك مخلوق مع خالقه في
 العبادة وقد كانوا يذكرون بحسن العقول وكمال الإدراك والفطنة التامة ، ولكنهم
 لما قلدوا أسلافهم وأحسنوا الظن بهم هجروا ما يقتضيه العقل ، وعملوا بما هو
 محض الجهل ، ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم ، أن يبيحتهم
 بعد هذا الاعتراف ويوبخهم فقال :

﴿ قل أفأرى أنتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات
 ضره ﴾ أي أخبروني عن آلهتكم هذه هل تقدر على كشف ما أراد الله بي
 من الضر ؟ والضر هو الشدة والبلاء ﴿ أو أرادني برحمة هل هن ممسكات
 رحمته ﴾ عني بحيث لا تصل إليّ والرحمة النعمة والرخاء قرأ الجمهور :
 كاشفات وممسكات في الموضعين بالإضافة ، وقراءهما أبو عمرو بالتنوين ،

واختار أبو عبيدة وأبو حاتم قراءة أبي عمرو لأن كاشفات اسم فاعل في معنى الاستقبال ، وما كان كذلك فتوينه أجود وبها قرأ الحسن وعاصم ، قال مقاتل : لما نزلت هذه الآية سألهم النبي صلى الله عليه وسلم ، فسكتوا وقال غيره قالوا لا تدفع شيئاً من قدر الله ، ولكنها تشفع فنزل :

﴿ قل حسبي الله ﴾ في جميع أموري في جلب النفع ودفع الضر
 ﴿ عليه يتوكل المتوكلون ﴾ أي عليه لا على غيره يعتمد المعتمدون ، ثم أمره الله سبحانه أن يهددهم ويتوعددهم فقال ﴿ قل يا قوم اعملوا على مكانتكم ﴾ أي على حالتكم التي أنتم عليها وتمكنتم منها ، والمكانة بمعنى المكان فاستعيرت عن العين للمعنى كما يستعار هنا ، وحيث للزمان وهما للمكان ﴿ إني عامل ﴾ على حالي التي أنا عليها ، وتمكنت منها ، وحذف ذلك للعلم به مما قبله .

﴿ فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ﴾ أي يهينه ويذله في الدنيا ، فيظهر عند ذلك أنه المبطل وخصمه المحق ، والمراد بهذا العذاب عذاب الدنيا وما حل بهم من القتل والأسر والقهر والذلة ، ثم ذكر عذاب الآخرة فقال :

﴿ ويحل عليه عذاب مقيم ﴾ أي دائم مستمر في الدار الآخرة ، وهو عذاب النار ، وهو مجاز في الطرف أو في الإسناد ، وأصله مقيم فيه صاحبه ، ثم لما كان يعظم على رسول الله صلى الله عليه وسلم اصرارهم على الكفر أخبره بأنه لم يكلف إلا بالبيان ، لا بأن يهدي من ضل فقال :

إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّٰ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِ ۖ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ اللَّهُ يُتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَوْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ ۖ قُلْ أُولَٰئِكَ أَنْوَلُوا لِيَمْلِكُنَّ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾

﴿ إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس ﴾ أي لأجلهم ، ولبيان ما كلفوا به فإنه مناط مصالحهم في معاشهم ومعادهم ، فهو للناس كافة ، لأن رسالتك كذلك ﴿ بالحق ﴾ حال من الفاعل أو المفعول ، أي محقين أو متلبساً بالحق ﴿ فمن اهتدى ﴾ طريق الحق وسلكها ﴿ فلنفسه ومن ضل ﴾ عنها ﴿ فإنما يضل عليها ﴾ أي على نفسه فضرر ذلك عليه لا يتعدى الى غيره .

﴿ وما أنت عليهم بوكيل ﴾ أي مكلف بهدايتهم مخاطب بها ، بل ليس عليك إلا البلاغ وقد فعلت ، وهذه الآيات منسوخة بآية السيف فقد أمر الله سبحانه رسوله بعد هذه أن يقاتلهم حتى يقولوا لا إله إلا الله ويعملوا بأحكام الإسلام ، ثم ذكر سبحانه نوعاً من أنواع قدرته البالغة وصنعتة العجيبة فقال :

﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها ﴾ أي يقبض الأرواح عند حضور آجالها ويخرجها من الأبدان ﴿ و ﴾ يتوفى الأنفس ﴿ التي لم تمت في منامها ﴾ أي لم يحضر أجلها في منامها ، وقد اختلف في هذا فقيل : يقبضها عن التصرف مع بقاء الروح في الجسد ، وقال الفراء : المعنى ويقبض التي لم تمت ، عند انقضاء أجلها قال وقد يكون توفيتها نومها فيكون التقدير على هذا ، والتي لم تمت وفاتها نومها ، قال الزجاج لكل إنسان نفسان إحداهما نفس التمييز وهي التي تفارقه إذا نام فلا يعقل ، والأخرى نفس الحياة إذا زالت زال معها

النفس ، والنائم يتنفس قال القشيري في هذا بعد إذ المفهوم من الآية أن النفس المقبوضة في الحالين شيء واحد ولهذا قال : ﴿ فيمسك التي قضى عليها الموت ﴾ فلا يردها الى البدن .

قرأ الجمهور قضى مبنياً للفاعل أي قضى الله عليها الموت ، وقرأ على البناء للمفعول ، واختار أبو عبيدة وأبو حاتم الأولى لموافقتها لقوله ﴿ الله يتوفى الأنفس ﴾ .

﴿ ويرسل الأخرى ﴾ أي النائمة إلى بدنها عند اليقظة ﴿ إلى أجل مسمى ﴾ وهو الوقت المضروب لموته ، وهو غاية جنس الإرسال ، وقد قال بمثل قول الزجاج ابن الأنباري ، وقال سعيد بن جبیر : إن الله يقبض أرواح الأموات إذا ماتوا وأرواح الأحياء إذا ناموا ، فتتعارف ما شاء الله أن تتعارف ، فيمسك التي قضى عليها الموت ، ويرسل الأخرى فيعيدها ، والأولى أن يقال : أن توفي الأنفس حال النوم بإزالة الاحساس ، وحصول الآفة به في محل الحس ، فيمسك التي قضى عليها الموت ، ولا يردها الى الجسد الذي كانت فيه ، ويرسل الأخرى بأن يعيد عليها إحساسها .

قيل : ومعنى يتوفى الأنفس عند موتها هو على حذف مضاف ، أي عند موت أجسادها ، وعن ابن عباس قال : نفس وروح بينهما مثل شعاع الشمس ، فيتوفى الله النفس في منامه ، ويدع الروح في جوفه يتقلب ويعيش ، فإن بدا له أن يقبضه قبض الروح فمات ، وإن أخر أجله رد النفس إلى مكانها من جوفه ، أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم .

وعنه قال : تلتقي أرواح الأحياء وأرواح الأموات في المنام ، فيتساءلون بينهم ما شاء الله ، ثم يمسك الله أرواح الأموات ويرسل أرواح الأحياء إلى أجسادها إلى أجل مسمى ، لا يغلط بشيء منها أخرجه عبد بن حميد وغيره ، وعنه أيضا في الآية قال : كل نفس لها سبب تجري فيه ، فاذا قضى عليه الموت نامت حتى ينقطع السبب ، والتي لم تمت في منامها تترك .

وأخرج البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إذا أوى أحدكم إلى فراشه فلينفذه بداخلة إزاره فإنه لا يدري ما خلفه عليه ، ثم ليقل : باسمك ربي وضعت جنبي وباسمك أرفعه ، إن أمسكت نفسي فارحمها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين »^(١) .

وقد اختلف العقلاء في النفس والروح هل هما شيء واحد ؟ أو شيان والكلام في ذلك يطول جداً ، وهو معروف في الكتب الموضوعة لهذا الشأن^(٢) والأظهر أنهما شيء واحد ، وهو الذي تدل عليه الآثار الصحاح .

﴿ إن في ذلك ﴾ أي فيما تقدم من التوفي والامساك والارسال للنفوس ﴿ آيات ﴾ عجيبة بديعة دالة على القدرة الباهرة ، ولكن ليس كون ذلك آيات يفهمه كل أحد بل ﴿ لقوم يتفكرون ﴾ في ذلك ويتدبرونه ويستدلون به على توحيد الله ، وكمال قدرته ، فان في هذا التوفي والإمساك والارسال موعظة للمتعظين وتذكرة للمتذكرين .

﴿ أم ﴾ هي المنقطعة المقدرة ببل والهمزة أي بل أ ﴿ اتخذوا من دون الله ﴾ آلهة ﴿ شفعاء ﴾ تشفع لهم عند الله ؟ ﴿ قل أو لو كانوا لا يملكون شيئاً ﴾ الهمزة للانكار والتوبيخ ، والواو للعطف على محذوف مقدر ، أي أيشفعون ؟ ولو كانوا الخ جواب لو محذوف ، أي وإن كانوا بهذه الصفة تتخذونهم والمعنى أنهم غير مالكين لشيء من الأشياء ، وتدخل الشفاعة في ذلك دخولاً أولياً ﴿ ولا يعقلون ﴾ شيئاً من الأشياء لأنها جمادات لا عقل لها ، وجمعهم بالواو والنون لاعتقاد الكفار فيهم أنهم يعقلون ، ثم أمره سبحانه بأن يخبرهم أن الشفاعة لله وحده فقال :

(١) صحيح الجامع / ٤٠٠ .

(٢) أهم هذه الكتب وأجمعها كتاب الروح لابن القيم طبعة مطبعة الامام بتحقيق وتعليق المطيعي

قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا ۖ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾
وإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ
الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمُ
الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ
لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ
الْقِيَمَةِ وَبَدَّاهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَهُمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَّاهُمْ سَيِّئَاتِ مَا كَسَبُوا
وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾

﴿ قل لله الشفاعة جميعاً ﴾ فليس لأحد منها شيء إلا أن تكون بإذنه لمن
ارتضى ، كما في قوله ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ ، وقوله ﴿ ولا
يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾ وانتصاب ﴿ جميعاً ﴾ على الحال ، وإنما أكد
الشفاعة بما يؤكد به الاثنان فصاعداً لأنها مصدر يطلق على الواحد والاثنين
والجماعة ، ثم وصف نفسه بسعة الملك فقال ﴿ له ملك السموات والأرض ﴾ أي
يملكهما ويملك ما فيهما ، ويتصرف في ذلك كيف يشاء ، ويفعل ما يريد ،
فهو مالك الملك كله ، لا يملك أحد أن يتكلم دون إذنه ورضاه ﴿ ثم إليه ﴾
لا إلى غيره ﴿ ترجعون ﴾ بعد البعث .

﴿ وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ انتصاب
وحده على الحال عند يونس ، وعلى المصدر عند الخليل وسيبويه ،
والاشمئزاز في اللغة النفور ، قال أبو عبيدة : اشمأزت نفرت ، وقال المبرد :
انقبضت ، وبالأول قال قتادة ، وبالثاني قال مجاهد ، والمعنى متقارب ، وقال

المؤرج : أنكرت ، وقال أبو زيد : اشمأز الرجل ذعر من الفزع . والمناسب للمقام تفسير اشمأزت بانقبضت ، وهو في الأصل الازورار ، وكان المشركون إذا قيل لهم : لا إله إلا الله انقبضوا ، كما حكاه الله عنهم في قوله :

﴿ وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفوراً ﴾ قال ابن عباس في الآية : اشمأزت قست ونفرت قلوب هؤلاء الأربعة الذين لا يؤمنون بالآخرة أبو جهل ابن هشام ، والوليد بن عتبة ، وصفوان ، وأبي بن خلف .

﴿ وإذا ذكر الذين من دونه ﴾ اللات والعزى وغيرهما من الأصنام ﴿ إذا هم يستبشرون ﴾ أي يفرحون بذلك ، ويبتهجون به ، والعامل في ﴿ إذا ﴾ في قوله ﴿ وإذا ذكر الله ﴾ الفعل الذي بعدها وهو اشمأزت ، والعامل في إذا في قوله ﴿ وإذا ذكر الذين ﴾ الخ الفعل العامل في إذا الفجائية ، والتقدير فاجأوا الاستبشار وقت ذكر الذين من دونه ، وذلك لفرط افتتانهم بها ، ونسيانهم حق الله .

ولقد بالغ في الأمرين حتى بلغ الغاية فيهما ، فإن الاستبشار أن يمتلىء قلبه سروراً حتى تنبسط له بشرة وجهه ، والاشمئزاز أن يمتلىء غضباً وغماً حتى ينقبض أديم وجهه ، ولما لم يقبل المتمرّدون من الكفار ما جاءهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الدعاء إلى الخير ، وصمموا على كفرهم أمره الله سبحانه ، أن يرد الأمر إلى الله سبحانه ، ويلتجئ إليه تعالى بالدعاء لما تحير في أمرهم ، وعجز في عنادهم وشدة شكيمتهم ، فإنه القادر على الأشياء ، العالم بالأحوال كلها فقال :

﴿ قل اللهم ﴾ أصله يا الله عوض عنها الميم لقربها من حروف العلة ، وشددت لتكون على حرفين كالمعوض عنه ، ولذا لم يجمع بينهما ،

فلا يقال : يا اللهم في فصيح الكلام ، وما سمع من قوله :

إني إذا ما حدثُ أَلَمَّا أقول : يا اللهم يا للهما

فضرورة قاله الرخى ﴿ فاطر السموات والأرض ﴾ أي مبدعهما ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ أي ما غاب وشوهد ، وهما منصوبان على النداء :

﴿ أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ من الهدى والضلالة ، والمعنى تجازي المحسن بإحسانه ، وتعاقب المسيء بإساءته ، فإنه بذلك يظهر من هو المحق ، ومن هو المبطل ، ويرتفع عنده خلاف المختلفين ، وتخاصم المتخاصمين .

وقيل : هذه محاكمة من النبي للمشركين إلى الله تعالى .

وعن ابن المسيب لا أعرف آية قرئت فدعي عندها إلا أجيب سواها ، وعن الربيع ابن خيثم - وكان قليل الكلام - أنه أخبر بقتل الحسين رضي الله عنه ، وقالوا الآن يتكلم فما زاد أن قال آه أو قد فعلوا ، وقرأ هذه الآية ، وروي أنه قال على إثره . قتل من كان صلى الله عليه وآله وسلم يجلسه في حجره ويضع فاه على فيه .

وأخرج مسلم وأبو داود والبيهقي في الأسماء والصفات عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام من الليل افتتح صلاته :

«اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك ، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»^(١) . ثم لما حكى عن الكفار ما حكاه من الاشتمزاز عند ذكر

(١) الجزء الأول منه أخرجه النسائي ٣٢٠/٢ والحاكم ٦٢٢/٣ .

الله ، والاستبشار عند ذكر الأصنام ذكر ما يدل على شدة عذابهم وعظم عقوبتهم فقال :

﴿ ولو أن للذين ظلموا ما في الأرض جميعاً ﴾ أي جميع ما في الدنيا من الأموال والذخائر ﴿ ومثله معه ﴾ أي منضمّاً إليه ﴿ لا فتلوا به ﴾ أي بالمذكور من الأمرين أي لجعلوه فدية لأنفسهم ﴿ من سوء العذاب يوم القيامة ﴾ أي من سوء عذاب ذلك اليوم ، وقد مضى تفسير هذا في آل عمران .

﴿ وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ﴾ أي ظهر لهم من فنون عقوبات الله وسخطه ، وشدة عذابه ، ما لم يكن في حسابهم ولا يحدثون به في نفوسهم وفي هذا وعيد لهم عظيم ، وتهديد بالغ غاية لا غاية وراءها وقال مجاهد عملوا أعمالاً توهّموا أنها حسنات فإذا هي سيئات وكذا قال السدي .

وقال سفيان الثوري : ويل لأهل الرياء ، ويل لأهل الرياء ، ويل لأهل الرياء ، وهذه آيتهم وقصتهم . وقال عكرمة بن عمار ، جزع محمد بن المنكدر عند موته جزعاً شديداً ف قيل له ما هذا الجزع ؟ قال : أخاف آية من كتاب الله ، ﴿ وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ﴾ فأنا أخشى أن يبدو لي ما لم أكن أحتسب .

﴿ وبدا لهم سيئات ما كسبوا ﴾ أي مساوئ أعمالهم من الشرك ، وظلم أولياء الله ، و ﴿ ما ﴾ تحتمل أن تكون مصدرية أي سيئات كسبهم ، وأن تكون موصولة أي سيئات الذي كسبوه ، حين تعرض صحائف أعمالهم ، وكانت خافية عليهم ، أو عقاب ذلك ﴿ وحق بهم ﴾ أي أحاط بهم ونزل بهم ﴿ ما كانوا به يستهزؤن ﴾ من الإنذار الذي كان ينذرهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ
 فِتْنَةٌ وَلَكِنَّا أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالُوا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا
 يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِن هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ
 سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَاهُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن
 يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ﴿ قُلْ يَعْبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا
 عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ
 الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾

﴿ فإذا مس الانسان ﴾ المراد هنا بالانسان الجنس باعتبار بعض أفراده أو غالبها ، وقيل : المراد به الكفار فقط ، والأول أولى ، ولا يمنع من حمله على الجنس خصوص سببه ، لأن الاعتبار بعموم اللفظ وفاء بحق النظم القرآني ، ووفاء بمدلوله ، والمعنى أن شأن غالب نوع الانسان أنه إذا مسه ﴿ ضر ﴾ من مرض أو فقر أو غيرهما ﴿ دعانا ﴾ وتضرع إلينا في رفعه ودفعه .

﴿ ثم إذا خولناه نعمة منا ﴾ أي أعطيناه نعمة كائنة من عندنا ﴿ قال إنما أوتيته على علم ﴾ مني بوجوه المكاسب ، أو على خير عندي ، أو على علم من الله بفضلي ، وقيل إن كان ذلك سعادة في المال أو عافية في النفس يقول : إنما حصل ذلك بجدي واجتهادي ، وإن كان صحة قال : إنما حصل ذلك بسبب العلاج الفلاني ، وإن حصل مალًا ، يقول : حصل بكسبي ، وهذا تناقض أيضاً لأنه لما كان عاجزاً محتاجاً أضاف الكل إلى الله تعالى ، وفي حال السلامة والصحة قطعه عن الله تعالى وأسنده إلى كسب نفسه . وهذا تناقض قبيح .

وقال الحسن : على علم علمني الله إياه . وقيل : قد علمت أنني إذا أوتيت هذا في الدنيا أن لي عند الله منزلة ، وجاء في أوتيته بالضمير مذكراً مع كونه

راجعاً الى النعمة لأنها بمعنى الإنعام ، وقيل : إن الضمير عائد إلى ﴿ ما ﴾ وهي موصولة والأول أولى .

﴿ بل هي فتنة ﴾ هذا رد لما قاله ، أي ليس ذلك الذي أعطيناك لما ذكرت بل هو محنة لك واختبار لحالك ، أتشكر أم تكفر ؟ قال الفراء : أنث الضمير في قوله : (هي) لتأنيث الفتنة ، ولو قال : بل هو فتنة لجاز ، وقيل : تأنيث الضمير باعتبار لفظ الفتنة ، وتذكير الأول في قوله : أوتيته باعتبار معناها وقال النحاس : بل عطية فتنة ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ أن ذلك استدراج لهم من الله ، وامتحان لما عندهم من الشكر أو الكفر .

﴿ قد قالها الذين من قبلهم ﴾ أي قال هذه الكلمة التي قالوها ، وهي قوله ﴿ إنما أوتيته على علم ﴾ الذين من قبلهم كقارون وقومه ، فإن قارون قال ﴿ إنما أوتيته على علم عندي ﴾ وإنما نسب إليهم قوله باعتبار رضاهم به ﴿ فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ﴾ ما نافية أي لم يغن عنهم ما كسبوا من متاع الدنيا شيئاً أو استفهامية أي أي شيء أغنى عنهم ذلك .

﴿ فأصابهم سيئات ما كسبوا ﴾ أي جزاء سيئات كسبهم أو أصابهم سيئات هي جزاء كسبهم ، وسمي الجزاء سيئات لوقوعه في مقابلة سيئاتهم ، فيكون ذلك من باب الازدواج والمشاكلة . كقوله ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ وفيه رمز إلى أن جميع أعمالهم كذلك ، ثم أوعد سبحانه الكفار في عصره فقال :

﴿ والذين ظلموا من هؤلاء ﴾ الموجودين من الكفار ﴿ سيصيبهم سيئات ما كسبوا ﴾ كما أصاب من قبلهم ، وقد أصابهم في الدنيا ما أصابهم من القحط والقتل والأسر والقهر ، والسين للتأكيد ﴿ وماهم بمعجزين ﴾ أي بفائتين على الله بل مرجعهم إليه يصنع بهم ما شاء من العقوبة .

﴿ أولم يعلموا ﴾ الضمير للقائلين ﴿ إنما أوتيته على علم ﴾ فالمعنى أقالوها ولم يعلموا أو أغفلوا ولم يعلموا ؟ ﴿ إن الله يبسط ﴾ أي يوسع

﴿ الرزق لمن يشاء ﴾ أن يوسع له ، وإن كان لا حيلة له ولا قوة امتحاناً
 ﴿ ويقدر ﴾ أي يقبضه على من يشاء أن يقبضه ، ويضيقه عليه ، وإن كان قوياً
 شديد الحيلة ابتلاه ، وقيل : يجعله على قدر قوت ، قال مقاتل : وعظمهم الله
 ليعتبروا في توحيدِهِ ، وذلك حين مطروا بعد سبع سنين ، فقال : أولم يعلموا
 أن الله يوسع الرزق لمن يشاء ؟ ويقتر على من يشاء ؟ فلا قابض ولا باسط إلا
 الله تعالى ، ويدل على ذلك أنا نرى الناس مختلفين في سعة الرزق وضيقه ،
 فلا بد لذلك من حكمة وسبب ، وذلك السبب ليس هو عقل الرجل وجهله ،
 فإننا نرى العاقل القادر في أشد الضيق ، والجاهل الضعيف في أعظم السعة .

﴿ إن في ذلك ﴾ المذكور من التوسيع والتضييق ﴿ لآيات ﴾ أي
 لدلالات عظيمة وعلامات جلية ﴿ لقوم يؤمنون ﴾ بالله ، وإنما خص المؤمنين
 لأنهم المنتفعون بالآيات ، المتفكرون فيها ، ثم لما ذكر سبحانه ما ذكره من
 الوعيد عقبة بذكر سعة رحمته ، وعظيم معرفته ، وأمر رسوله صلى الله عليه
 وسلم أن يشرهم بذلك فقال :

﴿ قل : يا عبادي ﴾ قرىء بإثبات الياء وصلاً ووقفاً . وبغير الياء . وهما
 سبعيتان ﴿ الذين أسرفوا ﴾ أي أفرطوا ﴿ على أنفسهم ﴾ في الكفر أو
 المعاصي واستكثروا منها ﴿ لا تقنطوا ﴾ بفتح النون وبكسرهما أي لا تيأسوا
 ﴿ من رحمة الله ﴾ أي من مغفرته ، وفي هذه الآية من أنواع المعاني والبيان
 أشياء حسنة : منها إقباله تعالى عليهم ، ونداؤهم ومنها إضافتهم إليه إضافة
 تشريف ومنها الالتفات من التكلم إلى الغيبة في قوله : ﴿ من رحمة الله ﴾ ومنها
 إضافة الرحمة لأجل أسمائه الحسنى ، ومنها إعادة الظاهر بلفظه في قوله الآتي :
 ﴿ إنَّ الله ﴾ ، قاله السمين .

وقال عبد الله وغيره : هذه الآية أرجى آية في كتاب الله سبحانه
 لاشتمالها على أعظم بشارة فإنه أولاً أضاف العباد إلى نفسه لقصد تشريفهم
 ومزيد تبشيرهم ، ثم وصفهم بالإسراف في المعاصي والاستكثار من

الذنوب ، ثم عقب ذلك بالنهي عن القنوط من الرحمة لهؤلاء المستكثرين من الذنوب ، فالنهي عن القنوط للمذنبين غير المسرفين من باب الأولى ، وبفحوى الخطاب قيل : وهذه عامة في كل كافر يتوب ، ومؤمن عاص يتوب ، فتمحو توبته ذنبه ، والمراد منها التنبيه على أنه لا ينبغي للعاصي أن يظن أنه لا يخلص له من العذاب ، فإن من اعتقد ذلك فهو قانط من رحمة الله تعالى إذ لا أحد من العصاة إلا وإنه متى تاب زال عقابه ، وصار من أهل المغفرة والرحمة والحق أن الآية غير مقيدة بالتوبة بل هي على إطلاقها .

ولما نهاهم عن القنوط أخبرهم بما يدفع ذلك ويرفعه ، ويجعل الرجاء مكان القنوط ، وجاء بما لا يبقى بعده شك ، ولا يتخالج القلب عند سماعه ظن ، فقال :

﴿ إن الله يغفر الذنوب ﴾ فالألف واللام قد صيرت الجمع الذي دخلت عليه للجنس ، الذي يستلزم استغراق أفرادة فهو في قوة إن الله يغفر كل ذنب كائناً ما كان ، إلا ما أخرجه النص القرآني ، وهو الشرك ، ثم لم يكتف بما أخبر عباده به من مغفرة كل ذنب ، بل أكد ذلك بقوله ﴿ جميعاً ﴾ فيألفها من بشارة ترتاح لها قلوب المؤمنين المحسنين ظنهم بربهم ، الصادقين في رجائه الخالعين لثياب القنوط الرافضين لسوء الظن بمن لا يتعاضمه ذنب ، ولا يبخل بمغفرته ورحمته على عباده ، المتوجهين إليه في طلب العفو ، الملتجئين به في مغفرة ذنوبهم ، وما أحسن ما علل به سبحانه هذا الكلام قائلاً :

﴿ إنه هو الغفور الرحيم ﴾ أي كثير المغفرة والرحمة عظيمهما بليغهما واسعهما فأبرز الجملة مؤكدة بأن والفصل ، وبإعادة الصفتين اللتين تضمنتهما الآية السابقة ، فمن أبى هذا التفضل العظيم ، والعطاء الجسيم ، وظن أن تقنيط عباد الله وتأييسهم من رحمته أولى بهم مما بشرهم الله به فقد ركب أعظم الشطط وغلط أقبح الغلط ، فإن التبشير وعدم التقنيط هو الذي جاءت به مواعيد الله في كتابه العزيز والمسلك الذي سلكه رسول الله صلى الله عليه

وسلم كما صح عنه من قوله : « يسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا »^(١) .

وإذا تقرر لك هذا فاعلم أن الجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ هو أن كل ذنب كائناً ما كان ما عدا الشرك بالله مغفور لمن شاء الله أن يغفر له ، على أنه يمكن أن يقال إن إخباره لنا بأنه يغفر الذنوب جميعاً يدل على أنه يشاء غفرانهما جميعاً ، وذلك يستلزم أنه يشاء المغفرة لكل المذنبين من المسلمين فلم يبق بين الآيتين تعارض من هذه الحيثية .

وأما ما يزعمه جماعة من المفسرين من تقييد هذه الآية بالتوبة وأنها لا تغفر إلا ذنوب التائبين ، وزعموا أنهم قالوا ذلك للجمع بين الآيات فهو جمع بين الضب والنون وبين الملاح والحادي ، وعلى نفسها براقش تجني .

ولو كانت هذه البشارة العظيمة مقيدة بالتوبة لم يكن لها كثير موقع فإن التوبة من المشرك يغفر الله له بها ما فعله من الشرك باجماع المسلمين ، ولذا قال ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ فلو كانت التوبة قيداً في المغفرة لم يكن للتنقيص على الشرك فائدة ، وقد قال سبحانه ﴿ وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم ﴾ قال الواقدي المفسرون كلهم قالوا إن هذه الآية في قوم خافوا إن أسلموا أن لا يغفر لهم ما جنوا من الذنوب العظام كالشرك وقتل النفس ومعاداة النبي صلى الله عليه وسلم .

قلت : هب أنها في هؤلاء القوم فكان ماذا ؟ فإن الاعتبار بما اشتملت عليه من العموم ، لا بخصوص السبب ، كما هو متفق عليه بين أهل العلم ، ولو كانت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية مقيدة بأسبابها غير متجاوزة لها لارتفعت أكثر التكاليف عن الأمة ، إن لم ترتفع كلها واللازم باطل بالاجماع فالملزوم مثله وفي السنة المطهرة من الأحاديث الثابتة في الصحيحين وغيرهما في هذا الباب ما لو عرفه المطلع عليه حق معرفته وقدره حق قدره علم صحة

(١) البخاري ٢٦/٤ - ١٠٨/٥ - ١٠١/٧ - ١١٤/٨ مسلم ١٤١/٥ - احمد ٤١٢/٤ - ٤١٧/٤ .

ما ذكرناه ، وعرف حقيقة ما حررناه ، قاله الشوكاني .

وعن ابن عمر قال : « كنا نقول ليس لمفتتن توبة وما الله بقابل منه شيئاً عرفوا الله وآمنوا به وصدقوا رسوله ثم رجعوا عن ذلك لبلاء أصابهم ، وكانوا يقولونه لأنفسهم ، فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أنزل الله فيهم ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا ﴾ الآيات ، قال ابن عمر فكتبتها بيدي ثم بعثت بها إلى هشام بن العاصي » .

وعن أبي سعيد قال : « لما أسلم وحشي أنزل الله ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ﴾ ، قال وحشي وأصحابه قد ارتكبنا هذا كله ، فأنزل الله ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا ﴾ الآية .

وأخرج البخاري في الأدب المفرد عن أبي هريرة قال : « خرج النبي صلى الله عليه وسلم على رهط من أصحابه وهم يضحكون ويتحدثون ، فقال : والذي نفسي بيده لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ثم انصرف وأبكى القوم ، وأوحى الله إليه يا محمد لم تقنط عبادي فرجع النبي صلى الله عليه وسلم فقال أبشروا وسددوا وقاربوا »^(١) .

وعن عمر بن الخطاب أنها نزلت فيمن افتتن وعن ابن عباس أنها نزلت في مشركي مكة لما قالوا إن الله لا يغفر لهم ما قد اقترفوه من الشرك ، وقتل النفس وغير ذلك وأخرج أحمد وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن ثوبان قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ما أحب أن لي الدنيا وما فيها بهذه الآية : يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم الآية ، فقال رجل : ومن أشرك ؟ فسكت النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال : ألا ومن أشرك ، ثلاث مرات »

وأخرج أحمد وأبو داود والترمذي وحسنة وابن المنذر والحاكم وغيرهم

(١) حديث قاربوا وسددوا وأبشروا صحيح الجامع الصغير ٤١٧٣ .

عن أسماء بنت يزيد : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً - ولا يبالي - انه هو الغفور الرحيم » وعن ابن مسعود أنه مر على قاص يذكر الناس فقال : يا مذكر الناس لا تقنط الناس ، ثم قرأ يا عبادي الآية .

وعن ابن سيرين قال : قال علي : أي آية أوسع ؟ فجعلوا يذكرون آيات من القرآن : ﴿ من يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ﴾ الآية ونحوها ، فقال علي : ما في القرآن أوسع من ﴿ يا عبادي ﴾ الآية ، وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس في الآية قال : قد دعا الله إلى مغفرته من زعم أن المسيح ابن الله ، ومن زعم أن عزير ابن الله ومن زعم أن الله فقير ، ومن زعم أن يد الله مغلولة ومن زعم أن الله ثالث ثلاثة يقول لهؤلاء أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم ؟ ثم دعا إلى توبته من هو أعظم قولاً من هؤلاء ، من قال ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ وقال : ﴿ ما علمت لكم من إله غيري ﴾ قال ابن عباس : ومن آيس العباد من التوبة بعد هذا فقد جحد كتاب الله ، ولكن لا يقدر العبد أن يتوب حتى يتوب الله عليه .

وحديث أبي سعيد الخدري « في رجل قتل تسعة وتسعين إنساناً » في الصحيحين بطوله ، وكذا حديث رجل قال « وذروني في الريح ؟ » فيهما بطوله ، عن أبي هريرة ، وعنه في سنن أبي داود حديث رجلين متحابين .

وعن أنس قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « قال الله عز وجل يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ، ولا أبالي ، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي يا ابن آدم لو أنك أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة »^(١) أخرجه الترمذي والعنان السحاب ، والقرباب بضم القاف هو ما يقارب ملؤها .

(١) رواه الترمذي ٢٧٠/٢ والدارمي ٣٢٢/٢ وأحمد ١٧٢/٥ و ١٥٤/٥ .

وَأَنبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ ﴿٥٤﴾
وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ
بَغْتَةً وَأنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتِي عَلَىٰ مَا فَرَطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ
وَإِن كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ
﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾
بَلَىٰ قَدْ جَاءَ تِلْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٥٩﴾

﴿وَأَنبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ أي ارجعوا إليه بالطاعة لما بشرهم سبحانه بأنه يغفر الذنوب جميعاً أمرهم بالرجوع إليه ، بفعل الطاعات ، واجتناب المعاصي وليس في هذا ما يدل على تقييد الآية الأولى بالتوبة ، لا بمطابقة ، ولا تضمن ، ولا التزام ، بل غاية ما فيها أنه بشرهم بتلك البشارة العظمى . ثم دعاهم إلى الخير وخوفهم من الشر على أنه يمكن أن يقال إن هذه الجملة مستأنفة خطاباً للكفار الذين لم يسلموا بدليل قوله :

﴿وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ جاء بها لتحذير الكفار وإنذارهم بعد ترغيب المسلمين بالآية الأولى ، وتبشيرهم ، وهذا وإن كان بعيداً ولكنه يمكن أن يقال به ، والمعنى على ما هو الظاهر أن الله جمع لعباده بين التبشير العظيم ، والأمر بالإِنابة إليه ، والإِخلاص له ، والاستسلام لأمره ، والخضوع لحكمه .

وقوله ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ﴾ أي عذاب الدنيا كما يفيدته النظم ، فليس في ذلك ما يدل على ما زعمه الزاعمون ، وتمسك به القانطون المقنطون والحمد لله رب العالمين ﴿ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ﴾ أي لا تمنعون من العذاب إن لم تتوبوا قبل نزول العقاب .

﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يعني القرآن ، يقول : أحلوا

حلاله ، وحرّموا حرامه والقرآن كله حسن . قال الحسن : التزموا طاعته ، واجتنبوا معاصيه . وقال السدي الأحسن ما أمر الله به في كتابه .

وقال ابن زيد : يعني المحكمات ، وكلوا علم المتشابه إلى عالمه .
وقيل : الناسخ دون المنسوخ . وقيل العفو دون الانتقام بما يحق فيه الانتقام .
وقيل أحسن ما أنزل إليكم من أخبار الأمم الماضية ، ومثله قوله تعالى :
﴿ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ﴾ وقيل القرآن أو المأمور به دون
المنهي عنه أو العزائم دون الرخص ، ولعله ما هو أنجي وأسلم ، كالإنابة
والمواظبة على الطاعة .

﴿ من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون ﴾ أي من قبل أن
يفاجئكم العذاب وأنتم غافلون عنه لا تشعرون به ، وقيل : أراد أنهم يموتون
بغتة فيقعون في العذاب ، والأول أولى ، لأن الذي يأتيهم بغتة هو العذاب في
الدنيا بالقتل والأسر ، والخوف والقهر ، والجذب لا عذاب الآخرة ولا الموت
لأنه لم يسند الإتيان إليه .

﴿ أن تقول نفس ﴾ قال البصريون : أي حذر أن تقول : وقال الكوفيون
أي لئلا تقول ، قال المبرد : بادروا خوف أن تقول أو حذراً من أن تقول ،
وقدره الزمخشري كراهة أن تقول ، وابن عطية : وأنبيوا من أجل أن تقول وأبو
البقاء والحوافي : أنذرناكم مخافة أن تقول قال الحلبي : عقب نقل بعض هذه
التقارير : ولا حاجة إلى إضمار هذا العامل مع وجود أنبيوا ونكر (نفس) لأن
المراد بها بعض الأنفس وهي النفس الكافرة المتميزة باللجاج الشديد في
الكفر ، أو بالعذاب الأليم .

وقيل : المراد به التكثير كما في قوله ﴿ علمت نفس ما أحضرت ﴾ أي
نفوس كثيرة ، وهم الكفار والعصاة المؤمنون . وقال الزجاج خوف أن تصيروا
إلى حال تقولون فيها : ﴿ يا حسرتي ﴾ قرأ الجمهور يا حسرتا بالألف بدلاً من
الياء المضاف إليها ، وقرأ ابن كثير يا حسرتاه بهاء السكت . وقفاً ، وقرأ أبو

جعفر : يا حسرتي بالياء على الأصل ، والحسرة الندامة ، والاغتمام والحزن على ما فات ﴿ على ما فرطت ﴾ أي على تفريطي وتقصيري فما مصدرية ﴿ في جنب الله ﴾ أي طاعته قاله الحسن .

والجنب والجانب كلاهما بمعنى جهة الشيء المحسوسة ، وإطلاق الجنب على الطاعة مجاز بالاستعارة حيث شبهت بالجهة بجامع تعلق كل بصاحبه ، فالطاعة لها تعلق بالله ، كما أن الجهة لها تعلق بصاحبها ، وقال الضحاك : في ذكر الله ويعنى به القرآن والعمل به وقال أبو عبيدة ، في ثواب الله ، وقيل : في حق الله أو في أمر الله أو في ذات الله .

وقال الفراء : الجنب القرب والجوار أي في قرب الله وجواره ، ومنه قوله ﴿ والصاحب بالجنب ﴾ والمعنى على هذا القول على ما فرطت في طلب جواره وقربه وهو الجنة ، وبه قال ابن الاعرابي .

وقال الزجاج : أي في الطريق الذي هو طريق الله من توحيده والإقرار بنبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى هذا فالجنب بمعنى الجانب ، أي قصرت في الجانب الذي يؤدي إلى رضا الله ، يقال أنا في جنب فلان وفلان لين الجانب والجنب ثم قالوا : فرط في جنبه وفي جانبه يريدون في حقه ، وهذا من باب الكناية قال ابن عباس في الآية أخبر الله ما العباد قائلون قبل أن يقولوا وعلمهم قبل أن يعلموا .

﴿ وإن كنت لمن الساخرين ﴾ أي وما كنت إلا من المستهزئين بدين الله في الدنيا ، وبكتابه وبرسوله وبالمؤمنين قال قتادة : « لم يكفه أن ضيع طاعة الله حتى سخر من أهلها ، والجملة حالية ، أي فرطت وأنا ساخر .

﴿ أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين ﴾ أي لو أن الله أرشدني إلى دينه لكنت ممن يتقي الشرك والمعاصي وهذا من جملة ما يحتج به المشركون من الحجج الزائفة ، ويتعللون به من العلل الباطلة كما في قوله : ﴿ سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ﴾ فهي كلمة حق

يريدون بها باطلاً .

قال أبو المنصور : هذا الكافر أعرف بهداية الله من المعتزلة ، وكذا أولئك الكفرة الذين قالوا لأتباعهم ﴿ لو هدانا الله لهديناكم ﴾ ولكن علم منا اختيار الضلالة والغواية فخذلنا ولم يوفقنا ، والمعتزلة يقولون : بل هداهم وأعطاهم التوفيق ، لكنهم لم يهتدوا ثم ذكر سبحانه مقالة أخرى مما قالوه فقال :

﴿ أو تقول حين ترى العذاب ﴾ والتعبير بأو للدلالة على أن النفس لا تخلو عن هذه الأقوال تحسراً وتحيراً وتعللاً بما لا طائل تحته ، فأو للتنويع لما تقوله النفس في ذلك اليوم ، ويصح أن تكون مانعة خلو فتجوز الجمع ﴿ لو أن لي كرة ﴾ أي رجعة إلى الدنيا ﴿ فأكون من المحسنين ﴾ المؤمنين بالله الموحدين له ، المحسنين في أعمالهم ، ثم ذكر سبحانه جوابه على هذه النفس المتمنية المتعللة بغير علة فقال :

﴿ بلى ﴾ أي فيقال له من قبل الله : بلى الخ كأنه قال : ما هداني الله فيقال بلى ﴿ قد جاءتك آياتي ﴾ مرشدة لك ، والمراد بالآيات هي الآيات التنزيلية وهو القرآن ﴿ فكذبت بها ﴾ وهو قوله : إنها ليست من عند الله ﴿ واستكبرت ﴾ أي تكبرت عن الإيمان بها ﴿ وكنت ﴾ مع ذلك التكذيب والاستكبار ﴿ من الكافرين ﴾ بالله .

وجاء سبحانه بخطاب المذكر في قوله جاءتك وكذبت ، واستكبرت ، وكنت لأن النفس تطلق على المذكر والمؤنث . قال المبرد : تقول العرب نفس واحد أي إنسان واحد ، أو التذكير باعتبار كونها شخصاً كافراً قرأ الجمهور بفتح التاء في هذه المواضع ، وقرأ بكسرهما في جميعها وهي قراءة أمير المؤمنين أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه ، وبنته عائشة ، وأم سلمة ، ورويت عن ابن كثير .

وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى
لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ
يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَهُ مَقَالِيدُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٣﴾
قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونَنِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أَوْحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ
قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾

﴿ ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله ﴾ بأن له شريكاً ، وصاحبة ،
وولداً ﴿ وجوههم مسودة ﴾ لما أحاط بهم من العذاب ، ولما شاهده من
غضب الله ونقمته ، والجملة في محل النصب على الحال ، قال الأخفش
﴿ ترى ﴾ غير عامل في ﴿ وجوههم مسودة ﴾ إنما هو مبتدأ وخبره ، والأولى أن
﴿ ترى ﴾ إن كانت من الرؤية البصرية فجملة ﴿ وجوههم مسودة ﴾ حالية وإن
كانت قلبية فهي مفعول ثان لترى .

﴿ أليس في جهنم مثوى للمتكبرين ﴾ الاستفهام لتقرير اسوداد
وجههم ، وتعليل له ، كأنه قال : لأن لهم في جهنم مقراً ومقاماً ، والكبر هو
« بطر الحق وغمط الناس » (١) ، كما ثبت في الحديث الصحيح .

﴿ وينجي الله الذين اتقوا ﴾ الشرك ومعاصي الله من جهنم متلبسين
﴿ بمفازتهم ﴾ أي بمكان فوزهم من الجنة بأن يجعلوا فيه ، قرأ الجمهور
بالإفراد على أنه مصدر ميمي والفوز الظفر بالخير ، والنجاة من الشر ، قال
المبرد المفازة مفعلة من الفوز وهي السعادة ، وإن جمع فحسن كقولك :

(١) جزء من حديث طويل رواه البخاري ٥٤٨ وأحمد ١٦٩/٢ والبيهقي في الاسماء بقوله : « إن نبي

الله نوحاً لما حضرته الوفاة . . . » واطر الحق : إنكاره ، وغمط الناس : ظلمهم

السعادة والسعادات .

والمعنى ينجيهم الله بفوزهم ، أي بنجاتهم من النار ، وفوزهم بالجنة ، وقرئ بمفازاتهم جمع مفازة وجمعها مع كونها مصدراً لاختلاف الأنواع وقيل ثم مضاف محذوف ، والتقدير بدواعي مفازتهم أو أسبابها ، والمفازة المنجاة ، وقيل لا حاجة لذلك إذ المراد بالمفازة الفلاح .

وجملة ﴿ لا يمسهـم السوء ولا هم يحزنون ﴾ مفسرة لمفازتهم كأنه قيل : وما مفازتهم ؟ فقيل لا يمسهـم الخ أو منصوبة رد على الحال من الذين اتقوا ، وقيل الباء للسببية أي بسبب فوزهم مع انتفاء مساس السوء لهم ، وعدم وصول الحزن إلى قلوبهم ، لأنهم رضوا بثواب الله وأمنوا من عقابه .

﴿ الله خالق كل شيء ﴾ من الأشياء الموجودة في الدنيا والآخرة ، كائناً ما كان ، من غير فرق بين شيء وشيء وفيه رد على المعتزلة والثوية ﴿ وهو على كل شيء وكيل ﴾ أي الأشياء كلها موكولة إليه فهو القائم بحفظها وتدبيرها ، من غير مشارك له .

﴿ له مقاليد السموات والأرض ﴾ جملة مستأنفة والمقاليد واحدها مقليد ومقلاد ، أو لا واحد له من لفظه كأساطير ، ويقال أيضاً أقليد وأقاليد أو الكلمة أصلها فارسية على ما قيل إنه جمع إقليد معرب إكليد والكلام من باب الكناية لأن حافظ الخزائن ومدبرها هو الذي يملك مفاتيحها ، فهو كناية عن شدة التمكن والتصرف في كل شيء مخزون في السموات أو في الأرض ، والحمل على الظاهر أولى ، وهي هنا مفاتيح الرزق والرحمة . قاله مقاتل وقتادة وغيرهما ، قال ابن عباس أي مفاتيحها ، وقال الليث المقلاد الخزانة .

ومعنى الآية له خزائن السموات والأرض ، وبه قال الضحاك والسدي ، وقيل : خزائن السموات المطر ، وخزائن الأرض النبات وقيل : هي عبارة عن قدرته سبحانه وحفظه لها ، والأول أولى : قال الجوهري : الإقليد المفتاح ثم قال : والجمع المقليد ، وقيل هي لا إله إلا الله والله أكبر ، وسبحان الله

وبحمده ، واستغفر الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وأخرج أبو يعلى ويوسف القاضي في سننه وأبو الحسن القطان وابن السني وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن عثمان ابن عفان قال :

سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قول الله ﴿ له مقاليد السموات والأرض ﴾ فقال لي : يا عثمان لقد سألتني عن مسألة لم يسألني عنها أحد قبلك ، مقاليد السموات والأرض لا إله إلا الله ، والله أكبر ، وسبحان الله ، والحمد لله ، وأستغفر الله الذي لا إله إلا هو الأول والآخر والظاهر والباطن يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير ، ثم ذكر فضل هذه الكلمات وله طرق عن عثمان . وقيل غير ذلك ، والمعنى على هذا أن الله هذه الكلمات يوحد بها ويمجد ، وهي مفاتيح خير السموات والأرض ، من تكلم بها أصابه .

﴿ والذين كفروا بآيات الله ﴾ أي بالقرآن وسائر الآيات الدالة على الله سبحانه وتوحيده ﴿ أولئك هم الخاسرون ﴾ أي الكاملون في الخسران لأنهم صاروا بهذا الكفر إلى النار متصل بقوله : ﴿ وينجي الله ﴾ الخ أي معطوف عليه وما بينهما اعتراض ، وإن كان المعطوف جملة اسمية ، والمعطوف عليه جملة فعلية فهذا لا يمنع صحة العطف ، غاية أنه خال عن حسنه .

﴿ قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون ﴾ الاستفهام للإنكار التوبيخي ، والفاء للعطف على مقدر كمنظائره ، والأصل أفأأمروني ؟ أي بعد مشاهدة الآيات الدالة على انفراده وتوحيده أن أعبد غير الله ، قاله الكسائي وغيره ، وقيل : أفألتزموني عبادة غير الله ؟ أو أعبد غير الله ؟ أمره الله سبحانه أن يقول هذا للكفار لما دعوه إلى ما هم عليه من عبادة الأصنام وقالوا : هو دين آبائك .

وعن ابن عباس أن قريشاً دعت رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعطوه مالا فيكون أغنى رجل بمكة ، ويزوجوه ما أراد من النساء ، ويطأون

عقبه فقالوا له : هذا لك يا محمد وتكف عن شتم آلهتنا ، ولا تذكرها بسوء ، قال : حتى أنظر ما يأتيني من ربي ، فجاء بالوحي : ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ الى آخر السورة ، وأنزل الله عليه ﴿ قل أغير الله تأمروني ﴾ الى قوله : ﴿ من الخاسرين ﴾^(١) .

﴿ ولقد ﴾ هذه اللام دالة على قسم مقدر أي والله لقد ﴿ أوحى اليك وإلى الذين من قبلك ﴾ من الرسل ﴿ لئن ﴾ جواب القسم وهذه اللام أيضاً دالة على قسم مقدر أي والله لئن ﴿ أشركت ﴾ يا محمد فرضاً ﴿ ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين ﴾ وكل من هاتين اللامين واقعة في جواب القسم الثاني ، والثاني وجوابه جواب الأول ، وجواب الشرط محذوف لدلالة جواب القسم عليه ، وهذا الكلام من باب التعريض لغير الرسل ، لأن الله سبحانه قد عصمهم عن الشرك ، ووجه إيراده على هذا الوجه التحذير والانذار للعباد من الشرك ، لأنه إذا كان موجباً لإحباط عمل الأنبياء على الفرض والتقدير ، فهو محبط لعمل غيرهم من أمهم بطريق الأولى .

قيل وفي الكلام تقديم وتأخير ، والتقدير ولقد أوحى اليك لئن أشركت الخ وأوحى الى الذين من قبلك كذلك ، قال مقاتل أي أوحى اليك وإلى الأنبياء قبلك بالتوحيد ، والتوحيد محذوف ، ثم قال : لئن أشركت يا محمد ليحبطن عملك ، وهو خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم خاصة .

وقيل أفراد الخطاب في لئن أشركت ، باعتبار كل واحد من الأنبياء كأنه قيل أوحى إليك وإلى كل واحد من الأنبياء هذا الكلام ، لئن أشركت ، وهذه الآية مقيدة بالموت على الشرك كما في الآية الأخرى .

﴿ ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم ﴾ وقيل هذا خاص بالأنبياء لأن الشرك منهم أعظم ذنباً من الشرك من غيرهم والأول أولى ، ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بتوحيده فقال :

(١) سيأتي الكلام عنه عند تفسيرنا لسورة الكافرون .

بَلِ اللَّهِ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا
 قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا
 يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾

﴿ بل الله فأعبد ﴾ وفي هذا رد على المشركين حيث أمروه بعبادة الأصنام
 ووجه الرد ما يفيد التقديم من القصر ، قال الزجاج ، لفظ اسم الله منصوب
 بأعبد قال ولا اختلاف في هذا بين البصريين والكوفيين ، وقال الفراء هو
 منصوب بإضمار فعل ، وعن الكسائي مثله ، والأول أولى .

قال الزجاج : والفاء في فاعبد للمجازاة ، وقال الأخفش زائدة قال عطاء
 ومقاتل . معنى فاعبد وَجَدَ لأن عبادته لا تصح إلا بتوحيده ﴿ وكن من الشاكرين ﴾
 لإنعامه عليك بما هداك إليه من التوحيد والدعاء إلى دينه ، واختصك به من الرسالة .

﴿ وما قدرُوا الله حق قدره ﴾ أي ما عرفوه حق معرفته ، وقال المبرد أي
 ما عظموه حق عظمتهم حين أشركوا به غيره ، من قولك فلان عظيم القدر .
 وإنما وصفهم بهذا لأنهم عبدوا غير الله ، وأمروا رسوله بأن يكون مثلهم في
 الشرك ، وقرئ قدرُوا بالتشديد .

﴿ والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة ﴾ القبض في اللغة ما قبضت عليه
 بجميع كفك فأخبر سبحانه عن عظيم قدرته بأن الأرض كلها مع عظمتها
 وكثافتها في مقدوره ، كالشيء الذي يقبض عليه القابض بكفه كما يقولون هو
 في يد فلان وفي قبضته للشيء الذي يهون عليه التصرف فيه ، وإن لم
 يقبض عليه .

والمراد بالأرض الأرضون السبع ، يشهد لذلك قوله ﴿ جميعاً ﴾ وقوله الآتي ﴿ والسموات ﴾ لأن هذا التأكيد لا يحسن إدخاله إلا على الجمع ، ولأن الموضع موضع تعظيم ، فهو مقتض للمبالغة ، والمعنى الأرضون جميعاً ذوات قبضته يقبضهن قبضة واحدة ، وقدم الأرض على السموات لمباشرتهم بها ومعرفتهم بحقيقتها .

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود قال : « جاء خبر من الأحبار الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا محمد إنا نجد أن الله يحمل السموات يوم القيامة على إصبع ، والشجر على إصبع ، والماء والثرى على إصبع ، وسائر الخلق على إصبع ، ثم يهزهن فيقول أنا الملك فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجره تصديقا لقول الجبر ، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة ﴾ » وانما خص يوم القيامة بالذكر - وإن كانت قدرته عامة وشاملة لدار الدنيا أيضا - لأن الدعاوي تنقطع في ذلك اليوم ، كما قال . ﴿ والأمر يومئذ لله ﴾ وقال ﴿ مالك يوم الدين ﴾ ولذلك قال في الحديث « ثم يقول أنا الملك أين ملوك الأرض؟ » .

﴿ والسموات مطويات بيمينه ﴾ ذكر اليمين للمبالغة في كمال القدرة كما يطوي الواحد منا الشيء المقدور له طيه بيمينه ، والطي ضد النشر واليمين في كلام العرب قد يكون بمعنى القدرة والملك . قال الأخفش بيمينه يقول في قدرته نحو قوله ﴿ أو ما ملكت أيمانكم ﴾ أي ما كانت لكم قدرة عليه ، وليس الملك لليمين دون الشمال وسائر الجسد ، ومنه قوله سبحانه ﴿ لأخذنا منه باليمين ﴾ أي بالقوة والقدرة ، وليس يريد به طياً بعلاج وانتصاب ، وانما المراد بذلك الفناء والذهاب ، يقال قد انطوى عنا ما كنا فيه ، وجاءنا غيره ،

وانطوى عنا ، وهو بمعنى المضي والذهاب قال الخازن اليمين ليس عندنا بمعنى الجارحة ، وإنما هي صفة جاء بها التوقيف فنحن نطلقها على ما جاءت ولا نكيفها ، وننتهي إلى حيث انتهى بنا الكتاب ؛ والأخبار المأثورة الصحيحة ؛ وهذا مذهب أهل السنة والجماعة ، قال سفيان بن عيينة كل ما وصف الله به نفسه في كتابه فتفسيره تلاوته والسكوت عنه اهـ .

ومعنى الآية ما عظموه حق تعظيمه ، والحال أنه متصف بهذه الصفة الدالة على كمال القدرة ، والمقصود الإشارة إلى أن المتولي لإبقاء السموات والأرض في هذه الدار هو المتولي لتخريبهما يوم القيامة ، وذلك يدل على قدرته التامة على الإيجاد والإعدام ، وأنه غني على الإطلاق فإنه إذا حاول تخريب الأرض يقبضها ويزيلها وتخريب السموات يجمعها كالسجل المطوي .

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما من حديث أبي هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوي السماء بيمينه ثم يقول : أنا الملك أين ملوك الأرض » (١) ؟

وعن ابن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يطوي الله السموات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى ثم يقول : أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون أين ملوك الأرض » ، أخرجه الشيخان وفي الباب أحاديث وآثار تقتضي حمل الآية على ظاهرها من دون تكلف لتأويل ، ولا تعسف بقال وقيل ، ثم نزه سبحانه نفسه فقال :

﴿ سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ به من المعبودات التي يجعلونها شركاء له مع هذه القدرة العظيمة - والحكمة الباهرة .

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴿٦٨﴾

﴿ ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض ﴾ هذه هي النفخة الأولى ، والصور هو القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل وقد تقدم غير مرة ، وقد قيل : إنه يكون معه جبريل لحديث أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن صاحبي الصور بأيديهما أو في أيديهما قرنان يلاحظان النظر حتى يؤمران » أخرجه ابن ماجه ، وفي أبي داود عنه قال : « ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم صاحب الصور وقال : عن يمينه جبريل ، وعن يساره ميكائيل ، ذكره القرطبي .

ومعنى صعق زالت عقولهم ، فخرجوا مغشياً عليهم ، وقيل : ماتوا : قال الواحدي : قال المفسرون : مات من الفزع وشدة الصوت أهل السموات والأرض ، قرأ الجمهور الصور بسكون الواو وقرئ بفتحها جمع صورة :

﴿ إلا من شاء الله ﴾ والاستثناء متصل والمستثنى جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت ، وقيل : رضوان وحملة العرش وخزنة الجنة والخور العين والنار ، وقيل : الباري تعالى وحده قاله الحسن وفيه نظر من حيث قوله من في السموات ومن في الأرض . فإنه لا يتحيزه فعلى هذا يتعين أن يكون منقطعاً وقيل الزبانية وقيل عقارب أهل النار وحياتها .

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة قال : « قال رجل من اليهود بسوق المدينة : والذي اصطفى موسى على البشر ، فرفع رجل من

الأنصار يده فلطمه وقال أتقول هذا وفيما رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « قال الله ونفخ في الصور إلى قوله : ينظرون فأكون أول من يرفع رأسه فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش ، فلا أدري أرفع رأسه قبلي ! أو كان ممن استثنى الله »

وعنه عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : « إلا من شاء الله » قال : « هم الشهداء متقلدون أسياهم حول عرشه تتلقاهم الملائكة يوم القيامة » الحديث أخرجه أبو يعلى والدارقطني في الأفراد وابن المنذر والحاكم وصححه ابن مردويه والبيهقي في البعث وأخرجه سعيد بن منصور وعبد بن حميد من قول أبي هريرة .

وعن أنس أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله ﴿إلا من شاء الله﴾ فقال جبريل وميكائيل وملك الموت وإسرافيل وحملة العرش « أخرجه الفريابي وابن جرير وأبو نصر السجزي في الابانة ، وابن مردويه .

وأخرج ابن المنذر عن جابر قال هو موسى لأنه كان صعق قبل ، وههنا إشكال أورده بعض السلف وهو أن نص القرآن يدل على أن هذا الاستثناء بعد نفخة الصعق وهي النفخة الأولى التي مات فيها من بقي على وجه الأرض والحديث المتقدم يدل على أنها نفخة البعث . وما قيل إنه يحتمل أن موسى ممن لم يمت من الأنبياء باطل لصحة موته ، وقال القاضي عياض يحتمل أن تكون هذه صعقة فزع بعد النشر حين تنشق الأرض والسموات فتتوافق الآيات والأحاديث .

قال القرطبي : ويرده ما مر في الحديث من أخذ موسى بقائمة العرش ، فإنه إنما هو عند نفخة البعث ، وأيضا تكون النفخات أربعاً ولم ينقله الثقات قال الشهاب : فمن حمل الصعق على غشى يكون من نفخة بعد نفخة البعث للإرهاب والارعاب فكلامه مردود بما عرفت ، ومن الغريب أن بعضهم جعلها

بحديث أبي هريرة خمساً ، وقد سمعنا بمن زاد في الطنبور نغمة ، ولم نسمع بمن زاد في الصور نفخة .

قال القرطبي : والذي يزيح الإشكال ما قاله بعض مشايخنا أن الموت ليس بعدم محض بالنسبة إلى الأنبياء والشهداء فانهم موجودون أحياء ، وإن لم نرهم ، فإذا نفخت نفخة الصعق صعق كل من في السموات والأرض وصعق غير الأنبياء موت وصعقهم غشي ، فإذا كانت نفخة البعث حيى من مات ، وأفاق من غشي عليه ، ولذا وقع في الصحيحين فأكون أول من يفيق ، والأحاديث الواردة في كيفية نفخ الصور كثيرة ، وقد ذكر سليمان الجمل في هذا المقام عن ابن الوردي وغيره ما جاء في صورة الصور وهيئته وتعداد نفخاته ، ولا تعلق له بالتفسير .

﴿ ثم نفخ فيه ﴾ نفخة ﴿ أخرى فاذا هم ﴾ يعني الخلق كلهم ﴿ قيام ﴾ على أرجلهم ﴿ ينظرون ﴾ ما يقال لهم ، أو ينتظرون ذلك ، والاستثناء ملاحظ في هذا أيضاً لأن من لم يمت كالحور فلا يقال له ذلك ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما بين النفختين أربعون : قالوا أربعون يوماً ؟ قال أبو هريرة أبيت ، قالوا أربعون شهراً ؟ قالوا أربعون سنة ؟ قال : أبيت ، ثم ينزل الله عز وجل من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل وليس من الإنسان شيء إلا يبل إلا عظم واحد ، وهو عجب الذنب ، ومنه يركب الخلق يوم القيامة »^(١) أخرجه الشيخان .

ودلت الآية على أن النفخة اثنتان الأولى للموت ، والثانية للبعث ، والجمهور على أنها ثلاث ، الأولى للفرع كما قال : ونفخ في الصور ففرع ، والثانية للموت ، والثالثة للإعادة .

وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءَ وَقُضِيَ
 بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ
 ﴿٧٠﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ هَٰذَا جَاءُوا هَٰهَا فَتِحَتْ أَبْوَابُهَا
 وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ
 لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ
 ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾

﴿ وأشرقَت الأرض ﴾ الاشرق الإضاءة ، يقال : أشرقَت الشمس إذا
 أضاءت ، وشرقَت إذا طلعت ، وأراد بالأرض عرصات القيامة ، أي الأرض
 الجديدة التي يوجدها الله في ذلك الوقت ، ليحشر الناس عليها ، وليس المراد
 بها أرض الدنيا .

﴿ بنور ربها ﴾ أي بعدل ربها قاله الحسن وغيره ، وقال الضحاك :
 بحكم ربها . والمعنى أن الأرض أضاءت وأنارت بما أقامه الله من العدل بين
 أهلها ، وما قضى به من الحق فيهم ، فالعدل نور ، والظلم ظلمات . وقيل :
 ذلك حين يتجلى الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء بين خلقه ، فما يضارون
 في نوره كما لا يضارون في الشمس في يوم الصحو .

وقيل : إن الله سبحانه يخلق نوراً يوم القيامة يلبسه وجه الأرض فتشرق
 به غير نور الشمس والقمر ، ولا مانع من الحمل على المعنى الحقيقي ، فإن
 الله سبحانه هو ﴿ نور السموات والأرض ﴾ قرأ الجمهور : أشرقَت مبنياً
 للفاعل ، وقرئ على البناء للمفعول .

﴿ ووضع الكتاب ﴾ قيل : هو اللوح المحفوظ ، وقال قتادة يعني الكتب والصحف التي فيها أعمال بني آدم ، فأخذ بيمينه وأخذ بشماله ، وكذا قال مقاتل : وقيل هو من وضع المحاسب كتاب المحاسبة بين يديه ، أي وضع الكتاب للحساب ﴿ وجيء بالنبين ﴾ إلى الموقف فسلوا عما أجابتهم به أممهم .

﴿ والشهداء ﴾ الذين يشهدون على الأمم من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، كما في قوله ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ﴾ وقيل المراد بالشهداء الذين استشهدوا في سبيل الله ، فيشهدون يوم القيامة لمن ذب عن دين الله . قاله السدي وقيل هم الحفظة كما قال تعالى : ﴿ وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد ﴾ قاله ابن زيد قال ابن عباس النبيون الرسل والشهداء الذين يشهدون لهم بالبلاغ ليس فيهم طعان ولا لعان يشهدون بتبليغ الرسالة وتكذيب الأمم إياهم .

ولما بين سبحانه أنه يوصل لكل ذي حق حقه عبر عن هذا المعنى بأربع عبارات أولها قوله ﴿ وقضى بينهم بالحق ﴾ أي قضى بين العباد بالعدل والصدق ، والثانية ﴿ وهم لا يظلمون ﴾ أي والحال أنهم لا ينقصون من ثوابهم ولا يزداد على ما يستحقونه من عقابهم ختم الآية بنفي الظلم كما افتتحها بإثبات العدل ، والثالثة ﴿ ووفيت كل نفس ما عملت ﴾ من خير وشر أي جزاءه والرابعة ﴿ وهو أعلم بما يفعلون ﴾ في الدنيا لا يحتاج إلى كاتب ولا حاسب ولا شاهد ، لأنه عالم بمقادير أفعالهم وبكيفياتها . فامتنع دخول الخطأ عليه ، قاله الكرخي ، وقال القرطبي ومع ذلك فتشهد الكتب والشهود وإلزاماً للحجة انتهى . يعني إنما وضع الكتاب وجيء بالنبين والشهداء لتكميل الحجة وقطع المعذرة .

ثم ذكر سبحانه تفصيل ما ذكره من توفية كل نفس ما كسبت فقال : ﴿ وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً ﴾ أي سيق الكافرون سوقاً عنيفاً إلى النار

حال كونهم جماعات متفرقة بعضها يتلو بعضاً ، قال أبو عبيدة والأخفش زمراً جماعات متفرقة بعضها إثر بعض ، واحداثها زمرة واشتقاقه من الزمر ، وهو الصوت ، إذ الجماعة لا تخلو عنه غالباً ﴿ حتى ﴾ هي التي تحكى الجمل بعدها ﴿ إذا جاؤوها فتحت أبوابها ﴾ أي أبواب النار ليدخلوها ، وهي سبعة أبواب . وكانت قبل ذلك مغلقة . وقد مضى بيان ذلك في سورة الحجر .

﴿ وقال لهم خزنتها ﴾ جمع خازن نحو سدة وسادن : ﴿ ألم يأتكم رسل منكم ﴾ أي من أنفسكم ومن جنسكم ﴿ يتلون عليكم آيات ربكم ﴾ التي أنزلها عليكم ﴿ وينذرونكم لقاء يومكم هذا ؟ ﴾ أي يخوفونكم لقاء هذا اليوم الذي صرتم فيه ، والمراد به وقت الشدة لا يوم القيامة جميعه ، قال الزمخشري : وقد جاء استعمال اليوم والأيام مستفيضا في أوقات الشدة ، قالوا لهم هذا القول تقيعاً وتوبيخاً ، فأجابوا بالاعتراف ، ولم يقدرُوا على الجدل الذي كانوا يتعللون به في الدنيا ، لانكشاف الأمر وظهوره ولهذا ﴿ قالوا بلى ﴾ أي قد أتتنا الرسل بآيات الله وأنذرونا بما سنلقاه .

﴿ ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين ﴾ وهي ﴿ لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ جيء بالظاهر مقام المضمحل لبيان سبب استحقاقهم العذاب وهو كفرهم ، فلما اعترفوا هذا الاعتراف ﴿ قيل ﴾ لهم من قبل الملائكة الموكلين لعذابهم .

﴿ ادخلوا أبواب جهنم ﴾ التي قد فتحت لكم لتدخلوها ﴿ خالدين ﴾ أي مقدرين الخلود ﴿ فيها ، فبئس مثوى المتكبرين ﴾ جهنم ، واللام فيه للجنس ، وجيء بالظاهر لبيان سبب كفرهم الذي استحقوا به العذاب ، وقد تقدم تحقيق المثوى في غير موضع ، ولما ذكر فيما تقدم حال الذين كفروا وسوقهم إلى جهنم زمراً ذكر هنا حال المتقين ، وسوقهم إلى الجنة فقال :

وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٥﴾

﴿ وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرًا ﴾ أي ساقطهم الملائكة سوق إعزاز وتشريف وتكريم ، والمراد بذلك السوق إسراهم إلى دار الكرامة والرضوان ، كما يفعل بمن يكرم من الوافدين على بعض الملوك والمراد بالسوق المتقدم طردهم إلى العذاب بالهوان كما يفعل بالأسير إذا سيق إلى الحبس أو القتل ، فستان ما بين السوقين .

وهذا من بدائع أنواع البديع ، وهو أن يأتي سبحانه وتعالى بكلمة في حق الكفار فتدل على هوانهم وعقابهم ، ويأتي بتلك الكلمة بعينها وهيئتها في حق المؤمنين فتدل على إكرامهم بحسن ثوابهم ، فسبحان من أنزله معجز المباني ، متمكن المعاني ، عذب الموارد والمثاني قيل الكلام على حذف مضاف ، أي : سيقت مراكبهم إذ لا يذهب بهم إلا راكبين وقد سبق معنى الزمر أي جماعات أهل الصلاة على حدة ، وأهل الصوم كذلك إلى غير ذلك .

﴿ حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها ﴾ جواب إذا محذوف ، قال المبرد : تقديره سعدوا وفتحت ، وقال الزجاج : القول عندي أن الجواب محذوف على تقدير حتى إذا جاؤوها كانت هذه الأشياء التي ذكرت دخلوها فالجواب دخلوها وحذف لأن في الكلام دليلاً عليه . وقال الأخفش والكوفيون : الجواب فتحت والواو زائدة وهو خطأ عند البصريين لأن الواو من حروف المعاني فلا تزداد .

وقيل إن زيادة الواو دليل على أن الأبواب فتحت لهم قبل أن يأتوا لكرامتهم على الله والتقدير حتى إذا جاءوها وأبوابها مفتحة بدليل قوله ﴿جنات عدن مفتحة لهم الأبواب﴾ وحذفت الواو في قصة أهل النار لأنهم وقفوا على النار ، وفتحت بعد وقوفهم إذلاً وترويعاً . ذكر معناه النحاس منسوباً إلى بعض أهل العلم قال : ولا أعلم أنه سبقه إليه أحد ، وعلى هذا القول تكون الواو واو الحال بتقدير قد ، أي : جاؤوها وقد فتحت لهم الأبواب . وقيل : إنها واو الثمانية ، وذلك أن من عادة العرب أنهم كانوا يقولون في العدد خمسة ستة سبعة وثمانية ، وقد مضى القول في هذا في سورة براءة مستوفى ، وفي سورة الكهف أيضاً .

وقد أخرج البخاري ومسلم وغيرهما من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، والذين يلونهم على ضوء أشد كوكب دري في السماء إضاءة »^(١) وأخرج الشيخان وغيرهما عن سهل بن سعد أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « في الجنة ثمانية أبواب منها باب يسمى باب الريان ، لا يدخله إلا الصائمون » ، وقد ورد في كون أبواب الجنة ثمانية أحاديث في الصحيحين وغيرهما ، وكتابنا (مثير ساكن الغرام ، إلى روضات دار السلام) هو أحسن ما جمع في أحوال الجنة فليرجع إليه وليعمل عليه ، ثم أخبر سبحانه أن خزنة الجنة يسلمون على المؤمنين فقال :

﴿ وقال لهم خزنتها سلام عليكم ﴾ أي سلامة لكم من كل آفة ، لا يعتریکم بعده مكروه ﴿ طبت ﴾ وطهرتم في الدنيا ، فلم تتدنسوا بالشرك والمعاصي . قال مجاهد طبت بطاعة الله ، وقيل بالعمل الصالح ، والمعنى واحد وقيل طاب لكم المقام وقيل طابت حالكم وحسنت وجعل دخول الجنة مسبباً عن الطيب والطهارة لأنها دار الطيبين ، ومشوى الطاهرين ، وقد طهرها الله من كل دنس وطيبها من كل قدر ، فلا يدخلها إلا مناسب لها ، موصوف

(١) صحيح الجامع الصغير / ٢٥٦٢ .

بصفتها .

قال مقاتل إذا قطعوا جسر جهنم حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار ، فتقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم ، حتى إذا هذبوا وطيبوا قال لهم رضوان وأصحابه سلام عليكم الآية ، وقد أخرج البخاري حديث القنطرة هذا في جامعه من حديث أبي سعيد الخدري وهو طويل جدا ﴿ فادخلوها ﴾ أي الجنة ﴿ خالدين ﴾ أي مقدرين الخلود .

﴿ وقالوا ﴾ أي فعند ذلك قال أهل الجنة ﴿ الحمد لله الذي صدقنا وعده ﴾ بالبعث والثواب بالجنة في قوله : ﴿ تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقياً ﴾ ﴿ وأورثنا الأرض ﴾ أي أرض الجنة قتادة وأبو العالية ، كأنها صارت من غيرهم إليهم ، فملكوها وتصرفوا فيها تصرف الوارث فيما يرثه ، ففي الكلام تجوز . وقيل : إنهم ورثوا الأرض التي كانت لأهل النار لو كانوا مؤمنين ، قاله أكثر المفسرين ، وقيل : إنها أرض الدنيا وفي الكلام تقديم وتأخير .

﴿ تنبأ من الجنة حيث نشاء ﴾ أي نتخذ فيها من المنازل ما نشاء حيث نشاء فلا يختار أحد مكان غيره ، وقيل : يتخير كل واحد من أمة محمد صلى الله عليه وسلم وأين ينزل تكرمة له ، وإن كان لا يختار إلا ما قسم له ، وأما بقية الأمم فيدخلون بعد أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فينزلون فيما فضل عنهم ، وفي الكرخي الجنة نوعان : الجنات الجسمانية ، وهي لا تحتمل المشاركة ، والجنات الروحانية ، وحصولها لواحد لا يمنع من حصولها لآخرين ﴿ فنعم أجر العاملين ﴾ في الدنيا أي الجنة وهذا من تمام قول أهل الجنة ، وقيل هو من قول الله سبحانه .

﴿ وترى ﴾ يا محمد ﴿ الملائكة حافين ﴾ أي محيطين ومحدثين قائمين بجميع ما عليهم من الحقوق ﴿ من حول العرش ﴾ أي جوانبه التي يمكن الحفوف بها فيسمع لحفوفهم صوت التسبيح والتمجيد والتقديس ، وإدخال

﴿ من ﴾ يفهم أنهم مع كثرتهم إلى حد لا يحصيه إلا الله لا يملأون حوله ، وهذا أولى من قول البيضاوي : إن (من) مزيدة ، وبه قال الأخفش : أو للابتداء أي ابتداء حفوفهم من حول العرش إلى حيث شاء الله .

والمعنى أن الرائي يراهم بهذه الصفة في ذلك اليوم ، والحافين جمع حاف قاله الأخفش ، وهو المحقق بالشيء من حففت بالشيء إذا أحطت به ، وهو مأخوذ من الحفاف وهو الجانب ، وقال الفراء وتبعه الزمخشري لا واحد له من لفظه إذ لا يقع لهم هذا الاسم الا مجتمعين .

﴿ يسبحون بحمد ربهم ﴾ أي حال كونهم مسبحين لله متلبسين بحمده أي يقولون سبحان الله وبحمده وقيل معنى يسبحون يصلون حول العرش شكراً لربهم ، وهذا تسبيح تلذذ لا تسبيح تعبد ، لأن التكليف يزول في ذلك اليوم وذلك يشعر بأن ثوابهم هو عين ذلك التسبيح ، وأفهم أن منتهى درجات العليين ولذاتهم الاستغراق في صفاته تعالى ، اللهم أرزقنا .

﴿ وقضي بينهم ﴾ أي بين جميع العباد والخلائق ﴿ بالحق ﴾ أي بالعدل بإدخال بعضهم الجنة وبعضهم النار ، وقيل بين النبيين الذين جيء بهم مع الشهداء ، وبين أممهم ، وقيل بين الملائكة بإقامتهم في منازلهم على حسب درجاتهم والأول أولى .

﴿ وقيل الحمد لله رب العالمين ﴾ القائلون هم المؤمنون ، حمدوا الله على قضائه بينهم وبين أهل النار بالحق كما قال : ﴿ وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾ ، وقيل القائلون هم الملائكة حمدوا الله تعالى على عدله في الحكم وقضائه بين عباده بالحق ، وبدأ سبحانه هذه الآية بالحمد ، وختمها بالحمد ، للتنبيه على تحميده في بداية كل أمر ونهايته ، والحمد الأول على صدق الوعد وإيراث الجنة ، وهذا على القضاء بالحق ، فلا تكرار فيه ، وروي من حديث ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ على المنبر آخر الزمر فتحرك المنبر مرتين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة غافر

وهي سورة المؤمن وتسمى سورة الطول
وهي خمس وثمانون آية

وقيل اثنتان وثمانون آية قاله القرطبي . وهي مكتبة في قول عطاء وجابر وعكرمة . قال الحسن إلا قوله : ﴿ وسبح بحمد ربك ﴾ لأن الدنوات نزلت بالمدينة وقال ابن عباس وقتادة إلا آيتين نزلتا بالمدينة وهما ﴿ أن الذين يجادلون في آيات الله ﴾ والتج بعدها . وكذا نص عليه السيوطي في الاتقان . وفي لب الأصول في أسباب النزول . قال ابن عباس أنزلت حم المؤمن بمكة . وعن سمرة بن جندب قال نزلت الحواميم جميعاً بمكة .

وأخرج محمد بن نصر وابن مردويه عن أنس بن مالك سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول أن الله أعطاني السبع الحواميم مكان التوراة . وأعطاني الرأث اله الطواسين مكان الإنجيل . وأعطاني ما بين الطواسين اله الحواميم مكان الزبور . وفضلني بالحواميم والمفضل . ما قرأه نبي قبلي . وقال ابن عباس أن لكل شيء لباباً . وإن لباب القرآن حم . وقال ابن مسعود الحواميم ديباج القرآن . وعنه قال : « إذا وقعت في آل حم وقعت في روضات دهمات أتأنيق فيهن » (١) .

وعن سعد بن أبواهيم الحواميم تسمى الغرائس . رواه الدارمي في مسنده . وقال الجوهر في آل حم سور في القرآن . فأما قول العامة الحواميم فليس من كلام العرب . وبه قال الحريزي في درة الخواص وقال أبو عبيدة الحواميم على غير قياس . والأول أن تجمع بذوات حم انتهك . فتلخص من مجموع هذه الأخبار أن هذه السور السبع تسمى الحواميم . وتسمى آل حم . وتسمى ذوات حم فلها جموع ثلاثة خلافاً لمن أنكر الأول منها .

وأخرج البيهقي في الشعب عن خليل بن مرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الحواميم سبع وأبواب النار سبع يجيء كل حم منا يقف على باب من هذه الأبواب . يقول اللهم لا تدخل من هذا الباب من كان يؤمن بك ويقرؤك .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمَّ ﴿١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ
الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ ﴿٣﴾

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم حم ﴾ قرأ الجمهور بفتح الحاء مشبعا^(١)، وقرئ بإمالة إمالة محضة ، وبإمالة بين بين وقرأ الجمهور بسكون الميم كسائر الحروف المقطعة وقرأ الزهري بضمها على أنها خبر مبتدأ مضمرة أو مبتدأ والخبر ما بعده وقرأ عيسى بن عمر الثقفي بفتحها ، وهي تحتل وجهين أحدهما أنها منصوبة بفعل مقدر ، أي اقرأ حم ، وإنما منعت من الصرف للعلمية والتأنيث ، أو للعلمية وشبه العجمة وذلك انه ليس في الأوزان العربية وزن فاعيل بخلاف الأعجمية ، نحو قابيل وهابيل والثاني أنها حركة بناء تخفيفاً كأين وكيف ، وقرأ ابن أبي إسحق وأبو السماك بكسرها لالتقاء الساكنين . أو بتقدير القسم وقرأ الجمهور بوصل الحاء بالميم ، وقرأ ابو جعفر بقطعها .

وقد اختلف في معناه ف قيل : هو اسم من اسماء الله قاله أبو أمامة ، وقيل اسم من أسماء القرآن قاله قتادة ، وقال الضحاك والكسائي : معناه قضى ، وجعلناه بمعنى حم أي وقع وقضى ، وقيل : مفاتيح خزائنه ، وقيل : اسم الله الأعظم ، وقيل بدء أسماء الله تعالى كحميد وحليم وحكيم وحنان ، وكمالك ومجيد ومنان ومتكبر ومصور ومؤمن ومهيمن ، وقيل معناه حم أمر الله أي قرب نصره لأوليائه ، وانتقامه من أعدائه ؛ وهذا كله تكلف لا موجب له ؛ وتعسف لا ملجئ إليه ، والحق ان هذه الفاتحة لهذه السورة وأمثالها من المتشابه الذي استأثر الله بعلم معناه ، كما قدمنا تحقيقه في فاتحة سورة البقرة .

(١) الحاء من حروف (ح س ط هـ) وكلها تمد مداً طبيعياً .

وأخرج الترمذي والحاكم وصححه ، وأبو داود وغيرهم ، عن المهلب ابن أبي صفرة قال : حدثني من سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول ليلة الخندق « إن أتيت الليلة فقولوا حم لا ينصرون » ، وعن البراء بن عازب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إنكم تلقون عدوكم فليكن شعاركم حم لا ينصرون » أخرجه النسائي والحاكم وابن أبي شيبة .

﴿ تنزيل الكتاب ﴾ هو خبر لحَم على تقدير انه مبتدأ أو خبر لمبتدأ مضمرة أي هذا تنزيل أو هو مبتدأ وخبره ﴿ من الله ﴾ قال الرازي : المراد بالتنزيل المنزل ، والمعنى أن القرآن منزل من عند الله ليس بكذب عليه ﴿ العزيز ﴾ المنيع بسلطانه الغالب ، القاهر في ملكه ﴿ العليم ﴾ الكثير العلم بخلقه ، وما يقولونه ويفعلونه ، فهو تهديد للمشركين وبشارة للمؤمنين .

﴿ غافر الذنب ﴾ أي ذنب المؤمنين ، وعن ابن عمر قال : سائر الذنب لمن يقول : لا إله إلا الله ﴿ وقابل التوب ﴾ أي توبة الراجعين أو عمن يقول : لا إله إلا الله . والتوب والثوب والأوب أخوات في معنى الرجوع مصادر ، وقال الأخفش : التوب جمع توبة ، كدوم ودومة ، وإدخال الواو في هذا الوصف لإفادة الجمع للمذنب التائب بين قبول توبته ومحو حوبته قاله العمادي أو لتغاير الوصفين إذ ربما يتوهم الاتحاد قاله البيضاوي .

﴿ شديد العقاب ﴾ أي مشدودة لمن لا يقول : لا إله إلا الله ، أو على المخالفين والكافرين ، وقيل : قابل التوب لأوليائه ، وشديد العقاب لأعدائه وقيل قابل التوب من الشرك وشديد العقاب لمن لا يوحدہ ﴿ ذي الطول ﴾ أي ذي الفضل على العارفين ، أو الغني عن كل العالمين وأصل الطول الانعام والتفضل أي ذي الانعام على عباده والتفضل عليهم ، وقال مجاهد وابن عباس : ذي الغنى والسعة ، ومنه قوله :

﴿ومن لم يستطع منكم طويلاً﴾ أي غنى وسعة ، وقال عكرمة : ذي المن قال الجوهري والطول بالفتح لمن يقال : منه طال عليه ويطول عليه إذا امتن عليه . وقال محمد بن كعب : ذي التفضل قال الماوردي والفرق بين المن والتفضل أن المن عفو عن ذنب ، والتفضل إحسان غير مستحق ، والله سبحانه موصوف على الدوام بكل من هذه الصفات ، بإضافة المشتق منها للتعريف كالأخيرة ، وقال السمين : فيها ثلاثة أوجه أحدها أنها كلها صفات للجلالة ، الثاني أن الكل أبدال ، لأن اضافتها غير محضة الثالث أن غافر وقابل نعتان ، وشديد العقاب بدل انتهى .

ثم ذكر ما يدل على توحيده ، وأنه الحقيق بالعبادة فقال :

﴿لا إله إلا هو﴾ استئناف أو حال لازمة ، وقال ابو البقاء : صفة قال ابن عادل : وهذا على ظاهره فاسد ، لأن الجملة لا تكون صفة للمعارف ، ويمكن ان يريد أنه صفة لشديد العقاب لأنه لم يتعرف عنده بالاضافة ﴿إليه﴾ لا إلى غير ﴿المصير﴾ أي مصير من يقول لا إله إلا الله فيدخل الجنة ومصير من لا يقول لا إله إلا الله فيدخل النار ، وذلك في اليوم الآخر ، قال الكرخي حال من الجملة قبله .

أخرج أبو عبيدة وابن سعد ومحمد بن نصر وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قرأ حم المؤمن إلى : إليه المصير وآية الكرسي حين يصبح حفظ بهما حتى يمسي ، ومن قرأهما حين يمسي حفظ بهما حتى يصبح »^(١)

ثم لما ذكر الله سبحانه أن القرآن كتاب الله أنزله ليهتدى به في الدين . ذكر أحوال من يجادل فيه لقصد إبطاله فقال :

(١) ضعيف الجامع الصغير ٥٧٨١ / مشكاة المصابيح ٢١٤٤ .

مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرُكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبَلَدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ
 قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ
 وَجَادِلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْنَاهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَلِكَ
 حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٦﴾

﴿ ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا ﴾ أي ما يخاصم في دفع
 آيات الله وتكذيبها بالطعن فيها إلا الكفار ، والمراد الجدل بالباطل ،
 القصد إلى دحض الحق ، كما في قوله وجادلوا بالباطل ليدحضوا به
 الحق ، فأما الجدل لاستيضاح الحق وإيضاح الملتبس ، وحل المشكل
 وتكذيبها ، وكشف المعضل ، واستنباط المعاني ، ورد أهل الزيغ بها ،
 ورفع اللبس ، والبحث عن الراجح والمرجوح ، وعن المحكم والمتشابه ،
 ودفع ما يتعلق به المبطلون من متشابهات القرآن ، وردهم بالجدال إلى
 المحكم ، فهو من أعظم ما يتقرب به المتقربون ، وأفضل ما يجاهد في
 سبيله المجاهدون ، وبذلك أخذ الله الميثاق على الذين أوتوا الكتاب فقال :

﴿ وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه ﴾
 وقال : ﴿ إن الذين يكتُمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه
 للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ﴾ وقال . ﴿ ولا
 تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن ﴾ .

فتلخص أن الجدل نوعان ، جدال في تقرير الحق ؛ وجدال في
 تقرير الباطل ؛ أما الأول فهو حرفة الأنبياء عليهم السلام ، ومنه قوله تعالى
 حكاية عن قوم نوح ﴿ يا نوح قد جادلتنا ﴾ وأما الثاني فهو مذموم ، وهو
 المراد بهذه الآية ، فجادلهم في آيات الله هو قولهم مرة هذا سحر ، ومرة
 شعر ، ومرة هو قول الكهنة ، ومرة ﴿ أساطير الأولين ﴾ ومرة ﴿ إنما يعلمه
 بشر ﴾ وأشبه هذا قاله الكرخي . وأخرج عبد بن حميد وأبو داود عن أبي

هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن جدالاً في القرآن كفر » ، وعنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « المراء في القرآن كفر »^(١) ، أخرجه أبو داود وغيره .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال « هاجرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً فسمع أصوات رجلين يختلفا في آية ، فخرج يعرف في وجهه الغضب فقال إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم في الكتاب »^(٢) ، أخرجه مسلم ، قال أبو العالية آيتان ما أشدهما على الذين يجادلون في القرآن هذه الآية ، وقوله « وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد » .

ولما حكم سبحانه على المجادلين في آيات الله بالكفر نهى رسوله صلى الله عليه وسلم عن أن يغتر بشيء من حظوظهم الدنيوية فقال :

﴿ فلا يغركم تقلبهم في البلاد ﴾ أي فلا يغركم ما يفعلونه من التجارة النافقة في البلاد ، كالشام واليمن ، وما يحصلونه من المكاسب والأرباح ، وما يجمعونه من الأموال سالمين غانمين ، فإنهم معاقبون عما قليل ، وإن أمهلوا لا يمهلون ، قال الزجاج : لا يغركم سلامتهم بعد كفرهم ، فإن عاقبتهم الهلاك وهذا تسلية له صلى الله عليه وسلم ووعيد لهم ، والفاء لترتيب النهي ، أو وجوب الانتهاء على ما قبلها ، من التسجيل عليهم بالكفر ، الذي لا شيء أمقت منه عند الله ، ولا أجلب لخسران الدنيا والآخرة قرأ الجمهور : لا يغركم بفك الادغام وقرئ بالادغام ، وهو جواب لشرط مقدر ، أي اذا تقرر عندك أن المجادلين في آيات الله كفار فلا يغركم الخ ، ثم بين حال من كان قبلهم ، وأن هؤلاء سلكوا سبيل أولئك في التكذيب فقال :

﴿ كذبت قبلهم ﴾ أي قبل أهل مكة ﴿ قوم نوح والأحزاب من

(١) صحيح الجامع ٦٥٦٣ - المشكاة / ٢٣٦ .

(٢) صحيح الجامع ٢٣٧٠ .

بعدهم ﴿ أي وكذبت الأحزاب الذين تحزبوا على الرسل من بعد قوم نوح ، كعاد وثمود وغيرهما ﴾ وهمت كل أمة ﴿ من تلك الأمم المكذبة ﴾ برسولهم ﴿ الذي أرسل إليهم ﴾ ليأخذوه ﴿ أي ليتمكنوا منه فيحبسوه ويعذبوه ، ويصيبوا منه ما أرادوا . وقال قتادة والسدي ليقتلوه ، والأخذ قد يرد بمعنى الاهلاك كقوله : ﴿ فأخذتهم فكيف كان نكير ﴾ والعرب تسمي الأسير الأخيد والأخذ بمعنى الأسر .

﴿ وجادلوا ﴾ أي خاصموا رسولهم ﴿ بالباطل ﴾ من القول ﴿ ليدحضوا ﴾ أي ليزيلوا ﴿ به الحق ﴾ ومنه مكان دحض أي مزلقة ، ومزلة أقدام ، والباطل داحض لأنه يزلق ويزول فلا يستقر ، قال يحيى بن سلام : جادلوا الأنبياء بالشرك ليطلوا به الإيمان ﴿ فأخذتهم ﴾ أي فأخذت هؤلاء المجادلين بالباطل ﴿ فكيف كان عقاب ﴾ الذي عاقبتهم به وحذف ياء المتكلم اجتزاء بالكسرة عنها وصلًا ووقفًا لأنها رأس آية .

﴿ وكذلك حققت كلمة ربك ﴾ أي وجبت وثبتت ولزمت ، يقال : حق الشيء اذا لزم وثبت ، والمعنى وكما حققت على الأمم المكذبة لرسولهم كلمة العذاب حققت كلمة ربك أي وعيده ﴿ على الذين كفروا ﴾ بك ، وجادلوك بالباطل ، وتحزبوا عليك ، وهموا بما لم ينالوا ، كما ينبيء عنه إضافة اسم الرب إلى ضميره صلى الله عليه وسلم فإن ذلك للاشعار بأن وجوب كلمة العذاب عليهم من إحكام تربيته التي من جملتها نصرته على أعدائه وتعذيبهم ، قاله ابو السعود ، وقرأ الجمهور كلمة بالتوحيد ، وقرئ كلمات بالجمع وجملة

﴿ أنهم أصحاب النار ﴾ للتعليل أي لأجل أنهم مستحقون للنار ، قال الأخفش : أي لأنهم ، أو بأنهم وقال المحلي بدل من كلمة أي بدل الكل أو الاشتمال على إرادة اللفظ أو المعنى ثم ذكر أحوال حملة العرش ومن حوله فقال :

الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ، وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ
 آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ
 وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ
 آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ
 السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ
 ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لِمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ
 إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾

﴿الذين يحملون العرش ومن حوله﴾ الموصول مبتدأ وخبره قوله :
 ﴿يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ، ويستغفرون للذين آمنوا﴾ والجملة
 مستأنفة مسوقة لتسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ببيان أن هذا
 الجنس من الملائكة الذين هم أعلى طبقاتهم ، وأولهم وجوداً يضمنون إلى
 تسبيحهم لله ، والإيمان به الاستغفار للذين آمنوا بالله ورسوله وصدقوا .
 وفيه دليل على أن الاشتراك في الإيمان يجب أن يكون أدعى شيء إلى
 النصيحة والشفقة ، وإن تباعدت الأجناس وشطت الأماكن ، والمراد بمن
 حول العرش هم الملائكة الذين يطوفون به مهللين مكبرين ، وهم
 الكروبيون ، وهو في محل رفع عطفاً على الذين الخ وهذا هو الظاهر ،
 وقيل : يجوز أن يكون في محل نصب عطفاً على العرش والأول أولى .

والمعنى ان الملائكة الذين يحملون العرش وكذلك الملائكة الذين
 هم حول العرش ينزهون الله متلبسين بحمده على نعمه ، ويؤمنون بالله
 ببصائرهم ، ويستغفرون الله لعباده المؤمنين به ، وأخبر عنهم بالإيمان

أظهاراً لفضله ، وتعظيماً لأهله ، ومساق الآية لذلك وهم اليوم أربعة ، فإذا كان يوم القيامة أردفهم الله تعالى بأربعة آخر ، كما قال تعالى :

﴿ ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ﴾ وهم أشرف الملائكة وأفضلهم ، لقربهم من الله عز وجل ، « وهم على صورة الأوعال ، والعرش فوق ظهورهم » ، ذكره القشيري وأخرجه الترمذي من حديث ابن عباس ، واستفيد منه أن حمل الملائكة للعرش على ظهورها .

وقد وردت في بيان مسافة أظلافهم الى ركبهم وأرجلهم وأقدامهم وما بين شحمة أذنهم إلى عاتقهم وألفاظ تسبيحهم أخبار وآثار ، وكذا في صفة العرش وبعد ما بين السماء السابعة وبين العرش ، والمعول عليه منها ما ورد في الصحيح ثم بين سبحانه كيفية استغفارهم للمؤمنين فقال حاكياً عنهم .

﴿ ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً ﴾ أي وسع رحمتك كل شيء ، وعلملك كل شيء ، وتقديم الرحمة على العلم لأنها المقصودة بالذات ههنا ، قاله البيضاوي وأبو السعود ، لأن المقام مقام الاستغفار ، وإلا فالعلم متقدم ذاتاً ﴿ فاغفر للذين تابوا ﴾ أي أوقعوا التوبة عن الذنوب ، أو عن الشرك وإن كان عليهم ذنوب .

﴿ واتبعوا سبيلك ﴾ وهو دين الاسلام ﴿ وقهم عذاب الجحيم ﴾ أي احفظهم منه واجعل بينهم وبينه وقاية بأن تلزمهم الاستقامة ، وتتم نعمتك فإنك وعدت من كان كذلك بذلك ، ولا يبدل القول لديك ، وإن كان يجوز ان تفعل ما تشاء ، وأن الخلق عبيدك .

﴿ ربنا وأدخلهم جنات عدن ﴾ أي إقامة ، معطوف على قوله قهم ووسط الجملة الندائية لقصد المبالغة بالتكرير ، ووصف جنات عدن بأنها هي ﴿ التي وعدتهم ﴾ إياها ﴿ و ﴾ أدخل ﴿ من صلح من آبائهم

وأزواجهم وذرياتهم ﴿ المراد بالصلاح هنا الإيمان بالله والعمل بما شرعه الله ، فمن فعل ذلك فقد صلح لدخول الجنة ، ويجوز عطف ومن صلح على الضمير في وعدتهم ، أي ووعدت من صلح والأولى عطفه على الضمير الأول في وأدخلهم ، لأن الدعاء لهم بالادخال عليه صريح وعلى الثاني ضمني .

والمعنى ساو بينهم ليتم سرورهم ، قرأ الجمهور بفتح اللام من صلح ، وذرياتهم على الجمع ، وقرأ ابن أبي عبة بضم اللام ، وقرأ عيسى بن عمر على الافراد ﴿ إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ أي الغالب القاهر الكثير الحكمة الباهرة .

﴿ وقهم السيئات ﴾ يقال : وقاه يقيه وقاية أي حفظه والمعنى احفظهم عن العقوبات أو جزاء السيئات على تقدير مضاف محذوف ، قال قتادة : وقهم ما يسوؤهم من العذاب ، وهذا دعاء يتناول عذاب الجحيم ، وعذاب موقف القيامة ، والحساب والسؤال ، وقوله ﴿ وقهم عذاب الجحيم ﴾ مقصور على إزالة عذاب النار فيكون تعميماً بعد تخصيص ، أو الأول دعاء للأصول ، والثاني للفروع ، والضمير راجع للمعطوف وهو الآباء والأزواج والذرية ، أفاده أبو السعود .

﴿ ومن تق السيئات يومئذ ﴾ أي يوم القيامة ، والتنوين عوض عن جملة غير موجودة في الكلام ، بل متصيدة من السياق ، وتقديرها يوم إذ تدخل من تشاء الجنة ومن تشاء النار ، والمسببة عن السيئات ، وهو يوم القيامة ، وقيل : التقدير يوم إذ تؤاخذ بها ، وجواب من ﴿ فقد رحمته ﴾ من عذابك وأدخلته جنتك ﴿ وذلك ﴾ أي ما تقدم من إدخالهم الجنات ، ووقايتهم السيئات .

﴿ هو الفوز العظيم ﴾ أي الظفر الذي لا ظفر مثله ، والنجاة التي لا

تساويها نجاة ، حيث وجدوا بأعمال منقطعة نعيماً لا ينقطع ، وبأفعال حقيرة ملكاً لا تصل العقول الى كنه جلالته . قال مطرف أنصح عباد الله للمؤمنين الملائكة وأغش الخلق لهم هم الشياطين .

ثم لما ذكر سبحانه أصحاب النار وأنهم حقت عليهم كلمة العذاب ، ذكر أحوالهم بعد دخول النار فقال :

﴿ إن الذين كفروا ينادون ﴾ قال الواحدي . قال المفسرون إنهم لما رأوا أعمالهم ونظروا في كتابهم ، وأدخلوا النار ، ومقتوا أنفسهم بسوء صنيعهم ، ناداهم حين عاينوا عذاب الله مناد : ﴿ لمقت الله ﴾ إياكم في الدنيا ﴿ أكبر من مقتكم أنفسكم ﴾ اليوم ، أو من مقت بعضكم بعضاً اليوم قال الأخفش : هذه اللام هي لام الابتداء وقعت بعد ينادون ، لأن معناه يقال لهم ، والنداء قول ، قال الكلبي : يقول كل إنسان من أهل النار لنفسه مقتك يا نفسي ، فتقول الملائكة لهم وهم في النار : لمقت الله إياكم إذ أنتم في الدنيا أشد من مقتكم أنفسكم اليوم . وقال الحسن يعطون كتابهم فإذا نظروا الى سيئاتهم مقتوا أنفسهم فينادون لمقت الله إياكم في الدنيا ،

﴿ إذ تدعون الى الايمان ﴾ فتكفرون أكبر من مقتكم اذ عايتم النار والظرف منصوب بمقدر محذوف دل عليه المذكور ، أي مقته تعالى إياكم وقت دعائكم ، وقيل هو اذكروا ، وقيل بالمقت المذكور أولاً ، والمقت أشد البغض ، والمراد به هنا لازمه وهو الغضب عليهم ، وتعذيبهم ، قاله أبو السعود وقال الكرخي المراد منه هنا أشد الانكار والزجر ﴿ فتكفرون ﴾ أي فتصرون على الكفر اتباعاً لأنفكس الأمانة ، ومسارعة الى هواها ، واقتداء بأخلائكم المضلين ، وتقليداً لأسلافكم المتقدمين ، واستحباباً لآرائهم . ثم أخبر سبحانه عما يقولونه في النار فقال :

قَالُوا رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّل لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٤﴾

﴿ قالوا : ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين ﴾ نعتان لمصدر محذوف ، أي امتنا إمتنتين اثنتين ، وأحييتنا إحياءتين اثنتين ، والمراد بالاماتتين أنهم كانوا نطفاً لا حياة لها في أصلاب آبائهم ، ثم أماتهم بعد أن صاروا أحياء في الدنيا والمراد بالاحياءتين أنه أحياهم الحياة الأولى في الدنيا ، ثم أحياهم عند البعث ، ومثل هذه الآية قوله :

﴿ وكنتم أمواتاً فأحياكم ، ثم يميتكم ، ثم يحييكم ﴾ قاله ابن مسعود ، أي كانوا أمواتاً في صلب آبائهم ، ثم أخرجهم فأحياهم ، ثم أماتهم ، ثم يحييهم بعد الموت . وقيل : معنى الآية أنهم أميتوا في الدنيا عند انقضاء آجالهم ثم أحياهم الله في قبورهم للسؤال ، ثم أميتوا ثم أحياهم الله في الآخرة .

ووجه هذا القول أن الموت سلب الحياة ، ولا حياة للنطفة ، ووجه القول الأول أن الموت قد يطلق على عادم الحياة من الأصل ، وقد ذهب الى التفسير الأول جمهور السلف ، وقال ابن زيد : المراد بالآية أنه خلقهم في ظهر آدم واستخرجهم ، وأحياهم ، وأخذ عليهم الميثاق ، ثم أماتهم ، ثم أحياهم في الدنيا ، ثم أماتهم .

وقال ابن عباس : قال كنتم تراباً قبل أن يخلقكم ، فهذه ميتة ، ثم

أحياءكم فخلقكم فهذه حياة ثم يميتكم فترجعون الى القبور فهذه ميتة أخرى ثم يبعثكم يوم القيامة فهذه حياة أخرى ، فهما موتتان وحياتان ، كقوله ﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياءكم ﴾ الآية .

ثم ذكر سبحانه اعترافهم بعد أن صاروا في النار بما كذبوا به في الدنيا فقال حاكياً عنهم : ﴿ فاعترفنا بذنوبنا ﴾ التي أسلفناها في الدنيا ، من تكذيب الرسل ، والاشراك بالله ، وترك توحيد الله ، فاعترفوا حيث لا ينفعهم الاعتراف وندموا حيث لا ينفعهم الندم ، والمعنى لما رأوا الاماتة والاحياء قد تكررا عليهم ، علموا أن الله قادر على الإعادة كما هو قادر على الانشاء ، فاعترفوا ، وقد جعلوا اعترافهم هذا مقدمة لقولهم : ﴿ فهل الى خروج ﴾ لنا عن النار ورجوع لنا الى الدنيا لنطيع ربنا .

﴿ من سبيل ﴾ أي من طريق لتخلص منها أم اليأس واقع دون ذلك ؟ فلا خروج ولا سبيل اليه وهذا كلام من غلب عليه اليأس ، وإنما يقولون ذلك تحيراً ، ولهذا جاء الجواب على حسب ذلك ، ومثل هذا قولهم الذي حكاه الله عنهم ﴿ فهل الى مرد من سبيل ﴾ وقوله ﴿ فأرجعنا نعمل صالحاً ﴾ وقوله ﴿ يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ﴾ الآية ؟ ثم أجاب الله سبحانه عن قولهم هذا بقوله :

﴿ ذلكم ﴾ مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي الأمر ذلكم ، أو مبتدأ خبره محذوف ، أي ذلكم العذاب الذي أنتم فيه ﴿ بأنه ﴾ أي بسبب أنه ﴿ إذا دعى الله ﴾ في الدنيا ﴿ وحده ﴾ دون غيره ﴿ كفرتم به ﴾ وتركتم توحيد الله ﴿ وإن يشرك به ﴾ غيره من الأصنام أو غيرها ﴿ تؤمنوا ﴾ بالاشراك وتصدقوا به ، وتجيئوا الداعي اليه فبين سبحانه لهم السبب الباعث على عدم إجابتهم الى الخروج من النار ، وهو ما كانوا فيه من إشراك غيره به في العبادة التي رأسها الدعاء ، وترك توحيد الله .

﴿ فالحكم لله ﴾ وحده دون غيره وهو الذي حكم عليكم بالخلود في

النار ، وعدم الخروج منها فتعذيبه لكم عدل نافذ ﴿ العلي ﴾ المتعالي
سلطانه عن أن يكون له مماثل في ذاته وصفاته فلا يرد قضاؤه ﴿ الكبير ﴾
الذي كبر عن أن يكون له مثل أو صاحبة أو ولد أو شريك فلا يحد
جزاؤه ، وقيل : كأن الحرورية أخذوا قولهم : لا حكم إلا الله من هذا .
وقال قتادة : لما خرج أهل حروراء قال علي : من هؤلاء ؟ قيل :
المحكمون أي يقولون : لا حكم إلا الله ، فقال علي كلمة حق أريد بها
الباطل .

﴿ وهو الذي يريكم آياته ﴾ أي دلائل توحيده ، وعلامات قدرته ،
من الريح والسحاب والرعد والبرق ونحوها ﴿ وينزل لكم من السماء
رزقاً ﴾ يعني مطراً فإنه سبب الأرزاق ، جمع سبحانه بين إظهار الآيات ،
وإنزال الأرزاق لأن بإظهار الآيات قوام الأديان ، وبالأرزاق قوام الأبدان ،
وهذه الآيات هي التكوينية التي جعلها الله سبحانه في سماواته وأرضه ، وما
فيهما وما بينهما قرأ الجمهور : ينزل بالتشديد ، وقرئ بالتخفيف ، وصيغة
المضارعة في الفعلين للدلالة على تجدد الإرادة والتنزيل واستمرارهما .

﴿ وما يتذكر الا من ينيب ﴾ أي ما يتعظ بتلك الآيات الباهرة فيستدل
بها على التوحيد وصدق الوعد والوعيد إلا من يرجع الى طاعة الله بما
يستفيده من النظر في آيات الله ويتوب من الشرك ، ويرجع اليه في جميع
أمره ، فإن المعاند لا يتذكر ولا يتعظ ، ثم لما ذكر سبحانه ما نصبه من
الأدلة على التوحيد أمر عباده بدعائه وإخلاص الدين له فقال :

﴿ فادعوا الله مخلصين له الدين ﴾ أي اذا كان الأمر كما ذكر من
اختصاص التذكير بمن ينيب فادعوا الله وحده مخلصين له العبادة التي أمركم
بها ﴿ ولو كره الكافرون ﴾ ذلك فلا تلتفتوا الى كراحتهم ، ودعوهم يموتوا
بغیظهم ، ويهلكوا بحسرتهم .

رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ
 التَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ
 الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ الْيَوْمَ يُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ
 الْحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْأَزْفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظْمِينَ مَالٍ لِلظَّالِمِينَ
 مِنْ حِمِيمٍ وَلَا شَفِيعَ يُطَاعُ ﴿١٨﴾

﴿ رفيع الدرجات ﴾ مرفوع على أنه خبر آخر عن المبتدأ المقدم ،
 أي هو الذي يريكم آياته وهو رفيع الدرجات ، وكذلك ﴿ ذو العرش ﴾
 خبر ثالث ويجوز أن يكون رفيع مبتدأ ، وخبره ذو العرش ، ويجوز أن
 يكونا خبرين لمبتدأ محذوف ورفيع صفة مشبهة ، والمعنى رفيع الصفات
 عظيمها أو رفيع درجات ملائكته ، أي معارجهم ، أو رفيع درجات أنبيائه
 وأوليائه في الجنة ، وقال الكلبي وسعيد بن جبير : رفيع السموات السبع ،
 وعلى هذا الوجه يكون رفيع بمعنى رافع ، وقيل : هو المرتفع بعظمته في
 صفات جلاله وكماله ووحدانيته ، المستغني عن كل ما سواه وكل الخلق
 فقراء إليه ومعنى ذو العرش مالكة وخالقه ، والمتصرف فيه ، خلقه مطافاً
 للملائكة ، وجعله فوق سمواته وذلك يقتضي علو شأنه وعظم سلطانه ،
 ومن كان كذلك فهو الذي تحقق له العبادة ، ويجب له الإخلاص .

وجملة ﴿ يلقي الروح ﴾ في محل رفع على أنها خبر آخر للمبتدأ
 المتقدم أو للمقدر أي ينزل الوحي وسمي الوحي روحاً لأن الناس يحيون
 به من موت الكفر ، كما تحيا الأبدان بالأرواح ، ومثل هذه الآية قوله
 تعالى ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ﴾ وقيل الروح جبريل كما في

قوله ﴿ نزل به الروح الأمين على قلبك ﴾ وقوله ﴿ نزله روح القدس من ربك بالحق ﴾ ، وقوله ﴿ من أمره ﴾ متعلق بيلقي ، ومن لا ابتداء الغاية ويجوز أن يكون متعلقاً بمحذوف على أنه حال من الروح أو المعنى من أجل أمره ، أو بأمره أو من قضائه .

﴿ على من يشاء من عباده ﴾ وهم الأنبياء ﴿ لينذر يوم التلاق ﴾ قرأ الجمهور مبنياً للفاعل ونصب اليوم والفاعل هو الله سبحانه أو الرسول أو من يشاء والمندر به محذوف أي لينذر العذاب يوم التلاق ، وقرىء لتنذر بالفوقية على أن الفاعل ضمير المخاطب وهو الرسول ، أو ضمير يرجع إلى الروح لأنه يجوز تأنيثها ، وقرىء على البناء للمفعول ، ورفع يوم على النيابة ، والتلاق بحذف الياء وإثباتها وقفاً ووصلاً ، وتوجيه ذلك ذكره الفاسي في شرح الشاطبية فليراجع .

والمعنى يوم يلتقي أهل السموات والأرض في المحشر ، وبه قال قتادة ، وقال أبو العالية ومقاتل : يوم يلتقي العابدون والمعبدون ، وقيل الظالم والمظلوم ، وقيل يلتقي الخلق والخالق ، وقيل الأولون والآخرين ، وقيل جزاء الأعمال والعاملون .

قال ابن عباس : يوم التلاق يوم القيامة يلتقي فيه آدم وآخر ولده ، وعنه قال : هو يوم الأزفة ونحو هذا من أسماء يوم القيامة عظمه الله وحذر عباده منه .

﴿ يوم هم بارزون ﴾ أي خارجون من قبورهم لا يسترهم شيء من جبل أو أكمة أو بناء ، لكون الأرض يومئذ قاعاً صفصفاً ، ولا ثياب عليهم وإنما هم عراة مكشوفون ، كما في الحديث : « يحشرون عراة حفاة غرلاً » ، وهو بدل من يوم التلاق ، بدل كل من كل ، ويوم ظرف مستقبل كيذا مضاف إلى الجملة الاسمية على طريقة الأخفش ، وحركة يوم حركة إعراب على المشهور وقيل حركة بناء كما ذهب إليه الكوفيون ، ويكتب

هنا وفي الذاريات في قوله تعالى « يوم هم على النار يفتنون » منفصلاً وهو الأصل أفاده السمين ، ونحوه في شرح الجزرية لشيخ الإسلام ، لأن (هم) مرفوع بالابتداء فالمناسب القطع ، وما عداهما نحو « من يومهم الذي يوعدون » ، « حتى يلاقوا يومهم » ، موصول لأن هم فيهما ضمير مبني في محل جر ، فالمناسب الوصل .

وجملة : ﴿ لا يخفى على الله منهم شيء ﴾ مستأنفة مبنية لبروزهم ، أي لا يخفى عليه سبحانه شيء من ذواتهم وأحوالهم وأعمالهم التي عملوها في الدنيا أو حال من ضمير بارزون ، أو خبر ثان للمبتدأ وقوله ﴿ لمن ﴾ خبر مقدم ، وقوله : ﴿ الملك اليوم ﴾ مبتدأ مؤخر ، والجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر ، كأنه قيل فماذا يقال عند بروز الخلائق في ذلك اليوم ؟ فقيل يقال لمن الملك اليوم .

قال المفسرون إذا هلك كل من في السموات والأرض ، فيقول الرب تبارك وتعالى هذا القول ، فلا يجيبه أحد فيجيب تعالى نفسه فيقول : ﴿ الله الواحد القهار ﴾ خبر مبتدأ محذوف قال الحسن : هو السائل وهو المجيب ، حين لا أحد يجيبه فيجيب نفسه . وقيل : إنه سبحانه يأمر منادياً بذلك فيقول أهل المحشر مؤمنهم وكافرهم ﴿ الله الواحد القهار ﴾ .

قال النحاس : وهذا أصح ما قيل فيه وقيل : الأول ظاهر جداً ، وقيل إنه يجيب المنادي بهذا الجواب أهل الجنة دون أهل النار إفاده الزمخشري . وقيل : هو حكاية لما ينطق به لسان الحال في ذلك اليوم لانقطاع دعاوى المبطلين ، كما في قوله : ﴿ وما أدراك ما يوم الدين ثم ما أدراك ما يوم الدين يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله ﴾ وقال القرطبي : وذلك عند فناء الخلق ، وقيل : بقوله تعالى بين النفختين ، ويجيب نفسه بعد أربعين سنة .

﴿ اليوم تجزى كل نفس بما كسبت ﴾ هذا من تمام الجواب على

القول بأن المجيب هو الله سبحانه ، وأما على القول بأن المجيب هم العباد كلهم ، أو بعضهم ، فهو مستأنف لبيان ما يقوله الله سبحانه بعد جوابهم ، أي اليوم تجزى كل نفس بما عملت في الدنيا من خير وشر ﴿ لا ظلم اليوم ﴾ على أحد منهم بنقص من ثوابه ، أو بزيادة في عقابه .

﴿ إن الله سريع الحساب ﴾ أي سريع حسابه ، لأنه سبحانه لا يحتاج الى تفكر في ذلك كما يحتاجه غيره لإحاطة علمه بكل شيء ﴿ فلا يعزب عنه مثقال ذرة ﴾ قيل : يحاسب جميع الخلق في قدر نصف نهار من أيام الدنيا لأنه تعالى لا يشغله حساب عن حساب ، يحاسب الخلق في وقت واحد ، الحديث ورد بذلك .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود قال : « يجمع الله الخلق كلهم يوم القيامة بصعيد واحد بأرض بيضاء ، كأنها سبيكة فضة لم يعص الله فيها قط ، فأول ما يتكلم أن ينادي مناد : لمن الملك اليوم الى قوله . « الحساب » أخرجه عبد بن حميد ، قال : ما يبدأ به من الخصومات الدماء ، وقال ابن عباس ينادي مناد بين يدي الساعة : يا أيها الناس أتتكم الساعة فيسمعها الأحياء والأموات وينزل الله الى السماء الدنيا فيقول : لمن الملك اليوم لله الواحد القهار الآية .

وأخرج ابن أبي الدنيا في البعث والديلمي عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم مثله ثم أمر الله سبحانه رسول بإنذار عباده فقال :

﴿ وأنذرهم يوم الآزفة ﴾ أي يوم القيامة ، سميت بذلك لقربها ، يقال : أزف فلان أو الرحيل أي قرب ، يأزف أزفاً من باب تعب ، وأزوفاً دنا وقرب ، ومنه قوله تعالى ﴿ أزفت الآزفة ﴾ أي قربت الساعة ودنت القيامة ، وقيل : إن يوم الآزفة هو يوم حضور الموت ، والأول أولى . قال

الزجاج : وقيل لها آفة لأنها قريبة ، وإن استبعد الناس أمرها ، وما هو كائن فهو قريب .

﴿ إذ القلوب لدى الحناجر ﴾ وذلك أنها تزول عن مواضعها ، وترتفع عن أماكنها من الخوف ، حتى تصير إلى الحنجرة وتلتصق بحلقوقهم ، فلا تعود فيستريحوا بالنفس ولا تخرج فيستريحوا بالموت كقوله ﴿ وبلغت القلوب الحناجر ﴾ وهي جمع حنجور كحلقوم وزناً ومعنى ، أو جمع حنجرة وهي الحلقوم و ﴿ كاظمين ﴾ بمعنى مغمومين مكروبين ممتلئين غماً ، قال الزجاج : المعنى إذ قلوب الناس لدى الحناجر في حال كظمهم ، قال قتادة وقعت قلوبهم في الحناجر من المخافة فهي لا تخرج ولا تعود في أمكنتها .

وقيل : هو إخبار عن نهاية الجزع ، وإنما قال : كاظمين باعتبار أهل القلوب ، لأن المعنى إذ قلوب الناس لدى حناجرهم ، فيكون حالاً منهم . وقيل : حالاً من القلوب ، وجمع الحال منها جمع العقلاء ، لأنه اسند إليها ما يسند إلى العقلاء ، فجمعت جمعه .

ثم بين سبحانه أنه لا ينفع الكافرين في ذلك اليوم أحد فقال :

﴿ ما للظالمين من حميم ﴾ أي قريب ومحب ينفعهم وحميمك قريبك الذي تهتم لأمره ﴿ ولا شفيع يطاع ﴾ في شفاعته لهم ، قال الكرخي : حقيقة الإطاعة لا تتأتى هنا لأن المطاع يكون فوق المطيع رتبة ، فمقتضاه أن الشافع يكون فوق المشفوع عنده ، وهذا محال هنا لأن الله تعالى لا شيء فوقه ، فحينئذ هو مجاز ، ومعناه ولا شفيع يشفع ، أي يؤذن له في الشفاعة ، أو تقبل شفاعته . وقال المحلي : لا مفهوم للوصف إذ لا شفيع لهم أصلاً ، أي لا مطاع ولا غيره ثم وصف سبحانه شمول علمه بكل شيء وإن كان في غاية الخفاء فقال :

يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ
 مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي
 الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً
 وَءَاثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَلِكَ
 بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ
 الْعِقَابِ ﴿٢٢﴾

﴿ يعلم خائنة الأعين ﴾ وهي مسارقة النظر الى ما لا يحل له النظر إليه ، والخائنة مصدر كالعافية والكاذبة ، أي يعلم خيانة الأعين ، والجملة خبر آخر لقوله : هو الذي يريكم ، أو خبر رابع عن المبتدأ الذي أخبر برفيع وما بعده عنه ، والأول هو الظاهر ، وقيل غير ذلك ، قال المؤرج : فيه تقديم وتأخير اي يعلم الأعين الخائنة . وقيل : الاضافة على معنى من ، أي : الخائنة من الأعين ، قال قتادة : خائنة الأعين الهمز بالعين فيما لا يحب الله ، وقال الضحاك : هو قول الإنسان : ما رأيت ، وقد رأى ، ورأيت ، وما رأى . وقال السدي : إنه الرمز بالعين ، وقال سفيان : هي النظرة بعد النظرة ، وبه قال الفراء والأول أولى ، وبه قال مجاهد قال ابن عباس في الآية : « الرجل يكون في القوم فتمر بهم المرأة فيريهم أنه يغض بصره عنها ، وإذا غضوا نظر إليها ، وإذا نظروا غض بصره عنها ، وقد اطلع الله من قلبه أنه ود أن ينظر إلى عورتها أخرجه سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم .

وأخرج الطبراني في الأوسط وأبو نعيم في الحلية ، والبيهقي في الشعب عنه في الآية قال : « إذا نظر إليها يريد الخيانة أم لا ؟ وما تخفي

الصدر ، قال : إذا قدر عليها أيزني لها أم لا ؟ ألا أخبركم بالتي تليها ؟
والله يقضي بالحق ، قادر على أن يجزي بالحسنة الحسنة ، وبالسيئة السيئة .

وأخرج أبو داود والنسائي وابن مردويه عن سعد قال لما كان يوم فتح
مكة أمن النبي صلى الله عليه وسلم الناس إلا أربعة نفر وامرأتين وقال :
اقتلوهم ، وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة منهم عبد الله بن سعد بن
أبي سرح ، فاخترأ عند عثمان بن عفان ، فلما دعا رسول الله صلى الله
عليه وسلم الناس الى البيعة جاء به فقال : « يا رسول الله بايع عبد الله ،
وفرع رأسه فنظر إليه ثلاثاً كل ذلك يأبى بيعته ثم بايعه ، ثم أقبل على
أصحابه فقال أما كان فيكم رجل رشيد يقوم الى هذا حين رأي كفت
يدي عن بيعته فيقتله ، فقالوا ما يدرينا يا رسول الله ما في نفسك ؟ هلا
أومأت الينا بعينك فقال إنه لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين »

﴿ وما تخفي الصدور ﴾ أي القلوب من الضمائر ، وتستره وتكنه ،
وتضمه عن معاصي الله أو من أمانة وخيانة أو النظرة الأولى ، أو هل يزني
بها لو خلا بها أو لا ؟ ﴿ والله يقضي بالحق ﴾ فيجازي كل أحد بما
يستحقه من خير وشر .

﴿ والذين يدعون من دونه ﴾ أي يعبدونهم من دون الله ، قرأ
الجمهور بالتحية يعني الظالمين ، وقرئ بالفوقية على الخطاب لهم ،
وهما سبعيتان ﴿ لا يقضون بشيء ﴾ لأنهم لا يعلمون شيئاً ولا يقدر
على شيء . فكيف يكونون شركاء لله ، وهذا تهكم بهم لأن ما لا يوصف
بالقدرة كالجماد لا يقال فيه يقضي أو لا يقضي .

﴿ إن الله هو السميع البصير ﴾ فلا يخفى عليه من المسموعات
والمبصرات خافية ؛ تقرير لقوله . ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفي
الصدور ﴾ ولقضائه بالحق ، ووعيد لهم بأنه يسمع ما يقولون ، ويبصر ما
يعملون ، وأنه يعاقبهم عليه . وتعريض بما يدعون من دونه وأنها لا تسمع

ولا تبصر .

ولما خوفهم سبحانه بأحوال الآخرة أردفه ببيان تخويفهم بأحوال الدنيا فقال :

﴿ أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم ﴾ لأن العاقل من اعتبر بحال غيره ، أي اغفلوا ولم يسيروا في الأرض فيعتبروا بمن قبلهم من الأمم المكذبة لرسولهم ، كعاد وئمود وأضرابهم ، أو العاقبة بمعنى الصفة أو بمعنى المآل أرشدكم الله سبحانه إلى الاعتبار بغيرهم ، فإن الذين مضوا من الكفار ﴿ كانوا هم أشد منهم قوة ﴾ أي من هؤلاء الحاضرين من الكفار ، وهذا بيان للتفاوت بين حال هؤلاء وأولئك ، وفي قراءة منكم أي التفاتاً من الغيبة إلى الخطاب ، وقع ضمير الفصل هنا بين معرفة ونكرة ، مع أنه لا يقع إلا بين معرفتين لكون النكرة هنا مشابهة للمعرفة من حيث امتناع دخول آل عليها ، لأن أفعال التفضيل المقرون بمن لا تدخل عليه آل .

﴿ وآثاراً في الأرض ﴾ بما عمروا فيها من الحصون المتينة ، والمصانع الحصينة ، والقصور المشيدة وبما لهم من العدد والعدة ﴿ فأخذهم الله بذنوبهم ﴾ أي عاقبهم ، وأهلكهم بسبب ذنوبهم ، وتكذيبهم رسولهم ﴿ وما كان لهم من الله من واق ﴾ أي دافع يدفع عنهم العذاب ويقيهم ، وقد مر تفسير هذه الآية في مواضع .

﴿ ذلك ﴾ أي ما تقدم من الأخذ ﴿ بأنهم ﴾ أي بسبب أنهم ﴿ كانت تأتيهم رسلهم بالبينات ﴾ أي بالحجج الواضحة والمعجزات الظاهرة ﴿ فكفروا ﴾ بما جاؤوهم به ﴿ فأخذهم الله إنه قوي ﴾ يفعل كل ما يريد لا يعجزه شيء ﴿ شديد العقاب ﴾ لمن عصاه ولم يرجع إليه ، ثم ذكر سبحانه قصة موسى ليعتبروا فقال :

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَمَجَنَ
 وَقَرُونَ فَقَالُوا سِحْرٌ كَذَابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا
 اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ
 إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ
 يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي
 وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾

﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا ﴾ أي متلبساً بها وهي التسع التي تقدم ذكرها في غير موضع ﴿ وسلطان مبین ﴾ أي حجة بينة واضحة وهي التوراة ، وقيل المراد به إما الآيات نفسها والعطف لتغاير العنوانين ، وإما بعضها أي المشهورة منها كاليد والعصا . وأفردت بالذكر مع اندراجها تحت الآيات اعتناء بها .

﴿ إلى فرعون وهامان وقارون ﴾ خصهم بالذكر لأن مدار التدبير في عداوة موسى كان عليهم لأنهم رؤساء المكذبين بموسى ، فرعون الملك وهامان الوزير ، وقارون صاحب الأموال والكنوز ﴿ فقالوا ساحر كذاب ﴾ فيما جاءهم به ، والقائل فرعون وقومه ، وأما قارون فلم يقل ذلك ففي الكلام تغليب ، وكذا يقال في قوله قالوا اقتلوا ، وقال الخطيب كان هذا قول قارون وان لم يقل بالفعل . فإنه طبع على الكفر ففعله آخرأ .

﴿ فلما جاءهم ﴾ موسى ﴿ بالحق من عندنا ﴾ وهي معجزاته الظاهرة

الواضحة ﴿ قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه ﴾ قال قتادة هذا قتل غير القتل الأول لأن فرعون قد كان أمسك وكف عن قتل الولدان وقت ولادة موسى فلما بعث الله موسى وأحس بأنه قد وقع ما وقع ، أعاد القتل على بني إسرائيل غيظاً وحنقاً فكان يأمر بقتل الذكور وترك الإناث ، ومثل هذا قول فرعون .

﴿ سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم ﴾ والمعنى أعيديا عليهم ما كنتم تفعلونه أولاً ، زعماً منه أنه يصدهم بذلك عن مظاهرتة ، ظناً منهم أنه المولود الذي حكم المنجمون والكهنة بذهاب ملكهم على يده ، فشغلهم الله عن ذلك بما أنزل عليهم من أنواع العذاب كالضفادع والقمل والدم والطوفان الى أن خرجوا من مصر فأغرقهم الله تعالى .

﴿ واستحيوا ﴾ أي استبقوا ﴿ نساءهم ﴾ للخدمة ﴿ وما كيد الكافرين إلا في ضلال ﴾ أي في خسران وضياع ووبال ، لأنه يذهب باطلاً ولا يغني عنهم شيئاً ، ويحقيق بهم ما يريد الله عز وجل وإن الناس لا يمتنعون من الإيمان وإن فعل بهم مثل هذا ، بل ينفذ عليهم لا محالة القدر المقدور ، والقضاء المحتم واللام إما للعهد والإظهار في موضع الاضمار لزمهم بالكفر والاشعار بعة الحكم ، أو للجنس وهم داخلون فيه دخولاً اولياً ، والجملة اعتراض جيء بها في تضاعيف ما حكى عنهم من الأباطيل ، للمسارعة الى بيان بطلان ما أظهوره ، واضمحلالاً بالمرة .

﴿ وقال فرعون ذروني أقتل موسى ﴾ أي اتركوني أن أقتله ، والظاهر من حال اللعين أنه قد استيقن أنه نبي وأن ما جاء به حق ، ولكن كان يخاف إن هم بقتله أن يعاجل بالهلاك ، وإنما قال ذلك تمويهاً وإيهاماً

أنهم هم المانعون له من قتله ، ولولا هم لقتله ، مع أنه ما منعه إلا ما في نفسه من الفزع الهائل .

وقوله ﴿ وليدع ربه ﴾ تجلد منه ، وإظهار لعدم المبالاة ولكنه أخوف الناس منه ، وفي منعه من قتله وجوه ذكرها الخطيب ، أي ليدع الذي يزعم أنه أرسله إلينا ، فليمنعه من القتل إن قدر على ذلك ، أي لا يهولنكم ذلك فإنه لا رب له حقيقة ، بل أنا ربكم الأعلى ، ثم ذكر العلة التي لأجلها أراد أن يقتله فقال :

﴿ إني أخاف ﴾ إن لم أقتله ﴿ أن يبدل دينكم ﴾ الذي أنتم عليه من عبادة غير الله ويدخلكم في دينه الذي هو عبادة الله وحده ﴿ أو أن يظهر

في الأرض الفساد ﴾ أي يوقع بين الناس الخلاف والفتنة ، جعل اللعين ظهور ما دعا إليه موسى وانتشاره في الأرض واهتداء الناس إليه فساد ، وليس الفساد إلا ما هو عليه هو ومن تابعه ، والمعنى أنه لا بد من وقوع أحد الأمرين أو وقوع الأمرين جميعاً .

﴿ وقال موسى إني عدت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب ﴾ لما هدده فرعون بالقتل لم يأت في دفع شدة اللعين إلا بأن استعاذ بالله عز وجل من كل متعظم عن الإيمان بالله ، غير مؤمن بالبعث والنشور ، واعتمد عليه فلا جرم صانه الله من كل بلية ويدخل فرعون في هذا العموم دخولاً أولاً ، ولم يسم فرعون بل ذكره بوصف يعمه وغيره من الجبابرة لتعميم الاستعانة ، والاشعار بعة القساوة والجرأة على الله تعالى .

وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ ﴿٢٨﴾ يَقُومُ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَالَّذِي آمَنَ يَقُومُ فِيَّ أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ﴿٣١﴾

﴿ وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه ﴾ قال الحسن ومقاتل والسدي : كان قبطياً وهو ابن عم فرعون ، وهو الذي نجا مع موسى ، وهو المراد بقوله ﴿ وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى ﴾ وقيل : كان من بني إسرائيل ولم يكن من آل فرعون وهو خلاف ما في الآية وقد تمحل لذلك بأن في الآية تقديمًا وتأخيرًا ، والتقدير وقال رجل من بني إسرائيل يكتم إيمانه من آل فرعون ، قال القشيري : ومن جعله إسرائيلياً ففيه بعد لأنه يقال : كتمه أمر كذا ولا يقال كتم منه كما قال سبحانه :

﴿ ولا يكتمون الله حديثاً ﴾ وأيضاً ما كان فرعون يحتمل من بني إسرائيل مثل هذا القول وقد اختلف في اسم هذا الرجل فقيل : حبيب ، وقيل : شمعون ، وهو الأصح كما في مبهمات القرآن وقيل : حزقيل وبه قال ابن عباس وأكثر العلماء ، وقال وهب كان اسمه جبريل ، وقيل غير ذلك فال ابن عباس : لم يكن في آل فرعون مؤمن غيره وغير امرأة فرعون ، وغير المؤمن الذي أنذر موسى ، الذي قال : ﴿ إن الملائكة يأترون بك ليقتلوك ﴾ قال ابن المنذر : أخبرت أنه حزقيل ، وعن أبي

إسحق قال : اسمه حبيب ، قرأ الجمهور رجل بضم الجيم وقرىء بسكونها وهي لغة تميم ونجد ، والأولى هي الفصيحة ، وقرىء بكسر الجيم .

﴿ أتقتلون رجلاً ﴾ الاستفهام للإنكار ﴿ أن يقول ﴾ أي لأن يقول أو كراهة أن يقول ، وقال الزمخشري : أي وقت أن يقول ، ورد ذلك لنص النحاة على خلافه ، وقال الامام تاج الدين ابن مكتوم : أجاز ابن جني ذلك والأول أولى ﴿ ربي الله ﴾ وهو ربكم أيضاً لا ربه وحده ، وهو إشارة الى التوحيد ، وهذا إنكار منه عظيم ، كأنه قيل : أترتكبون الفعل الشنعاء التي هي قتل نفس محرمة من غير روية وتأمل في أمره واطلاع على سبب يوجب قتله ؟ ومالكم علة في ارتكابه إلا كلمة الحق وهو قوله ربي الله .

﴿ وقد جاءكم بالبينات من ربكم ﴾ أي والحال أن قد جاءكم بالمعجزات الواضحات . والدلالات الظاهرات على نبوته ، وصحة رسالته ، والمعنى أنه لم يحضر لتصحيح قوله بيينة واحدة ولكن بينات من عند من نسبت اليه الربوبية ، وهو استدراج لهم الى الاعتراف به .

أخرج البخاري وغيره من طريق عروة قال : قيل لعبد الله بن عمرو ابن العاص « أخبرنا بأشد شيء صنعه المشركون برسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي بفناء الكعبة ، إذ أقبل عقبة بن أبي معيط فأخذ بمنكب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولوى ثوبه في عنقه ، فخنقه خنقاً شديداً فأقبل أبو بكر فأخذ بمنكبيه ودفعه عن النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال ﴿ أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ، وقد جاءكم بالبينات من ربكم ؟ ﴾

وأخرج البزار وأبو نعيم في فضائل الصحابة عن علي ابن أبي طالب أنه قال : يا أيها الناس أخبروني من أشجع الناس ؟ قالوا : أنت ، قال : أما إنني ما بارزت أحداً إلا انتصفت منه ولكن أخبروني عن أشجع الناس ؟ قالوا : لا نعلم فمن قال : أبو بكر ، رأيت رسول الله صلى الله عليه

وسلم وأخذته قريش فهذا يجنبه وهذا يتلته وهم يقولون : أنت الذي جعلت الآلهة إلهاً واحداً قال فوالله ما دنا منا أحد إلا أبو بكر يضرب هذا ، يجيء هذا ويتل هذا ، وهو يقول ويلكم أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ؟ ثم دفع بردة كانت عليه فبكى حتى اخضلت لحيته ، ثم قال أنشدكم أمؤمن آل فرعون خير ؟ أم أبو بكر ؟ فسكت القوم فقال ألا تجيبون ؟ فوالله لساعة من أبي بكر خير من مثل مؤمن من آل فرعون ذاك رجل يكتم إيمانه وهذا رجل أعلن إيمانه .

ثم تطف الرجل المؤمن لهم في الدفع عن موسى واحتج عليهم بطريق التقسيم فقال .

﴿ وإن يك كاذباً فعليه كذبه ﴾ أي ضرر كذبه ﴿ وإن يك صادقاً يصيبكم بعض الذي يعدكم ﴾ هذا كلام صادر عن غاية الانصاف ، وعدم التعصب ولذلك قدم من شقي التريديد كونه كاذباً ، وإنما خوفهم به اقتصاراً على ما هو أظهر احتمالاً عندهم ، ولم يكن قوله هذا لشك منه فإنه كان مؤمناً كما وصفه الله ، ولا يشك المؤمن .

والمعنى إذا لم يصيبكم كله فلا أقل من أن يصيبكم بعضه ، لا سيما إن تعرضتم له بسوء . وقال أبو عبيدة وأبو الهيثم . بعض هنا بمعنى كل ، أي يصيبكم كل الذي يعدكم ، والبعض قد يستعمل في لغة العرب بمعنى الكل ، قال النسفي : وتفسير البعض بالكل مزيف انتهى نعم ولا ضرورة تلجئ إلى حمل ما في الآية على ذلك لأنه أراد التنزل معهم وإيهامهم أنه لا يعتقد صحة نبوته كما يفيد قوله ﴿ يكتم إيمانه ﴾ .

قال أهل المعاني وهذا على المظاهرة في الحجاج ، كأنه قال لهم : أقل ما يكون في صدقه أن يصيبكم بعض الذي يعدكم ، وفي بعض ذلك هلاككم ، فكأن الحاصل بالبعض هو الحاصل بالكل . وقال الليث : بعض ههنا صلة يريد بصيبكم الذي يعدكم ، وقيل يصيبكم هذا العذاب

الذي يقوله في الدنيا ، وهو بعض ما يتوعدكم به من العذاب . وقيل إنه وعدهم بالثواب والعقاب فإذا كفروا أصابهم العذاب ، وهو بعض ما وعدهم به وحذفت النون من يكن في الموضعين تخفيفاً لكثرة الاستعمال كما قال سيبويه .

﴿ إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب ﴾ هذا من تمام كلام الرجل المؤمن ، وهو احتجاج آخر ذو وجهين ، أحدهما أنه لو كان موسى مسرفاً كذاباً لما هداه الله الى البيئات ، ولا أيده بالمعجزات ، وثانيهما أنه اذا كان كذلك خذله الله وأهلكه ، فلا حاجة لكم الى قتله ، والمسرف المقيم على المعاصي المستكثر منها ، والكذاب المفتري .

﴿ يا قوم لكم الملك اليوم ﴾ ذكرهم ذلك الرجل المؤمن ما هم فيه من الملك ليذكروا الله ولا يتمادوا في كفرهم ، ومعنى ﴿ ظاهرين ﴾ الظهور على الناس ، والغلبة لهم ، والاستعلاء عليهم ﴿ في الأرض ﴾ أي أرض مصر .

﴿ فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا ﴾ أي من يمنعنا من عذابه ويحول بيننا وبينه عند مجيئه ، وفي هذا تحذير منه لهم من نقمة الله بهم ، وإنزال عذابه عليهم ، وإنما نسب ما يسرهم من الملك والظهور في الأرض لهم خاصة ، ونظم نفسه في سلوكهم فيما يهمهم من مجيء بأس الله تطيباً لقلوبهم ، وإيذاناً بأنه مناصح ساع في تحصيل ما يجديهم ، ودفع ما يرديهم ، ليتأثروا بنصحه ؛ فلما سمع فرعون ما قاله هذا الرجل من النصح الصحيح جاء بمراوغة يوهم بها قومه أنه لهم من النصيحة والرعاية بمكان مكين ، وأنه لا يسلك بهم إلا مسلكاً يكون فيه جلب النفع لهم ، ودفع الضر عنهم ولهذا :

﴿ قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى ﴾ أي ما أشير عليكم إلا بما أرى لنفسي ، قاله ابن زيد ، وهذا تفسير لمآل المعنى ، والتفسير المطابق

لجوهر اللفظ ما قال الضحاك ما أعلمكم إلا ما أعلم من الصواب ، وهو قتل موسى والرؤية هنا هي القلبية الاعتقادية ، لا البصرية العينية ، فتعدى لمفعولين ثانيهما إلا ما أرى .

﴿ وما أهديكُم إلا سبيل الرشاد ﴾ أي ما أهديكُم ولا أدعوكم بهذا الرأي الا إلى طريق الحق والهدى ، قرأ الجمهور بتخفيف الشين ، وقرأ معاذ بن جبل - رضي الله تعالى عنه - بتشديدها على أنها صيغة مبالغة كضراب ، قال النحاس : هي لحن ولا وجه لذلك . ثم كرر ذلك الرجل المؤمن تذكيرهم ، وحذرهم أن ينزل بهم ما نزل بمن قبلهم فقال الله حاكياً عنه :

﴿ وقال الذي آمن يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب ﴾ أي مثل يوم عذاب الأمم الماضية الذين تحزبوا على أنبيائهم ، وأفرد اليوم لأن جمع الأحزاب قد أغنى عن جمعه ، والأحزاب لم ينزل بها العذاب في يوم واحد ، بل نزل بها في الدنيا في أيام مختلفة مترتبة ثم فسر الأحزاب فقال :

﴿ مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم ﴾ أي مثل حالهم في العذاب ، أو مثل عادتهم في الإقامة على التكذيب ، أو مثل جزاء ما كانوا عليه من الكفر والتكذيب .

﴿ وما الله يريد ظلماً للعباد ﴾ أي لا يعذبهم ولا يعاقبهم بغير ذنب ، ولا يترك الظالم منهم بغير انتقام ، أو لا يزيد على قدر ما يستحقون من العذاب أو لا يهلكهم إلا بعد إقامة الحجة عليهم ، ونفي الارادة للظلم يستلزم نفي الظلم بفحوى الخطاب وتفسير المعتزلة بأنه لا يريد لهم أن يظلموا بعبد ، لأن أهل اللغة قالوا إذا قال الرجل لآخر لا أريد ظلماً لك ، معناه لا أريد أن أظلمك ثم زاد الرجل المؤمن في الوعظ والتذكير فقال :

وَيَقَوْمٍ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تَوَلَّوْنَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ
وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ
فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا
كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ
اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ كُبرٌ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ
عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمَنُ ابْنُ لِي صَرَحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ
الْأَسْبَبَ ﴿٣٦﴾

﴿ويا قوم إنني أخاف عليكم يوم التناد﴾ قرأ الجمهور بتخفيف الدال وحذف الياء ، والأصل التنادي ، وهو التفاعل من النداء ، يقال تنادى القوم أي نادى بعضهم بعضاً وقرئء باثبات الياء على الأصل وقرأ ابن عباس والضحاك وعكرمة بتشديد الدال ، قال بعض أهل اللغة : هو لحن لأنه من ند يند إذا مر على وجهه هارباً ، قال النحاس : وهذا غلط والقراءة حسنة على معنى التنافي قال الضحاك : في معناه أنهم إذا سمعوا بزفير جهنم ندوا هرباً فلا يأتون قطراً من أقطار الأرض إلا وجدوا صفوفاً من الملائكة ، فيرجعون الى المكان الذي كانوا فيه ، فذلك قوله يوم التناد وعلى قراءة الجمهور المعنى يوم ينادي بعضهم بعضاً ، أو ينادي أهل النار أهل الجنة ، وأهل الجنة أهل النار أو يوم ينادي فيه ﴿كل أناس بإمامهم﴾ ولا مانع من الحمل على جميع هذه المعاني ، وهو ما حكى الله تعالى في سورة الأعراف :

﴿ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار﴾ ، ﴿ونادى أصحاب النار﴾

أصحاب الجنة ﴿﴾ ونادى أصحاب الأعراف ﴿﴾ وقيل : ينادي مناد ألا إن فلاناً سعد سعادة لا يشقى بعدها أبداً ، وألا إن فلاناً شقى شقاوة فلا يسعد بعدها أبداً وينادي حين يذبح الموت يا أهل الجنة خلود بلا موت ، ويا أهل النار خلود بلا موت . وقيل ينادي المؤمن ﴿﴾ هاؤم اقرأوا كتابيه ﴿﴾ وينادي الكافر : ﴿﴾ يا ليتني لم أوت كتابيه ﴿﴾ .

﴿﴾ يوم تولون مدبرين ﴿﴾ أي منصرفين عن الموقف الى النار أو فارين عنها غير معجزين ، قال قتادة ومقاتل : المعنى الى النار بعد الحساب ﴿﴾ ما لكم من الله من عاصم ﴿﴾ يعصمكم من عذاب الله ويمنعكم منه ﴿﴾ ومن يضل الله فماله من هاد ﴿﴾ يهديه الى طريق الرشاد ، قرىء هاد باثبات الياء وحذفها في الوقف ، وبحذفها في الوصل مع حذفها خطأ .

﴿﴾ ولقد جاءكم يوسف ﴿﴾ هذا من تمام وعظ مؤمن آل فرعون ، ذكرهم قديم عتوهم على الأنبياء وقيل : إن هذا من قول موسى عليه السلام والأول أولى ﴿﴾ من قبل ﴿﴾ أي قبل موسى وهو يوسف بن يعقوب ، في قول عمر الى زمن موسى ، قاله المحلي ، أي عاش واستمر يوسف ابن يعقوب الى زمن موسى الكليم ، قال سليمان الجمل : وهذا القول لم يقله غيره من المفسرين وإنما غاية ما وجد بعد التفتيش ما نقله الشهاب بقوله وفي بعض التواريخ أن وفاة يوسف قبل مولد موسى بأربع وستين سنة ، قال القاري : والصحيح ان المعمر هو فرعون موسى : أدرك يوسف وعاش الى أن أرسل اليه موسى ، وعمره أربعمئة سنة وأربعين سنة انتهى . وقال السيوطي في التحرير : وعاش يوسف بن يعقوب مائة وعشرين سنة ، وبين يوسف وموسى أربعمئة سنة انتهى وقيل : هو فرعون آخر .

﴿﴾ بالبينات ﴿﴾ أي أنه جاءهم بالمعجزات الظاهرات ، والآيات الواضحات من قبل مجيء موسى اليهم ، أي جاء إلى آبائكم ، فجعل

المجيء الى الآباء مجيئاً الى الأبناء ، وقال ابن جريج : المراد بالبينات رؤيا يوسف ، وقيل : المراد بها قوله : ﴿ أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ﴾ ؟ وقيل : المراد بيوسف يوسف بن إفرائيم بن يوسف بن يعقوب ، وكان أقام فيهم أي في القبط نبياً عشرين سنة ، وحكى النقاش عن الضحاك أن الله بعثه اليهم رسولاً من الجن يقال له : يوسف قال الشوكاني رحمه الله : والأول أولى ﴿ فما زلت ﴾ أي ما زال أسلافكم ﴿ في شك مما جاءكم به ﴾ من البينات ولم تؤمنوا به .

﴿ حتى إذا هلك ﴾ يوسف ﴿ قلت ﴾ أي قال أسلافكم : ﴿ لن يبعث الله من بعده رسولاً ﴾ فكفروا به في حياته وكفروا بمن بعده من الرسل بعد موته ، وظنوا أن الله لا يجدد عليهم الحجة ، وإنما قالوا ذلك على سبيل التشهي والتمني من غير حجة ولا برهان ، ليكون لهم أساس في تكذيب الرسل الذين يأتون بعده ، وهذا ليس إقراراً منهم برسالته ، بل هو ضم منهم الى الشك في رسالته ، والتكذيب برسالة من بعده ، أفاده الخطيب والخازن .

﴿ كذلك ﴾ الضلال الواضح ﴿ يضل الله من هو مسرف ﴾ في معاصي الله مستكثر منها أو مشرك ﴿ مرتاب ﴾ في دين الله شاك في وحدانيته ووعدته ووعيدته ، وقوله :

﴿ الذين يجادلون في آيات الله ﴾ بدل (مَنْ) ، والجمع باعتبار معناها ، وإفراد الضمير باعتبار اللفظ ، أو بيان لها ، أو صفة ، أو في محل نصب بإضمار أعني ، أو خبر مبتدأ محذوف ، أي هم الذين ، أو مبتدأ وخبره يطع ، والأول أولى . قال ابن جريج : الذين يجادلون يهود ، قيل : هذا من كلام الرجل المؤمن أيضاً ، وقيل : إنه ابتداء كلام من الله سبحانه .

﴿ بغير سلطان ﴾ أي بغير حجة واضحة ، وبرهان ساطع ﴿ أتاهم ﴾ صفة لسلطان ﴿ كبر مقتاً عند الله ، وعند الذين آمنوا ﴾ يحتمل أن يراد به

التعجب والاستعظام وأن يراد به الذم كبش ، وفاعل كبر ضمير يعود الى الجدل المفهوم من : يجادلون ، قال المحلي : كبر خبر المبتدأ انتهى ، وهذا أولى وأحسن الأعراب العشرة التي ذكرها السمين . واليه نحأبو حيان .

﴿ كذلك ﴾ الطبع المحكم البليغ ﴿ يطبع الله على كل قلب متكبر جبار ﴾ مستأنف قرأ الجمهور بإضافة قلب الى متكبر واختارها أبو حاتم وأبو عبيدة وفي الكلام حذف والتقدير كذلك يطبع الله على كل قلب كل متكبر ، فحذف كل الثانية لدلالة الأولى عليها ، والمعنى أنه سبحانه يطبع على قلوب جميع المتكبرين الجبارين .

وقرىء بتنوين قلب على أن متكبراً صفة له فيكون القلب مراداً به الجملة ، لأن القلب هو محل التكبر ، وسائر الأعضاء تبع له في ذلك ، وهما سبعيتان ، وقرأ ابن مسعود على قلب كل متكبر ، وتقديره عند الزمخشري على كل ذي قلب متكبر ، قال الشيخ ولا ضرورة تدعو الى اعتبار الحذف ، قلت بل ثم ضرورة الى ذلك ، وهي توافق القراءتين .

ثم لما سمع فرعون هذا رجع الى تكبره وتجبره ، معرضاً عن الموعدة نافراً عن قبولها .

﴿ وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحاً ﴾ أي قصراً مشيداً كما تقدم بيان تفسيره في سورة القصص ، وقيل صرحاً أي بناء ظاهراً لا يخفى على الناظرين وإن بعد ، ومنه يقال صرح الشيء اذا ظهر ، وفي المصباح الصرح بيت واحد يبنى مفرداً طويلاً ضخماً ، وفي السمين الصرح القصر ، أو صحن الدار ، أو بلاط يتخذ من زجاج ، وأصله من التصريح وهو الكشف ﴿ لعلني أبلغ الأسباب ﴾ اي الطرق من السماء الى السماء ، قال قتادة والزهري والسدي والأخفش هي الأبواب أي أبوابها الموصلة اليها .

أَسْبَبَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَذِبًا وَكَذَلِكَ
زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي
تَبَابٍ ﴿٣٧﴾

﴿أسباب السموات﴾ بيان للأسباب لأن الشيء إذا أبهم ثم فسر كان
أوقع في النفوس ، وأفخم للشأن ، أو بدل منها ، وأنشد الأخفش عند
تفسير الآية بيت زهير :

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه ولو رام أسباب السماء بسلم

وقيل أسباب السموات الأمور التي يستمسك بها وكل ما أواك الى
شيء فهو سبب اليه كالرشاء ونحوه ﴿فأطلع الى إله موسى﴾ أي انظر
اليه ، وأطلع على حاله ، قرأ الأعرج السلمي وعيسى بن عمر وحفص
بالنصب على جواب الأمر في قوله ابن لي ، وهذا رأى البصريين . أو
على جواب الترجي كما قال أبو عبيدة وغيره وهذا رأى الكوفيين .

قال النحاس معنى النصب خلاف معنى الرفع لأن معنى النصب متى
بلغت الأسباب اطلعت ، وقرأ الجمهور بالرفع عطفاً على أبلغ فهو على
هذا داخل في حيز الترجي ، ومعناه لعلني أبلغ ، ولعلني أطلع بعد ذلك ،
وقيل غير ذلك ، وفي هذا دليل على أن فرعون كان بمكان من الجهل
عظيم ، وبمنزلة من فهم حقائق الأشياء سافلة جداً .

﴿وإني لأظنه﴾ أي موسى ﴿كاذباً﴾ في ادعائه بأن له إلهاً غيري ،
مستوياً على العرش فوق السموات أو فيما يدعيه من الرسالة قيل : قال

فرعون ذلك تمويهاً وتليسياً ، وتخليطاً على قومه ، وإلا فهو يعرف ويعتقد حقيقة الإله ، وأنه ليس في جهة العلو ، ولكنه أراد التلبس على قومه توصلاً لبقائهم على الكفر ، فكأنه يقول . لو كان إله موسى موجوداً لكان له محل ، ومحلّه إما الأرض وإما السماء ، ولم نره في الأرض فيبقى أن يكون في السماء ، والسماء لا توصل إليها إلا بسلم قاله الحفناوي .

﴿ وكذلك ﴾ التزيين ﴿ زين لفرعون سوء عمله ﴾ من الشرك والتكذيب فتمادى في الغي واستمر على الطغيان ، والمزين هو الشيطان ﴿ وصد عن السبيل ﴾ أي سبيل الرشاد والهدى ، قرأ الجمهور وصد بفتح الصاد والdal ، أي صد فرعون الناس عن السبيل ، وقرأ الكوفيون وصد بضم الصاد مبنياً للمفعول ، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم .

ولعل وجه الاختيار لها منهما كونها مطابقة لما أجمعوا عليه في زين ، من البناء للمفعول والقراءتان سبعيتان وقرأ يحيى بن وثاب وعلقمة . صد بكسر الصاد وضم الدال منوناً وقرأ ابن أبي إسحق وعبد الرحمن بن أبي بكر بفتح الصاد وضم الدال منوناً ، وكل من هاتين القراءتين على أنه مصدر معطوف على : (سوء عمله) ، أي زين له الشيطان سوء العمل والصد .

﴿ وما كيد فرعون ﴾ في إبطال آيات موسى ﴿ إلا في تباب ﴾ أي خسار وهلاك ، قال ابن عباس : التباب الخسران ، ومنه ﴿ تبت يدا أبي لهب ﴾ ثم إن ذلك الرجل المؤمن أعاد التذكير والتحذير كما حكى عنه بقوله :

وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَقَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ وَيَقَوْمِ مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَىٰ وَتَدْعُونِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾

﴿ وقال الذي آمن يا قوم اتبعون ﴾ بإثبات الياء وحذفها في الوصل والوقف ، والقراءتان سبعيتان ، وهذا بالنظر للفظ وأما في الرسم فهي محذوفة لا غير لأنها من يآت الزوائد ، أي اقتدوا بي في الدين ، واعمِلُوا بنصيحتي ﴿ أهدكم سبيل الرشاد ﴾ أي طريق الهدى والصواب ، وهو الجنة ، وهو ضد الغي ، وفيه تعريض شبيه بالتصريح ، أن ما عليه فرعون وقومه سبيل الغي ، وقيل . هذا من قول موسى والأول أولى .

﴿ يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع ﴾ يتمتع بها أياماً ثم تنقطع وتزول ، لأن التنوين للتقليل ، فالإخلاد إليها أصل الشر ومنبع الفتن ، ورأس كل بلاء وآفة ﴿ وإن الآخرة هي دار القرار ﴾ أي الاستقرار والثبات ، فلا انتقال ولا تحول عنها ، لكونها دائمة لا تنقطع ومستمرة لا تزول ، والباقي خير من الفاني . قال بعض العارفين : لو كانت الدنيا ذهباً فانياً ، والآخرة خزفاً باقياً لكانت الآخرة خيراً من الدنيا ، فكيف والدنيا خزف فان ، والآخرة ذهب باق !

قال ابن عباس : « الدنيا جمعة من جمع الآخرة سبعة آلاف سنة » ، وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الحياة الدنيا متاع وليس من متاعها شيء أفضل من

المرأة الصالحة التي اذا نظرت اليها سرتك ، واذا غبت عنها حفظتك في نفسها ومالها .

﴿ من عمل سيئة ﴾ من كلام الرجل المؤمن ، والمعنى من عمل في دار الدنيا معصية من المعاصي كائنة ما كانت ﴿ فلا يجزى إلا مثلها ﴾ ولا يعذب إلا بقدرها والظاهر شمول الآية لكل ما يطلق عليه اسم السيئة ، وقيل : هي خاصة بالشرك ، ولا وجه لذلك .

﴿ ومن عمل ﴾ عملاً ﴿ صالحاً ﴾ قيل : هو لا إله إلا الله ﴿ من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ﴾ أي مع كونه مؤمناً بما جاءت به رسله ﴿ فأولئك ﴾ الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ﴿ يدخلون الجنة ﴾ بفتح الياء وضم الخاء . وبالعكس سبعيتان ﴿ يرزقون فيها ﴾ رزقاً واسعاً ﴿ بغير حساب ﴾ أي بغير تقدير ومحاسبة قال مقاتل : يقول لا تبعة عليهم فيما يعطون في الجنة من الخير ثم كرر ذلك الرجل المؤمن دعاءهم الى الله . صرح بإيمانه ولم يسلك المسالك المتقدمة من إيهامه لهم أنه منهم ، وأنه إنما تصدى لتذكيرهم كراهة أن يصيبهم بعض ما توعدهم به موسى ، كما يقول الرجل المحب لقومه من التحذير عن الوقوع فيما يخاف عليهم الوقوع فيه ، فقال : ﴿ و ﴾ ترك العطف في النداء الثاني لأنه تفصيل لإجمال الأول ، وهنا عطف لأنه ليس بتلك المثابة لأنه كلام مبين للأول والثاني ، فحسن إيراد الواو العاطفة فيه ونحوه .

قال الزمخشري : ﴿ يا قوم مالي ﴾ تكرير النداء لزيادة التنبيه لهم ، والإيقاظ عن سنة الغفلة ، وفيه أنهم قومه وأنه من آل فرعون . والمعنى : أخبروني عنكم كيف هذه الحال ؟ ﴿ أدعوكم الى النجاة ﴾ من النار ودخول الجنة بالإيمان بالله وإجابة رسله ﴿ وتدعونني الى النار ﴾ بما تريدونه مني من الشرك ، وقيل : المعنى ما لستم أدعوكم ؟ كما تقول ما لي أراك حزيناً ؟ أي مالك ؟ ثم فسر الدعوتين فقال :

تَدْعُونِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ، مَا لَيْسَ لِي بِهِ، عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ
 الْغَفَّارِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ
 مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَبْنَاءُ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾ فَتَذَكَّرُونَ مَا أَقُولُ
 لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أُمُورِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَّهَ اللَّهُ سَيِّئَاتِ
 مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِعَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾

﴿ تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم ﴾ أي ما لا علم لي بكونه شريكاً لله ، والمراد بنفي العلم بنفي المعلوم بدل من تدعونني الأولى على جهة البيان لها ، وأتى بجملة فعلية لتدل على أن دعوتهم باطلة لا ثبوت لها ، وفي قوله ﴿ وأنا أدعوكم ﴾ بجملة اسمية لتدل على ثبوت دعوته وتقويتها ﴿ الى العزيز ﴾ الغالب على أمره ، وفي انتقامه ممن كفر ﴿ الغفار ﴾ لذنب من آمن به وتاب .

﴿ لا جرم ﴾ قد تقدم تفسير هذا في سورة هود وجرم فعل ماض بمعنى حق ، ولا الداخلة عليه لنفي ما ادعوه ، ورد مازعموه ، وفاعل هذا الفعل هو قوله : ﴿ أن ما تدعونني إليه ﴾ أي حق ووجب بطلان دعوته ، وما بمعنى الذي ؛ فكان حقها أن تكتب مفعولة من النون كما هو القاعدة ، لكنها رسمت في المصحف الإمام موصولة بالنون كما اشار له ابن الجزري ﴿ ليس له دعوة ﴾ قال الزجاج : معناه ليس له استجابة دعوة تنفع ؛ وقيل : ليس له دعوة توجب الألوهية ﴿ في الدنيا ولا في الآخرة ﴾ وقال الكلبي ليس له شفاعة ﴿ وأن مردنا الى الله ﴾ أي مرجعنا ومصيرنا اليه بالموت أولاً وبالبعث آخرأً فيجازي كل أحد بما يستحقه من خير

وشر .

﴿ وأن المسرفين ﴾ أي المستكثرين من معاصي الله : قال قتادة وابن سيرين : يعني المشركين ، وقال مجاهد والشعبي هم السفهاء السفاكون للدماء بغير حقها ؛ وبه قال ابن مسعود ، وقال عكرمة الجبارون المتكبرون ، وقيل : هم الذين تعدوا حدود الله ، والمعنى حق أن المسرفين ﴾ هم أصحاب النار ﴾ أي أهل جهنم ولما بلغ ذلك المؤمن في باب النصيحة الى هذا الكلام ختم كلامه بخاتمة لطيفة فقال ﴿ فستذكرون ما أقول لكم ﴾ اذا نزل بكم العذاب وتعلمون أنني قد بالغت في نصحكم وتذكيركم ، وهو كلام مجمل مبهم ، وفي هذا الإبهام والإجمال من التخويف والتهديد ما لا يخفى .

﴿ وأفوض أمري الى الله ﴾ مستأنف ، أي أتوكل عليه وأسلم أمري اليه قيل : إنه قال هذا لما أرادوا الإيقاع به ، قال مقاتل : هرب هذا المؤمن الى الجبل فطلبوه فلم يقدروا عليه وقيل : القائل هو موسى والأول أولى ﴿ إن الله بصير بالعباد ﴾ يعلم المحق من المبطل .

﴿ فوقاه الله سيئات ما مكروا ﴾ أي ما أرادوا به من المكر السيء وما هموا به من إلحاق أنواع العذاب بمن خالفهم ، قال قتادة نجاه الله مع بني إسرائيل من الغرق ﴿ وحاق بآل فرعون ﴾ أي أحاط بهم ونزل عليهم ﴿ سوء العذاب ﴾ قال الكسائي : يقال حاق يحيق حيقاً وحيوقاً إذا نزل ولزم قال الكلبي غرقوا في البحر ودخلوا النار ، والمراد بآل فرعون وقومه ، وترك التصريح به للاستغناء بذكرهم عن ذكره ، لكونه أولى بذلك منهم ، او المراد بآل فرعون فرعون نفسه ، والأول أولى لأنهم قد عذبوا في الدنيا جميعاً بالغرق وسيعذبون في الآخرة بالنار ، ثم بين سبحانه ما أجمله من سوء العذاب فقال :

النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ وَإِذْ يَتَحَاوُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾

﴿النار يعرضون﴾ أي تعرض أرواحهم من حين موتهم الى قيام الساعة ﴿عليها غدواً وعشيّاً﴾ أي صباحاً ومساءً ، فارتفاع النار على أنها بدل من سوء العذاب وقيل : على أنها خبر مبتدأ محذوف ، أو مبتدأ وخبره يعرضون والأول أولى ورجحه الزجاج ، وعلى الوجهين الأخيرين تكون الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر وقرئ بالنصب على تقدير فعل يفسره يعرضون من حيث المعنى ، أي يصلون النار يعرضون عليها أو على الاختصاص وأجاز الفراء الخفض على البدل من العذاب .

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أحدكم اذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ، يقال له : هذا مقعدك حين يبعثك الله اليه يوم القيامة » زاد ابن مردويه ثم قرأ ﴿النار يعرضون عليها غدواً وعشيّاً﴾ ، وعرضهم عليها إحراقهم بها ، يقال عرض الامام الأساري على السيف اذا قتلهم به ، أي في هذين الوقتين يعذبون بالنار ، وفيما بين ذلك إما أن يعذبوا بجنس آخر أو ينفس عنهم ، ويجوز أن يكون غدواً وعشيّاً عبارة عن الدوام^(١) .

واحتج بعض أهل العلم على إثبات عذاب القبر بهذه الآية أعاذنا الله تعالى منه بمنه وكرمه ، وبه قال مجاهد وعكرمة ومحمد بن كعب كلهم ، قال القرطبي : إن أرواحهم في جوف طير سود تغدو على جهنم وتروح كل يوم مرتين ، فذلك عرضها انتهى . وقد حققنا ذلك في كتابنا ثمار التنكيت في شرح أبيات التثبیت ، بالفارسية فليعلم ، ثم ذهب الجمهور الى أن هذا العرض هو في البرزخ وقيل هو في الآخرة . قال الفراء : ويكون في الآية تقديم وتأخير ، أي : أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ، النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ، ولا ملجئ الى هذا التكلف فإن قوله : ﴿ ويوم تقوم الساعة ﴾ الخ يدل دلالة واضحة على أن ذلك العرض هو في البرزخ .

﴿ أدخلوا ﴾ أي يقال للملائكة : أدخلوا ﴿ آل فرعون أشد العذاب ﴾ هو عذاب النار فإنه أشد مما كانوا فيه ، وقيل : أنواع من العذاب بعضها أشد من بعض غير التي كانوا يعذبون بها منذ أغرقوا ، قرأ حمزة والكسائي ونافع وحفص : أدخلوا بقطع الهمزة وكسر الخاء ، وهو على تقدير القول كما ذكر وقرأ الباقون ادخلوا بهمزة وصل من دخل يدخل أمراً لآل فرعون بالدخول بتقدير حرف النداء أي ادخلوا يا آل فرعون أشد العذاب ، عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ما أحسن محسن مسلم أو كافر إلا أثابه الله ، قلنا يا رسول الله ما إثابة الكافر ؟ قال المال والولد والصحة وأشباه ذلك ، قلنا وما إثابته في الآخرة ؟ قال عذاباً دون العذاب ، وقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾ أخرجه البزار وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان .

﴿ وإذ يتحاجون في النار ﴾ أي اذكر لقومك وقت تخاصمهم في النار ، ثم بين سبحانه هذا التخاصم فقال : ﴿ فيقول الضعفاء للذين

استكبروا ﴿ عن الانقياد للأنبياء والاتباع لهم ، وهم رؤساء الكفر ﴾ ﴿ إنا كنا لكم تبعاً ﴾ فتكبرتم على الناس بنا ، والتبع جمع تابع كخدم وخادم أو مصدر واقع موقع اسم الفاعل ، أي تابعين أو ذوي تبع ، قال البصريون التبع يكون واحداً ويكون جمعاً ، وقال الكوفيون هو جمع لا واحد له .

﴿ فهل انتم مغنون عنا نصيباً من النار ﴾ أي هل تدفعون عنا نصيباً منها ؟ أو تحملونه معنا ، وجملة ﴿ قال الذين استكبروا إنا كل فيها ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر قرأ الجمهور (كل) بالرفع على الابتداء ، وخبره (فيها) والجملة خبر إن قاله الأخفش ، وقرأ ابن السميع وعيسى ابن عمر (كُلاً) بالنصب ، قال الكسائي والفراء على التأكيد لاسم إن بمعنى كلنا ، وتنوينه عوض عن المضاف إليه ؛ وقيل على الحال ، ورجحه ابن مالك ، والمعنى إنا نحن وأنتم جميعاً في جهنم ، فكيف نغني عنكم ؟ ولو قدرنا لأغنيا عن أنفسنا .

﴿ إن الله قد حكم بين العباد ﴾ أي قضى بينهم بأن فريقاً في الجنة وفريقاً في السعير ، فلا يغني أحد عن أحد شيئاً فعند ذلك يحصل اليأس للاتباع من المتبوعين ، فيرجعون كلهم الى خزنة جهنم يسألونهم ، كما قال :

﴿ وقال الذين في النار ﴾ من الأمم الكافرة ، مستكبرهم وضعيفهم جميعاً ﴿ لخزنة جهنم ﴾ جمع خازن ، وهم القوام بتعذيب أهل النار ، وإنما لم يقل لخزنتها لأن في ذكر جهنم تهويلاً وتفظيعاً ، أو لبيان محلهم فيها فإن جهنم هي أبعد النار قعراً من قولهم بشر جهنم ، بعيدة القعر . وفيها أعتى الكفار وأطغاهم ، فلعل الملائكة الموكلين لعذاب أولئك أجوب دعوة لزيادة قربهم من الله ، فلهذا تعمدهم أهل النار بطلب الدعوة منهم .

﴿ ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب ﴾ أي شيئاً منه مقدار يوم من أيام الدنيا لأنه ليس في الآخرة ليل ولا نهار .

قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمُ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَاذْعُوا وَمَا دُعَاؤُ
 الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
 وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ
 سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْثَقْنَا بِسِرِّيهِ الْكَيْتَ ﴿٥٣﴾
 هُدًى وَذِكْرَىٰ لِلأُولَى الْأَلْبَبِ ﴿٥٤﴾ فَاصْبِرْ إِنَّا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَاسْتَغْفِرْ
 لِذُنُوبِكُمْ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ ﴿٥٥﴾

﴿ قالوا أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات ﴾ مستأنفة جواب سؤال
 مقدر والاستفهام للتقريع والتوبيخ ﴿ قالوا بلى ﴾ أي أتونا بها
 فكذبناهم ، ولم نؤمن بهم ، ولا بما جاءوا به من الحجج الواضحة ، فلما
 اعترفوا ﴿ قالوا ﴾ أي قال لهم الملائكة الذين هم خزنة جهنم تهكماً
 بهم : ﴿ فادعوا ﴾ أي اذا كان الأمر كذلك ، فادعوا أتم فإننا لا ندعو لمن
 كفر بالله وكذب رسله بعد مجيئهم بالحجج الواضحة ، ثم أخبروهم بأن
 دعاءهم لا يفيد شيئاً فقالوا :

﴿ وما دعاء الكافرين إلا في ضلال ﴾ أي في ضياع وبطلان ،
 وخسار وتبار وانعدام ، وفيه إقنات لهم عن الإجابة ، وقيل : هو من قول
 الله تعالى إخباراً لنبه وهو أنسب بما بعده وعليه جرى المحلي والشهاب :

﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا ﴾ مستأنفة من جهة الله سبحانه ، أي
 نجعلهم الغالبين لأعدائهم ، القاهرين لهم ، والموصول في محل نصب
 عطفاً على رسلنا أي لننصر رسلنا وننصر الذين آمنوا معهم ﴿ في الحياة
 الدنيا ﴾ بما عودهم الله من الانتقام لهم بالقتل والسلب والأسر ، وقيل
 بالغلبة والقهر ، وقيل بالحجة ، وقيل بالانتقام لهم من الأعداء
 بالاستئصال ، وإن غلبوا في الدنيا في بعض الأحيان امتحاناً من الله عز

وجل ، والعاقبة لهم ، كما نصر يحيى ابن زكريا لما قتل ، فإنه قتل به سبعين ألفاً ، وكما نصر الحسين بن علي الشهيد فإنه قتل به سبعين ألفاً أيضاً .

أخرج أحمد والترمذي وحسنه ، وابن أبي الدنيا والطبراني وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « من ردّ . . . عن عرض أخيه رد الله عن وجهه نار جهنم يوم القيامة » ، ثم تلا ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا ﴾ وأخرج ابن مردويه من حديث أبي هريرة مثله .

﴿ ويوم يقوم الأشهاد ﴾ هو يوم القيامة قال زيد بن أسلم الأشهاد هم الملائكة والنبيون والمؤمنون . وقال مجاهد والسدي الأشهاد الملائكة ، يشهدون للأنبياء بالإبلاغ ، وعلى الأمم بالتكذيب . وقيل الحفظة يشهدون على بني آدم بما عملوا من الأعمال ، وكذا الجوارح تشهد عليهم بما فعلوا ، قال الزجاج الأشهاد جمع شاهد مثل صاحب واصحاب ، قال النحاس ليس لباب فاعل أن يجمع على أفعال ، ولا يقاس عليه ولكن ما جاء منه مسموعاً أدى على ما سمع فهو على هذا جمع شهيد ، مثل شريف وأشراف ، ومعنى نصرهم يوم القيامة أن الله يجازيهم بأعمالهم فيدخلهم الجنة ، ويكرمهم بكراماته ، ويجازي الكفار بأعمالهم ، فيلعنهم ويدخلهم النار وهو معنى قوله :

﴿ يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ﴾ قرأ نافع والكوفيون بالتحية وقرأ الجمهور تنفع بالفوقية ، والكل جائز في اللغة ، وإنما لم تنفعهم المعذرة لأنها معذرة باطلة ، وعلة داحضة . وشبهة زائفة ﴿ ولهم اللعنة ﴾ أي البعد عن الرحمة ﴿ ولهم سوء الدار ﴾ أي النار .

﴿ ولقد آتينا موسى الهدى ﴾ هذا من جملة ما قصه الله سبحانه قريباً من نصره لرسله ، أي آتيناه التوراة والنبوة ، كما في قوله سبحانه ﴿ إنا

أنزلنا التوراة فيها هدى ونور ﴿ قال مقاتل : الهدى من الضلالة يعني التوراة ﴾ وأورثنا بني إسرائيل ﴿ أي بعد ما كانوا فيه من الدل ﴾ الكتاب ﴿ أي التوراة والمعنى أن الله سبحانه لما أنزل التوراة على موسى بقيت بعده فيهم وتوارثوها خلفاً عن سلف وقيل المراد بالكتاب سائر الكتب المنزلة على أنبياء بني إسرائيل بعد موت موسى ﴿ هدى وذكرى ﴾ أي لأجلهما أو هادياً ومذكراً ومرشداً ﴿ لأولى الألباب ﴾ أي لأهل العقول السليمة .

ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بالصبر على الأذى فقال :

﴿ فاصبر ﴾ أي اصبر على أذى المشركين كما صبر من قبلك من الرسل ، قال الكلبي : فنسخت آية القتال آية الصبر ﴿ إن وعد الله ﴾ الذي وعد رسله به ﴿ حق ﴾ لا خلف فيه ، ولا شك في وقوعه ، كما في قوله ﴿ إنا لننصر رسلنا ﴾ وقوله ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين انهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون ﴾ ثم أمره الله سبحانه بالاستغفار لذنبه فقال :

﴿ واستغفر لذنبك ﴾ قيل : المراد ذنب أمتك فهو على حذف مضاف وقيل المراد الصغائر عند من يجوزها على الأنبياء ، وقيل : هو مجرد تعبد له صلى الله عليه وسلم بالاستغفار لزيادة الثواب ، وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر .

﴿ وسبح بحمد ربك بالعشي والإبكار ﴾ أي دم على تنزيه الله متلبساً بحمده وقيل المراد الصلوات الخمس ، والعشي هو من بعد الزوال ، وفيه أربع صلوات ، والإبكار من الفجر الى الزوال ، وفيه صلاة واحدة . وقيل : المراد صل في الوقتين صلاة العصر وصلاة الفجر ، قاله الحسن وقتادة ، وقيل هما صلاتان : ركعتان غداة ، وركعتان عشية ، وذلك قبل أن تفرض الصلوات الخمس .

إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ
 إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾
 لَخَلَقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ
 لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
 الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾

﴿إن الذين يجادلون﴾ عام في كل مجادل وإن نزل في مشركي
 مكة ، قاله أبو السعود ﴿في آيات الله﴾ أي القرآن ﴿بغير سلطان
 أتاهم﴾ أي بغير حجة ظاهرة واضحة جاءتهم من جهة الله سبحانه تقييداً
 لمجادلة بذلك مع استحالة إتيانه للإيذان بأن المتكلم في أمر الدين لا بد
 من استناده الى سلطان مبین .

﴿إن في صدورهم إلا كبر﴾ أي ما في قلوبهم إلا تكبر عن الحق
 يحملهم على تكذيبك ﴿ما هم ببالغيه﴾ صفة لكبر : قال الزجاج : بالغي
 إرادتهم فيه فجعله على حذف المضاف ، وقال غيره بالغي كبرهم . وقال
 ابن قتيبة : كبر أي تكبر على محمد صلى الله عليه وسلم وطمع أن يبلغوه
 وما هم ببالغي ذلك ، وقيل : المراد بالكبر الأمر الكبير ، أي يطلبون النبوة
 ويطلبون أمراً كبيراً يصلون به اليك من القتل ونحوه ، ولا يبلغون ذلك .
 وقال مجاهد معناه في صدورهم عظمة ما هم ببالغيها ، والمراد بهذه الآية
 المشركون ، وقيل اليهود .

عن أبي العالية قال : « إن اليهود أتوا النبي صلى الله عليه وسلم
 فقالوا إن الدجال يكون منا في آخر الزمان ، ويكون من أمره فعظموا

أمره ، وقالوا يصنع كذا ويصنع كذا ، فأنزل الله هذه الآية . قال : لا يبلغ الذي يقول ، فاستعذ بالله ، فأمر نبيه أن يتعوذ من فتنة الدجال ، لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الدجال ، أخرجهم عبد بن حميد ، وابن أبي حاتم ، قال السيوطي : بسند صحيح ، وعن كعب الأحبار قال : هم اليهود نزلت فيهم ، فيما ينتظرونه من أمر الدجال . وقال مجاهد ﴿ إلا أكبر ﴾ أي عظمة قريش ، ثم أمره الله سبحانه بأن يستعيذ بالله من شرورهم فقال :

﴿ فاستعذ بالله ﴾ أي فالتجىء إليه من شرهم ، وكيدهم ، وبغيهم عليك ﴿ انه هو السميع ﴾ لأقوالهم ﴿ البصير ﴾ بأفعالهم لا تخفى عليه من ذلك خافية ثم بين سبحانه عظيم قدرته فقال ﴿ لخلق السموات والأرض ﴾ ابتداء من غير سبق مادة ﴿ أكبر من خلق الناس ﴾ أي أعظم في النفوس ، وأجل في الصدور ، لعظم إجرامهما واستقرارهما من غير عمد ، وجريان الأفلاك بالكواكب من غير سبب ، وأشق بحسب عادة الناس في مزاولة الأفعال من أن علاج الشيء الكبير أشق من علاج الصغير ، وإن كان بالنسبة إلى الله لا تفاوت بين الصغير والكبير ، فكيف ينكرون البعث وإحياء ما هو دونهما من كل وجه ؟ كما في قوله .

﴿ أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ﴾ قال ابو العالية المعنى لخلق السموات والأرض أعظم من خلق الدجال حين عظمت اليهود ، وقال يحيى بن سلام هو احتجاج على منكري البعث أي هما أكبر من إعادة خلق الناس .

﴿ ولكن أكثر الناس ﴾ أي كفار مكة ﴿ لا يعلمون ﴾ بعظم قدرة الله ، وأنه لا يعجزه شيء فهم كالأعمى ، ومن يعلمه كالبصير وقد وردت أحاديث صحيحة كثيرة في ذكر الدجال وصفته ، وإنذار الرسل منه لأمتهم وخروجه في آخر الزمان ، وما يقع منه ، ومن يتبعه من اليهود ، كما

حققناه في حجج الكرامة في آثار القيامة ، وليس هذا موضع ذكرها وبسطها ، وإليه ذهب جميع أهل السنة والمحدثين والفقهاء خلافاً لمن أنكره ، وأبطل أمره من الخوارج والجهمية وبعض المعتزلة ، وخلافاً للجبائي وموافقيه في أنه صحيح الوجود : ولكن الأشياء التي يأتي بها زعموا أنها مخاريف وخیالات لا حقائق لها والأخبار الصحيحة المتواترة تدفعه وترده رداً مشبعاً .

ثم لما ذكر سبحانه الجدال بالباطل ذكر مثلاً للباطل والحق ، وأنهما لا يستويان فقال :

﴿ وما يستوي الأعمى والبصير ﴾ أي الذي يجادل بالباطل الذي يجادل بالحق ، أو الغافل والمستبصر ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ أي ولا يستوي المحسن بالإيمان والعمل الصالح .

﴿ ولا المسيء ﴾ بالكفر والمعاصي ، وزيادة (لا) للتأكيد ، والتقابل يجيء على ثلاث طرق إحداها أن يجاور المناسب ما يناسبه كهذه الآية ، والثانية أن يتأخر المتقابلان كقوله تعالى ﴿ مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع ﴾ ، والثالثة أن يقدم مقابل الأول ويؤخر مقابل الآخر ، كقوله تعالى ﴿ وما يستوي الأعمى والبصير ، ولا الظلمات ولا النور ﴾ وكل ذلك تفنن في البلاغة ، وقدم الأعمى في نفي التساوي لمجيئه بعد صفة الذم في قوله ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

﴿ قليلاً ما يتذكرون ﴾ بالتحية على الغيبة لأن قبلها وبعدها على الغيبة لا على الخطاب ، واختارها أبو عبيد وأبو حاتم ، وبالفوقية على الخطاب بطريقة الالتفاف وفائدته في مقام التوبيخ هي إظهار العنف الشديد ، والإنكار البليغ أفاده الكرخي .

إِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾

﴿إن الساعة لآتية لا ريب فيها﴾ أي لا شك في مجيئها وحصولها وقيامها لوضوح شواهدها ، وإجماع الرسل على الوعد بوقوعها ، ولأنه لا بد من جزاء لثلا يكون خلق الخلق للفناء خاصة ﴿ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾ بتلك ولا يصدقونه لقصور أفهامهم ، وضعف عقولهم ، عن إدراك الحجة ، والمراد بأكثر الناس الكفار الذين ينكرون البعث ، ثم لما بين سبحانه أن قيام الساعة حق وليس بمرتاب فيها . ولا شبهة في مجيئها ، أرشد عباده الى ما هو الوسيلة الى السعادة في دار الخلود فأمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يحكي عنه ما أمره بإبلاغه وهو :

﴿وقال ربكم ادعوني استجب لكم﴾ قال أكثر المفسرين : المعنى وحدوني وابدوني أتقبل عبادتكم ، وأغفر لكم ، وأجيبكم وأثبكم . وقيل : هذا الوعد بالإجابة مقيد بالمشيئة ، أي استجب لكم إن شئت ، كقوله ﴿فيكشف ما تدعون إليه إن شاء الله﴾ وقيل : المراد بالدعاء السؤال بجلب النفع ودفع الضر ، قيل : الأول أولى لأن الدعاء في أكثر استعمالات الكتاب العزيز هو العبادة .

قلت : بل الثاني أولى ، لأن معنى الدعاء حقيقة وشرعاً هو الطلب ، فإن استعمل في غير ذلك فهو مجاز ، على أن الدعاء في نفسه باعتبار معناه الحقيقي هو عبادة ، بل مخ العبادة ، كما ورد بذلك الحديث الصحيح ، فالله سبحانه قد أمر عباده بدعائه ، ووعدهم بالإجابة ، ووعدده

الحق ، وما يبدل القول لديه ، ولا يخلف الميعاد .

وعن ابن عباس قال : وحدوني أغفر لكم ، وقال جرير بن عبد الله عبدوني ، وعن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الدعاء الاستغفار » أخرجه ابن مردويه ، وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من لم يدع الله يغضب عليه ، أخرجه أحمد والحاكم وابن أبي شيبة . وعن معاذ بن جبل عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا ينفع حذر من قدر ، ولكن الدعاء ينفع مما نزل ، ومما لم ينزل ، فعليكم بالدعاء » ، أخرجه أحمد وأبو يعلى والطبراني .

وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الدعاء مخ العبادة »^(١) أخرجه الترمذي والحكيم الترمذي في نوادر الأصول ، وعن ابن عباس قال أفضل العبادة الدعاء ، وقرأ هذه الآية ، وأخرج البخاري في الأدب عن عائشة قالت : سئل النبي صلى الله عليه وسلم « أي العبادة أفضل ؟ فقال دعاء المرء لنفسه » . ثم صرح سبحانه بأن هذا الدعاء باعتبار معناه الحقيقي وهو الطلب هو من عبادته فقال :

﴿ إن الذين يستكبرون عن عبادي سيدخلون جهنم ﴾ قرأ الجمهور بفتح الياء وضم الخاء وقرئ بالعكس مبيناً للمفعول ﴿ داخرين ﴾ أي ذليلين صاغرين ، وهذا وعيد شديد لمن استكبر عن دعاء الله ، وفيه لطف بعباده عظيم ، وإحسان اليهم جليل حيث توعد من ترك طلب الخير منه واستدفاع الشر به بهذا الوعيد البالغ ، وعاقبه بهذه العقوبة العظيمة ، فإيا عباد الله وجهوا رغباتكم ، وعولوا في كل طلباتكم على من أمركم بتوجيهها إليه ، وأرشدكم إلى التعويل عليه ، وكفل لكم الإجابة بإعطاء الطلبة فهو الكريم المطلق ، الذي يجيب دعوة الداعي إذا دعاه ، ويغضب على من لم يطلب من فضله العظيم ، وملكه الواسع ما يحتاجه من أمور الدنيا

(١) الدعاء وهو العبادة أخرجه أحمد ٢٧١/٤ وغيره .

والدين .

وعن النعمان بن بشير قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الدعاء هو العبادة » ثم قرأ : وقال ربكم أدعوني الى قوله داخرين ، أخرجه الترمذي وقال : حسن صحيح ، والبخاري في الأدب ، وأبو داود والنسائي وابن ماجه وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن حبان والحاكم وصححه ، وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية ، والبيهقي في الشعب ، وأحمد وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وسعيد بن منصور والطبراني .

ثم ذكر سبحانه بعض ما أنعم به على عباده فقال :

﴿ الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه ﴾ من الحركات في طلب الكسب لكونه جعله مظلماً بارداً تناسبه الراحة الظاهرية ، بالسكون والنوم الذي هو الموت الأصغر ، والراحة الحقيقية بالعبادة التي هي الحياة الدائمة ﴿ والنهار مبصراً ﴾ أي مضيئاً لتبصروا فيه حوائجكم ، وتنصرفوا في طلب معاشكم ، وهو من الإسناد المجازي ، أي مبصراً فيه لأن الإبصار في الحقيقة لأهل النهار .

﴿ إن الله لذو فضل على الناس ﴾ يتفضل عليهم بنعمه التي لا تحصى ، ولم يقل لمفضل أو لمتفضل لأن المراد تنكير الفضل ، وأن يجعل فضلاً لا يوازيه فضل ، وذلك إنما يكون بالإضافة ﴿ ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ النعم ولا يعترفون بها إما لجحودهم لها ولكفرهم بها ، كما هو شأن الكفار ، أو لإغفالهم للنظر وإهمالهم لما يجب من شكر المنعم وهم الجاهلون ، ولم يقل : ولكن أكثرهم حتى لا يتكرر ذكر الناس ، لأن في هذا التكرير تخصيصاً لكفران النعمة بهم ، وأنهم هم الذين يكفرون فضل الله ولا يشكرونه كقوله ﴿ إن الانسان لكفور ﴾ وقوله : ﴿ إن الانسان لظلوم كفار ﴾ .

ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا إِلَهًا إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٥﴾ قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾

﴿ ذلکم ﴾ أي الفاعل المخصوص بالأفعال المقتضية لسألوهية والربوبية ﴿ الله ربکم خالق کل شیء لا إله إلا هو ﴾ بین سبحانه في هذا کمال قدرته ، المقتضية لوجوب توحیده ﴿ فأنى تؤفکون ﴾ أي فكيف تنقلبون عن عبادته وتنصرفون عن توحیده ؟ وتصرفون عن الايمان مع قيام البرهان .

﴿ كذلك يؤفک الذين كانوا بآيات الله يجحدون ﴾ أي مثل ذلك الإفک يؤفک الجاحدون لآيات الله ، المنكرون لتوحیده ، ثم ذکر لهم سبحانه نوعاً آخر من نعمه التي أنعم بها عليهم ، مع ما في ذلك من الدلالة على کمال قدرته ، وتفردہ بالالهية فقال :

﴿ الله الذي جعل لكم الارض قراراً ﴾ أي موضع قرار مع كونها في غاية الثقل ولا ممسك لها سوى قدرة الله وفيها تحيون وفيها تموتون ﴿ والسماء بناء ﴾ اي سقفاً قائماً ثابتاً مع كونها أفلاکاً دائرة بنجوم طول الزمان سائرة ينشأ عنها الليل والنهار ، والإظلام والإضاءة ، ثم بين بعض نعمه المتعلقة بأنفس العباد فقال :

﴿ وصورکم فأحسن صورکم ﴾ أي خلقکم في أحسن صورة لم

يخلق حيواناً أحسن منكم ، وقيل : لم يخلقكم منكوسين كالبهائم قيل خلق ابن آدم قائماً معتدلاً يأكل ويتناول بيده ، وغيره يتناول بفيه ، وقال الزجاج خلقكم أحسن الحيوان كله ، قرأ الجمهور صوركم بضم الصاد ، وقرأ الأعمش وأبو رزين بكسرها قال الجوهري : والصور بكسر الصاد لغة في الصور بضمها ﴿ ورزقكم من الطيبات ﴾ أي المستلذات من المأكول والمشرب من غير رزق الدواب .

﴿ ذلكم ﴾ المنعوت بهذه النعوت الجليلة ﴿ الله ربكم فبارك الله رب العالمين ﴾ أي كثر خير وبركته ﴿ هو الحي لا إله إلا هو ﴾ أي الباقي الذي لا يفنى ، المتفرد بالألوهية ، وهذا التركيب يفيد الحصر ، وفيه إشارة إلى العلم التام والقدرة التامة الكاملة ﴿ فادعوه ﴾ أي اعبدوه ﴿ مخلصين له الدين ﴾ أي الطاعة والعبادة من الشرك .

﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ قال الفراء هو خبر وفيه إضممار أمر ، أي احمدوه عن ابن عباس قال : من قال لا إله إلا الله فليقل إثرها الحمد لله رب العالمين وذلك قوله ﴿ فادعوه ﴾ مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين ﴿ وعلى هذا هو من كلام المأمورين بالعبادة ، ويجوز ان يكون من كلامه تعالى على أنه استئناف لحمد ذاته بذاته .

ثم أمر الله سبحانه رسوله أن يخبر المشركين بأن الله نهاه عن عبادة غيره ، وأمره بالتوحيد فقال :

﴿ قل ﴾ لهم رداً عليهم فيما طلبوه منك وهو عبادة آلهتهم : ﴿ إني نهيت ﴾ نهياً عاماً ببراهين العقول ونهياً خاصاً بأدلة النقول ﴿ أن أعبد الذين تدعون ﴾ أي تعبدون ﴿ من دون الله ﴾ وهي الأصنام ثم بين وجه النهي فقال ﴿ لما جاءني البينات من ربي ﴾ وهي الأدلة العقلية والنقلية فإنها توجب التوحيد ﴿ وأمرت أن أسلم لرب العالمين ﴾ أي استسلم له بالانقياد والخضوع ، أو الإخلاص ثم أردف هذا بذكر دليل من الأدلة الدالة على التوحيد فقال :

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُوَفِّي مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجْلاً مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يُصَرَّفُونَ ﴿٦٩﴾

﴿ هو الذي خلقكم ﴾ أي خلق أباكم الأول وهو آدم ، وخلقته ﴿ من تراب ﴾ يستلزم خلق ذريته منه ﴿ ثم من نطفة ثم من علقه ﴾ قد تقدم تفسير هذا في غير موضع ﴿ ثم يخرجكم طفلاً ﴾ أي أطفالاً ، وأفرده لكونه اسم جنس ، أو على معنى : ثم يخرج كل واحد منكم طفلاً .

﴿ ثم لتبلغوا أشدكم ﴾ وهي الحالة التي تجتمع فيها القوة والعقل من الثلاثين سنة الى الأربعين ، وقد سبق بيان الأشد مستوفي في الأنعام والتقدير لتكبروا شيئاً فشيئاً ثم لتبلغوا غاية الكمال ﴿ ثم ﴾ يبيّكم .

﴿ لتكونوا شيوخاً ﴾ بضم الشين وبكسرهما سبعيتان وقرىء شيخاً على الأفراد كقوله طفلاً والشيخ من جاوز أربعين سنة ، يعني أن مراتب الإنسان بعد خروجه من بطن أمه ثلاث : الطفولية ، وهي حالة النمو والزيادة الى أن يبلغ كمال الأشد من غير ضعف ، ثم يتناقص بعد ذلك وهي الشيخوخة .

﴿ ومنكم من يتوفى من قبل ﴾ أي من قبل الأشد ، ومن قبل الشيخوخة ﴿ ولتبلغوا ﴾ جميعاً ﴿ أجلاً مسمى ﴾ أي وقت الموت أو يوم القيامة ، واللام هي لام التعليل أو العاقبة ﴿ ولعلكم تعقلون ﴾ أي لكي تعقلوا توحيد ربكم وقدرته البالغة في خلقكم على هذه الأطوار المختلفة الى الأجل المذكور .

﴿ هو الذي يحيي ويميت ﴾ أي يقدر على الإحياء والإماتة ﴿ فإذا قضى أمراً ﴾ من الأمور التي يريد لها ﴿ فإنما يقول له . كن فيكون ﴾ من غير توقف على شيء من الأشياء أصلاً وهذا تمثيل لتأثير قدرته في المقدورات عند تعلق إرادته بها ، وتصوير لسرعة ترتب المكونات على تكوينه ، من غير أن يكون هناك أمر ومأمور ، والفاء الأولى للدلالة على أن ما بعدها من نتائج ما قبلها من اختصاص الإحياء والإماتة به سبحانه وتعالى ، قاله أبو السعود وقد تقدم تحقيق معناه في البقرة وفيما بعدها .

﴿ ألم تر الى الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون ﴾ تعجب من أحوالهم الشنيعة وآرائهم الركيكة ، وتمهيد لما يعقبه من بيان تكذيبهم بكل القرآن ، وبسائر الكتب والشرائع ، وترتيب الوعيد على ذلك ، كما أن ما سبق من قوله تعالى ﴿ إن الذين يجادلون في آيات الله ﴾ إلخ بيان لابتناء جدالهم على مبنى فاسد لا يكاد يدخل تحت الوجود هو الأمانة الفارغة ، فلا تكرر فيه أي انظر الى هؤلاء المكابرين المجادلين في آياته تعالى الواضحة ، الموجبة للإيمان بها الزاجرة عن الجدال فيها كيف يصرفون عنها مع تعاضد الدواعي الى الإقبال عليها ؟ وانتفاء الصوارف عنها بالكلية ، وقيام الأدلة الدالة على صحتها ، وأنها في أنفسها موجبة للتوحيد قاله أبو السعود .

وقال النسفي ذكر الجدال في هذه السورة في ثلاثة مواضع ، فجاز أن يكون في ثلاثة أقوام ، أو ثلاثة أصناف ، وللتأكيد انتهى . قال ابن زيد هم المشركون بدليل قوله الآتي ﴿ الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا ﴾ قال القرطبي ، وقال أكثر المفسرين نزلت في القدرية ، قال ابن سيرين إن لم تكن هذه الآية نزلت في القدرية فلا أدري فيمن نزلت ، ويجاب عن هذا بأن الله سبحانه قد وصف هؤلاء بصفة تدل على غير ما قالوه فقال :

الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَنْتَ مَا كُنْتُمْ تَشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَلِكَ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾

﴿الذين كذبوا بالكتاب﴾ وهذا وصف لا يصح أن يطلق على فرقة من فرق الاسلام ، والمراد بالكتاب إما القرآن ، أو جنس الكتب المنزلة من عند الله ، والموصول إما في محل جر على أنه نعت للموصول الأول أو بدل منه ، ويجوز ان يكون في محل نصب على الذم .

﴿وبما أرسلنا به رسلنا﴾ معطوف على قوله (بالكتاب) ويراد به ما يوحى الى الرسل من غير كتاب إن كانت اللام في الكتاب للجنس ، أو سائر الكتب إن كان المراد بالكتاب القرآن .

﴿فسوف يعلمون﴾ عاقبة أمرهم ، ووبال كفرهم ، وفي هذا وعيد شديد والظرف في قوله ﴿إذ الأغلال في أعناقهم﴾ متعلق بـ (يعلمون) أي فسوف يعلمون . وقت كون الأغلال في أعناقهم ، أو اذكر لهم وقت الأغلال ليخافوا وينزجروا ﴿والسلاسل﴾ جمع سلسلة معروفة قال الراغب تسلسل الشيء اضطرب ، كأنه تصور منه تسلسل متردد فتردد لفظه ، تنبيه على تردد معناه ، وماء سلسل متردد في مقره ، معطوف على الأغلال ، والتقدير إذ الأغلال والسلاسل في أعناقهم .

ويجوز أن يرتفع السلاسل على أنه مبتدأ ، وخبره محذوف لدلالة في أعناقهم عليه ، ويجوز أن يكون خبره ﴿ يسحبون في الحميم ﴾ بحذف العائد أي يسحبون بها في الحميم ، وهذا على قراءة الجمهور برفع السلاسل ، وقرئ بنصبها ، وقرأوا يسحبون بفتح الياء مبنياً للفاعل ، فتكون السلاسل مفعولاً مقديماً ، وقرئ بجر السلاسل ، قال الفراء وهذه القراءة محمولة على المعنى ، إذ المعنى أعناقهم في الأغلال والسلاسل وقال الزجاج المعنى على هذه القراءة وفي السلاسل يسحبون ، واعترضه ابن الانباري بأن ذلك لا يجوز في العربية والسحب الجر بعنف ، والسحاب من ذلك لأن الريح تجره أو لأنه يجر الماء ، والحميم هو المتناهي في الحر ، وقيل الصديد ، وقيل جهنم . وقيل الماء الحار الذي يكسب الوجوه سواداً والأعراض عاراً ، والأرواح عذاباً ، والأجسام ناراً ، وقد تقدم تفسيره قال ابن عباس يسحبون في الحميم فينسلخ كل شيء عليهم ، من جلد ولحم وعرق ، حتى يصير في عقبه ، حتى إن لحمه قدر طوله ، وطوله ستون ذراعاً ، ثم يكسى جلدأ آخر ثم يسجر في الحميم .

﴿ ثم في النار يسجرون ﴾ يقال سجرت التنور ، أي أوقدته ، وسجرتة ملأته بالوقود ، ومنه ﴿ البحر المسجور ﴾ أي المملوء ، فالمعنى توقد بهم النار أو تملأ بهم ، والمراد أنهم يعذبون بألوان العذاب ، وينقلون من باب الى باب قال مجاهد ومقاتل : توقد بهم النار فصاروا وقودها ، عن عبد الله بن عمرو قال : تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذ الأغلال الى قوله : يسجرون ، فقال : لو أن رصاصة مثل هذه - وأشار الى جمجمة - أرسلت من السماء الى الأرض ، وهي مسيرة خمسمائة سنة ، لبلغت الأرض قبل الليل ، ولو أنها أرسلت من رأس السلسلة لسارت أربعين خريفاً الليل والنهار قبل أن يبلغ أصلها . أو قال :

قعرها» ، أخرجه أحمد والترمذي وحسنه ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه والبيهقي في البعث والنشور .

﴿ ثم قيل لهم ﴾ أي يقال لهم ، وصيغة الماضي للدلالة على التحقق ﴿ أين ما كنتم تشركون ﴾ من دون الله هذا توبيخ وتقريع لهم ، أي أين الشركاء الذين كنتم تعبدونهم من دون الله ؟ وهي الأصنام وغيرها ، وترسم أين مفصلة من ما كما أشار إليه ابن الجزري ﴿ قالوا ضلوا عنا ﴾ أي يقولون : ذهبوا وغابوا ، وفقدناهم فلا نراهم ، ثم أضربوا عن ذلك وانتقلوا الى الاخبار بعدمهم ، وأنه لا وجود لهم فقالوا :

﴿ بل لم نكن ندعو من قبل شيئاً ﴾ أي لم نكن نعبد شيئاً ، قالوا هذا بعد ما تبين لهم ما كانوا فيه من الضلالة والجهالة ، وأنهم كانوا يعبدون ما لا يبصر ولا يسمع ولا يضر ولا ينفع ، وليس هذا إنكاراً منهم لوجود الأصنام التي كانوا يعبدونها ، بل اعتراف منهم بأن عبادتهم إياها كانت باطلة ، كقولك : حسبته شيئاً فلم يكن كذلك ، وقال المحلي : أنكروا عبادتهم إياها انتهى . وهذا المعنى بعيد في مقام الحساب والعرض على رب العالمين ﴿ كذلك ﴾ الضلال الفظيع ﴿ يضل الله الكافرين ﴾ حيث عبدوا هذه الأصنام التي أوصلتهم الى النار .

﴿ ذلكم ﴾ أي ذلك الإضلال المدلول عليه بالفعل او العذاب ﴿ بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق ﴾ أي تظهرون في الدنيا من الفرح بمعاصي الله ، والسرور بمخالفة رسله وكتبه ، وقيل : بما كنتم تفرحون به من المال والأتباع والصحة ، وقيل : من إنكار البعث والعذاب ، وقيل : المراد بالفرح هنا البطر والتكبر ﴿ وبما كنتم تفرحون ﴾ المراد بالمرح الزيادة في البطر ، وقال مجاهد وغيره : تبطرون وتأشرون ، وقال الضحاك : الفرح السرور . والمرح العدوان وقال مقاتل : المرح البطر والخيلاء وقيل المرح أشد من الفرح .

أَدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فِئْتَسْ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَكَيْمَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعْدُهُمْ أَوْ نتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّا يُرْجِعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِثَايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَمَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُريْكُم ءَايَتِهِ فَأَيَّ ءَايَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ ﴿٨١﴾

﴿ ادخلوا أبواب جهنم ﴾ السبعة المقسومة لكم ، قال تعالى : لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم ، حال كونكم ﴿ خالدين فيها ﴾ أي مقدرين الخلود فيها ﴿ فبئس مَثْوًى ﴾ أي مأوى ﴿ المتكبرين ﴾ عن قبول الحق جهنم وكان الظاهر أن يقال : مدخل ، وعبر عنه بالمشوى لكون دخولهم بطريق الخلود قاله أبو السعود ، وقال السمين لم يقل مدخل لأن الدخول لا يدوم ، وإنما يدوم الثواء فلذلك خصه بالذم ، وإن كان الدخول أيضاً مذموماً ، ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بالصبر تسلياً له فقال :

﴿ فاصبر إن وعد الله ﴾ أي وعده بالانتقام منهم ﴿ حق ﴾ كائن لا محالة ، إما في الدنيا أو في الآخرة ، ولهذا قال : ﴿ فإما نرينك بعض الذي نعدهم ﴾ من العذاب في الدنيا ، بالقتل والأسر والقهر ، وما زائدة عند المبرد والزجاج ، والأصل ترك ، ولحقت بالفعل نون التأكيد ﴿ أو نتوفينك ﴾ معطوف على نرينك أي قبل إنزال العذاب بهم ﴿ فإلينا

يرجعون ﴿ يوم القيامة فنعذبهم أشد العذاب .

﴿ ولقد أرسلنا رسلاً ﴾ وأنبياء ﴿ من قبلك ﴾ الى أممهم ﴿ منهم من قصصنا عليك ﴾ أي أنبأناك بأخبارهم في القرآن ، وما لقوه من قومهم ، وهم خمسة وعشرون ﴿ ومنهم من لم نقصص عليك ﴾ فيه خبره ولا أوصلنا اليك علم ما كان بينه وبين قومه ، وعن علي بن أبي طالب في الآية قال : بعث الله عبداً حبشياً فهو ممن لم يقصص على محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، عن أبي ذر قال : قلت : « يا رسول الله كم عدة الأنبياء ؟ قال : مائة الف وأربعة وعشرون ألفاً . الرسل من ذلك ثلثمائة وخمسة عشر جمماً غفيراً ، » أخرجه أحمد ، وعبر عنه في الكشف بقليل .

﴿ وما كان ﴾ أي ما صح وما استقام ﴿ لرسول ﴾ منهم ﴿ أن يأتي بآية ﴾ أي معجزة دالة على نبوته ﴿ إلا بإذن الله ﴾ لا من قبل نفسه ، فإن المعجزات عطايا قسمها الله تعالى بينهم ، على ما اقتضته حكمته ، كسائر القسم ، ليس لهم اختيار في إثارة بعضها ، والاستبداد بإتيان المقترح بها لأنهم عبيد مربوبون ﴿ فإذا جاء أمر الله ﴾ أي الوقت المعين لعذابهم في الدنيا وفي الآخرة ﴿ قضى بالحق ﴾ فيما بين الرسل ومكذبيها ، فينجي الله بقضائه الحق عباده المحققين .

﴿ وخسر هنالك ﴾ أي في ذلك الوقت ﴿ المبطلون ﴾ الذين يتبعون الباطل ويعملون به ، وهم خاسرون في كل وقت قبل ذلك ، وختمه بقوله : (المبطلون) ، وختم السورة بقوله : (الكافرون) ، لأن الأول متصل بقوله : قضى بالحق ، ونقيض الحق هو الباطل ، والثاني متصل بإيمان غير نافع ونقيض الإيمان الكفر أفاده الكرخي ، ثم امتن الله سبحانه على عباده بنوع من أنواع نعمه التي لا تحصى فقال :

﴿ الله الذي جعل لكم الأنعام ﴾ أي خلقها لأجلكم ، قال الزجاج : الأنعام هنا الإبل خاصة ، وقيل : الأزواج الثمانية ، والأول هو الظاهر لأنها

هي التي توجد فيها المنافع الآتية كلها ، وقوله : ﴿ لتركبوا منها ﴾ تفصيل لهذا الاجمال ، ومن للتبعيض ، وكذلك في قوله :

﴿ ومنها تأكلون ﴾ أو لابتداء الغاية في الموضعين ومعناها ابتداء الركوب ، وابتداء الأكل ، والأول أولى . والمعنى لتركبوا بعضها وتأكلوا بعضها .

﴿ ولكم فيها منافع ﴾ آخر غير الركوب والأكل من الوبر والصوف والشعر ، والزبد والسمن والجبن ، والدر والنسل ، وغير ذلك ﴿ وتبلغوا عليها حاجة في صدوركم ﴾ قال مجاهد ومقاتل وقتادة : تحمل أثقالكم من بلد الى بلد ، وقد تقدم بيان هذا مستوفى في سورة النحل :

﴿ وعليها وعلى الفلك تحملون ﴾ أي على الإبل في البر ، وعلى السفن في البحر ، وقيل : المراد بالحمل على الأنعام هنا حمل الولدان والنساء في الهودج ، وهو السر في فصله عن الركوب ، وفي الجمع بينهما من المناسبة التامة حتى سميت سفائن البر ، ونظير هذه الآية قوله تعالى في سورة النحل ﴿ والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ﴾ الآية ، لكن هذه أجمع منها .

﴿ ويرىكم آياته ﴾ أي دلالاته الدالة على كمال قدرته ووحدانيته ﴿ فأبى ﴾ آية من ﴿ آيات الله تنكرون ﴾ فإنها كلها من الظهور ، وعدم الخفاء ، بحيث لا ينكرها منكر ، ولا يجحدوها جاحد ، وفيه تقرير لهم وتوبيخ عظيم وتذكير أي أشهر من تأنيته ، فلذلك لم يقل فأية آيات الله لأن التفرقة بين المذكر والمؤنث في الأسماء الجامدة نحو حمار وحمارة غريب ، وهي في أي أغرب لابهامها ، ونصب أي بـ ﴿ تنكرون ﴾ وانما قدم على العامل فيه لأن له صدر الكلام ، ثم أرشدكم سبحانه الى الاعتبار والتفكر في آيات الله فقال :

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ
 مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا
 جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ
 يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ
 مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكْ يَنْفَعْهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ
 وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾

﴿ أفلم يسيروا في الأرض ﴾ أي في أطرافها ونواحيها ﴿ فينظروا ﴾ بأبصارهم وبصائرهم ﴿ كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ﴾ من الأمم التي عصت الله وكذبت رسلها ، فإن الآثار الموجودة في ديارهم تدل على ما نزل بهم من العقوبة ، وما صاروا اليه من سوء العاقبة ، ثم بين سبحانه أن تلك الأمم كانوا فوق هؤلاء في الكثرة والقوة فقال :

﴿ كانوا أكثر منهم ﴾ عدداً ﴿ وأشد قوة ﴾ أي أقوى منهم أجساداً وأوسع منهم أموالاً ﴿ و ﴾ أظهر منهم ﴿ آثاراً في الأرض ﴾ بالعمائر والمصانع والحصون والصهاريج والحرث ﴿ فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ﴾ يجوز أن تكون ﴿ ما ﴾ الأولى نافية أو استفهامية منصوبة بأغنى ، والثانية موصولة أو مصدرية مرفوعة به ، أي لم يغن عنهم أو أي شيء أغنى عنهم مكسوبهم أو كسبهم .

﴿ فلما جاءتهم رسلهم بالبينات ﴾ أي بالحجج الواضحات ، والمعجزات الظاهرات ﴿ فرحوا بما عندهم من العلم ﴾ أي أظهر الكفار الفرح بما عندهم مما يدعون أنه من العلم ، من شبه الداحضة ، والدعاوى الزائفة ، والفنون الفاسدة ، والعلوم الكاسدة ، وسماه علماً تهكماً بهم ، أو

على ما يعتقدونه ، وقال مجاهد : قالوا نحن أعلم منهم لن نعذب ولن نبعث ، وقيل المراد من العلم علم أحوال الدنيا لا الدين كما في قوله :

﴿ يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا ﴾ قال النسفي : أو علم الفلاسفة والدهريين ، فانهم كانوا إذا سمعوا بوحى الله دفعوه وصغروا علم الأنبياء الى علمهم ، وعن سقراط أنه سمع بموسى وقيل له لو هاجرت اليه ؟ فقال : نحن قوم مهذبون فلا حاجة بنا الى من يهذبنا ، أو المراد فرحوا بما عند الرسل من العلم فرح ضحك واستهزاء به ، كأنه قال : استهزأوا بالبينات وبما جاؤوا به من علم الوحي ، فرحين مرحين ، انتهى : وقيل : الذين فرحوا بما عندهم من العلم هم الرسل ، وذلك أنهم لما كذبهم قومهم وأعلمهم الله بأنه مهلك الكافرين ومنجى المؤمنين ، ففرحوا بذلك .

﴿ وحق بهم ما كانوا به يستهزؤون ﴾ أي أحاط بهم جزاء استهزائهم ﴿ فلما رأوا بأسنا ﴾ أي عاينوا عذابنا النازل بهم في الدنيا ﴿ قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين ﴾ وهى الأصنام التى كانوا يعبدونها . ﴿ فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا ﴾ أي عند معاناة عذابنا لأن ذلك الإيمان ليس بالإيمان النافع لصاحبه ، فانه إنما ينفع الإيمان الاختياري لا الإيمان الاضطراري ، والفتاآت من قوله : فما أغنى إلى هنا أربع : الأولى لبيان عاقبة كثرتهم وشدة قوتهم ، أي أن عاقبتها خلاف وضد ما كانوا يؤملونه منها ، وهو نفعها ، فلم يترتب عليها ، بل ترتب عدمه ، كقولك : وعظته فلم يتعظ ، والثانية تشير لتفصيل ما أبهم وأجمل من عدم الإغناء ، والثالثة لمجرد التعقيب ، وجعل ما بعدها تابعا لما قبلها واقعاً عقبيه ، لأن مضمون قوله : فلما جاءتهم الخ أنهم كفروا فكأنه قيل • فكفروا ثم لما رأوا بأسنا آمنوا والرابعة للعطف على آمنوا ، كأنه قيل : فآمنوا فلم ينفعهم ، لأن النافع هو الايمان الاختياري^(١) .

﴿ سنة الله التى قد خلت ﴾ أي مضت ﴿ فى عباده ﴾ المعنى أن الله

سبحانه سن هذه السنة في الأمم كلها أنه لا ينفعهم الإيمان إذا رأوا العذاب ، وقد مضى بيان هذا مستوفى في سورة النساء وسورة التوبة ، وانتصاب سنة على أنها مصدر مؤكد لفعل محذوف بمنزلة وعد الله ، وما أشبهه من المصادر المؤكدة ، وقيل منصوب على التحذير أي احذروا يأهل مكة سنة الله في الأمم الماضية ، والأول أولى .

﴿ و ﴾ قد ﴿ خسر هنالك الكافرون ﴾ أي وقت رؤيتهم بأس الله ، ومعانيتهم لعذابه على أنه اسم مكان قد استعير للزمان كما سلف آنفا قاله أبو السعود وقال السمين : لا يحتاج لهذا ، بل يصح إبقاؤه على أصله ، قال الزجاج : الكافر خاسر في كل وقت ، ولكنه يتبين لهم خسرانهم إذا رأوا العذاب .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة حم السجدة

وتسمى سورة فصلت وسورة المصاييح وهي

أربع وخمسون آية

وقيل : ثلاث وخمسون ، قال القرطبي ، وهي مكية في قول الجميع . قال ابن عباس :
انها نزلت بمكة . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وأبو يعلى والحاكم وصححه .
وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي كلاهما في الدلائل . وابن عساكر عن جابر بن عبد الله
قال : اجتمع قريش يوماً فقالوا : انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر ، فليأت هذا الرجل
الطبي قد فرق جماعتنا ، وشتت أمرنا . وعاب ديننا فليكله . ولينظر ماذا يرد عليه ؟
فقالوا : ما نعلم أحداً غير عتبة بن ربيعة ، فقالوا : أنت يا أبا الوليد . فأتاه فقال يا محمد أنت
خير أم عبد الله ؟ أنت خير أم عبد المطلب ؟ فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال
فإن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة التي عبدت . وإن كنت تزعم أنك
خير منهم فتكلم حتى نسمع قولك . أما والله ما رأينا سخلة قط أشأم عليك قومك منك .
فرقت جماعتنا . وشتت أمرنا . وعبت ديننا . وفضحتنا في العرب حتى لقد طار فيهم أن
في قريش ساحرا ، وأن في قريش كاهنا . والله ما تنتظر إلا مثل صيحة المبلد . أن يقوم
بعضنا الي بعض بالسيوف . يا رجل إن كان إنما بك الحاجة جمعنا لك حتى تكون أغنى
قريش رجلا . وإن كان إنما بك الباءة فأختر أحد نساء قريش شئت فلنزوجك عشراً .
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . فرغت ؟ قال نعم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم
عليه وسلم : بسم الله الرحمن الرحيم : حم تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته
حتى بلغ : فإن أعرضوا فقل أنذركم طاعة مثل طاعة عاد وثمود . فقال عتبة
حسبك حسبك ما عندك غير هذا ؟ قال لا . فرجع الي قريش فقالوا : ما وراءك ؟ قال :
ما تركت شيئاً أرى أنكم تكلمونه به إلا كلمته . قالوا فهل أجابك ؟ قال : والدي
نصبها بنية ما فهمت شيئاً مما قال غير أنه أنذركم طاعة مثل طاعة عاد وثمود .

قالوا ويلك . يكلمك الرجل بالعربية . وما تدري ما قال . قال : لا والله ما فهمت شيئاً مما قال غير ذكر الصاعقة .

وأخرج أبو نعيم والبيهقي كلاهما في الدلائل عن ابن عمر قال : « لما قرأ النبي صلى الله عليه وسلم ، على عتبة بن ربيعة حم أتد أصحابه فقال : يا قوم أطيعوني في هذا اليوم وأعصوني بعده . فوالله لقد سمعت من هذا الرجل كلاماً ما سمعت أدنى قط كلاماً مثله : وما دريت ما أرد عليه . » وفي هذا الباب روايات تدل على اجتماع قريش وإرسالهم عتبة بن ربيعة . وتلاوته صلى الله عليه وسلم . أول هذه السورة عليه :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حم ﴿١﴾ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا أَأُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ۚ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٧﴾

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم حم ﴾ قد تقدم الكلام على إعرابه ومعناه في السورة التي قبل هذه السورة . فلا نعيده والله أعلم بمراده به ، وكذلك تقدم الكلام على معنى قوله : ﴿ تنزيل من الرحمن الرحيم ﴾ وإعرابه ، وإنما خص هذين الوصفين بالذكر لأن الخلق في هذا العالم كالمرضى المحتاجين ، والقرآن مشتمل على كل ما يحتاج إليه المرضى من الأدوية ، وعلى ما يحتاج إليه الأصحاء من الأغذية ، فكان أعظم النفع من الله على هذا العالم إنزال القرآن الناشئ عن رحمته ولطفه بخلقه .

﴿ كتاب فصلت ﴾ أي بينت وميزت باعتبار اللفظ والمعنى ، أو جعلت ﴿ آياته ﴾ أساليب وتفاصيل مختلفة ، من أحكام وأمثال ومواعظ وعجائب أحوال النبات والحيوان والإنسان ، وتهذيب الأخلاق ، ورياضة النفس وتواريخ الماضين ، وصفات التنزيه والتقديس ، وشرح غرائب الملكوت والملك ، وبالجملة فمن أنصف علم أنه ليس في بدء الخلق وغايته كتاب اجتمع فيه من العلوم المختلفة مثل ما في القرآن ﴿ فتبارك الله رب العالمين ﴾ وأحسن الخالقين .

قال قتادة : فصلت ببيان حلاله من حرامه ، وطاعته من معصيته وقال الحسن بالوعد والوعيد ، وقال سفيان : بالشواب والعقاب ، ولا مانع من الحمل على الكل ، وقرئ فصلت بالتخفيف أي فرقت بين الحق والباطل ، والجملة في محل رفع صفة للكتاب .

وانتصاب : ﴿ قرآنا عربياً ﴾ على الاختصاص أو على المدح قاله الأخفش أي أريد بهذا الكتاب المفصل قرآناً من صفته كيت وكيت أو على الحال أي فصلت آياته حال كونه قرآناً وقيل على المصدرية أي يقرؤه قرآناً وقيل مفعول ثان لفصلت ، وقيل : على إضمار فعل يدل عليه فصلت أي فصلناه قرآناً عربياً .

﴿ لقوم يعلمون ﴾ معانيه ويفهمونها ، وهم أهل اللسان العربي ، وانما خصوا بالذكر لأنهم يفهمونها بلا واسطة ، لكون القرآن بلغتهم ، وغيرهم لا يفهمها إلا بواسطتهم . قال الضحاك : أي يعلمون أن القرآن منزل من عند الله ، وقال مجاهد أي يعلمون أنه إله واحد في التوراة والانجيل واللام متعلقة بمحذوف صفة أخرى لقرآناً ، أو متعلقة بفصلت ، والأول أولى ، وكذلك :

﴿ بشيراً ونذيراً ﴾ صفتان أخريان لقرآن ، أو حالان من كتاب ، والمعنى بشيراً لأولياء الله ونذيراً لأعدائه وقرئ بالرفع على أنهما صفة لكتاب أو خبر عن محذوف .

﴿ فأعرض أكثرهم ﴾ أي الكفار عما اشتمل عليه من النذارة ﴿ فهم لا يسمعون ﴾ سماعاً ينتفعون به لإعراضهم عنه ﴿ وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه ﴾ الأكنة جمع كنان ، وهو الغطاء أي في أغطية مثل الكنانة التي فيها السهام ، فهي لا تفقه ما تقول من التوحيد ، ولا يصل إليها قولك ، قال مجاهد : الكنان للقلب كالجنة للنبل ، وقد تقدم بيان هذا في البقرة ﴿ وفي آذاننا وقر ﴾ أي صمم ، يمنع من استماع قولك ، وأصل الوقر الثقل ، قرئ بكسر الواو وقرئ بفتح الواو والقاف .

﴿ ومن بيننا وبينك حجاب ﴾ أي ستر ﴿ ومن ﴾ لا ابتداء الغاية ، والمعنى أن الحجاب ابتدئ منا وابتدئ منك ، فالمسافة المتوسطة بين جهتنا وجهتك مستوعبة بالحجاب ، لا فراغ فيها ، ولو قيل : بيننا وبينك حجاب ولم تأت لفظة من لكان المعنى أن الحجاب حاصل وسط الجهتين ، والمقصود المبالغة بالتباين المفرط ، فلذلك جيء بمن وهذه تمثيلات لنبو قلوبهم عن إدراك الحق وتقبله واعتقاده ، كأنها في غلف وأغطية تمنع من نفوذه فيها ، ومج أسماعهم له كأن بها صمماً عنه ، ولتباعد المذهبيين والدينين ، وامتناع المواصلات بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كأن بينهم وما هم عليه ، وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم وما هو عليه حجاباً ساتراً ، وحاجزاً منيعاً ، من جبل أو نحوه . فلا تلاقي ولا ترائي .

﴿ فاعمل ﴾ أي استمر على دينك وهو التوحيد ﴿ إننا عاملون ﴾ أي مستمرّون على ديننا ، وهو الإشراك ، وقال الكلبي : اعمل في هلاكنا فإننا عاملون في هلاكك ، وقال مقاتل : اعمل لإهلك الذي أرسلك فإننا نعمل لآلهتنا التي نعبدّها ، وقيل : فاعمل لآخرك فإننا عاملون لدنيانا ، أو فاعمل في إبطال أمرنا فإننا نعمل في إبطال أمرك ، ثم أمره الله سبحانه أن يجيب عن قولهم هذا فقال :

﴿ قل انما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد ﴾ أي إنما أنا كواحد منكم لولا الوحي ، ولم أكن من جنس مغاير لكم حتى تكون قلوبكم في أكنة مما أدعوكم اليه ، وفي آذانكم وقر ، ومن بيني وبينكم حجاب ، ولم أدعكم الى ما يخالف العقل ، وانما أدعوكم الى التوحيد .

قرأ الجمهور يوحى مبنياً للمفعول وقرأ الأعمش والنخعي مبنياً للفاعل ، أي يوحى الله إليّ ، قيل : ومعنى الآية أني لا أقدر على أن أحملك على الايمان قسراً فإنني بشر مثلكم ، ولا امتياز لي عنكم إلا أني أوحى إلي التوحيد ، والأمر به ، فعلى البلاغ وحده ، فان قبلتم رشدتم ؛ وإن أبيت

هلكتم ، وقيل ؛ المعنى أني لست بملك لا يرى ، وإنما أنا بشر مثلكم ، وقد أوحى إلي دونكم فصرت بالوحي نبياً ، ووجب عليكم اتباعي ، وقال الحسن في معنى الآية إن الله سبحانه علم رسوله صلى الله عليه وسلم كيف يتواضع .

﴿ فاستقيموا إليه ﴾ عذاه بإلى لتضمنه معنى : توجهوا والمعنى وجهوا استقامتكم إليه بالطاعة ، ولا تميلوا عن سبيله ﴿ واستغفروه ﴾ لما فرط منكم من الذنوب والشرك ، وما أنتم عليه من سوء العقيدة والعمل ثم هدد المشركين وتوعدهم فقال :

﴿ وويل للمشركين ﴾ ثم وصفهم بقوله : ﴿ الذين لا يؤتون الزكاة ﴾ أي يمنعونها ولا يخرجونها الى الفقراء ؛ وقال الحسن وقتادة : لا يقرون بوجوبها ، وقال الضحاك ومقاتل : لا يتصدقون ولا ينفقون في الطاعة وقيل معنى الآية لا يشهدون أن لا إله إلا الله لأنها زكاة الأنفس وتطهيرها ، قاله ابن عباس . وقال مجاهد : لا يزكون أعمالهم ، وكان يقال : الزكاة قنطرة الاسلام فمن قطعها نجا ، ومن تخلف عنها هلك .

وقال الفراء : كان المشركون ينفقون النفقات ويسقون الحجيج ويطعمونهم فحرموا ذلك على من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم ؛ فنزلت فيهم هذه الآية ، وإنما جعل منع الزكاة مقرونا بالكفر بالآخرة لأن أحب الشيء الى الانسان ماله ، وهو شقيق روحه ، فإذا بذله في سبيل الله فذلك أقوى دليل على استقامته ، وثباته وصدق نيته ، ونصوح طويته ، وما خدع المؤلفة قلوبهم إلا بلمظة من الدنيا ففرت عصبيتهم ، ولانت شكيمتهم ، وما ارتدت بنو حنيفة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلا بمنع الزكاة^(١) ، وتخويف شديد من منعها ، حيث جعل المنع من أوصاف المشركين وقرن الكفر بالآخرة .

﴿ وهم بالآخرة هم كافرون ﴾ معطوف على : لا يؤتون الزكاة ، داخل معه في حيز الصلة ؛ أي منكرون للآخرة جاحدون لها ، والمجيء بضمير

(١) سقط من الأصل : فتعصبت لهم الحروب وجاهدوا ، وفيه بعث للمؤمنين على أداء الزكاة .

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ قُلْ أَنتُمْ لَتَكْفُرُونَ
بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا
رُوسَىٰ مِنْ فَوْقَهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيَوْمٍ
أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾

الفصل لقصد الحصر .

﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون ﴾ أي غير مقطوع عنهم ، يقال : مننت الحبل إذا قطعته ، وقيل : الممنون المنقوص قاله ابن عباس وقطرب ، قال الجوهري : المن القطع ، ويقال النقص ومنه قوله تعالى ﴿ لهم أجر غير ممنون ﴾ وقيل غير محسوب ، وقيل معنى الآية لا يمن عليهم به لأنه إنما يمن بالفضل ، فأما الأجر فحق أداؤه ، وقال السدي نزلت في المرضى والزمنى والهرمى إذا ضعفوا عن الطاعة ، كتب لهم من الأجر مثل ما كانوا يعملون في الصحة .

ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم ، أن يوبخهم ويقرعهم فقال : ﴿ قل أأنكم ﴾ قرأ الجمهور بهمزتين الثانية بين بين ، وقرأ بهمزة بعدها ياء خفيفة ، وإن واللام إما لتأكيد الإنكار ، وقدمت الهمزة لاقتضائها الصدارة وإما للاشعار بأن كفرهم من البعد بحيث ينكر العقلاء وقوعه فيحتاج الى التأكيد .

﴿ لتكفروا بالذي خلق الأرض في يومين ﴾ والمعنى لتكفروا بمن شأنه هذا الشأن العظيم وقدرته هذه القدرة الباهرة ، قيل : اليومان هما يوم الأحد ويوم الاثنين ، وقيل : خلقهن في نوبتين كل نوبة أسرع مما يكون في يوم ، وقيل : المراد مقدار يومين لأن اليوم الحقيقي إنما يتحقق بعد وجود الأرض والسما ذكروهما تعليماً للأناة ، ولو أراد أن يخلقهما في لحظة لفعل .

﴿وتجعلون له أنداداً﴾ أي أضداد وشركاء والجملة معطوفة على تكفرون داخله تحت الاستفهام ، ذكر عنهم شيئين منكرين ، أحدهما الكفر بالله ، والثاني إثبات الشركاء له ﴿ذلك﴾ المتصف بما ذكر ﴿رب العالمين﴾ جمع عالم ، وهو ما سوى الله وجمع لاختلاف أنواعه بالياء والنون نغليباً للعقلاء من جملة العالمين ما تجعلونها أنداداً لله ، فكيف تجعلون بعض مخلوقاته شركاء له في عبادته ؟

﴿وجعل فيها رواسي﴾ أي جبلاً ثوابت ، معطوف على خلق وقيل مستأنفة لوقوع الفصل بينهما بالأجنبي ، والأول أولى ، لأن الجملة الفاصلة هي مقررمة لمضمون ما قبلها ، فكانت بمنزلة التأكيد ، ومعنى : ﴿من فوقها﴾ أنها مرتفعة عليها لأنها من أجزاء الأرض ، وإنما خالفها باعتبار الارتفاع فكانت من هذه الحيشة كالمغارة لها وإنما اختار إرساءها فوق الأرض لتكون منافع الجبال ظاهرة لطالبيها ، وليبصر أن الأرض والجبال أثقال على أثقال كلها مفتقرة الى ممسك ، وهو الله العزيز المتعال ، القادر المختار .

﴿وبارك فيها﴾ أي جعلها مباركة كثيرة الخير بما خلق فيها من المنافع للعباد قال السدي : أنبت فيها شجرها ﴿وقدر فيها أقواتها﴾ قال الحسن وعكرمة والضحاك : قدر فيها أرزاق أهلها ، وما يصلح لمعايشهم من التجارات والأشجار والمنافع ، جعل في كل بلدة ما لم يجعله في الأخرى ، ليعيش بعضهم من بعض بالتجارة والأسفار من بلد الى بلد وقيل قدر البرّ لأهل قطر من الأرض والتمر لأهل قطر آخر ، وكذلك سائر الأقوات .

قيل : إن الزرع أكثر الحرف بركة لأن الله وضع الأوقات في الأرض ، وقال ابن عباس أي شق الأنهار ، وغرس الأشجار ، ووضع الجبال ، وأجرى البحار ، وجعل في هذه ما ليس في هذه وفي هذه ما ليس في هذه ، وقال قتادة ومجاهد : خلق فيها أنهارها وأشجارها ودوابها .

﴿في﴾ تنمة ﴿أربعة أيام﴾ أي في يوم الثلاثاء والأربعاء باليومين

المتقدمين ، قاله الزجاج وغيره ، قال ابن الأنباري : ومثاله قول القائل : خرجت من البصرة إلى بغداد في عشرة أيام وإلى الكوفة في خمسة عشر يوماً ، أي في تمة خمسة عشر يوماً ، فيكون المعنى : إن حصول جميع ما تقدم من خلق الأرض وما بعدها في أربعة أيام كاملة مستوية بلا زيادة ولا نقصان ولولا هذا التقدير لكانت الأيام ثمانية يومان في الأول وهو قوله ﴿ خلق الأرض في يومين ﴾ ويومان في الأخير وهو قوله الآتي : ﴿ فقضاهن سبع سموات في يومين ﴾ وأربعة في الوسط .

وقال أبو البقاء : ولعل زيادة مدة الأرض على مدة السماء جرياً على ما يتعارف من أن بناء السقف أخف من بناء البيت ، وقيل : للتنبيه على أن الأرض هي المقصودة بالذات لما فيها من الثقلين وكثرة المنافع ، وقيل : لما فيها من الابتلاء بالمعاصي ، والمجاهدات والمجادلات والمعالجات .

عن ابن عباس أن اليهود أتت النبي صلى الله عليه وسلم ، فسألته عن خلق السموات والأرض ، فقال «خلق الله الأرض في يومين الأحد والاثنين ، وخلق الجبال وما فيهن من منافع يوم الثلاثاء وخلق يوم الأربعاء الشجر والحجر والماء والمدائن والعمران والخراب فهذه أربعة أيام فقال تعالى : قل أنتم لتكفرون إلى قوله للسائلين ، وخلق يوم الخميس السماء ، وخلق يوم الجمعة النجوم ، والشمس والقمر والملائكة إلى ثلاث ساعات بقين منه ، فخلق من أول ساعة من هذه الثلاث الآجال حين يموت من مات ، وفي الثانية ألقى فيها من كل شيء مما ينتفع به ، وفي الثالثة خلق آدم وأسكنه الجنة ، وأمر إبليس بالسجود له ، وأخرجه منها في آخر ساعة قالت اليهود ثم ماذا يا محمد ؟ قال : ثم استوى على العرش ، قالوا قد أصبت لو أتممت . قالوا ثم استراح ، فغضب النبي صلى الله عليه وسلم ، غضباً شديداً فنزل : ﴿ ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب ، فاصبر على ما يقولون ﴾ أخرجه ابن جرير والنحاس في ناسخه وأبو الشيخ في العظمة

والحاكم وصححه ، وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات .

ولكن في حديث مسلم عن أبي هريرة قال : أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بيدي فقال : « خلق الله التربة يوم السبت ، وخلق فيها الجبال يوم الأحد وخلق الشجر يوم الاثنين وخلق المكروه يوم الثلاثاء ، وخلق النور يوم الأربعاء وخلق الدواب يوم الخميس ، وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة في آخر الخلق فيما بين العصر الى الليل » . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس أيضاً قال : « إن الله خلق يوماً فسماه الأحد ثم خلق ثانياً فسماه الاثنين ، ثم خلق ثالثاً فسماه الثلاثاء ، ثم خلق رابعاً فسماه الأربعاء ثم خلق خامساً فسماه الخميس ، وذكر نحو ما تقدم » . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : « إن الله فرغ من خلقه في ستة أيام » وذكر نحو ما تقدم .

وانتصاب ﴿ سواء ﴾ على أنه مصدر مؤكد لفعل محذوف هو صفة للأيام ، أي استوت الأربعة سواء ، بمعنى استواء ، ويجوز أن يكون منتصباً على الحال من الأرض أو من الضمائر الراجعة إليها قرأ الجمهور ب نصب سواء ، وقرأ زيد بن علي والحسن وغيرهما بخفضه على أنه صفة للأيام وقرئ بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، قال الحسن : المعنى في أربعة أيام مستوية تامة لا تزيد ولا تنقص ، وقوله :

﴿ للسائلين ﴾ متعلق بسواء أي مستويان للسائلين أو بمحذوف كأنه قيل هذا الحصر للسائلين في كم يوم خلقت الأرض وما فيها ؟ أو متعلق بقدر أي قدر فيها أقواتها لأجل الطالبين المحتاجين إليها قال الفراء : في الكلام تقديم وتأخير ، والمعنى وقدر فيها أقواتها سواء للمحتاجين في أربعة أيام ، واختار هذا ابن جرير .

ثم لما ذكر سبحانه خلق الأرض وما فيها ذكر كيفية خلقه للسموات فقال ﴿ ثم استوى الى السماء ﴾ أي عمد وقصد نحوها قصداً سوياً ، وتعلقت إرادته

بخلقها ، قال الرازي : هو من قولهم ، استوى إلى مكان كذا إذا توجه إليه توجهاً لا يلتفت معه إلى عمل آخر ، وهو من الاستواء الذي هو ضد الاعوجاج ، ونظيره قولهم : استقام إليه ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فاستقيموا إليه ﴾ والمعنى ثم دعاه داعي الحكمة إلى خلق السموات بعد خلق الأرض وما فيها قال الحسن : المعنى صعد أمره إلى السماء ، ويفهم من هذه الآية أن خلق السماء كان بعد خلق الأرض وبه قال ابن عباس ، وقوله : ﴿ والأرض بعد ذلك دحاها ﴾ مشعر بأن خلق الأرض بعد خلق السماء .

والجواب أن الخلق ليس عبارة عن الإيجاد والتكوين فقط ، بل هو عبارة عن التقدير أيضاً ، فالمعنى قضى أن يحدث الأرض في يومين بعد إحداث السماء وعلى هذا يزول الاشكال ، وقال الشوكاني بعد ذكر هذا الاستشكال . إن ثم ليست للتراخي الزماني^(١) فالجمع ممكن بأن الأرض خلقها متقدم على خلق السماء ، ودحوها بمعنى بسطها هو أمر زائد على مجرد خلقها ، فهي متقدمة خلقاً متأخرة دحواً ، وهذا ظاهر انتهى .

ولعله يأتي عند تفسيرنا لقوله : ﴿ والأرض بعد ذلك دحاها ﴾ زيادة ايضاح للمقام إن شاء الله تعالى ، وقد تقدم هذا الجمع في سورة البقرة ولكن خلق ما في الأرض لا يكون إلا بعد دحوها فلاشكال باق ، وعلى هذا لا يتفصى عن الاشكال إلا بما ذكر في ثم ؛ أو أن بعد بمعنى قبل أو بمعنى مع .

﴿ وهي دخان ﴾ هو ما ارتفع من لهب النار ويستعار لما يرى من بخار الأرض ، قال المفسرون هذا الدخان هو بخار الماء ، وقياس جمعه في القلة أدخنة ، وفي الكثرة دخيان ، وهي من باب التشبيه الصوري لأن صورتها صورة الدخان في رأى العين ، وخص سبحانه الاستواء الى السماء مع كون الخطاب المترتب على ذلك متوجهاً إليها وإلى الأرض ، كما يفيد قوله : ﴿ فقال لها

(١) سقط من الأصل: بل للتراخي الرتبى فيندفع الإشكال من أصله ، وعلى تقدير ينه للتراخي الزماني

وللأرض : اثتيا طوعاً أو كرهاً ﴿ استغناء بما تقدم من ذكر تقديرها وتقدير ما فيها ، ومعنى اثتيا إفعلا ما أمر كما به ، وجيئاً به ، كما يقال : اثت ما هو الأحسن أي افعله ، وقيل : المعنى اثتيا على ما ينبغي أن تأتيا عليه من الشكل والوصف ، اثتي يا أرض مدحورة قراراً ومهاداً لأهلك ، واثتي يا سماء مقببة سقفاً لهم .

قال الواحدي : قال المفسرون : إن الله سبحانه قال : أما أنت يا سماء فأطلعي شمسك وقمرك ونجومك ، وأما أنت يا أرض فشققي أنهارك وأخرجي ثمارك ونباتك ، قاله ابن عباس ، قرأ الجمهور اثتيا أمراً من الاتيان وقرىء آتيا قالتا آتينا ، بالمد فيهما ، وهو من المؤاتاة وهي الموافقة أي لتوافق كل منكما الأخرى لما يليق بها ، واليه ذهب الرازي والزمخشري ، أو من الإيتاء وهو الإعطاء قاله ابن عباس ، فوزنه على الأول فاعلا كقاتلا ، وعلى الثاني أفعلا كأكرما ، وطوعاً وكرهاً مصدران في موضع الحال ، أي طائعتين أو مكرهتين ، وقرىء كرهاً بالضم .

قال الزجاج : أطيعا طاعة أو تكرهان كرهاً ، قيل : ومعنى هذا الأمر لهما التسخير والحصول والوقوع أي كونا فكانتا ، كما قال تعالى : ﴿ إنما أمرنا لشيء إذا أردناه أن نقول له : كن فيكون ﴾ فالكلام من باب التمثيل لتأثير قدرته واستحالة امتناعهما أو من باب الاستعارة التخيلية .

﴿ قالتا آتينا طائعتين ﴾ أي آتينا أمرك منقادين وجمعهما جمع من يعقل لخطابهما بما يخاطب به العقلاء ، وجمع الأمر لهما في الاخبار عنه لا يدل على جمعه في الزمان ، بل قد يكون القول لهما متعاقباً ، قال القرطبي : قال أكثر أهل العلم إن الله سبحانه خلق فيهما الكلام فتكلمتا كما أراد سبحانه ، وقيل هو تمثيل لظهور الطاعة منهما وتأثير القدرة الربانية فيهما ، والأول أولى ، قال أبو نصر السكسي فنطق من الأرض موضع الكعبة ، ونطق من السماء بحيالها ، فوضع الله فيه حرمة .

فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ۖ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾

﴿ فقضاهن سبع سموات ﴾ تفسير وتفصيل لتكوين السماء المجمل ، المعبر عنه بالأمر ، وجوابه ، لأنه فعل مرتب على تكوينهما أي خلقهن خلقاً إبداعياً وأتقن أمرهن حسبما تقتضيه الحكمة ، وأتمهن وفرغ منهن ، والضمير إما راجع إلى السماء على المعنى لأنها سبع سموات ، أو مبهم مفسر بسبع سموات ، وانتصاب سبع على التفسير أو على البدل من الضمير ، وقيل على أنه مفعول ثان لقضاهن لأنه مضمن معنى صيرهن ، وقيل على الحال أي قضاهن حال كونهن معدودات بسبع ، ويكون قضى بمعنى صنع ، وقيل على التمييز .

﴿ في يومين ﴾ الخميس والجمعة ، وفرغ منها في آخر ساعة منه ، وفيها خلق آدم . قال المحلي ولذلك لم يقل هنا سواء ، ووافق ما هنا آيات خلق السموات والأرض في ستة أيام ، والمعنى أنه مضى من المدة ما لو حصل هناك فلك وشمس لكان المقدار مقدراً بيومين ، والمشهور أن الأيام الستة بقدر أيام الدنيا ، وقيل بقدر ستة آلاف سنة حكاة القرطبي ، قال مجاهد ويوم من الستة الأيام ﴿ كآلف سنة مما تعدون ﴾ .

﴿ وأوحى في كل سماء أمرها ﴾ قال قتادة والسدي أي خلق فيها شمسها وقمرها ونجومها وأفلاكها ، وما فيها من الملائكة والبحار والبرد والثلج . وقيل المعنى أوحى فيها ما أَرَادَهُ وما أَمَرَهُ ، والايحاء قد يكون بمعنى الأمر كما في قوله ﴿ بأن ربك أوحى لها ﴾ وقوله ﴿ وإذ أوحيت إلى الحواريين ﴾ أي أمرتهم ، وهو أمر تكوين ، قال ابن عباس « والله على كل سماء بيت نحج إليه

وتطوف به الملائكة بحذاء الكعبة ، والذي في السماء الدنيا هو البيت المعمور .

﴿ وزينا السماء الدنيا ﴾ أي التي تلي الأرض ﴿ بمصابيح ﴾ أي بكواكب مضيئة متألئة عليها كتلألؤ المصابيح ، وفيه التفات الى نون العظمة لإبراز مزيد العناية بالتزيين المذكور .

﴿ وحفظاً ﴾ أي وحفظناها حفظاً أو خلقنا المصابيح زينة وحفظاً والأول أولى . قال أبو حيان في الوجه الثاني هو تكلف عدول عن السهل البين ، والمراد بالحفظ حفظها من الشياطين الذين يسترقون السمع ﴿ ذلك ﴾ أي ما وقع وتقدم ذكره ﴿ تقدير العزيز العليم ﴾ أي البليغ القدرة الكثير العلم .

﴿ فإن أعرضوا ﴾ عن التدبر والتفكر في هذه المخلوقات ، وعن الإيمان بعد هذا البيان - وفيه التفات من خطابهم بقوله أئتكم الى الغيبة لفعلهم الإعراض - فأعرض عن خطابهم ، وهو تناسب حسن .

﴿ فقل أنذرتكم ﴾ أي خوفتكم ، وصيغة الماضي للدلالة على تحقق الإنذار المنبئ عن تحقق المنذر به ﴿ صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ﴾ أي عذاباً مثل عذابهم ، والمراد بالصاعقة العذاب المهلك من كل شيء ، قال المبرد : الصاعقة المرة المهلكة لأي شيء كان ، والصاعقة في الأصل هي الصيحة التي يحصل بها الهلاك أو قطعة نار تنزل من السماء معها رعد شديد ، والمراد بها هنا مطلق العذاب . لكن بالنظر إلى الصاعقة الأولى ، وأما الثانية فالمراد بها حقيقتها ، قرأ الجمهور صاعقة بالألف في الموضعين ، وقرئ صعة فيهما ، وقد تقدم بيان معنى الصاعقة والصعة في البقرة .

﴿ إذ جاءتهم ﴾ أي إلى عاد وثمود ، وإنما خص هاتين القبيلتين لأن قريشاً كانوا يمرون على بلادهم ﴿ الرسل ﴾ أي هود وصالح ومن قبلهما وكان هود وصالح بين نوح وإبراهيم ، وليس بينهما غيرهما من الرسل ، وأن الذين تقدموا عليهما من الرسل أربعة : نوح وإدريس وشيث وآدم .

﴿ من بين أيديهم ومن خلفهم ﴾ أي أتوهم من كل جانب ، وعملوا

فيهم كل حيلة . فلم يروا منهم إلا الإعراض ، وعن الحسن أنذروهم من وقائع الله فيمن قبلهم من الأمم وعذاب الآخرة والظرف متعلق بأنذرتكم أو بالصاعقة لأنها بمعنى العذاب أو حال من صاعقة عاد ، وهذا أولى من الوجهين الأولين لأن الإنذار لم يقع وقت مجيء الرسل فلا يصح أن يكون ظرفاً له ، وكذلك الصاعقة لا يصح أن يكون الوقت ظرفاً لها، ومن في الموضعين متعلقة بجاءتهم أي من جميع جوانبهم أو من جهة الزمان الماضي بالإنذار عما جرى على الكفار أو من جهة المستقبل بالتحذير عما سيحقيق بهم من عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ،

وقيل : المعنى جاءتهم الرسل المتقدمون والمتأخرون على تنزيل مجيء كلامهم ودعوتهم إلى الحق منزلة مجيء أنفسهم ، فكأن الرسل قد جاؤوهم وخاطبواهم بقولهم :

﴿ أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴾ أي بأن لا تعبدوا على أنها مصدرية أو تفسيرية أو مخففة من الثقلة ، واسمها ضمير شأن محذوف ، ثم ذكر سبحانه ما أجابوا به الرسل فقال : ﴿ قَالُوا ﴾ أي عاد وثمود مخاطبين لهود وصالح : ﴿ لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ ﴾ أي لأرسل إلينا ﴿ مَلَائِكَةً ﴾ ولم يرسل إلينا بشراً من جنسنا ، ثم صرحوا بالكفر ولم يتلعثموا فقالوا : ﴿ فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ أي كافرون بما تزعمونه من أن الله أرسلكم إلينا لأنكم بشر مثلنا لا فضل لكم علينا ، فكيف اختصكم برسالته دوننا .

وقد تقدم دفع هذه الشبهة الدحضة التي جاؤوا بها في غير موضع ، وفيه تغليب المخاطب على الغائب ، فغلبوا هوداً وصالحاً على من قبلهما من الرسل ، فكأنهم قالوا : فإننا كافرون بكما وبِمَنْ دعوتمونا إلى الإيمان به ممن قبلكما من الرسل .

ولما ذكر عاد وثمود إجمالاً ذكر ما يختص بكل طائفة من الطائفتين تفصيلاً فقال :

فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مَنَاوَةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ
الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا
صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنَنْذِرَهُمْ عَذَابَ الْآخِرَةِ وَالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ
أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ
صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا بَيْنَ قَوْمٍ
وَيَوْمٍ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٨﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ
سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾

﴿ فَأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق ﴾ أي بغير استحقاق ذلك الذي وقع منهم من التكبر والتجبر ، ثم ذكر سبحانه بعض ما صدر عنهم من الأقوال الدالة على الاستكبار فقال : ﴿ وقالوا : من أشد منا قوة ﴾ وكانوا ذوي أجسام طوال وخلق عظيم وقوة شديدة ، فاعتزوا بأجسامهم حين تهددهم هود بالعذاب ، ومرادهم بهذا القول أنهم قادرون على دفع ما نزل بهم من العذاب ، وبلغ من قوتهم أن الرجل كان يقتلع الصخرة من الجبل بيده ، ويجعلها حيث يشاء ، فرد الله عليهم بقوله :

﴿ أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة ﴾ الاستفهام للاستنكار عليهم والتوبيخ ، أي أو لم يعلموا بأن الله أشد منهم قدرة وأوسع منهم قوة فهو قادر على أن ينزل بهم من أنواع عقابه ما شاء ، يقول كن فيكون ، وقال (خلقهم) ، ولم يقل خلق السموات والأرض ، لأن هذا أبلغ في تكذيبهم في ادعاء انفرادهم بالقوة ، فإنهم حيث كانوا مخلوقين فبالضرورة أن خالقهم أشد قوة منهم .

﴿وكانوا بآياتنا﴾ أي بمعجزات الرسل التي خصهم الله بها وجعلها دليلاً على نبوتهم ، أو بآياتنا التي أنزلناها على رسلنا أو بآياتنا التكوينية التي نصبناها لهم وجعلناها حجة عليهم ، أو بجميع ذلك ﴿يجحدون﴾ ثم ذكر الله سبحانه ما أنزل عليهم من عذابه فقال :

﴿فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً﴾ الصرصر الريح الشديدة الصوت من الصرة وهي الصيحة ، قال أبو عبيدة : معنى صرصر شديدة عاصفة ، وقال الفراء : هي الباردة تحرق كما تحرق النار ، وقال عكرمة وسعيد بن جبير وقتادة : هي الباردة ، وقال مجاهد : هي الشديدة السموم ، والأولى تفسيرها بالبرد لأن الصر في كلام العرب البرد ، قال ابن السكيت : صرصر يجوز أن يكون من الصر وهو البرد ، ومن صرصر الباب ، ومن الصرة وهي الصيحة ، ومنه ﴿وأقبلت امرأته في صرة﴾ .

ثم بين سبحانه وقت نزول ذلك العذاب عليهم فقال :

﴿في أيام نحسات﴾ أي نكدات مشئومات ذوات نحوس عليهم ، قال مجاهد وقتادة : كن آخر شوال من يوم الأربعاء إلى يوم الأربعاء ، وذلك ﴿سبع ليال وثمانية أيام حسوماً﴾ قيل : وما عذب قوم إلا في يوم الأربعاء ، وقيل : نحسات باردات ، حكاه الثعلبي ، وقيل : متتابعات ، وقيل : شداد ، وقيل : ذوات غبار وتراب ثائر ، لا يكاد يبصر فيه . قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ونحسات بإسكان الحاء على أنه جمع نحس ، وقرأ الباقر بكسرهما ، واختار أبو حاتم الأولى لقوله ﴿في يوم نحس مستمر﴾ ، واختار أبو عبيد الثانية ﴿لنذيقهم﴾ أي لكي نذيقهم .

﴿عذاب الخزي في الحياة الدنيا﴾ والخزي هو الذل والهوان بسبب ذلك الاستكبار ، وهو في الأصل صفة المعذب ، وإنما وصف به العذاب على الإسناد المجازي للمبالغة ، فهو من إضافة الموصوف إلى صفته أي العذاب الخزي ، ولهذا جاء :

﴿ولعذاب الآخرة أخزى﴾ أي أشد إهانة وذلاً ، فلو لم يكن من إضافة الموصوف إلى صفته لم يأت بلفظ أخزى الذي يقتضي المشاركة ﴿وهم لا ينصرون﴾ أي لا يمنعون من العذاب النازل بهم ولا يدفعه عنهم دافع ، ثم ذكر حال الطائفة الأخرى فقال :

﴿وأما ثمود فهديناهم﴾ أي بينا لهم سبيل النجاة ، ودللناهم على طريق الحق بإرسال الرسل إليهم ، ونصب الدلالات لهم من مخلوقات الله ، وإنزال الآيات التشريعية ، فانها توجب على كل عاقل أن يؤمن بالله ويصدق رسله .

قال الفراء معنى الآية دللناهم على مذهب الخير بإرسال الرسل . قال الشيخ أبو منصور يحتمل ما ذكر من الهداية التبيين ، وخلق الاهتداء فيهم ، فصاروا مهتدين ، ثم كفروا بعد ذلك وعقروا الناقة لأن الهدي المضاف الى الخلق يكون بمعنى البيان والتوفيق ، وخلق فعل الاهتداء ، فأما الهدي المضاف إلى الخلق فيكون بمعنى البيان لا غير .

وقال صاحب الكشف فيه فإن قلت أليس معنى قولك هديته جعلت فيه الهدي ؟ والدليل عليه قولك هديته فاهتدى بمعنى تحصيل البغية وحصولها ، كما تقول ردعته فارتدع فكيف ساغ استعماله في الدلالة المجردة ؟ قلت للدلالة على أنه مكنهم فأزاح عنهم ، ولم يبق لهم عذر فكأنه حصل البغية فيهم بتحصيل ما يوجبها ويقتضيها اهـ وإنما تمحل بهذا لأنه لا يتمكن من أن يفسره بخلق الاهتداء لأنه يخالف مذهب الفاسد .

قرأ الجمهور ثمود بالرفع ، ومنع الصرف ، وقرئ بالرفع والصرف ، وقرئ بالنصب والصرف ، وقرئ بالنصب والمنع ، فأما الرفع فعلى الابتداء وهو الفصيح وأما النصب فعلى الاشتغال ، وأما الصرف فعلى تفسير الاسم بالأب أو الحي ، وأما المنع فعلى تأويله بالقبيلة .

﴿فاستحبوا العمى على الهدى﴾ أي اختاروا الكفر على الإيمان قال أبو العالية اختاروا العمى على البيان ، وقال السدي اختاروا المعصية على الطاعة

﴿ فَأَخَذْتَهُمْ صَاعِقَةً الْعَذَابِ الْهَوْنِ ﴾ قد تقدم أن الصاعقة اسم للشيء المهلك لأي شيء كان ، والهون الهوان والإهانة ، فكأنه قال أصابهم مهلك العذاب ذي الهوان أو الإهانة ، ويقال عذاب هون أي مهين كقوله ﴿ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمَهِينِ ﴾ ﴿ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ الباء للسببية أي بسبب الذي كانوا يكسبونه ، أو بسبب كسبهم وهو شركهم وتكذيبهم صالحاً .

﴿ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ وهم صالح ومن معه من المؤمنين فإن الله نجاهم من ذلك العذاب وكانوا أربعة آلاف . ثم لما ذكر سبحانه ما عاقبهم به في الدنيا ذكر ما عاقبهم به في الآخرة فقال :

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ ﴾ وصفهم بكونهم أعداء الله مبالغة في ذمهم ، وقيل المراد بهم الكفار مطلقاً الأولين والآخرين ، أي أذكر لقريش المعاندين لك حال الكفار يوم القيامة ، لعلهم يرتدعوا وينزجروا ، ومعنى حشرهم إلى النار سوقهم إليها أو إلى موقف الحساب ، لأنه يتبين عنده فريق الجنة وفريق النار ، قرأ الجمهور يحشر بالتحية مضمومة ورفع أعداء على النيابة ، وقرأ نافع بالنون ونصب أعداء .

﴿ فَهُمْ يَوْمَئِذٍ يُرْمَوْنَ عَلَىٰ أَسْوَاقٍ ﴾ أي يحبس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا ويجتمعوا ، كذا قال قتادة والسدي وغيرهما ، وبه قال ابن عباس أي يستوقف سوابقهم حتى يلحق بهم تواليهم ، وهي عبارة عن كثرة أهل النار ، وأصله من وزعته أي كففته ، وقد سبق تحقيق معناه في سورة النمل مستوفى ، وعن ابن عباس قال : يدفعون ، وقيل يساقون .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاؤُوهَا ﴾ أي النار التي حشروا إليها وصاروا بحضرتها أو موقف الحساب و ﴿ مَا ﴾ مزيدة للتوكيد ﴿ شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ في الدنيا من المعاصي ، وفي كيفية هذه الشهادة ثلاثة أقوال ، أولها أن الله تعالى يخلق الفهم والقدرة والنطق فيها فتشهد كما يشهد الرجل على ما يعرفه ، ثانيها أنه تعالى يخلق في تلك الأعضاء الأصوات

والحروف الدالة على تلك المعاني ، ثالثها أن يظهر في تلك الأعضاء أحوال تدل على صدور تلك الأعمال من ذلك الإنسان ، وتلك الأمارات تسمى شهادات ، كما يقال : العالم يشهد بتغيرات أحواله على حدوثه .

وقال الكرخي : ينطقها الله تعالى كإنطاق اللسان فتشهد . وليس نطقها بأغرب من نطق اللسان عقلاً ، وإيضاحه أن البنية ليست شرطاً للحياة والعلم والقدرة فالله تعالى قادر على خلق العقل والقدرة والنطق في كل جزء من أجزاء هذه الأعضاء .

قال مقاتل تنطق جوارحهم بما كتمت ألسنهم من عملهم بالشرك . والمراد بالجلود هي جلودهم المعروفة في قول أكثر المفسرين . وقيل : المراد بها الجوارح مطلقاً ، فالعطف من قبيل عطف العام على الخاص . وقال السدي وعبيد الله بن أبي جعفر والفراء : أراد بالجلود الفروج وهو من باب الكنايات كما قال تعالى : ﴿ لا تواعدوهن سرّاً ﴾ أراد النكاح ، وقال تعالى : ﴿ أو جاء أحد منكم من الغائط ﴾ والمراد قضاء الحاجة ، وفي الحديث : « أول ما يتكلم من الآدمي فحذه وكفه » ، وعلى هذا التقدير تكون الآية وعيداً شديداً في إتيان الزنا لأن مقدمة الزنا إنما تحصل بالفخذ والأول أولى .

ووجه تخصيص الثلاثة بالشهادة دون غيرها مع أن الحواس خمسة ، وهي السمع والبصر والشم والذوق واللمس ، وآلة اللمس هي الجلد ، ما ذكره الرازي أن الذوق داخل في اللمس من بعض الوجوه ، لأن إدراك الذوق إنما يتأتى بأن تصير جلدة اللسان مماسة لجرم الطعام ، وكذلك الشم لا يتأتى حتى تصير جلدة الأنف مماسة لجرم المشموم فكانا داخليين في حس اللمس انتهى .

واذا عرفت من كلامه هذا وجه تخصيص الثلاثة بالذكر عرفت منه وجه تخصيص الجلود بالسؤال كما قال :

وَقَالُوا الْجُلُودُ هُمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ
خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَوُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ
وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَلِكُمْ
ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾

﴿ وقالوا لجلودهم ﴾ لأنها قد اشتملت على ثلاث حواس فكان تأتي المعصية من جهتها أكثر ، وأما على قول من قال بالفروج فوجه تخصيصها بالسؤال ظاهر ، لأن ما يشهد به الفرج من الزنا أعظم قبحاً وأجلب للخزي والعقوبة ، قيل : والمراد بالجلود هنا المعنى الأعم ، فليس في سؤالهم ترك سؤال السمع والبصر ، بل هما داخلان في الجلود بالمعنى الذي علمته ﴿ لم شهدتم علينا ﴾ سؤال توبيخ وتعجب من هذا الأمر الغريب لكونها ليست مما ينطق ولكونها كانت في الدنيا مساعدة لهم على المعاصي فكيف تشهد الآن عليهم فلذلك استغربوا شهادتها وخاطبوها بصيغة خطاب العقلاء ، لصدور ما يصدر من العقلاء عنها وهو الشهادة .

﴿ قالوا ﴾ مجيبين لهم معتردين : ﴿ أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء ﴾ مما ينطق من مخلوقاته ، فشهدنا عليكم بما عملتم من القبائح ، وقيل : المعنى ما نطقنا باختيارنا بل أنطقنا الله والأول أولى ، والمعنى أن نطقنا ليس بعجيب من قدرة الله الذي قدر على إنطاق كل حيوان .

﴿ وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون ﴾ قيل : هذا من تمام كلام الجلود ، وقيل إنه من كلام الملائكة ، وقيل : مستأنف من كلام الله ، والمعنى أن من قدر على خلقكم وإنشائكم ابتداء قدر على إعادتكم ورجعكم إليه ، ولعل صيغة المضارع مع أن هذه المحاورة بعد البعث والرجوع لما أن

المراد بالرجوع ليس مجرد الرد الى الحياة بالبعث بل ما يعمه ويعم ما يترتب عليه من العذاب الخالد المترقب عند المخاطبة ، فغلب المتوقع على الواقع .

﴿ وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ﴾ هذا تقرير لهم ، وتوبيخ من جهة الله سبحانه أو من كلام الجلود ، أي ما كنتم تستخفون عند الأعمال القبيحة وارتكاب الفواحش بالحيطان والحجب ، حذراً من شهادة الجوارح عليكم ، بل كنتم جاحدين بالبعث والجزاء أصلاً وهو قول أكثر العلماء . ولما كان الانسان لا يقدر على أن يستخفي من جوارحه عند مباشرة المعصية كان معنى الاستخفاء هنا ترك المعصية ، وقيل : معنى الاستتار الاتقاء أي ما كنتم تتقون في الدنيا أن تشهد عليكم جوارحكم في الآخرة ، فتركوا المعاصي خوفاً من هذه الشهادة ، ومعنى أن تشهد لأجل أن تشهد ، أو مخافة أن تشهد ، وقيل إن الاستتار مضمن معنى الظن ، أي وما كنتم تظنون أن تشهد وهو بعيد .

وأخرج عبد الرزاق وأحمد والنسائي وابن أبي حاتم والحاكم وصححه ، والبيهقي في البعث عن معاوية ابن حيدة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تحشرون ههنا وأوماً بيده الى الشام مشاة وركباناً وعلى وجوهكم ، وتعرضون على الله وعلى أفواهكم الفدام وأول ما يعرب عن أحدكم فخذة وكفه وتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما كنتم تستترون » الخ .

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود قال : « كنت مستتراً بأستار الكعبة فجاء ثلاثة نفر قرشي وثقفيان أو ثقفى وقرشيان ، كثير لحم بطونهم قليل فقه قلوبهم ، فتكلموا بكلام لم أسمعه فقال أحدهم : أترون أن الله يسمع كلامنا هذا ؟ فقال الآخر : إن لنا أنا إذا رفعنا أصواتنا سمعه ، وإننا إذا لم نرفعه لم يسمعه ، فقال الآخر انه إن سمع منه شيئاً سمعه كله ، قال : فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله : وما كنتم تستترون أن

بشهد عليكم سمعكم إلى قوله من الخاسرين» .

﴿ ولكن ظننتم ﴾ عند استئذانكم من الناس مع عدم استئذانكم من أعضائكم ﴿ أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون ﴾ من المعاصي فاجترأتم على فعلها قيل : كان الكفار يقولون : إن الله لا يعلم ما في أنفسنا ، ولكن يعلم ما نظهر دون ما نسر ، قال قتادة : الظن هنا بمعنى العلم ، وقيل : أريد بالظن معنى مجازي يعم معناه الحقيقي ، وما هو فوقه من العلم .

﴿ وذلكم ﴾ أي ما ذكر من ظنكم مبتدأ ﴿ ظنكم ﴾ بدل منه ﴿ الذي ظننتم بربكم ﴾ نعت والخبر ﴿ أرداكم ﴾ أي أهلككم وطرحكم في النار ، وقيل : ظنكم الخبر والموصول بدل أو بيان ، وأرداكم حال ، وقد مقدرة أو غير مقدرة ، أي ذلكم ظنكم مردياً إياكم .

﴿ فأصبحتم من الخاسرين ﴾ أي الكاملين في الخسران ، قال المحققون الظن قسمان أحدهما حسن والآخر قبيح ، فالحسن أن يظن بالله عز وجل : الرحمة والفضل والاحسان ، قال صلى الله عليه وسلم ، حكاية عن الله عز وجل : « أنا عند ظن عبدي بي »^(١) .

وأخرج أحمد وأبو داود والطيالسي وعبد بن حميد ومسلم وأبو داود وابن ماجة وابن حبان وابن مردويه عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله تعالى ، فإن قوما قد أرداهم سوء ظنهم بالله ، فقال الله وذلكم ظنكم »^(٢) الآية ، والظن القبيح أن يظن أنه تعالى يعزب عن علمه بعض هذه الأفعال ، وقال قتادة الظن نوعان مرد ومنج ، فالمنجي قوله : ﴿ إني ظننت أني ملاق حسابه ﴾ ، وقوله : ﴿ الذين يظنون أنهم ملاق ربهم ﴾ ، والمردى هو قوله : ﴿ وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم ﴾ ثم أخبر عن حالهم فقال :

(١) البخاري ٤٣١/٨ - أحمد ٣٦١٤/٣٨٧٥ والترمذي ١٥٢/٢ والطبري ١٠٩/٢٤ .

(٢) مسلم ٢٢٠٦/٤ .

فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا لَهُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾
 وَقَيِّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي
 أَمْرِ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا
 لَا تَسْمَعُوا هَذَا الْقُرْآنَ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا
 شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا
 دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءُ إِيْمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَمْجِدُونَ ﴿٢٨﴾

﴿ فَإِنْ يَصْبِرُوا ﴾ على النار ﴿ فالنار مَثْوًى لَهُمْ ﴾ أي محل استقرارهم وإقامتهم ، لا خلاص ولا خروج لهم منها ، صبروا أو لم يصبروا على كل حال ؛ وقيل : المعنى فَإِنْ يَصْبِرُوا في الدنيا على أعمال أهل النار فالنار مَثْوًى لَهُمْ ﴿ وان يستعتبوا فما هم من المعتبين ﴾ يقال أعتبني فلان أي أرضاني بعد إسقاطه إياي واستعتبته طلبت منه أن يرضى .

والمعنى أنهم إِنْ يَسْأَلُوا أَنْ يَرْجِعَ بِهِمْ إِلَى مَا يَحْبُونَ لَمْ يَرْجِعْ لَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَحِقُّونَ ذَلِكَ قَالَ الْخَلِيلُ تَقُولُ اسْتَعْتَبْتَهُ فَاَعْتَبَنِي أَيِ اسْتَرْضَيْتَهُ فَأَرْضَانِي وَمَعْنَى الْآيَةِ إِنْ يَطْلُبُوا الرِّضَا لَمْ يَقَعْ الرِّضَا عَنْهُمْ بَلْ لَا بَدَ لَهُمْ مِنَ النَّارِ قَرَأَ الْجُمْهُورُ يَسْتَعْتَبُوا بَفَتْحِ التَّحْتِيَةِ وَكَسْرِ التَّاءِ الْفَوْقِيَةِ الثَّانِيَةِ مَبْنِيًّا لِلْفَاعِلِ وَمِنَ الْمُعْتَبِينَ بَفَتْحِ الْفَوْقِيَةِ اسْمُ مَفْعُولٍ وَقَرِءَ يُسْتَعْتَبُوا مَبْنِيًّا لِلْمَفْعُولِ وَقَرِءَ مِنَ الْمُعْتَبِينَ اسْمُ فَاعِلٍ أَيِ أَنَّهُمْ إِنْ أَقَالَهُمُ اللَّهُ وَرَدَّهُمْ إِلَى الدُّنْيَا لَمْ يَعْمَلُوا بِطَاعَتِهِ كَمَا فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ ﴿ وَلَوْ رَدُّوا لَعَادُوا لَمَا نَهَوَا عَنْهُ ﴾ .

﴿ وقَيِّضْنَا ﴾ أصل التقييض التيسير والتهيئة أي هَيَّأْنَا ﴿ لَهُمْ ﴾ أي لكفار قريش وغيرهم ﴿ قُرَنَاءَ ﴾ من الشياطين بمنزلة الإخلاء لَهُمْ جمع قرين بمعنى نظير كقوله ﴿ ومن يعيش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين ﴾ وقال

الزجاج سببنا لهم قرناء حتى أضلوهم وقيل سلطنا عليهم قرناء وقيل قدرنا والمعاني متقاربة أي يلازمونهم ويستولون عليهم استيلاء القيض على البيض والقيض قشر البيض الأعلى وقيل إن الله قيض لهم قرناء في النار والأولى أن ذلك في الدنيا لقوله :

﴿ فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾ فان المعنى زينوا لهم ما بين أيديهم من أمور الدنيا وشهواتها وحلوهم على الوقوع في معاصي الله بانهماكهم فيها وزينوا لهم ما خلفهم من أمور الآخرة فقالوا لا بعث ولا حساب ولا جنة ولا نار وقال الزجاج ما بين أيديهم ما عملوه وما خلفهم ما عزموا على أن يعملوه وروي عنه أيضاً أنه قال ما بين أيديهم من أمر الآخرة وما خلفهم من أمر الدنيا بأن الدنيا قديمة ولا صانع إلا الطبايع والأفلاك .

﴿ وحق عليهم القول ﴾ أي وجب وثبت عليهم العذاب وتحقق مقتضاه وهو قوله سبحانه ﴿ لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين ﴾ ﴿ في أمم ﴾ أي كائنين في جملة أمم وقيل في بمعنى مع أي مع أمم من الأمم الكافرة ولا حاجة الى بدل حرف من حرف مع إمكان بقاءه على بابه والمعنى الأمم التي ﴿ قد خلت ﴾ ومضت ﴿ من قبلهم من الجن والإنس ﴾ على الكفر ﴿ إنهم كانوا خاسرين ﴾ تعليل لاستحقاقهم العذاب قاله الكرخي .

﴿ وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن ﴾ أي قال بعضهم لبعض لا تسمعوه ولا تنصتوا له وقيل المعنى لا تطيعوا يقال سمعت لك أي أطعتك ﴿ والغوا فيه ﴾ أي عارضوه باللغو والباطل أو ارفعوا أصواتكم ليتشوش القارئ له وقال مجاهد الغوا فيه بالمكاء والتصدي والتصفيق والتخليط في الكلام حتى يصير لغواً وقال الضحاك أكثروا الكلام ليختلط عليه ما يقول وقال أبو العالية قعوا فيه وعيروه قرأ الجمهور ألغوا بفتح الغين من لغا اذا تكلم باللغو وهو ما لا فائدة فيه أو من لغى بالفتح يلغي بالفتح أيضاً كما حكاه الأخفش وكان قياسه الضم كغزا يغزو ولكنه فتح لأجل حرف الحلق أو من لغا بكذا إذا رمى به فتكون في بمعنى الباء أي ارموا به وقرئ بضم الغين من لغا بالفتح يلغو كدعا

يدعوا وفي الحديث « فقد لغوت » وهذا موافق لقراءة غير الجمهور .

وقد تقدم الكلام في اللغو في سورة البقرة ﴿ لعلمكم تغلبون ﴾ أي لكي تغلبوا فيسكتوا ، عن ابن عباس قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو بمكة إذا قرأ القرآن يرفع صوته فكان المشركون يطردون الناس عنه ويقولون ﴿ لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلمكم تغلبون ﴾ وكان إذا أخفى قراءته لم يسمع من يحب أن يسمع القرآن فأنزل الله ﴿ ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها ﴾ » أخرجه ابن أبي حاتم .

ثم توعدهم سبحانه على ذلك فقال : ﴿ فلنذيقهن الذين كفروا عذاباً شديداً ﴾ هذا وعيد لجميع الكفار ويدخل فيهم الذين السياق معهم دخولاً أولاً ﴿ ولنجزينهم أسوأ الذي كانوا يعملون ﴾ أي ولنجزينهم في الآخرة جزاء أقبح أعمالهم التي عملوها في الدنيا قال مقاتل وهو الشرك وقيل المعنى أنه يجازيهم بمساوئ أعمالهم لا بمحاسنها كما يقع منهم من صلة الأرحام وإكرام الضيف لأن ذلك باطل لا أجر له مع كفرهم .

وفي هذا تعريض بمن لا يكون عند كلام الله المجيد خاضعاً خاشعاً متفكراً متدبراً وتهديد ووعد لمن يصدر عنه عند سماعه ما يشوش على القارئ ويخلط عليه القراءة فانظر الى عظمة القرآن وتأمل في هذا التغليظ والتشديد وأشهد لمن عظمه وأجل قدره وألقى إليه السمع وهو شهيد بالفوز العظيم والأجر الكبير .

﴿ ذلك ﴾ أي العذاب الشديد وأسوأ الجزاء ﴿ جزاء أعداء الله النار ﴾ بدل أو عطف بيان للجزاء المخبر به عن ذلك أو خبر مبتدأ مضمرة أو مبتدأ خبره ﴿ لهم فيها دار الخلد ﴾ أي دار الإقامة المستمرة التي لا انقطاع لها ولا انتقال عنها ﴿ جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون ﴾ أي يجزون جزاء بسبب جحدهم بآيات الله .

قال مقاتل يعني القرآن يجحدون أنه من عند الله وعلى هذا يكون التعبير عن اللغو بالجحد لكونه سبباً له إقامة للسبب مقام المسبب .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ ضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَاتَحْتَ أَقْدَامِنَا
 لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ
 الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ
 ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلَىٰ أَوَّكُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا نَشْتَهِي
 أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣١﴾ تَرْجَاؤُنَّ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾

﴿ وقال الذين كفروا ربنا أرننا للذين أضلانا من الجن والانس ﴾ قالوا هذا وهم في النار وذكره بلفظ الماضي تنبيهاً على تحقق وقوعه والمراد أنهم طلبوا من الله سبحانه أن يريهم من أضلهم من فريقي الجن والانس من الرؤساء الذين كانوا يزينون لهم الكفر ومن الشياطين الذين كانوا يسولون لهم ويحملونهم على المعاصي لأن الشيطان على ضريين جني وإنسي .

قال تعالى : ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن ﴾ وقال ﴿ الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس ﴾ قال علي بن أبي طالب - رضي الله عنه وأرضاه - هو ابن آدم الذي قتل أخاه وإبليس أي لأنهما سنا المعصية لبني آدم ، قرأ الجمهور : أرننا بكسر الراء وقرئ : بسكونها وهما لغتان بمعنى واحد .

وقال الخليل إذا قلت أرني ثوبك بالكسر فمعناه بصرنيه وبالسكون أعطنيه ﴿ نجعلهما تحت أقدامنا ﴾ في النار أي ندوسهما بأقدامنا لنشتفي منهما وليكونا وقاية بيننا وبينها فتخف عنا حرارتها نوع خفة و ﴿ ليكونا من الأسفلين ﴾ فيها مكاناً أو ليكونا من الأذلين المهانين وقيل ليكونا أشد عذاباً منا قال الزجاج ليكونا في الدرك الأسفل وممن هو دوننا ثم لما ذكر سوء عقاب الكافرين وما أعده لهم ذكر حسن حال المؤمنين وما أنعم به عليهم فقال :

﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ﴾ وحده لا شريك له .

﴿ ثم استقاموا ﴾ أي داموا وثبتوا على التوحيد ولم يلتفتوا إلى إله غير الله وثم للتراخي في الزمان من حيث أن الاستقامة أمر يمتد زمانه أفاده أبو السعود وقال الخطيب ثم لتراخي الرتبة في الفضيلة فإن الثبات على التوحيد ومصححاته إلى الممات في علو رتبته أمر لا يرام إلا بتوفيق ذي الجلال والاکرام قال جماعة من الصحابة والتابعين معنى الاستقامة إخلاص العمل لله تعالى .

وقال قتادة وابن زيد ثم استقاموا على طاعة الله وقال الحسن استقاموا على أمر الله فعملوا بطاعته واجتنبوا معاصيه وقال ابن عباس ومجاهد وعكرمة استقاموا على شهادة أن لا إله إلا الله حتى ماتوا وقال الثوري عملوا على وفاق ما قالوا وقال الربيع أعرضوا عما سوى الله وقال الفضيل بن عياض زهدوا في الفانية ورغبوا في الباقية .

عن أنس قال : « قرأ علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية قال : قد قالها ناس من الناس ثم كفر أكثرهم فمن قالها حين يموت فهو ممن استقام عليها » أخرجه الترمذي والنسائي والبزار وأبو يعلى وغيرهم وقال أبو بكر الصديق الاستقامة أن لا يشركوا بالله شيئاً وعنه قال لم يرجعوا إلى عبادة الأوثان قال أبو حيان قال ابن عباس نزلت هذه الآية في أبي بكر الصديق وعن بعض الصحابة قال ثم استقاموا على فرائض الله .

وعن عمر بن الخطاب قال : استقاموا بطاعة الله لم يروغوا وروغان الثعلب وأخرج أحمد وعبد بن حميد والدارمي والبخاري في تاريخه ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه وابن حبان عن سفيان بن عبد الله الثقفي أن رجلاً قال : « يا رسول الله مرني بأمر في الاسلام لا أسأل عنه أحداً بعدك . قال : قل

أمنت بالله ثم استقم . قلت : فما أتقي ؟ فأوماً إلى لسانه^(١) قال الترمذي : حسن صحيح .

﴿ تنزل عليهم الملائكة ﴾ من عند الله بالبشرى التي يريدونها من جلب نفع أو دفع ضرر أو رفع حزن قال ابن زيد ومجاهد تنزل عليهم عند الموت وقال مقاتل وقتادة إذا قاموا من قبورهم للبعث وقال وكيع البشرى في ثلاثة مواطن عند الموت وفي القبر وعند البعث قال البيضاوي أو في حياتهم فيما يعرض لهم من الأحوال تأتيهم بما يشرح صدورهم ويدفع عنهم الخوف والحزن .

﴿ أن لا تخافوا ولا تحزنوا ﴾ أن هي المخففة أو المفسرة أو الناصبة ولا على الوجهين الأولين ناهية وعلى الثالث نافية والمعنى لا تخافون مما تقدمون عليه من أمور الآخرة ولا تحزنوا على ما فاتكم من أمور الدنيا من أهل وولد ومال .

قال مجاهد لا تخافوا الموت ولا تحزنوا على أولادكم فإن الله خليفتمكم عليهم وقال عطاء لا تخافوا رد ثوابكم فإنه مقبول ولا تحزنوا على ذنوبكم فإنني أغفرها لكم والظاهر عدم تخصيص تنزل الملائكة عليهم بوقت معين وعدم تقييد نفي الخوف والحزن بحالة مخصوصة كما يشعر به حذف المتعلق في الجميع والخوف غم يلحق النفس لتوقع مكروه في المستقبل والحزن غم يلحقها لفوات نفع في الماضي .

﴿ وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون ﴾ بها على ألسنة الرسل في الدنيا فإنكم واصلون إليها مستقرون بها خالدون في نعيمها ثم بشرهم سبحانه بما هو أعظم من ذلك كله فقال ﴿ نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ أي نحن المتولون لحفظكم ومعونتكم في أمور الدنيا وأمور الآخرة ومن كان الله وليه فاز بكل مطلب ونجا من كل مخافة وقيل إن هذا من قول الملائكة .

قال مجاهد يقولون لهم نحن قرناؤكم الذين كنا معكم في الدنيا فإذا كان يوم القيامة قالوا لا نفارقكم حتى تدخلوا الجنة .

وقال السدي نحن الحفظة لأعمالكم في الدنيا وأنصاركم وأحباؤكم وأولياؤكم في الآخرة وقيل أنهم يشفعون لهم في الآخرة ويتلقونهم بالكرامة وقال النسفي رحمه الله كما أن الشياطين قرناء العصاة والكافرين فكذلك الملائكة أولياء المتقين وأحباؤهم في الدارين ﴿ ولکم فیہا ما تشہی أنفسکم ﴾ من صنوف الكرامات واللذات وانواع النعم ﴿ ولکم فیہا ما تدعون ﴾ أي تتمنون افتعال من الدعاء بمعنى الطلب .

وقد تقدم بيان معنى هذا في قوله ﴿ ولهم ما يدعون ﴾ مستوفى ، والفرق بين الجملتين أن الأولى باعتبار شهوات أنفسهم ، والثانية باعتبار ما يطلبونه ، أعم من أن يكون مما تشتهيه أنفسهم أولاً ، إذ لا يلزم أن يكون كل مطلوب مشتهى ، كالفضائل العلمية ، وإن كان الأول أعم أيضاً من وجه بحسب حال الدنيا فالمریض لا يريد ما يشتهيه ويضر مرضه إلا أن يقال التمني أعم من الارادة ، وقال الرازي : الأقرب عندي أن قوله : ﴿ ولکم فیہا ما تشہی أنفسکم ﴾ إشارة الى الجنة الروحانية المذكورة في قوله ﴿ دعواہم فیہا سبحانک اللہم ﴾ الآية .

وانتصاب ﴿ نزلًا من غفور رحيم ﴾ على الحال من الموصول ، أو من عائده أو من فاعل تدعون أو هو مصدر مؤكد لفعل محذوف أي أنزلنا نزلًا والنزل ما يعد لهم حال نزولهم من الرزق والضيافة ، قال النسفي : هو رزق النزول وهو الضيف ، وقد تقدم تحقيقه في سورة آل عمران قال أهل المعاني كل هذه الأشياء المذكورة في هذه الآية جارية مجرى النزل ، والكریم إذا أعطى هذا النزل ، فما ظنك بما بعده من الألفاظ والكرامة .

وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾
وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ
عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الذُّوْحِظُ
عَظِيمٌ ﴿٣٥﴾

﴿ ومن أحسن قولاً ممن دعا الى الله ﴾ أي الى توحيدهِ وطاعته قال الحسن هو المؤمن أجاب الله في دعوته ، ودعا الناس الى ما أجاب الله فيه من طاعته ﴿ وعمل صالحاً ﴾ في إجابته ﴿ وقال إنني من المسلمين ﴾ لربي ، وليس الغرض منه القول فقط بل يضم إليه اعتقاد القلب فيعتقد بقلبه دين الإسلام مع التلفظ ، أي قال ذلك ابتهاجاً بالإسلام وفرحاً به واتخاذاً له ديناً ومذهباً وتفاخراً به ، قال ابن سيرين والسدي وابن زيد : هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وروي هذا أيضاً عن الحسن .

وقال عكرمة وقيس بن أبي حازم ومجاهد : نزلت في المؤذنين قالت عائشة الداعي الى الله المؤذن والعمل الصالح ركعتان فيما بين الأذان والإقامة وعنهما قالت : ما أرى هذه الآية نزلت إلا في المؤذنين ، ويجاب عن هذا بأن الآية مكية والأذان إنما شرع بالمدينة والأولى حمل الآية على العموم كما يقتضيه اللفظ ، ويدخل فيها من كان سبباً لنزولها دخولاً أولياً ، فكل من جمع بين دعاء العباد الى ما شرعه الله وعمل عملاً صالحاً ، وهو تأدية ما فرضه الله عليه مع اجتناب ما حرمه عليه .

وكان من المسلمين ديناً لا من غيرهم ، فلا شيء أحسن منه ولا أوضح من طريقته ، ولا أكثر ثواباً من عمله ، قيل : وللدعوة الى الله مراتب الأولى

دعوة الأنبياء الى الله بالمعجزات ، وبالحجج والبراهين ، وبالسيف ، وهذه المرتبة لم تتفق لغير الأنبياء . المرتبة الثانية : دعوة العلماء الى الله بالحجج والبراهين فقط ، والعلماء أقسام علماء بالله وعلماء بصفات الله وعلماء بأحكام الله . المرتبة الثالثة دعوة المجاهدين الى الله بالسيف والسنان ، فهم يجاهدون الكفار حتى يدخلوا في دين الله وطاعته . المرتبة الرابعة دعوة المؤذنين الى الصلاة فهم أيضاً دعاة الى الله والى طاعته .

ثم بين سبحانه الفرق بين محاسن الأعمال ومساوئها فقال :

﴿ ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ﴾ أي لا تستوي الحسنة التي يرضى بها الله ويثيب عليها ، ولا السيئة التي كرهها الله ويعاقب عليها ، ولا وجه لتخصيص الحسنة بنوع من أنواع الطاعات وتخصيص السيئة بنوع من أنواع المعاصي ، فإن اللفظ أوسع من ذلك ، وقيل الحسنة التوحيد والسيئة الشرك وقيل الحسنة المدارة ، والسيئة الغلظة وقيل الحسنة العفو والسيئة الانتصار وقيل الحسنة العلم ، والسيئة الفحش ، وقيل غير ذلك . قال الفراء (لا) في (ولا السيئة) زائدة ، والجملة مستأنفة سيقّت لبيان محاسن الأعمال الجارية بين العباد ، إثر بيان محاسن الأعمال الجارية بين العبد وبين الرب ، ترغيباً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الصبر على أذية المشركين ، ومقابلة إساءتهم بالإحسان .

﴿ ادفع بالتي هي أحسن ﴾ استئناف مبين لحسن عاقبة الحسنة ، أي ادفع السيئة اذا جاءتك من المسيء بأحسن ما يمكن دفعها به من الحسنات ، ومنه مقابلة الاساءة بالإحسان ، والذنب بالعفو ، والغضب بالصبر ، والإغضاء عن الهفوات ، والاحتمال للمكروهات ، قال ابن عباس أمر المسلمين بالصبر عند الغضب ، والحلم عند الجهل : والعفو عند الاساءة ؛ فاذا فعلوا ذلك عصمهم الله من الشيطان وخضع لهم عدوهم كأنه ولي حميم وقال ابن عباس القه بالسلام وقال مجاهد وعطاء : بالتي هي أحسن يعني بالسلام إذا لقي من

يعاديه ، وقيل بالمصافحة عند التلاقي .

والمعنى أن الحسنة والسيئة متفاوتتان في أنفسهما ، فخذ بالحسنة التي هي أحسن من أختها إذا اعترضتك حسنتان فادفع بها السيئة التي ترد عليك من بعض أعدائك ، كما لو أساء إليك رجل إساءة فالحسنة أن تعفو عنه والتي هي أحسن أن تحسن إليه مكان إساءته إليك ، مثل أن يذمك فتمدحه ، أو يقتل ولدك فتفتدي ولده من يد عدوه ، ووضع التي هي أحسن موضع الحسنة ليكون أبلغ في الدفع بالحسنة ، لأن من دفع بالحسنى هان عليه الدفع بما دونها .

﴿ فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ﴾ هذه هي الفائدة الحاصلة من الدفع بالتي هي أحسن ، والمعنى أنك إذا فعلت ذلك الدفع صار العدو كالصديق ، والبعيد عنك كالقريب منك ، وقال مقاتل : نزلت في أبي سفيان ابن حرب كان معادياً للنبي صلى الله عليه وسلم ، فصار له ولياً بالمصاهرة التي وقعت بينه وبينه ، ثم أسلم فصار ولياً في الإسلام ، حميماً بالصهارة ، وقيل غير ذلك ، والأولى حمل الآية على العموم .

﴿ وما يلقاها ﴾ قال الزجاج : أي ما يلقي هذه الفعلة وهذه الحالة وهي دفع السيئة بالحسنة ﴿ إلا الذين صبروا ﴾ على كظم الغيظ ، واحتمال المكروه ، وتجرع الشدائد ، وترك الانتقام . وقال أنس : الرجل يشتمه أخوه فيقول : إن كنت صادقاً غفر الله لي ، وإن كنت كاذباً فغفر الله لك .

﴿ وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم ﴾ في الثواب والخير ، أو من الخلق الحسن وكمال النسب ، وهذا أنسب . وقال قتادة : الحظ العظيم الجنة أي ما يلقاها إلا من وجبت له الجنة ، وقيل الضمير في يلقاها عائد الى الجنة ، وقيل راجعة الى كلمة التوحيد ، قرأ الجمهور ؛ يلقاها من التلقية ، وقرئ تلاقها من الملاقاة ثم أمر سبحانه بالاستعاذة من الشيطان فقال :

وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ وَمِنْ
 آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ
 وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِتَاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنْ أَصْتَكَبُوا
 فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ
 أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيٍ
 الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَنْ يُلْقَى
 فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِيَّ آمَنًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ
 الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِنْتُ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾

﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ ﴾ النزغ شبهه النخس ، شبه به
 الوسوسة لأنها تبعث على الشر ، وجعل النزغ نازغاً على سبيل المجاز
 العقلي ، كقولهم جد جده ، أو أريد : وإما ينزغنك نازغ وصفاً للشيطان
 بالمصدر ، أو لتسويله ، والمعنى : وإن صرفك الشيطان عن شيء مما شرعه
 الله لك أو عن الدفع بالتي هي أحسن ﴿ فاستعذ بالله ﴾ من شره وامض على
 حلمك ولا تطعه .

وجملة . ﴿ إنه هو السميع العليم ﴾ تعليل لما قبلها ، أي السميع لكل
 ما يسمع ، ومنه استعاذتك ، والعليم بكل ما يعلم ومنه فعلك وأحوالك ، ومن
 كان كذلك فهو يعيذ من استعاذ به ، وقال هنا بزيادة هو وأل ، وفي الأعراف
 بدونهما ، لأن ما هنا متصل بمؤكد بالتكرار وبالحصر ، فناسب التأكيد بما
 ذكر ، وما في الأعراف خلي عن ذلك ، فجرى على القياس من كون المسند
 إليه معرفة والمسند نكرة .

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن سليمان بن صرد قال : استب

رجلان عند النبي صلى الله عليه وسلم فاشتد غضب أحدهما ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه الغضب : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، فقال الرجل : أمجنون تراني فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم ﴾ . »

ثم شرع سبحانه في بيان بعض آياته البديعة ، الدالة على كمال قدرته وقوة تصرفه للاستدلال بها على توحيده فقال :

﴿ ومن آياته الليل والنهار ﴾ في تعاقبهما على حد معلوم ، وتناوبهما على قدر مقسوم ﴿ والشمس والقمر ﴾ في اختصاصهما بسير مقدر ونور مقرر ، هذا رد على قوم عبدوا الشمس والقمر ، وإنما تعرض للأربعة مع أنهم لم يعبدوا الليل والنهار للإيدان بكمال سقوط الشمس والقمر عن رتبة السجودية لهما ، بنظمهما في المخلوقة في سلك الأعراض التي لا قيام لها بذاتها ، وهذا هو السر في نظم الكل في سلك آياته ، ثم لما بين أن ذلك من آياته نهاهم عن عبادة الشمس والقمر ، وأمرهم أن يسجدوا لله عز وجل فقال : ﴿ لا تسجدوا للشمس ولا للقمر ﴾ لأنها مخلوقان من مخلوقاته وإن كثرت منافعهما فلا يصح أن يكونا شريكين له في ربوبيته .

﴿ واسجدوا لله الذي خلقهن ﴾ أي هذه الأربعة المذكورة ، لأن جمع ما لا يعقل حكمه حكم جمع الاناث ، أو الآيات ، أو الشمس والقمر ، لأن الاثنين جمع عند جماعة من الأئمة . قال السمين : وإنما عبر عن الأربع بضمير الإناث مع أن فيها ثلاثة مذكرة والعادة تغليب المذكر على المؤنث ، لأنه لما قال : ومن آياته فنظم الأربعة في سلك الآيات صار كل واحد منها آية فعبّر عنها بضمير الاناث في قوله : خلقهن .

﴿ إن كنتم إياه تعبدون ﴾ قيل : كان ناس يسجدون للشمس والقمر كالصابئين في عبادتهم الكواكب ، ويزعمون أنهم يقصدون بالسجود لهما السجود لله ، فنهوا عن ذلك ، فهذا وجه تخصيص ذكر السجود بالنهاي عنه ،

وقيل : وجه تخصيصه أنه أقصى مراتب العبادة .

وهذه الآية من آيات السجود بلا خلاف ، وإنما اختلفوا في موضع السجدة فقليل : موضعها عند قوله ﴿ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ ، لأنه متصل بالأمر ، وقيل عند قوله ﴿ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴾ لأنه تمام الكلام ، وعن ابن عباس أنه كان يسجد بآخر الايتين من حَم السجدة ، وكان ابن مسعود يسجد بالأولى منهما ، وعن ابن عمر انه كان يسجد بالأولى ويسجد بالآية الأخيرة .

﴿ فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴾ أي إن استكبر هؤلاء عن الامثال فدعهم وشأنهم ، فإن الله عبادة يعبدونه كالملائكة يديمون التسبيح لله سبحانه بالليل والنهار ، أو يصلون له وهم لا يملون ولا يفترون ، يعني أن الله لا يعدم عابداً أبداً ، بل من خلقه من يعبد على الدوام ، والعندية عندية مكانة وتشريف ، وفي الحديث « أنا عند ظن عبدي بي » و « أنا عند المنكسرة قلوبهم » .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الدَّالَّةُ عَلَى قُدْرَتِهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ ﴾ أنك الخطاب لكل من يصلح له ، أو لرسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ تَرَى الْأَرْضَ ﴾ أي بعضها بحاسة البصر ، وبعضها بعين البصيرة ، قياساً على ما أبصرت ﴿ خَاشِعَةً ﴾ يابسة لا نبات فيها ، متطامنة ، وهي أنسب بلفظ خاشعة ، والخاشعة اليابسة الجذبة الجامدة ، وقيل : الغبراء التي لاتنبث ، قال الأزهري . اذا يبست الأرض ولم تمطر ، قيل : قد خشعت والخشوع التذلل والتقاصر ، فاستعير لحال الأرض اذا كانت قحطة لا نبات فيها ، كما وصفها بالهمود في قوله تعالى ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً ﴾ وهو خلاف وصفها بالاهتزاز والربو كما قال : ﴿ فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ ﴾ أي ماء المطر أو غيره ﴿ اهْتَزَّتْ ﴾ تحركت بالنبات حركة عظيمة كثيرة سريعة فكان كمن يعالج ذلك بنفسه ، يقال اهتز الانسان إذا تحرك .

﴿ وَرَبَّتْ ﴾ انتفخت وعلت قبل أن تنبت ، قاله مجاهد وغيره أي تصدعت عن النبات بعد موتها ، وعلى هذا ففي الكلام تقديم وتأخير

وتقديره : ربت واهتزت وقيل : الاهتزاز والربو قد يكونان قبل خروج النبات من الأرض وقد يكونان بعده ، ومعنى الربو لغة الارتفاع . كما يقال للموضع المرتفع : ربوة وراية فالنبات يتحرك للبروز ثم يزداد في جسمه بالكبر طولاً وعرضاً .

وقد تقدم تفسير هذه الآية مستوفى في سورة الحج ، وقيل اهتزت استبشرت بالمطر وربت انتفخت بالنبات ، وقيل تشققت فارتفع ترابها . وخرج منها النبات وسما في الجو مغطياً لوجهها ، وتشعبت عروقه وغلظت سوقه ، فصار يمنع سلوكها على ما كانت فيه من السهولة ، وتزخرفت بذلك النبات كأنها بمنزلة المختال في زيه . لما كانت قبل ذلك كالذليل ، وقرأ أبو جعفر وخالد ربأت ﴿ إن الذي أحيأها لمحيي الموق ﴾ بالبعث والنشور ﴿ إنه على كل شيء قدير ﴾ لا يعجزه شيء كائناً ما كان .

﴿ إن الذين يلحدون في آياتنا ﴾ أي يميلون عن الحق والاستقامة في آياتنا بالطعن والتحريف ، والتأويل الباطل ، واللغو فيها ، والإلحاد الميل والعدول ومنه اللحد في القبر ، لأنه أميل الى ناحية منه ، يقال : الحد في دين الله أي مال عنه وعدل ، ويقال لحد وهو لغة فيه ، وقد تقدم تفسير الإلحاد ، ويقال : ألحد الحافر ولحد إذا مال عن الاستقامة فحفر في شق ، فاستعير لحال الأرض اذا كانت ملحودة ، فاستعير للانحراف في تأويل آيات القرآن عن جهة الصحة والاستقامة ، قال مجاهد : معنى الآية يميلون عن الايمان بالقرآن ، وقال أيضاً : يميلون عند تلاوة القرآن بالمكاء والتصدية ، واللغو والغناء ، وقال قتادة يكذبون في آياتنا ، وقال السدي : يعاندون ويشاقون ، وقال ابن زيد : يشركون ، والمعاني متقاربة ، وقال ابن عباس في الآية : هو أن يضع الكلام في غير موضعه .

﴿ لا يخفون علينا ﴾ بل نحن نعلمهم فنجازيهم بما يعملون ، قيل : نزلت في أبي جهل ، ثم بين كيفية الجزاء والتفاوت بين المؤمن والكافر فقال : ﴿ أفمن يلقى في النار خيراً . أم من يأتي آمناً يوم القيامة ﴾ الاستفهام

للتقرير ، والغرض منه التنبيه على أن الملحدين في الآيات يلقون في النار ، وأن المؤمنين بها يأتون آمين يوم القيامة .

وظاهر الآية العموم اعتباراً بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فهو تمثيل للكافر والمؤمن ، وقيل : المراد بمن يلقى في النار أبو جهل ، ومن يأتي آمناً النبي صلى الله عليه وسلم ، وقيل حمزة وقيل عمر بن الخطاب وقيل : أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي ، وقال ابن عباس : أبو جهل ابن هشام ومن يأتي آمناً يوم القيامة أبو بكر الصديق . وعن بشير بن تميم قال : نزلت في أبي جهل وعمار بن ياسر ، وعن عكرمة مثله ، وكان الظاهر أن يقال أم من يدخل الجنة ؟ وعدل عنه للتصريح بأمنهم ، وانتفاء الخوف عنهم ، قاله الكرخي . وترسم (أم) مفصلة من (من) اتباعاً للمصحف الامام .

﴿ اعملوا ﴾ هذا أمر تهديد ، أي اعملوا من أعمالكم التي تلقىكم في النار ﴿ ما شئتم ﴾ فهو مجازيكم على كل ما تعملون ، قال الزجاج : لفظه لفظ الأمر ، ومعناه الوعيد ، وقال ابن عباس : هذا لأهل بدر خاصة ﴿ إنه بما تعملون بصير ﴾ لا تخفى عليه منه خافية فيجازيكم عليه .

﴿ إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم ﴾ الجملة مستأنفة مقررة لما قبلها ، وخبر إن محذوف أي إن الذين كفروا بالقرآن لما جاءهم يجازون بكفرهم ، أو هالكون . أو يعذبون . وقيل هو قوله : ﴿ ينادون من مكان بعيد ﴾ وهذا بعيد وإن رجحه أبو عمرو بن العلاء ، وذكر السمين في خبر إن أعارب ووجوهاً لا نطول بذكرها ﴿ وإنه ﴾ أي القرآن الذي كانوا يلحدون فيه ﴿ لكتاب عزيز ﴾ عن أن يعارض أو يطعن فيه الطاعنون منيع عن كل عيب محمي بحماية الله وقيل : عديم نظيره ، وذلك أن الخلق عجزوا عن معارضته ، وقيل : أعزه الله بمعنى منعه أي ممتنع عن قبول الإبطال والتحريف .

ثم وصفه بأنه حق لا سبيل للباطل إليه بوجه من الوجوه فقال :

لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَا يَقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَءِتَانِجْمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْوَهُمْ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾

﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴾ قال الزجاج : معناه أنه محفوظ من أن ينقص منه فيأتيه الباطل من بين يديه ، أو يزداد فيه فيأتيه الباطل من خلفه . وبه قال قتادة والسدي ومعنى الباطل على هذه الزيادة والنقصان ، وقال مقاتل لا يأتيه التكذيب من الكتب التي قبله ، ولا يجيء من بعده كتاب فيبطله ، وبه قال الكلبي وسعيد بن جبير ، وقيل : الباطل هو الشيطان أي لا يستطيع أن يزداد فيه ولا ينقص منه . وقيل : لا يزداد فيه ولا ينقص منه ، لا من جبريل ولا من محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل لا يأتيه التبديل والتناقض بوجه من الوجوه ، وقيل : لا يأتيه الباطل عما أخبر فيما تقدم من الزمان ، ولا فيما تأخر ، وقيل : إن الباطل لا يتطرق إليه ولا يجد إليه سبيلاً من جهة من الجهات ، حتى يصل إليه والمعنى كل ما فيه حق وصدق ، ليس فيه ما لا يطابق الواقع ، والعموم أولى .

﴿ تنزيل من حكيم حميد ﴾ خبر مبتدأ محذوف ، أو صفة أخرى لكتاب ثم سلى سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم عما كان يتأثر له من أذية الكفار فقال ﴿ ما يقال لك ﴾ من هؤلاء الكفار من وصفك بالسحر والكذب والجنون ﴿ إلا ﴾ مثل ﴿ ما قد قيل للرسول من قبلك ﴾ فإن قومهم كانوا يقولون لهم مثل

ما يقول لك هؤلاء ، وقيل : المعنى ما يقال لك من التوحيد وإخلاص العبادة لله إلا ما قد قيل للرسول من قبلك . فإن الشرائع كلها متفقة على ذلك وقيل هو استفهام أي أي شيء يقال لك .

﴿ إن ربك لذو مغفرة ﴾ لمن يستحق مغفرته من الموحدين الذين تابعوك وتابعوا من قبلك من الأنبياء ﴿ وذو عقاب أليم ﴾ للكفار المكذبين المعادين لرسول الله ، وقيل : لذو مغفرة للأنبياء وذو عقاب لأعدائهم .

﴿ ولو جعلناه قرآناً أعجمياً ﴾ أي لو جعلنا هذا القرآن الذي تقرأه على الناس بغير لغة العرب ، ولا حجة فيه لأبي حنيفة رحمه الله في جواز الصلاة إذا قرأ بالفارسية كما زعمه النسفي وغيره لأن التركيب خارج مخرج الفرض والتقدير دون الوقوع والتحقيق ﴿ لقالوا لولا فصلت آياته ﴾ أي بينت بلغتنا فإننا عرب لا نفهم لغة العجم والاستفهام في قوله ﴿ أعجمي وعربي ﴾ للإنكار وهو من جملة قول المشركين ، أي لقالوا : كلام أعجمي ورسول عربي ، والأعجمي الذي لا يفصح سواء كان من العرب أو من العجم ، والياء للمبالغة في الوصف كأحمري ، وليس النسب فيه حقيقياً .

وقال الرازي في لوامحه : هي كياء كرسي ويختي ، وفرق بينهما الشيخ ، والأعجم ضد الفصيح وهو الذي لا يبين كلامه ، ويقال للحيوان غير الناطق أعجم ، وقيل المراد هلا فصلت آياته فجعل أعجمياً لإفهام العجم وبعضها عربياً لإفهام العرب ، قال ابن عباس : يقول لو جعلنا القرآن أعجمياً ولسانك يا محمد عربي لقالوا أعجمي وعربي تأتينا به مختلفاً أو مختلطاً هلاً بينت آياته فكان القرآن مثل اللسان يقول ، فلم نفعل لثلاثاً يقولوا فكانت حجة عليهم قرأ أبو بكر وحزمة والكسائي أعجمي بهمزيين مخففتين وقرىء بهمزة واحدة وقرىء بتسهيل الثانية بين بين :

ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم أن يجيبهم فقال :

﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ﴾ أي يهتدون به إلى الحق ويستشفون

به من كل شك وشبهة ، ومن الأسقام والآلام ، قال الشهاب : رد عليهم بأنه هاد لهم ، شاف لما في صدورهم ، كاف في دفع الشبهة فلذا ورد بلسانهم معجزاً بيناً في نفسه مبيناً لغيره .

﴿ والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر ﴾ أي صمم عن سماعه ، وفهم معانيه ولهذا تواصلوا باللغو فيه والموصول مبتدأ خبره في آذانهم وقر ، والموصول الثاني عطف على الأول ، وقر عطف على هدى ، عند من جوز العطف على معمولي عاملين مختلفين والتقدير هو للأولين هدى وشفاء وللآخرين وقر في آذانهم .

﴿ وهو عليهم عمى ﴾ وذلك لتصامهم عن سماعه ، وتعاميهما عما يريهم من الآيات ، قال قتادة : عموا عن القرآن وصموا عنه . وقال السدي عميت قلوبهم عنه والمعنى وهم عليه ذو عمى ، ووصف بالمصدر للمبالغة ، وقيل : المعنى والوقر عليهم عمى ، أي ظلمة وشبهة ، قرأ الجمهور عمى بفتح الميم منونة على أنه مصدر .

وقرأ ابن عباس وعبد الله بن الزبير وعمرو بن العاص وابن عمر بكسر الميم منونة على أنه إسم منقوص على أنه وصف به مجازاً . وقرىء بكسر الميم وفتح الياء على أنه فعل ماض ، واختار أبو عبيدة القراءة الأولى .

﴿ أولئك ﴾ أي الذين لا يؤمنون ﴿ ينادون من مكان بعيد ﴾ مثل حالهم باعتبار عدم فهمهم للقرآن بحال من ينادي من مسافة بعيدة لا يسمع من يناديه منها ، قال الفراء : تقول للرجل الذي لا يفهم كلامك أنت تنادي من مكان بعيد ، ففيه استعارة تمثيلية ، وقال الضحاك ينادون يوم القيامة بأقبح أسمائهم من مكان بعيد وقال مجاهد من مكان بعيد من قلوبهم .

﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ﴾ كلام مستأنف يتضمن تسليية رسول الله صلى الله عليه وسلم عما كان يحصل له من الاغتمام بكفر قومه

وطعنهم في القرآن فأخبره أن هذه عادة قديمة في أمم الرسل ، غير مختصة بقومك ، فإنهم يختلفون في الكتب المنزلة اليهم ، والمراد بالكتاب التوراة وضمير فيه راجع اليه وقيل يرجع الى موسى والأول أولى ، يعني قال بعضهم هو حق ، وقال بعضهم هو باطل ، كما اختلف قومك في كتابك فمصدق به ومكذب .

﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك ﴾ في تأخير العذاب عن المكذبين بالقرآن من أمتك وإمهالهم كما في قوله : ﴿ ولكن يؤخرهم الى أجل مسمى ﴾ ﴿ لقضى بينهم ﴾ بتعجيل العذاب لمن كذب منهم قال قتادة أي سبق لهم من الله حين وأجل هم بالغوه .

﴿ وإنهم لفي شك منه مريب ﴾ أي من كتابك المنزل عليك وهو القرآن ومعنى الشك المريب الموقع في الريبة والشديد الريبة ، وقيل : إن المراد اليهود ، وأنهم في شك من التوراة مريب ، والأولى أولى .

﴿ من عمل صالحاً فلنفسه ﴾ أي من أطاع الله وآمن برسله ولم يكذبهم فثواب ذلك راجع إليه ، ونفعه خاص به ﴿ ومن أساء فعليها ﴾ أي عقاب إساءته عليه لا على غيره ﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾ فلا يعذب أحداً إلا بذنبه ، ولا يقع منه الظلم لأحد ، كما في قوله سبحانه ﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئاً ﴾ وظلام صيغة نسب كتمار ، ويقال ، وخباز ، لا صيغة مبالغة ، وهذا التقرير أحسن من غيره .

وقال الكرخي : ليس بذني ظلم أشار به الى أن ظلام ليس على بابيه ، وقد تقدم الكلام على معنى هذه الآية في سورة آل عمران عند قوله : ﴿ وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾ وفي سورة الأنفال أيضاً ثم أخبر سبحانه أن علم القيامة ووقت قيامها لا يعلمه غيره فقال :

﴿إِلَيْهِ يُرْدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامٍهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أَنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَاءِى قَالُوا أَدْذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَخِصٍ ﴿٤٨﴾﴾

﴿إليه يرد علم الساعة﴾ أي علم سؤال الساعة ، أي السؤال عنها أي علم جواب هذا السؤال ، فإذا وقع السؤال عنها وجب على المسؤول أن يرد علمها إليه لا إلى غيره ، وأخذ الحصر من تقديم المعمول ، وقد روي أن المشركين قالوا : يا محمد إن كنت نبياً فخيرنا متى تقوم الساعة ، فنزلت هذه الآية ﴿وما تخرج من ثمرات من أكمامها﴾ ما نافية ومن الأولى للاستغراق ؛ والثانية لابتداء الغاية وقيل ما موصولة في محل جر عطفاً على الساعة أي علم الساعة وعلم التي تخرج ، والأولى أولى .

والأكمام جمع كم بكسر الكاف ، وهو روي الثمرة ، ويطلق على كل ظرف لمال أو غيره ، قال أبو عبيدة أكمامها أوعيتها ، وهي ما كانت فيه الثمرة واحداً : كم وكمة ، قال الراغب : الكم ما يغطي اليد من القميص وما يغطي الثمرة وجمعه أكمام ، وهذا يدل على أن الكم بضم الكاف لأنه جعله مشتركاً بين كم القميص وكم الثمرة ، ولا خلاف في كم القميص أنه بالضم ، ويمكن أن يقال : إن في الكم الذي هو وعاء الثمر لفتين ، قرأ الجمهور من ثمرة بالافراد على إرادة الجنس ، وقرئ بالجمع للاختلاف في أنواع الثمار ، قال قتادة من أكمامها حين تطلع .

﴿وما تحمل من أنثى﴾ حملاً في بطنها ﴿ولا تضع﴾ ذلك الحمل ﴿إلا بعلمه﴾ أي علم الله سبحانه والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال ، أي ما

يحدث شيء من خروج ثمرة ولا حمل حامل ولا وضع واضع في حال من الأحوال ملابساً لشيء من الأشياء إلا كائناً بعلم الله ، فإنه يرد علم الساعة كما يرد إليه علم هذه الأمور الحادثة ، وفيه دليل على أن أصحاب الكشف والكهان وأهل النجوم لا يمكنهم القطع والجزم في شيء مما يقولونه البتة ، وإنما غايته ادعاء ظن ضعيف ، أو وهم خفيف ، قد لا يصيب ، وعلم الله هو العلم اليقين المقطوع به الذي لا يشركه فيه أحد .

﴿ ويوم يناديهم ﴾ أي ينادي الله سبحانه المشركين ، وذلك يوم القيامة فيقول لهم : ﴿ أين شركائي ﴾ الذين كنتم تزعمون أنهم شركائي في الدنيا ، من الأصنام وغيرها ، فادعوهم الآن فليشفعوا لكم ، أو يدفعوا عنكم العذاب وهذا على طريقة التهكم بهم والتقريع لهم ، وأضافهم إلى نفسه على زعمهم الباطل ، والعامل في يوم محذوف أي اذكر .

﴿ قالوا ﴾ أي يقولون ، فالماضي بمعنى المضارع ﴿ آذناك ﴾ أي أعلمناك قال ابن عباس يقال : آذن يؤذن إذا أعلم أي أعلمناك وقيل : أخبرناك ، قال النسفي : وهو الأظهر إذ الله تعالى كان عالماً بذلك ، وإعلام العالم محال إنما الأخبار للعالم بالشيء يتحقق بما علم به إلا أن يكون المعنى إنك علمت من قلوبنا الآن أنا لا نشهد تلك الشهادة الباطلة لأنه إذا علمه من نفوسهم فكأنهم أعلموه انتهى .

﴿ ما منا من شهيد ﴾ يشهد بأن لك شريكاً ، وذلك أنهم لما عاينوا القيامة تبرأوا من الشركاء ، وتبرأت منهم تلك الأصنام التي كانوا يعبدونها ، وقيل : لهم بأنهم كانوا محقين ، والأول أولى .

﴿ وضل عنهم ﴾ أي غاب وزال وبطل في الآخرة ﴿ ما كانوا يدعون من قبل ﴾ في الدنيا من الأصنام ونحوها ﴿ وظنوا ما لهم من محيص ﴾ أي أيقنوا وعلموا أنه لا مهرب لهم من العذاب ، يقال : حاص يحيص حصاً إذا هرب وقيل ، الظن على معناه الحقيقي لأنه بقي لهم في تلك الحال ظن ورجاء ، والأول أولى ، ثم ذكر سبحانه بعض أحوال الإنسان فقال :

لَا يَسْمَعُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَتَوْسَّ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَيْنَ آذَقْنَاهُ
 رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لِيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَيْنَ رُجِعْتُ
 إِلَىٰ رَبِّي إِنْ لِيٰ عِنْدَهُ لِلْحُسْنِ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ
 غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَا بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ
 عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مِنْ أَضَلِّ مِمَّنْ
 هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ
 أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِيعَةٍ مِّنْ لِّقَاءِ
 رَبِّهِمْ أَلَّا يَنْهَضُوا بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴿٥٤﴾

﴿ لا يسأم الإنسان من دعاء الخير ﴾ أي لا يمل من دعاء الخير لنفسه وجلبه اليه ، ولا يزال يسأل ربه المال والخير هنا المال والصحة والسلطان والرفعة . قال السدي : والإنسان هنا يراد به الكافر ، وقيل الوليد بن المغيرة ، وقيل عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأمية بن خلف والأولى حمل الآية على العموم باعتبار الغالب ، فلا ينافية خروج خلص العباد ، وقرأ ابن مسعود من دعاء المال .

﴿ وإن مسه الشر ﴾ أي البلاء والشدة والفقر والمرض ﴿ فيتوس ﴾ من روح الله ﴿ قنوط ﴾ من رحمته ، واليأس من صفة القلب وهو قطع الرجاء ، والقنوط إظهار آثاره على ظاهر البدن ، والحال المحلي يقتضي ترادفهما ، وبه قال بعضهم فالجمع بينهما للتأكيد ، وقيل يؤوس من إجابة دعائه قنوط بسوء الظن بربه ، وقيل يؤوس من زوال ما به من المكروه ، قنوط بما يحصل له من ظن دوامه وهما صيغتا مبالغة تدلان على أنه شديد اليأس ، عظيم القنوط وبولغ فيه من طريقين من طريق بناء فعول كما أشرنا ومن طريق التكرير مع ما في القنوط

من ظهور أثر اليأس لأن القنوط أن يظهر عليه أثر اليأس فيتضاءل وينكسر أي يقطع الرجاء من فضل الله وروحه ، وهذا صفة الكافر بدليل قوله تعالى ﴿ إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾ .

﴿ ولئن ﴾ لام قسم ﴿ أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ﴾ أي ولئن آتيناه خيراً وعافية وغنى من بعد شدة ومرض وفقر ﴿ ليقولن ﴾ جواب القسم ، وجواب الشرط محذوف لسد جواب القسم مسده ﴿ هذا لي ﴾ أي هذا شيء أستحقه على الله لرضاه بعملتي ، فظن أن تلك النعمة التي صار فيها وصلت إليه باستحقاقه لها ، ولم يعلم أن الله يتلي عبادته بالخير والشر ليتبين له الشاكر من الجاحد ، والصابر من الجزع .

قال مجاهد : معناه هذا بعلمي وأنا محقوق به ، أو هذا لي دائماً لا يزول ﴿ وما أظن الساعة قائمة ﴾ أي ما أظنها تقوم كما أخبرنا بها الأنبياء أو لست على يقين من البعث ، وهذا خاص بالكافرين والمنافقين ، فيكون المراد بالإنسان المذكور في صدر الآية الجنس باعتبار غالب أفرادهم ، لأن اليأس من رحمة الله والقنوط من خيره والشك في البعث لا يكون إلا من الكافرين أو المتزلزلين في الدين المتظاهرين بالاسلام المبطنين للكفر .

﴿ ولئن ﴾ لام قسم ﴿ رجعت الى ربي ﴾ على تقدير صدق ما أخبرنا به الأنبياء من قيام الساعة وحصول البعث والنشور ﴿ إن لي عنده للحسنى ﴾ جواب القسم لسبقه الشرط ، أي للحالة الحسنى من النعمة والكرامة ، فظن أنه استحق خير الدنيا بما فيه من الخير واستحق خير الآخرة بذلك الذي اعتقده في نفسه ، وأثبتته لها ، وهو اعتقاد باطل ، وظن فاسد ، وقد تضمن الكلام مبالغات حيث أكد بالقسم ، وإن ، وتقديم الظرفين ، والعدول الى صيغة التفضيل اذ الحسنى تأنيث الأحسن .

﴿ فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ﴾ أي لنخبرنهم به يوم القيامة وهذا جواب لقول الكافر ولئن رجعت الى آخره ، أي ليس الأمر كما يزعم وإنما له

العقاب الشديد كما قال ﴿ ولنقذيقنهم من عذاب غليظ ﴾ بسبب ذنوبهم ، واللام هذه والتي قبلها هي الموطئة للقسم .

﴿ وإذا أنعمنا على الإنسان ﴾ أي على هذا الجنس من حيث هو ، باعتبار غالب أفرادہ ﴿ أعرض ﴾ عن الشكر ﴿ ونأى بجانبه ﴾ أي ترفع عن الانقياد للحق ، وتكبر وتجبر ، وثنى عطفه متبخترأ ، كناية عن الإعراض . وقيل : انحرف عنه أو ذهب بنفسه وتباعد عنه بكليته تكبرأ والجانب هنا مجاز عن النفس ، ونأى بمعنى بعد ، يقال : نأيت وتنايت أي بعدت وتباعدت والمنتأى الموضع البعيد ، وقرىء ناء بالألف قبل الهمزة .

﴿ وإذا مسه الشر ﴾ أي البلاء والجهد والفقر والمرض ﴿ فذو ﴾ أي فهو ذو ﴿ دعاء عريض ﴾ أي كثير ، والعرب تستعمل العرض والطول في الكثرة مجازاً يقال : أطال فلان في الكلام وأعرض في الدعاء إذا أكثر ، فهو مستعار مما له عرض متسع ، للإشعار بكثرته ، فإن العريض يكون ذا أجزاء كثيرة ، والاستعارة تخيلية ، شبه الدعاء بأمر يوصف بالامتداد ، ثم ثبت له العرض قاله الكرخي والطول أطول الامتدادين ، فإذا كان عرضه كذلك فما ظنك بطوله ، أفاده أبو السعود .

والمعنى أنه إذا مسه الشر تضرع الى الله واستغاث به أن يكشف عنه ما نزل به ، واستكثر من ذلك فذكره في الشدة ونسيه في الرخاء ، واستغاث به عند نزول النعمة ، وتركه عند حصول النعمة وهذا صنيع الكافرين ، ومن كان غير ثابت القدم من المسلمين قال الشهاب فإن قلت : كونه يدعو دعاء طويلاً عريضاً ينافي وصفه قبل هذا بأنه يؤوس قنوط ، لأن الدعاء فرع الطمع والرجاء ، وقد اعتبر في القنوط ظهور أثر اليأس ، فظهور ما يدل على الرجاء يأباه ، قلت : يمكن دفع المنافاة بحمله على عدم اتحاد الأوقات والأحوال انتهى ، أو لعل هذا شأن بعض غير البعض الذي حكى عنه اليأس والقنوط ، أو شأن الكل في بعض الأوقات ، ذكره أبو السعود .

ثم رجع سبحانه الى مخاطبة الكفار ومحتاجتهم فقال : ﴿ قل أرأيتم ﴾ أي أخبروني عن حالتكم العجيبة ، واستعمال أرأيتم بمعنى الاخبار مجاز ، ووجه المجاز أنه لما كان العلم بالشيء سبباً للإخبار عنه أو الإبصار به طريقاً الى الإحاطة به علماً ، والى صحة الإخبار عنه استعملت الصيغة التي لطلب العلم او لطلب الإبصار في طلب الخير لاشتراكهما في الطلب ، ففيه مجازان : استعمال رأى التي بمعنى علم أو أبصر في الإخبار ، واستعمال الهمزة التي هي لطلب الرؤية في طلب الإخبار قاله الشهاب .

﴿ إن كان ﴾ القرآن ﴿ من عند الله ﴾ كما قلت ﴿ ثم كفرتم به ﴾ أي كذبتكم به ، ولم تقبلوه ولا عملتم بما فيه ﴿ من أضل ممن هو في شقاق ﴾ خلاف ﴿ بعيد ﴾ عن الحق أي لا أحد أضل منكم لفرط شقاوتكم ، وشدة عداوتكم والأصل أي شيء أضل منكم فوضع من هو في شقاق موضع الضمير لبيان حالهم في المشاقة ، وأنها السبب الأعظم في ضلالهم .

﴿ سنريهم آياتنا ﴾ أي دلالات صدق القرآن وعلامات كونه من عند الله ﴿ في الآفاق ﴾ جمع أفق بضم الهمزة والفاء ، كذا قال أهل اللغة ، كأعناق وعنق ، وهو الناحية ، ونقل الراغب أنه يقال . أفق بفتحهما كجبل وأجبال ، والمعنى سنريهم آياتنا في النواحي على ما أخبرهم به النبي صلى الله عليه وسلم من الحوادث الآتية وآثار النوازل الماضية ، وما يسر الله له ولخلفائه من الفتوح والظهور على ممالك الشرق والغرب على وجه خارق للعادة ، وقال القرطبي أي علامات وحدانيتنا وقدرتنا في الآفاق ، يعني خراب منازل الأمم الماضية وربوع القرون الخالية .

﴿ وفي أنفسهم ﴾ قال ابن زيد : في الآفاق آيات السماء وفي أنفسهم حوادث الأرض وقال مجاهد في الآفاق فتح القرى التي يسر الله فتحها لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللخلفاء من بعده وأنصار دينه في آفاق الدنيا ، وبلاد المشرق والمغرب عموماً ، وفي ناحية المغرب خصوصاً من الفتوح التي لم

يتيسر مثلها لأحد من خلفاء الأرض قبلهم ، أو من الظهور على الجبابرة والأكاسرة وتغليب قليلهم على كثيرهم ، وتسليط ضعفائهم على أقويائهم ، وإجرائه على أيديهم أموراً خارجة عن المعهود ، خارقة للعادات ، وفي أنفسهم فتح مكة ورجح هذا ابن جرير ، واختاره المنهال بن عمرو والسدي .

وقال قتادة والضحاك في الآفاق يعني أقطار السموات والأرض من الشمس والقمر والنجوم والليل والنهار والرياح والأمطار والرعد والبرق والصواعق والنبات والأشجار والجبال والبحار وغير ذلك وفي أنفسهم من لطيف الصنعة وبديع الحكمة ، حتى في سبيل الغائط والبول فإن الرجل يأكل ويشرب من مكان واحد ، ويتميز ذلك خارجاً من مكانين ، وحتى في عينيه اللتين ينظر بهما من الأرض الى السماء مسيرة خمسمائة عام ، وفي أذنيه اللتين يفرق بهما بين الأصوات المختلفة وغير ذلك من بديع حكمة الله تعالى فيه .

فإن قيل : قوله سنريهم الخ يقتضي أنه الى الآن ما أطلعهم على تلك الآيات وسيطلعهم عليها بعد ذلك ، مع أن الآيات المذكورة قد اطلعوا عليها وهي منهم نصب العين ، والجواب أن المراد على هذا سنريهم أسرار آياتنا الخ فالآيات وإن اطلعوا عليها بالفعل لكن سرها وحكمها لم يطلعوا عليه قاله الكرخي .

وعن ابن جريج في الآية قال أمسك المطر عن الأرض كلها . وفي أنفسهم قال البلاء التي تكون في أجسامهم وقال ابن عباس كانوا يسافرون فيرون آثار عاد وثمود فيقولون والله لقد صدق محمد صلى الله عليه وسلم ، وما أراهم في أنفسهم قال الأمراض وقيل في كونهم نطفاً الى غير ذلك من انتقال أحوالهم ، كما تقدم في سورة المؤمنين بيانه .

﴿ حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ الضمير راجع الى القرآن وقيل الى الإسلام الذي جاءهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل الى ما يريهم الله

ويفعل من ذلك وقيل الى محمد صلى الله عليه وسلم أنه الرسول الحق من عند الله ، والأول أولى .

وقد حرف الوجودية هذه الآية الكريمة بحملها على اتحاد الخلق والخالق تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً ﴿ أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ﴾ الجملة مستأنفة لتوبيخهم وتقريعهم على ترددهم في شأن القرآن ، وعنادهم المحوج إلى إيراد وعدم اكتفائهم بإخباره تعالى ، والمعنى أولم يغنهم ، ولم يكفهم عن الآيات الموعودة ، المينة لحقية القرآن أنه سبحانه شهيد على جميع الأشياء وقيل المعنى أولم يكف بربك يا محمد أنه شاهد على أعمال الكفار ، والباء زائدة، وهذا هو الراجح وقيل : أولم يكف بربك شاهداً على أن القرآن منزل من عنده ؟ والشهيد بمعنى العالم أو هو بمعنى الشهادة التي هي الحضور ، قال الزجاج : ومعنى الكفاية وهنا أن الله عز وجل قد بين لهم ما فيه كفاية في الدلالة والمعنى أولم يكف ربك أنه على كل شيء شهيد شاهد للأشياء لا يغيب عنه شيء ما .

﴿ ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم ﴾ أي في شك من البعث والحساب والثواب والعقاب ﴿ ألا إنه ﴾ تعالى ﴿ بكل شيء محيط ﴾ أحاط علمه بجميع المعلومات وأحاطت قدرته بجميع المقدورات يقال أحاط يحيط إحاطة وحیطة ، وفي هذا وعيد شديد ، لأن من أحاط بكل شيء لا يخفى عليه شيء جازى المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته^(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الشورى

وتسمى سورة حم عسق وسورة شورك من غير ألف ولأم وسورة حم عسق وهي ثلاثة وخمسون آية.

وهي مكية كلها، قاله ابن عباس وابن الزبير، وكذا قال الحسن وعكرمة وعطاء وجابر، وروى عن ابن عباس وقتادة أنها مكية إلا أربع آيات منها نزلت بالمدينة ﴿قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى﴾ الك آخرها، وقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ونعيم ابن حماد والخطيب عن أرطاة ابن المنذر حديثا طويلا في تفسير حم عسق وهو حديث لا يصح ولا يثبت وما اظنه إلا من الموضوعات المكذوبات، والحامل لواضعه عليه ما يقع لكثير من الناس من عداوة الدول والحط من شأنهم والأزراء عليهم وكذا ما أخرجه أبو يعلى وابن عساکر عن أبي معاوية قال السيوطي بسند ضعيف وقلت بل بسند موضوع ومتن مكذوب.

وقد قال ابن كثير في الحديث الأول: إنه غريب عجيب منكر وفي الثاني إنه أغرب من الأول وعندك أنهما موضوعان مكذوبان.

حَمَّ ١ عَسَقَ ٢ كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ٣

قد تقدم الكلام في أمثال هذه الفواتح قال عبدالمؤمن : سألت الحسن ابن الفضل لم قطع حم من عَسَقَ ؟ ولم يقطع كَهَيْعَصَ ؟ فقال : لأنها بين سور أولها حم ، فجرت مجرى نظائرها قبلها وبعدها ، فكان حم مبتدأ وعَسَقَ خبره ولأنها عدتا آيتين وعدت أخواتها مثل كَهَيْعَصَ ، والمر والمص آية واحدة وقيل : إن الحروف المعجمة كلها في المعنى واحد من حيث إنها أس البیان وقاعدة الكلام ، ذكره الجرجاني .

وقيل : لأن أهل التأويل لم يختلفوا في كَهَيْعَصَ وأخواتها أنها حروف التهجي لا غير ، واختلفوا في حم فقيل : معناها حم أي قضى ما هو كائن ففصلوا بين ما يقدر فيه فعل وبين ما لا يقدر ، وقيل إن ح حلمه ، وم مجده وع علمه ، وس سناؤه وق قدرته ، أقسم الله بها ، وقيل : هما اسمان للسورة وقيل : اسم واحد لها ، وقيل غير ذلك مما هو متكلف ومتعسف لم يدل عليه دليل ، ولا جاءت به حجة ولا شبهة ، وقد ذكرنا قبل هذا ما روى في ذلك مما لا أصل له ، والحق ما قدمناه لك في فاتحة سورة البقرة .

﴿ كذلك ﴾ كلام ، مستأنف غير متعلق بما قبله ، أي مثل ذلك الإيجاء الذي أوحى إلى سائر الرسل من كتب الله المنزلة عليهم المشتملة على الدعوة إلى التوحيد ، والنبوة والبعث ، وهذا هو وجه المشابهة ﴿ يوحى إليك ﴾ يا محمد في هذه السورة وقيل : إن حم عَسَقَ أوحيت إلى من قبله من الأنبياء فتكون الإشارة بقوله : كذلك إليها والأول أولى .

﴿ وإلى الذين من قبلك ﴾ أي إلى الرسل ﴿ الله ﴾ كأنه قيل من يوحى فقال الله ﴿ العزيز ﴾ في ملكه الغالب بقره ﴿ الحكيم ﴾ بصنعه المصيب في قوله وفعله .

لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ
 مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا
 إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ
 وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِنُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ
 حَوْلَهَا وَنُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴿٧﴾

﴿ له ما في السموات وما في الأرض ﴾ ذكر سبحانه لنفسه هذا الوصف وهو ملك جميع ما فيها لدلالته على كمال قدرته ، ونفوذ تصرفه في جميع مخلوقاته ﴿ وهو العلي ﴾ ذاته وشأنه على خلقه ﴿ العظيم ﴾ الكبير مكانه وبرهانه .

﴿ تكاد السموات يتفطرن من فوقهن ﴾ قرأ الجمهور تكاد بالفوقية وكذلك تتفطرن قرؤوه بالفوقية مع تشديد الطاء وقرأ نافع والكسائي وابن وثاب يكاد يتفطرن بالتحتية فيهما ، وقرأ أبو عمرو والمفضل وأبو بكر وأبو عبيد ينفطرن بالنون من الانفطار كقوله تعالى ﴿ إذا السماء انفطرت ﴾ والتفطر التشقق ، قال الضحاك والسدي : يتفطرن يتشققن من عظمة الله وجلاله ، وقيل : المعنى يكاد كل واحدة منها ينفطر فوق التي تليها من قول المشركين اتخذ الله ولداً ، وقيل : معنى من فوقهن من فوق الأرضين والأول أولى .

وقيل : يتشققن لكثرة ما على السموات من الملائكة ، وقيل : يكدن يتفطرن من علو شأن الله وعظمته ، ويدل عليه مجيئه بعد قوله ﴿ العلي العظيم ﴾ ومن لا ابتداء الغاية يتبدى التفطر من جهة الفوق ، وقال الأخفش الصغير إن

الضمير يعود إلى جماعات الكفار ، أي من فوقهم وهو بعيد جداً ووجه تخصيص جهة الفوق أنها أقرب إلى الآيات العظيمة ، والمصنوعات الباهرة أو على طريق المبالغة كأن كلمة الكفار مع كونها جاءت من جهة التحت أثرت في جهة الفوق ، فتأثيرها في جهة التحت بالأولى .

﴿ والملائكة يسبحون بحمد ربهم ﴾ كلام مستأنف أي ينزهونه عما لا يليق به ولا يجوز عليه متلبسين بحمده وقيل : إن التسييح موضوع موضع التعجب ، أي يتعجبون من جرأة المشركين على الله ، وقيل ؛ المعنى يصلون بأمر ربهم قاله السدي .

﴿ ويستغفرون ﴾ أي يشفعون ﴿ لمن في الأرض ﴾ من عباد الله المؤمنين ، كما في قوله : ﴿ ويستغفرون للذين آمنوا ﴾ ويطلبون هدايتهم ، وقيل الاستغفار منهم بمعنى السعي فيما يستدعي المغفرة لهم وتأخير عقوبتهم طمعاً في إيمان الكافر ، وتوبة الفاسق ، فتكون الآية عامة كما هو ظاهر اللفظ غير خاصة بالمؤمنين ، وإن كانوا داخلين فيها دخولاً أولياً ، وإليه ذهب البيضاوي بل ولو فسر الاستغفار بالسعي فيما يدفع الخلل المتوقع لعم الحيوان بل الجماد .

قال الضحاك لمن في الأرض من المؤمنين . وقال السدي : بيانه في سورة المؤمن ﴿ ويستغفرون للذين آمنوا ﴾ وعلى هذا يكون المراد بالملائكة هنا حملة العرش ، وقيل جميع الملائكة وهو الظاهر من قول الكلبي وقيل هو منسوخ بقوله ﴿ ويستغفرون للذين آمنوا ﴾ وقال المهدوي والصحيح أنه ليس بمنسوخ لأنه خبر وهو خاص بالمؤمنين .

وقال أبو الحسن بن الحصار إن حملة العرش مخصوصون بالاستغفار للمؤمنين والله ملائكة آخر يستغفرون لمن في الأرض قال الماوردي وفي استغفارهم لهم قولان أحدهما من الذنوب والخطايا ، وهو ظاهر قول مقاتل ، والثاني أنه طلب الرزق لهم والسعة عليهم ، قاله الكلبي وهو الأظهر ، لأن

من في الأرض يعم الكافر وغيره ، وعلى قول مقاتل لا يدخل الكافر وقال مطرف وجدنا أنصح عباد الله لعباد الله الملائكة ، ووجدنا أغش عباد الله لعباد الشياطين .

﴿ ألا إن الله هو الغفور الرحيم ﴾ أي كثير المغفرة والرحمة لأهل طاعته وأوليائه أو الجميع عباده ، فإن تأخير عقوبة الكفار والعصاة نوع من أنواع مغفرته ورحمته ﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء ﴾ أي أصناماً يعبدونها وجعلوا له شركاء وأنداداً .

﴿ الله حفيظ عليهم ﴾ أي يحفظ أعمالهم لا يغيب عنه منها شيء ليجازيهم بها ﴿ وما أنت عليهم بوكيل ﴾ أي لم يوكلك بهم حتى تؤاخذ بهم ، ولا وكل إليك هدايتهم ، وإنا عليك البلاغ . قيل : وهذه الآية منسوخة بآية السيف .

﴿ وكذلك ﴾ الإيحاء البديع المبين المفهم ﴿ أوحينا إليك ﴾ أي أنزلنا عليك ﴿ قرآناً عربياً ﴾ بلسان قومك لا لبس فيه عليك ولا على قومك ، كما أرسلنا كل رسول بلسان قومه ﴿ لتنذر أم القرى ﴾ أي مكة والمراد أهلها ﴿ ومن حولها ﴾ من الناس والمفعول الثاني محذوف ، أي لتنذرهم العذاب .

﴿ وتنذر يوم الجمع ﴾ أي بيوم الجمع وهو يوم القيامة لأنه مجمع الخلائق ، وقيل : المراد جمع الأرواح بالأجساد ، وقيل : جمع الظالم والمظلوم ، وقيل جمع العامل والعمل .

﴿ لا ريب فيه ﴾ أي لا شك فيه والجملة معترضة مقررة لما قبلها ، أو حال من يوم الجمع ﴿ فريق في الجهة وفريق في السعير ﴾ قرأ الجمهور برفع فريق في الموضعين إما على أنه مبتدأ وخبره الجار المجرور ، وساغ الابتداء بالنكرة لأن المقام مقام تفضيل أو على أن الخبر مقدر قبله ، أي منهم فريق في الجنة ومنهم فريق في السعير ، أو أنه خبر مبتدأ محذوف وهو ضمير عائد إلى المجموعين ، المدلول عليهم بذكر الجمع ، أي هم فريق في الجنة وفريق في

السعير وقرىء فريقاً بالنصب في الموضعين على الحال من جملة محذوفة ، أى افترقوا حال كونهم كذلك ، وأجاز الفراء والكسائي النصب على تقدير لتندر فريقاً .

وقد أخرج الترمذي وصححه ، وأحمد والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن عبد الله بن عمرو قال : « خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي يده كتابان فقال : أتدرون ما هذان الكتابان ؟ قلنا لا إلا أن تخبرنا يا رسول الله قال للذي في يده اليمينى : هذا كتاب من رب العالمين بأسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم ، ثم أجمل على آخرهم فلا يزداد فيهم ولا ينقص منهم ، ثم قال للذي في شماله هذا كتاب من رب العالمين بأسماء أهل النار وأسماء آبائهم وقبائلهم ، ثم أجمل على آخرهم فلا يزداد فيهم ولا ينقص منهم أبداً فقال أصحابه فقيم العمل يا رسول الله ؟ إن كان أمر قد فرغ منه ، فقال سدّدوا وقاربوا فإن صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة ، وإن عمل أي عمل ، وإن صاحب النار يختم له بعمل أهل النار ، وإن عمل أي عمل . قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بيديه فبندهما ، ثم قال : فرغ ربكم من العباد ، فريق في الجنة وفريق في السعير » .

قال الترمذي بعد إخراجه : هذا حديث حسن صحيح غريب ، وروى ابن جرير طرفاً منه عن ابن عمرو « موقوفاً عليه » ، قال ابن جرير وهذا الموقوف أشبه بالصواب ، قلت بل المرفوع أشبه بالصواب ، فقد رفعه الثقة ورفعه زيادة ثابتة من وجه صحيح ، ويقوي الرفع ما أخرجه ابن مردويه عن البراء قال . « خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي يده كتاب ينظر فيه قالوا انظروا إليه كيف هو أمي لا يقرأ ؟ قال فعلمها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال هذا كتاب من رب العالمين بأسماء أهل الجنة ، وأسماء قبائلهم لا يزداد فيهم ولا ينقص منهم ، وقال ﴿ فريق في الجنة وفريق في السعير ﴾ فرغ ربكم من أعمال العباد » .

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ
 وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ
 شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا أَخْلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكَ كُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ
 تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا
 وَمِنْ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾
 لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ
 عَلِيمٌ ﴿١٢﴾

﴿ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة﴾ قال الضحاك أهل دين واحد إما
 على هدى وإما على ضلالة ، ولكنهم اختلفوا على أديان مختلفة بالمشيئة الأزلية ،
 وهو معنى قوله ﴿ولكن يدخل من يشاء في رحمته﴾ أي في الدين الحق وهو
 الإسلام ﴿والظالمون﴾ أي المشركون ﴿ما لهم من ولي﴾ يدفع عنهم العذاب
 ﴿ولا نصير﴾ ينصرهم في ذلك المقام .

ومثل هذا قوله ﴿ولو شاء الله لجمعهم على الهدى﴾ وقوله ﴿ولو شئنا
 لآتينا كل نفس هداها﴾ وهذا مقابل لقوله ﴿يدخل من يشاء في رحمته﴾ ،
 فكان مقتضى الظاهر أن يقال ويدخل من يشاء في غضبه لكن عدل عنه إلى ما
 ذكر للمبالغة في الوعيد ، فإن نفي من يتولاهاهم وينصرهم أدل على أن كونهم
 في العذاب أمر معلوم مفروغ منه ، أفاده الكرخي .

وقال الشوكاني رحمه الله : وههنا مخاصمات بين المتتمذهيين المحامين على

ما درج عليه أسلافهم ، فذبوا عليه من بعدهم . وليس بنا إلى ذكر شيء من ذلك فائدة ، كما هو عادتنا في تفسيرنا هذا فهو تفسير سلفي يمشي مع الحق ويدور مع مدلولات النظم الشريف ، وإنما يعرف ذلك من رسخ قدمه ، وتبرأ من التعصب قلبه ولحمه ودمه .

﴿ أم اتخذوا من دونه أولياء ﴾ مستأنفة مقررة لما قبلها من انتفاء أن يكون للظالمين ولياً ونصيراً ، وأم هذه هي المنقطعة المقدره ببل المفيدة للانتقال وبالهزمة المفيدة للإنكار ، أي بل اتخذ الكافرون من دون الله أولياء من الأصنام يعبدونها ﴿ فالله هو الولي ﴾ أي هو الحقيق بأن يتخذوه ولياً فإنه الخالق الرازق الضار النافع ، والفاء لمجرد العطف ، قاله الكرخي . وغرضه بهذا الرد على الزمخشري في قوله . إنها جواب شرط مقدر أي إن أرادوا أن يتخذوا ولياً في الحقيقة فالله هو الولي الحق ، قال أبو حيان لا حاجة إلى هذا التقدير لتمام الكلام بدونه .

﴿ وهو ﴾ أي ومن شأنه أنه ﴿ يحیی الموتى وهو على كل شيء قدير ﴾ أي يقدر على كل مقدور فهو الحقيق بتخصيصه بالألوهية وإفراده بالعبادة .

﴿ وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ﴾ هذا عام في كل ما اختلف فيه العباد من أمر الدين ، فإن حكمه ومرجعه إلى الله يحكم فيه يوم القيامة بحكمه ، ويفصل خصومة المختصمين فيه ، وعند ذلك يظهر المحق من المبطل ، ويتميز فريق الجنة وفريق النار ، قال الكلبي وما اختلفتم فيه من شيء أي من أمر الدين فحكمه إلى الله يقضى فيه ، وزاد البيضاوي أو أمر الدنيا ، ولم يذكر الدنيا في الكشف وذكره المحلي ، وقال من الدين وغيره ، والغير كالخصومات في الدنيا ، والأول أولى إذ لا يلزم أن تكون بينهم وبين الكفرة ، ولا يقال في مثله التحاكم إلى الله أفاده الشهاب .

وقال مقاتل إن أهل مكة كفر بعضهم بالقرآن وآمن به بعضهم ، فنزلت

هذه الآية ، والاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، ويمكن أن يقال إن معنى حكمه إلى الله أنه مردود إلى كتابه ، فإنه قد اشتمل على الحكم بين عباده فيما يختلفون فيه ، فتكون الآية عامة في كل اختلاف يتعلق بأمر الدين أنه مردود إلى كتاب الله ، ومثله قوله :

﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول﴾ وقد حكم سبحانه بأن الدين هو الإسلام ، وأن القرآن حق ، وأن المؤمنين في الجنة والكافرين في النار ولكن لما كان الكفار لا يدعون لكون ذلك حقاً إلا في الدار الآخرة وعدهم الله بذلك يوم القيامة ، وقيل : تحاكموا فيه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأن حكمه حكم الله ، ولا تؤثر حكومة غيره على حكومته .

﴿ذلكم﴾ مبتدأ أي الحاكم العظيم الشأن بهذا الحكم ﴿الله﴾ خبر أول ﴿ربي﴾ خبر ثان ﴿عليه توكلت﴾ خبر ثالث ، أي اعتمدت عليه في جميع أموري لا على غيره ، وفوضته في كل شؤني ﴿وإليه﴾ لا إلى غيره ﴿أنيب﴾ أي أرجع في كل شيء يعرض لي ، وهذا خبر رابع .

﴿فاطر السموات والأرض﴾ الفاطر الخالق المبدع ، وقد تقدم تحقيقه وهذا خبر خامس أو مبتدأ وخبره ما بعده ، أو نعت لربي لأن الإضافة محضة ويكون عليه توكلت وإليه أنيب معترضاً بين الصفة والموصوف ، وقرأ زيد بن علي فاطر بالجر على أنه نعت للإسم الشريف في قوله إلى الله وما بينهما اعتراض أو بدل من الهاء في عليه أو إليه وأجاز الكسائي النصب على النداء وأجازه غيره على المدح .

﴿جعل لكم من أنفسكم أزواجاً﴾ خبر سادس أي خلق لكم من جنسكم نساء ، أو المراد حواء لكونها خلقت من ضلع آدم ، وقال مجاهد نسلاً بعد نسل ﴿ومن الأنعام أزواجاً﴾ أي خلق لها من جنسها إناثاً أو وخلق لكم من الأنعام أصنافاً من الذكور والإناث ، وهي الثمانية التي ذكرها في الأنعام .

﴿يذرؤكم فيه﴾ أي يبثكم من الذرء وهو البث أو يخلقكم وينشئكم

والضمير في يذروكم للمخاطبين والأنعام إلا أنه غلب عليه العقلاء ، قال الزمخشري وهي من الأحكام ذات العلتين ، قال الشيخ وهو اصطلاح غريب ، والمعنى أن الخطاب يغلب على الغيبة إذا اجتماعا ، وضمير فيه راجع إلى الجعل المدلول عليه بالفعل ، أو للمخلوق ، وقيل راجع إلى ما ذكر من التدبير ، وقال الفراء والزجاج وابن كيسان معنى يذروكم فيه يكثركم به أي يكثركم بجعلكم أزواجاً لأن ذلك سبب النسل ، وقال ابن قتيبة : يذروكم فيه أي في الزوج وقيل في البطن وقيل في الرحم .

﴿ ليس كمثله شيء ﴾ خبر سابع والمراد بذكر المثل هنا المبالغة في النفي بطريق الكناية فإنه إذا نفى عمن يناسبه كان نفيه عنه أولى ، كقولهم : مثلك لا يبخل وغيرك لا يجود ، وقيل : إن الكاف زائدة للتوكيد لأنه تعالى لا مثل له ، وهو المشهور عند المعربين ، وقيل : إن مثل زائدة قاله ثعلب وغيره ، كما في قوله ﴿ فان آمنوا بمثل ما آمنتم به ﴾ أي بما آمنتم به ، وهذا ليس بجيد ، بل الأول أولى .

فإن الكناية باب مسلوك للعرب ومهيج مألوف لهم قال ابن قتيبة العرب تقيم المثل مقام النفس ، فتقول : مثلي لا يقال له هذا ، أي أنا لا يقال لي ، وقيل : المراد بالمثل الصفة وذلك أن المثل بمعنى المثل والمثل الصفة كقوله مثل الجنة ، فيكون المعنى ليس مثل صفته تعالى شيء من الصفات التي لغيره وهو محمل سهل .

قال الراغب : المثل أعم الألفاظ الموضوعات للمشابهة ، وذلك أن الند يقال لما يشارك في الجوهر فقط ، والشبه يقال فيما يشارك في الكيفية فقط ، والمساوي يقال فيما يشاركه في الكمية فقط والشكل يقال فيما يشاركه في القدر والمساحة فقط ، ولهذا لما أراد الله نفي الشبه من كل وجه خصه بالذكر قال تعالى .

﴿ ليس كمثله شيء ﴾ وقال أبو البقاء مرجحاً لزيادة الكاف إنها لو لم

تكن زائدة لأفصى ذلك إلى المحال ، إذ يكون المعنى أن له مثلاً وليس لمثله مثل ، وفي ذلك تناقض ، لأنه إذا كان له مثل فلمثله مثل ، وهو هو مع أن إثبات المثل لله سبحانه محال ، وهذا تقرير حسن ، ولكنه يندفع ما أورده بما ذكرناه من كون الكلام خارجاً مخرج الكناية .

ومن فهم هذه الآية الكريمة حق فهمها ، وتدبرها حق تدبرها مشى بها عند اختلاف المختلفين في الصفات على طريقة بيضاء واضحة ، ويزداد بصيرة إذا تأمل معنى قوله ﴿ وهو السميع البصير ﴾ فإن هذا الإثبات بعد ذلك النفي للمثل ، قد اشتمل على برد اليقين ، وشفاء الصدور ، وانثلاج القلوب فاقدرا يا طالب الحق قدر هذه الحجة النيرة ، والبرهان القوي ، فإنك تحطم بها كثيراً من البدع ، وتهشم بها رؤوساً من الضلالة ، وترغم بها آناف طوائف من القاصرين المتكلفين ، والمتكلمين المتأولين ، ولا سيما إذا ضمنت إليه قول الله سبحانه ﴿ ولا يحيطون به علماً ﴾ فإنك حينئذ قد أخذت بطرفي حبل ما يسمونه علم الكلام وعلم أصول الدين .

ودع عنك نهياً صريحاً في حجراته ولكن حديث ما حديث الرواحل وهو السميع الخ خبر ثامن وقوله : ﴿ له مقاليد السموات والأرض ﴾ خبر تاسع جمع مقلاد أو مقلد أو قليد ، وهو المفتاح جمع على خلاف القياس أي مفاتيحها أو خزائنها ، والمراد المطر والنبات وغيرهما كالجواهر المستخرجة من الأرض ، قال النحاس : والذي يملك المفاتيح يملك الخزائن وقد تقدم تحقيقه في سورة الزمر .

ثم لما ذكر سبحانه أن بيده مقاليدهما ذكر بعده البسط والقبض فقال ﴿ يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ خبر عاشر أي يوسعه لمن يشاء كالروم والفرس ويضيقه على من يشاء كالعرب ﴿ إنه بكل شيء ﴾ من الأشياء ﴿ عليم ﴾ فلا تخفي عليه خافية ، وإحاطة علمه بكل شيء يندرج تحتها علمه بطاعة المطيع ومعصية العاصي فهو يجازي كلاً بما يستحقه من خير وشر .

﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴾ (١٣) وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَفَقَضَى بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكُتُبَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ لَاحِجَّةٌ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾

﴿ شرع لكم ﴾ أي بين وأوضح وسن وأظهر طريقاً واضحاً ، وهو خبر حادي عشر ﴿ من الدين ﴾ أي ديناً تطابقت على صحته الأنبياء ، والخطاب لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ ما وصى به نوحاً ﴾ من التوحيد ودين الإسلام ، وأصول الشرائع التي لم يختلف فيها الرسل ، وتوافقت عليها الكتب ، وإنما خص نوحاً لأنه أول الأنبياء أصحاب الشرائع ، والمعنى قد وصيناه وإياك يا محمد ديناً واحداً ، وقد ثبت في الحديث الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في حديث الشفاعة المشهور الكبير :

« ولكن اتنوا نوحاً فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض » وهذا

صحيح لا إشكال فيه كما أن آدم أول رسول نبيء بغير إشكال إلا أن آدم لم يكن معه إلا نبوة ، ولم تفرض له الفرائض ، ولا شرعت له المحارم ، وإنما كان شرعه تنبيهاً على بعض الأمور واقتصاراً على ضرورات المعاش ، وأخذاً بوظائف الحياة والبقاء واستمر إلى نوح فبعثه الله بتحريم الأمهات والبنات والأخوات ، ووظف عليه الواجبات ، وأوضح له الآداب والديانات ، ولم يزل ذلك يتأكد بالرسل ويتناصر بالأنبياء عليهم السلام واحداً بعد واحد وشرعية

اثر شريعة حتى ختمها بخير الملل ملتنا على لسان اكرم الرسل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

﴿ والذي أوحينا إليك ﴾ من القرآن وشرائع الإسلام والبراءة من الشرك والتعبير عنه عند نسبته إلى النبي صلى الله عليه وسلم بالذي هو أصل الموصلات لتفخيم شأنه من تلك الحيثية ، وخص ما شرعه لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم بالإيجاء مع كون ما قبله وما بعده مذكوراً بالتوصية ، للتصريح برسالته ، القامع لإنكار الكفرة ، وفيه التفات من الغيبة إلى التكلم بنون العظمة لكمال الاعتناء بالإيجاء إليه ، وهو السر في تقدمه على ما بعده مع تقدمه عليه زماناً وتقديم توصية نوح للمسارعة إلى بيان كون المشروع لهم ديناً قديماً وتوجه الخطاب إليه صلى الله عليه وسلم بطريق التلوين للتشريف والتنبيه ، على أنه تعالى شرعه لهم على لسانه عليه الصلاة والسلام .

﴿ وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى ﴾ مما تطابقت عليه الشرائع وإنما خص هؤلاء الأنبياء الخمسة بالذكر لأنهم أكابر الأنبياء وأصحاب الشرائع المعظمة والأتباع الكثيرة ؛ وأولو العزم ، وليل قلوب الكفرة إليهم لاتفاق الكل على نبوة بعضهم ، وتفرد اليهود في موسى ، والنصارى في عيسى ، وكل من هؤلاء المذكورين له شرع جديد ، ومن عداهم من الرسل إنما كان يبعث بتبليغ شرع من قبله فشيث وإدريس بعثا بتبليغ شرع آدم ، ومن بين نوح وإبراهيم وهما هود وصالح بعثا بتبليغ شرع نوح ، ومن بين إبراهيم وموسى بعثوا بتبليغ شرع إبراهيم وكذا من بين موسى وعيسى بعثوا بتبليغ شرع موسى فليتأمل ، ثم بين ما وصى به هؤلاء فقال .

﴿ أن أقيموا الدين ﴾ أي توحيد الله ، والإيمان به وطاعة رسله ، وقبول شرائعه والمراد بإقامته تعديل أركانه وحفظه من أن يقع فيه زيغ أو المواظبة عليه ، والتشمير له ، وقال السدي : أي اعملوا به وقيل : المراد سائر ما يكون المرء بإقامته مسلماً ولم ترد به الشرائع فإنها مختلفة ، قال تعالى : ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ﴾ قال مجاهد : لم يبعث الله نبياً إلا وصاه بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والإقرار لله بالطاعة فذلك دينه الذي شرع لهم ، وقال

قتادة : يعني تحليل الحلال وتحريم الحرام .

قال القرطبي : الأصول التي لا تختلف فيها الشرائع هي التوحيد والصلاة والزكاة والصيام والحج ، وأداء الأمانة وصلة الرحم ، وتحريم الكفر والقتل والزنا والإذابة للخلق ، كيفما تصورت ، والإعتداء على الحيوان كيفما دار ، واقتحام الدنئات ، وما يعود بخرم المروءات فهذا كله مشروع ديناً واحداً ، وملة واحدة لم تختلف على السنة الأنبياء وإن اختلفت أعذارهم ، وذلك قوله تعالى : أن أقيموا الدين الخ .

ثم لما أمرهم سبحانه بإقامة الدين نهاهم عن الاختلاف فيه فقال :

﴿ ولا تتفرقوا فيه ﴾ أي لا تختلفوا في التوحيد والإيمان بالله ، وطاعة رسوله ، وقبول شرائعه فإن هذه الأمور قد تطابقت عليها الشرائع وتوافقت فيها الأديان ، فلا ينبغي الخلاف في مثلها ، وليس هذا من فروع المسائل التي تختلف فيها الأدلة وتتعارض فيها الامارات ، وتباين فيها الأفهام ، فإنها من مطارح الاجتهاد ، ومواطن الخلاف .

قال القرطبي في الآية أي اجعلوه دائماً قائماً مستمراً محفوظاً مستقراً ، من غير خلاف فيه ولا اضطراب ، فمن الخلق من وفى بذلك ومنهم من نكث ، ﴿ ومن نكث فإنما ينكث على نفسه ﴾ .

واختلفت الشرائع وراء هذه في أحكامه حسبما أراد الله مما اقتضت المصلحة وأوجبت الحكمة وضعه في الأزمنة على الأمم والله أعلم .

قال قتادة في الآية : ألا تعلموا أن الفرقة هلكة ، وأن الجماعة ثقة وقال على الجماعة رحمة والفرقة عذاب . ثم ذكر سبحانه أن ما شرعه من الدين شق على المشركين فقال :

﴿ كبر ﴾ أي عظم وشق ﴿ على المشركين ما تدعوهم إليه ﴾ من التوحيد ورفض الأوثان ، قال قتادة اشتد عليهم شهادة أن لا إله إلا الله وحده ، وضاق بها إبليس وجنوده ، فأبى الله إلا أن ينصرها ويعليها ويظهرها ، ويظهرها على من ناوأها ، والأولى التعميم لدلالة السياق ولا يمنعه تخصيص

المشركين بالذكر كما لا يخفي ثم خص أوليائه فقال :

﴿ الله يجتبي إليه ﴾ استئناف وارد لتحقيق الحق وفيه إشعار بأن منهم من يجب إلى الدعوة ، والاجتباء الاختيار ، والمعنى يختار لتوحيده والدخول في دينه ، افتعال من الجباية وهي الجمع على طريق الاصطفاء ، واجتباء الله العبد تخصيصه إياه بفيض إلهي لتحصل له أنواع النعم بلا سعي منه ﴿ من يشاء ﴾ من عباده ، قال قتادة : يخلص لنفسه من يشاء .

﴿ ويهدي إليه من ينيب ﴾ أي يوفق لدينه ويستخلص لعبادته من يرجع إلى طاعته ، ويقبل إلى عبادته ثم لما ذكر سبحانه ما شرعه لهم من إقامة الدين وعدم التفرق فيه ذكر ما وقع من التفرق والاختلاف فقال :

﴿ وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم ﴾ أي ما تفرقوا إلا عن علم بأن الفرقة ضلالة متوعد عليها ، أو العلم بمبعث الرسول أو أسباب العلم من الرسل والكتب وغيرها ، فلم يلتفتوا إليها ، وفعلوا ذلك التفرق ، قيل : المراد قريش وهم الذين تفرقوا من بعد ما جاءهم العلم ، وهو محمد صلى الله عليه وسلم بغياً منهم عليه .

وقد كانوا يقولون ما حكاه الله عنهم بقوله ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ﴾ الآية ، وبقوله ﴿ فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ﴾ وقيل المراد أمم الأنبياء المتقدمين ، وأنهم فيما بينهم اختلفوا لما طال بهم المدى ، فأمن قوم وكفر قوم . وقيل : اليهود والنصارى خاصة كما في قوله ﴿ وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة ﴾

﴿ بغياً بينهم ﴾ أي بغياً من بعضهم على بعض ، طلباً للرياسة فليس تفرقهم لقصور في البيان والحجج ، ولكن للبغي والظلم والاشتغال بالدنيا والجاه والحمية ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك ﴾ وهي تأخير العقوبة ﴿ إلى أجل مسمى ﴾ وهو يوم القيامة كما في قوله ﴿ بل الساعة موعدهم ﴾ وقيل : إلى الأجل الذي قضاه الله لعذابهم في الدنيا بالقتل والأسر والذل والقهر ﴿ لقضي

بينهم ﴿ أي لوقع القضاء بينهم بإنزال العقوبة بهم معجلة ، وقيل يقضي بين من آمن منهم ومن كفر بنزول العذاب بالكافرين ونجاة المؤمنين .

﴿ وإن الذين أورثوا الكتاب ﴾ أي التوراة والإنجيل وهم اليهود والنصارى الذي كانوا في عهده صلى الله عليه وسلم ﴿ من بعدهم ﴾ أي من بعد من قبلهم من اليهود والنصارى المختلفين في الحق .

وقال مجاهد : معنى من بعدهم من قبل مشركي مكة ، وهم اليهود والنصارى وقيل ، المراد كفار المشركين من العرب الذين أورثوا القرآن من بعد ما أورث أهل الكتاب كتابهم ووصفهم بأنهم ﴿ لفي شك منه ﴾ أي من القرآن أو من محمد صلى الله عليه وسلم ، وعلى كلا الوجهين فالشك هنا ليس على معناه المشهور من اعتدال النقيضين وتساويهما في الذهن ، بل المراد به ما هو أعم أي مطلق التردد .

وقال القرطبي : لفي شك من الذي أوصى به الأنبياء ﴿ مريب ﴾ موقع في الريبة وهي قلق النفس واضطرابها ولذلك لم يؤمنوا .

﴿ فلذلك ﴾ أي فلأجل ما ذكر من التفرق والشك أو الكتاب ، أو العلم الذي أوتيته ، أو فلأجل أنه شرع من الدين ما شرع ﴿ فادع ﴾ إلى الله وإلى توحيده وإلى الاتفاق والائتلاف على الملة الحنيفية القوية أو الإتياع لما أوتيته ، وعلى هذا اللام في موضع إلى لإفادة الصلة والتعليل ، قال الفراء والزجاج : المعنى فإلى ذلك فادع ، كما تقول : دعوت إلى فلان ولفلان وذلك إشارة إلى ما وصى به الأنبياء من التوحيد ، وقيل : في الكلام تقديم وتأخير والمعنى ﴿ كبر على المشركين ما تدعوهم إليه ﴾ ﴿ فلذلك فادع ﴾ .

﴿ واستقم ﴾ على ما دعوت إليه فسر الراغب الإستقامة بلزوم المنهج المستقيم ، فلا حاجة إلى تأويلها بالدوام على الإستقامة ، قال قتادة : استقم على أمر الله ، وقال سفيان : استقم على القرآن ، وقال الضحاك : استقم على تبليغ الرسالة ﴿ كما أمرت ﴾ بذلك من جهة الله تعالى .

﴿ولا تتبع أهواءهم﴾ الباطلة وتعصباتهم الزائفة في ترك الشوحيد ، ولا تنظر إلى خلاف من خالفك في دين الله ﴿وقل آمنتم بما أنزل الله من كتاب﴾ أي بجميع الكتب التي أنزلها الله على رسله لا كالذين آمنوا ببعض منها وكفروا ببعض وفيه تحقيق للحق ، وبيان لاتفاق الكتب في أصول الدين ، وتأليف لقلوب أهل الكتابين وتعريض لهم .

﴿وأمرت لأعدل بينكم﴾ في أحكام الله إذا ترافعتم إلي ، ولا أحيف عليكم بزيادة على ما شرعه الله ، أو بنقصان منه ، وأبلغ إليكم ما أمرني الله بتبليغه كما هو واللام لام كي ، أي أمرت بذلك الذي أمرت به لكي أعدل بينكم ، وقيل : هي زائدة ، والمعنى أمرت أن أعدل وقيل : بمعنى الباء وأن المصدرية مقدرة أي بأن أعدل والأول أولى .

قال أبو العالية : أمرت لأسوي بينكم في الدين فأومن بكل كتاب وبكل رسول ، والظاهر أن الآية عامة في كل شيء ، والمعنى أمرت لأعدل بينكم في كل شيء .

﴿الله ربنا وربكم﴾ أي إلهنا وإلهكم ، وخالقنا وخالقكم ﴿لنا أعمالنا﴾ أي ثوابها وعقابها خاص بنا ﴿ولكم أعمالكم﴾ أي ثوابها وعقابها خاص بكم ، فكل يجازى بعمله ﴿لا حجة﴾ أي لا خصومة ﴿بيننا وبينكم﴾ لأن الحق قد ظهر ووضح ، ولم يبق للمحاجة مجال ، وليس في الآية إلا ما يدل على المتاركة في المقابلة ، والمحاجة لا مطلقاً حتى تكون منسوخة ، وإنما عبر عن أباطيلهم بالحجة مجازاة لهم على زعمهم الباطل ، قال ابن عباس ومجاهد : الخطاب لليهود وقيل للكفار على العموم .

﴿الله يجمع بيننا﴾ في المحشر لفصل القضاء ﴿وإليه المصير﴾ أي المرجع يوم القيامة ، فيجازي كلاً بعمله ، وهذا منسوخ بآية السيف وقيل ليست بمنسوخة لأن البراهين قد ظهرت والحجج قد قامت فلم يبق إلا العناد وبعد العناد لا حجة ولا جدال .

وَالَّذِينَ يَحْجُوثُ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُمْ، حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ إِلَّا الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ، يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿١٩﴾

﴿والذين يحاجون في الله﴾ أو يخاصمون في دين الله ﴿من بعد ما استجيب﴾ أي استجاب الناس ﴿له﴾ أي لدين الله ودخلوا فيه ، وقيل : الضمير راجع إلى الله ، وقيل : إلى محمد صلى الله عليه وسلم المعلوم من السياق الدال عليه الفعل ، والأول أولى .

قال مجاهد ؛ من بعد ما أسلم الناس ، قال : وهؤلاء قوم توهموا أن الجاهلية تعود ، وقال قتادة هم اليهود والنصارى ، ومحاجتهم قولهم نبينا قبل نبيكم ، وكتابنا قبل كتابكم ، وكانوا يرون لأنفسهم الفضيلة بأنهم أهل كتاب وأنهم أولاد الأنبياء ، وكان المشركون يقولون ﴿أي الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً﴾ فنزلت هذه الآية .

وقال ابن عباس : هم أهل الكتاب كانوا يجادلون المسلمين ويصدونهم عن الهدى ، من بعد ما استجابوا لله ، وقال : هم قوم من أهل الضلالة وكانوا يتربصون بأن تأتيهم الجاهلية ، وعن عكرمة قال لما نزلت ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ قال المشركون لمن بين أظهرهم من المؤمنين : قد دخل الناس في دين الله أفواجا فخرجوا من بين أظهرنا فنزلت هذه الآية .

والموصول مبتدأ وخبره الجملة بعده وهي ﴿حجتهم داحضة عند ربهم﴾ أي لاثبات لها كالشيء الذي يزول عن موضعه يقال دحضت حجته دحوضاً بطلت ، وبابه خضع ، والإدحاض الإزلاق ، ومكان دحض أي زلق ، ودحضت رجله أي زلقت وبابه قطع وسماها حجة وإن كانت شبهة لزعمهم أنها حجة .

﴿وعليهم غضب﴾ عظيم من الله لمجادلتهم بالباطل ﴿ولهم عذاب شديد﴾ في الآخرة .

﴿الله الذي أنزل الكتاب﴾ المراد به الجنس فيشمل جميع الكتب المنزلة على الرسل ، وقيل المراد به القرآن خاصة ﴿بالحق﴾ متعلق بمحذوف أي متلبساً بالحق وهو الصدق ﴿والميزان﴾ أي العدل كذا قال أكثر المفسرين قالوا وسمى العدل ميزاناً لأن الميزان آلة الإنصاف والتسوية بين الخلق ، فالميزان متجاوز به عنه إستعمالاً للسبب في المسبب وقيل الميزان ما بين في الكتب المنزلة مما يجب على كل إنسان أن يعمل به ، وقيل : هو الجزاء على الطاعة بالثواب وعلى المعصية بالعقاب .

وقال قتادة : الميزان العدل فيما أمر به ونهى عنه وإنزال العدل هو الأمر والتكليف به ، وقيل : إنه الميزان على نفسه أنزله الله من السماء في زمن نوح عليه السلام ، وعلم العباد الوزن به لثلا يكون بينهم تظالم وتباخس ، كما في قوله ﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط﴾ ، وقيل : هو محمد صلى الله عليه وسلم يقضي بينكم بكتاب الله وقال مجاهد : هو الذي يوزن به .

﴿وما يدريك لعل الساعة قريب﴾ أي أي شيء يجعلك دارياً بها ، عالماً بوقتها ، لعلها شيء قريب ، أو قريب مجئها ، أو ذات قرب أو إتيانها قريب وقال ﴿قريب﴾ ولم يقل قريبة لأن تأنيثها غير حقيقي .

قال الزجاج : المعنى لعل البعث أو لعل مجيء الساعة قريب وقال

الكسائي قريب نعت ينعت به المؤنث والمذكر كما في قوله : إن رحمة الله قريب من المحسنين ، وقال الكرخي : ولا يقال : إن (قريب) يستوي فيه المؤنث والمذكر لأن فعلاً هنا بمعنى فاعل ، ولا يستوي فيه ما ذكر والاستفهام إنكاري أي لا سبب يوصلك للعمل بقربها إلا الوحي الذي ينزل عليك قيل إن النبي صلى الله عليه وسلم « ذكر الساعة وعنده قوم من المشركين فقالوا متى تقوم تكذيباً لها فأنزل الله هذه الآية ، » ويدل على هذا قوله :

﴿ يستعجل بها الذين لا يؤمنون ﴾ استعجال استهزاء منهم بها وتكذيباً بمجيئها ، فلا يشفقون منها ﴿ والذين آمنوا مشفقون منها ﴾ أي خائفون وجلون من مجيئها ، أي فلا يستعجلونها ، ففي الآية احتباك حيث ذكر الاستعجال أولاً ، وحذف الإشفاق ، وذكر الإشفاق ثانياً وحذف الاستعجال . قال مقاتل لأنهم لا يدرون ما يهجمون عليه وقال الزجاج لأنهم يعلمون أنهم محاسبون ومجزيون .

﴿ ويعلمون أنها الحق ﴾ أي أنها آتية لا ريب فيها ، وكائنة لا محالة ومثل هذا قوله ﴿ والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون ﴾ ثم بين ضلال الممارين فيها فقال :

﴿ ألا إن الذين يمارون في الساعة ﴾ أي يخاصمون فيها مخاصمة شك وريبة من الممارسة ، وهي المخاصمة والمجادلة أو من المرية وهي الشك والريبة ﴿ لفي ضلال بعيد ﴾ عن الحق لأنهم لم يتفكروا في الموجبات للإيمان بها من الدلائل التي هي مشاهدة لهم ، منصوبة لأعينهم ، مفهومة لعقولهم ولو تفكروا لعلموا أن الذي خلقهم ابتداء قادر على الإعادة ، وقد دل الكتاب والسنة على وقوعها ، والعقول تشهد على أنه لا بد من دار جزاء والبعث أشبه الغائبات بالمحسوسات فمن لم يهتد لتجويزه فهو أبعد عن الاهتداء إلى ما وراءه .

﴿ الله لطيف بعباده ﴾ أي كثير اللطف بهم ، بالغ الرأفة لهم ، قال مقاتل لطيف بالبر والفاجر حيث لم يقتلهم جوعاً بمعاصيهم ، قال عكرمة :

باربهم وقال السدي : رفيق بهم وقيل : حفي بهم . وقال القرطبي : لطيف بهم في العرض والمحاسبة ، وقيل : في إيصال المنافع وصرف البلاء ، وقيل لطف بالغوامض علمه ، وعظم عن الجرائم حلمه ، وقيل اللطيف من ينشر المناقب ويستر المثالب ، أو يعفو عن يهفو ، أو يعطي العبد فوق الكفاية ، ويكلفه الطاعة دون الطاقة .

وقال الجنيد : لطف بأوليائه فعرفوه ولولا لطفه بأعدائه ما جحدوه وقال جعفر الصادق : يلطف بهم في الرزق من وجهين ، أحدهما أنه جعل رزقك من الطيبات ، الثاني أنه لم يدفع إليك مرة واحدة فتبذره .

وقال الحسين بن الفضل : لطيف بهم في القرآن وتفصيله وتفسيره . وقيل : اللطيف الذي لا يخاف إلا عدله ولا يرجي إلا فضله^(١) ، وقيل هو الذي يرحم من لا يرحم نفسه ، وقيل هو الذي أوقد للعلماء من الكتاب والسنة سراجاً ، وجعل لهم الصراط المستقيم والدين القيم منهاجاً ، وأنزل لهم من سحائب بره ومَنِّه ولطفه وكرمه وإحسانه ماء ثجاجاً وقيل غير ذلك .

وحاصل المعنى انه يجري لطفه على عباده في كل أمورهم ومن جملة ذلك الرزق الذي يعيشون به في الدنيا وهو معنى قوله ﴿ يرزق من يشاء ﴾ منهم كيف يشاء فيوسع على هذا ويضيق على هذا ، وفي تفضيل قوم بالمال حكمة لاحتاج البعض الى البعض ، كما قال ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ، وكان هذا لطفاً بالعباد ليمتحن الغني بالفقير ، والفقير بالغني . وقيل ما يشاء من أنواع الرزق فهو - وإن كان يرزق كل ذي روح - لكنه فاوت بين المرزوقين في الرزق ، قلة وكثرة وجنساً ونوعاً لحكمة يعلمها هو .

﴿ وهو القوي ﴾ العظيم القوة الباهر القدرة ﴿ العزيز ﴾ الذي يغلب كل شيء ولا يغلبه شيء .

(١) سقط من الأصل : وقيل : هو الذي يعين على الخدمة ويكثر المدحة ، وقيل : هو الذي لا يعاجل من عصاه ولا يخيب من رجاءه ، وقيل : هو الذي لا يرد سائله ولا يؤيس آمله .

مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزَدْلَهُ فِي حَرْثِهِ ۖ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ أَشْرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُمْ وَقَعُ بِهِمْ ۖ وَالدِّينَ أَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتٍ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ۚ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ۚ وَمَن يَقْرَفْ حَسَنَةً نَّزَدْلَهُ ۖ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾

﴿ من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ﴾ الحرث في اللغة الكسب يقال : هو يحزث لعياله ويحترث ، اي يكتسب ، ومنه سمي الرجل حارثاً ومعنى أصل الحرث إلقاء البذر في الأرض ، فأطلق على ثمرات الأعمال وفوائدها بطريق الاستعارة المبنية على تشبيهها بالغلال الحاصلة من البذر ، المتضمن لتشبيه الأعمال بالبذور ، والمعنى من كان يريد بأعماله وكسبه ثواب الآخرة يضاعف الله له تلك الحسنة بعشرة أمثالها ، الى سبعمائة ضعف ، وقيل : معناه يزيد في توفيقه وإعانتة وتسهيل سبل الخير له .

﴿ ومن كان يريد حرث الدنيا ﴾ اي من كان يريد بأعماله وكسبه ثواب الدنيا وهو متاعها ، وما يرزق الله به عباده منها ، مؤثراً لها على الآخرة ﴿ نؤته منها ﴾ ما قضت به مشيئتنا ، وقسم له في قضائنا ، ولو تهاون به ولم يطلبه لأتاه .

قال قتادة : المعنى نقدر له ما قسم له كما قال ﴿ عجلنا له فيها ما نشاء ﴾ وقال أيضاً : إن الله يعطي على نية الآخرة ما شاء من أمر الدنيا ، ولا يعطي على نية الدنيا إلا الدنيا . قال القشيري والظاهر أن الآية في الكافر ، وهو تخصيص بغير مخصص ، ثم بين سبحانه أن هذا الذي يريد بعمله الدنيا لا نصيب له في الآخرة فقال :

﴿ وما له في الآخرة من نصيب ﴾ لأنه لم يعمل للآخرة فلا نصيب له فيها وقد تقدم تفسير هذه الآية في سورة الإسراء وقال وابن عباس في الآية حرث الآخرة عيش الآخرة ، وقال من يؤثر دنياه على آخرته لم يجعل الله له نصيباً في الآخرة إلا النار ، ولم يزد بذلك من الدنيا شيئاً إلا رزقاً فرغ منه وقسم له وأخرج أحمد والحاكم وصححه وابن مردويه وابن حبان عن أبي بن كعب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « قال بشر هذه الأمة بالسوء والرفعة والنصر والتمكين في الأرض ما لم يطلبوا الدنيا بعمل الآخرة ، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة من نصيب » ، وأخرج الحاكم وصححه ، والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة قال : « تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم من كان يريد حرث الآخرة الآية ثم قال : يقول الله : ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى ، وأسد فقرك ، وإن لا تفعل ملأت صدرك شغلاً ، ولم أسد فقرك » . وعن علي قال : الحرث حرثان : فحرث الدنيا المال والبنون ، وحرث الآخرة الباقيات الصالحات .

ولما بين سبحانه القانون في أمر الدنيا والآخرة ، أردفه ببيان ما هو الذنب العظيم الموجب للنار فقال :

﴿ أم لهم شركاء ﴾ أم منقطعة وتقديره بل ألهم شركاء ؟ وقيل هي المعادلة لألف الاستفهام وفي الكلام إضمار تقديره . أيقبلون ما شرع الله من الدين ؟ أم لهم آلهة ﴿ شرعوا لهم من الدين ﴾ وقيل أم بمعنى بل التي للانتقال والهمزة التي للتوبيخ والتفريع ، وضمير شرعوا عائد إلى الشركاء وضمير لهم

الى الكفار وقيل العكس والأول اولى .

﴿ ما لم يأذن به الله ﴾ من الشرك والمعاصي والشرائع المضلة ، وإنكار البعث ، والعمل للدنيا ، والآية بعمومها تشمل كل شيء لم يأمر به الله سبحانه او رسوله ، فيدخل فيه التقليد لأنه مما لم يأذن به الله بل ذمه في كتابه في غير موضع ، ولم يأذن به رسوله ، ولا إمام من أئمة الدين ، ولا أحد من سلف الأمة وسادتها وقادتها ، بل نهى عنه المجتهدون الأربعة ، ومن كان بعدهم من أهل الحق ، ركب الإيمان وأتباع السنة المطهرة ، وإنما أحدثه من أحدث من الجاهل والعوام ، بعد القرون المشهود لها بالخير فرحم الله امرأاً سمع الحق فاتبعه وسمع الباطل فتركه وأدمغه وبالله التوفيق .

﴿ ولولا كلمة الفصل ﴾ وهي تأخير عذابهم حيث قال : ﴿ بل الساعة موعدهم ﴾ ﴿ لقضى بينهم ﴾ في الدنيا فعوجلوا بالعقوبة ، والضمير في بينهم راجع الى المؤمنين والمشركون او الى المشركين وشركائهم ﴿ وإن الظالمين ﴾ أي المشركين الكافرين والمكذبين ﴿ لهم عذاب اليم ﴾ مؤلم في الدنيا والآخرة قرأ الجمهور بكسر إن على الإستئناف وقرئ بفتحها عطفاً على كلمة الفصل .

﴿ ترى الظالمين ﴾ خطاب لكل من تتأتى منه الرؤية ﴿ مشفقين ﴾ أي خائفين وجلين ﴿ مما كسبوا ﴾ من السيئات وذلك الخوف والوجل يوم القيامة ﴿ وهو ﴾ الضمير راجع الى ما كسبوا بتقدير مضاف ، قاله الزجاج ، أي وجزاء ما كسبوا ﴿ واقع بهم ﴾ نازل عليهم لا محالة أشفقوا أو لم يشفقوا ، والجملة حالية ، ولما ذكر الله سبحانه حال الظالمين ذكر حال المؤمنين فقال :

﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ مبتدأ وخبره ﴿ في روضات الجنات ﴾ جمع روضة قال أبو حيان : اللغة الكثيرة تسكين الواو ، ولغة هذيل فتحها والروضة الموضع النزه الكثير الخضرة ، وقد مضى بيان هذا في سورة الروم وروضة الجنة أطيب مساكنها كما أنها في الدنيا أحسن أمكنتها ، وفيه تنبيه على أن عصاة المسلمين من أهل الجنة لأنه خص الذين آمنوا وعملوا الصالحات بأنهم في روضات الجنات وهي البقاع الشريفة من الجنة ، والبقاع

التي دون تلك الأوصاف لا بد وأن تكون مخصوصة بمن كان دون الذين آمنوا وعملوا الصالحات .

﴿ لهم ما يشاؤون ﴾^(١) أو للاستقرار العامل في لهم ، والعندية مجاز أو حقيقة ﴿ ذلك ﴾ أي ما ذكر للمؤمنين ﴿ هو الفضل الكبير ﴾ الذي لا يوصف ولا تهتدي العقول الى كنه صفته ، ومعرفة حقيقته ، لأن الحق إذا قال كبير فمن ذا الذي يقدر قدره .

﴿ ذلك ﴾ أي الفضل الكبير ﴿ الذي يبشر الله عباده ﴾ قرىء يبشر مخففاً ومثقلاً ، وهما سبعيتان ، ثم وصف العباد بقوله : ﴿ الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ فهؤلاء الجامعون بين الإيمان والعمل بما أمر الله به وترك ما نهى عنه ، هم المبشرون بتلك البشارة ، ثم لما ذكر سبحانه ما أخبر به نبيه صلى الله عليه وسلم من هذه الأحكام الشريفة التي اشتمل عليها كتابه أمره بأن يخبرهم بأنه لا يطلب منهم بسبب هذا التبليغ ثواباً منهم فقال :

﴿ قل لا أسألكم عليه أجراً ﴾ أي قل يا محمد : لا أطلب منكم الآن ولا في مستقبل الزمان على تبليغ الرسالة بشارة أو نذارة جعلاً ولا نفعاً وإن قلّ والخطاب إما لقريش وللأنصار لأنهم أخواله ، أو لجميع العرب لأنهم أقاربه في الجملة ﴿ إلا المودة ﴾ العظيمة الواسعة ﴿ في القربى ﴾ أي مظلوفة فيها ، بحيث تكون القربى موضعاً للمودة وظرفاً لها ، لا يخرج شيء من محبتكم عنها والاستثناء متصل . ، أي إلا أن تودوني لقرايتي بينكم أو تودوا أهل قرايتي ، ويجوز أن يكون منقطعاً .

قال الزجاج : إلا المودة استثناء ليس من الأول أي إلا أن تودوني لقرايتي فتحفظوني ، والخطاب لقريش وهذا قول عكرمة ومجاهد وإبي مالك والشعبي فيكون المعنى على الانقطاع : لا أسألكم أجراً قط ، ولكن أسألكم المودة في القربى التي بيني وبينكم أرقبوني فيها ولا تعجلوا إليّ ، ودعوني والناس وبه قال

(١) سقط من الأصل ﴿ لهم ما يشاؤون عند ربهم ﴾ من صنوف النعيم وأنواع المستلذات ، وعند ظرف ليشاؤون .

قتادة ومقاتل والسدي والضحاك وابن زيد وغيرهم ، وهو الثابت عن ابن عباس كما سيأتي وقال سعيد بن جبير وغيره هم آل محمد ، وسيأتي ما استدل به القائلون بهذا.

وقال الحسن وغيره: معنى الآية إلا التودد إلى الله عز وجل والتقرب بطاعته، وقال الحسين بن الفضل، ورواه ابن جرير عن الضحاك أن هذه الآية منسوخة، قال البغوي: وهذا قول غير مرضي، لأن مودة النبي صلى الله عليه وسلم وكف الأذى عنه، ومودة أقاربه والتقرب إلى الله بالطاعة والعمل الصالح، من فرائض الدين.

أقول: في الآية ثلاثة أقوال، الأول أن القربى بمعنى القرابة أي الرحم، والثاني بمعنى الأقارب، والثالث بمعنى القرب والتقرب والزلفى، وسيأتي ما يتضح به الصواب، ويظهر به معنى الآية. قال سعيد بن جبير قريبي آل محمد صلى الله عليه وسلم. عن ابن عباس أنه سئل عن قوله ﴿إلا المودة في القربى﴾ قال ابن عباس: «عجلت أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة، فقال إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة»، وعنه قال: قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لا أسألكم عليه أجراً إلا أن تودوني في نفسي لقرباتي وتحفظوا القرابة التي بيني وبينكم»^(١)، وعن الشعبي قال: أَكْثَرَ النَّاسِ عَلَيْنَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ فكتبنا إلى ابن عباس نسأله عن ذلك فقال: «إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان واسط النسب في قريش، ليس بطن من بطونهم إلا وله فيه قرابة، فقال الله: قل الخ أن تودوني لقرباتي منكم، وتحفظوني بها».

وعن ابن عباس قال كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم قرابه من جميع قريش فلما كذبوه وأبوا أن يبايعوه قال: «يا قوم إذا أبيتم أن

(١) السيوطي في الدر ٦/٦.

تبايعوني فاحفظوا قرابتي فيكم، ولا يكون غيركم من العرب أولى بحفظي ونصرتي منكم»، وعنه قال: «قالت الأنصار: فعلنا وفعلنا وكأنهم فخروا فقال العباس: لنا الفضل عليكم، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتاهم في مجالسهم فقال: يا معشر الأنصار ألم تكونوا أذلة فأعزكم الله قالوا بلى يا رسول الله قال أفلا تحييون؟ قالوا ما نقول يا رسول الله؟ قال ألا تقولون ألم يخرجك قومك فأويناك؟ ألم يكذبوك فصدقناك؟ ألم يخذلوكم فنصرناك؟ فما زال يقول حتى جثوا على الركب وقالوا أموالنا وما في أيدينا لله ورسوله، فنزلت هذه الآية»^(١) وفي إسناده يزيد ابن أبي زياد وهو ضعيف والأولى أن الآية مكية لا مدنية. وقد أشرنا فيما سبق أن هذه الآية مدنية وهذا متمسكهم.

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الآية «تحفظوني في أهل بيتي وتودوهم بي» أخرجه الديلمي وأبو نعيم، وعنه قال لما نزلت هذه الآية قالوا: «يا رسول الله من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم؟ قال علي وفاطمة وولدهما» أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه قال السيوطي بسند ضعيف.

وعنه قال نزلت هذه الآية بمكة وكان المشركون يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله قل لهم يا محمد لا أسألكم عليه - أي على ما أدعوكم إليه - أجراً عرضاً من الدنيا إلى المودة في القربى، إلا الحفظ في قرابتي فيكم، فلما هاجر إلى المدينة أحب أن يلحقه بإخوته من الأنبياء فقال ﴿قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجري إلا على الله﴾ يعني ثوابه وكرامته في الآخرة، كما قال نوح ﴿وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين﴾ وكما قال هود وصالح وشعيب لم يستثنوا أجراً كما استثنى النبي صلى الله عليه وسلم فرده عليهم، وهي منسوخة، وعنه عن النبي صلى الله عليه وسلم في الآية «قل لا أسألكم على ما أتيتكم به من البينات والهدى أجراً إلا أن تودوا الله وأن تتقربوا إليه بطاعته هذا حاصل ما روي عن حبر الأمة ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في تفسير هذه الآية والمعنى الأول هو الذي صح

عنه ورواه عنه الجمع الجهم من تلامذته فمن بعدهم ولا ينافيه ما روي عنه من النسخ فلا مانع من أن يكون قد نزل القرآن في مكة بأن يوده كفار قريش لما بينه وبين قريش من القربى ويحفظوه بها ثم ينسخ ذلك ويذهب هذا الاستثناء من أصله كما يدل عليه ما ذكرنا مما يدل على أنه لم يسأل على التبليغ أجراً على الإطلاق.

ولا يقوى ما روي من حملها على آل محمد صلى الله عليه وسلم على معارضته ما صح عن ابن عباس من تلك الطرق الكثيرة، وقد أغنى الله آل محمد عن هذا بما لهم من الفضائل الجليلة والمزايا الجميلة، وقد بينا ذلك عند تفسيرنا لقوله ﴿إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ وكما لا يقوى هذا على المعارضة فكذلك لا يقوى ما روي عنه أن المراد بالمودة أن يودوا الله، وأن يتقربوا إليه بطاعته، ولكنه يشد من عضد هذا انه تفسير مرفوع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

﴿ومن يقترب﴾ أي يكتسب وأصل القرب الكسب يقال فلان يقرب لعياله من باب ضرب أي يكسب والاقتراف الاكتساب مأخوذ من قولهم رجل قرفة إذا كان محتالاً ﴿حسنة﴾ أي طاعة (نزد له فيها) أي في هذه الحسنة أو في الجنة ﴿حسناً﴾ بمضاعفة ثوابها، قال مقاتل المعنى من يكتسب حسنة واحدة نزد له فيها حسناً نضاعفها بالواحدة عشراً فصاعداً. وقيل المراد بهذه الحسنة هي المودة في القربى، والحمل على العموم أولى، ويدخل تحته المودة في القربى دخولاً أولاً لذكرها عقيب ذكر المودة في القربى وقال ابن عباس إنها المودة في آل رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقال السدي إنها نزلت في أبي بكر ومودته فيهم والظاهر العموم.

﴿إن الله غفور شكور﴾ أي كثير المغفرة للمذنبين كثير الشكر للمطيعين قال قتادة : غفور للذنوب شكور للحسنات . وقال السدي : غفور للذنوب آل محمد صلى الله عليه وسلم شكور للقليل فيضاعفه .

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يُخْتِمَ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُخَيِّقُ الْحَقَّ
يَكَلِمَتِهِ إِنَّهُ عَلِيمُ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ
السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا نَفَعَلُوا ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ۚ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ
لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾

﴿أم﴾ منقطعة أي بل أ ﴿يقولون افترى﴾ أي اختلق ﴿على الله كذباً﴾
بدعوى النبوة ونسبة القرآن إلى الله تعالى، والإنكار للتوحيخ، ثم أجاب
سبحانه عن قولهم هذا فقال: ﴿فإن يشأ الله يختم على قلبك﴾ أي لو افترى
على الله الكذب لشاء عدم صدوره منه، وختم على قلبه بحيث لا يخطر بباله
شيئاً مما كذب فيه كما تزعمون، قال قتادة يختم على قلبك فينسيك القرآن
فأخبرهم أنه لو افترى عليه لفعل به ما أخبرهم به في هذه الآية.

وقال مجاهد ومقاتل: إن يشأ يربط على قلبك بالصبر على أذيتهم حتى لا
يدخل قلبك مشقة من قولهم وقيل: الخطاب له والمراد الكفار، أي إن يشأ
يختم على قلوب الكفار ويعاجلهم بالعقوبة، ذكره القشيري وقيل: المعنى لو
حدثتك نفسك أن تفترى على الله كذباً لطبع على قلبك: فإنه لا يجترئ على
الكذب إلا من كان مطبوعاً على قلبه، والأول أولى، والمقصود، من هذا
الكلام المبالغة في تقرير الاستبعاد.

﴿ويمحو الله الباطل﴾ استئناف مقرر لما قبله من نفي الافتراء غير داخل
في جزاء الشرط، قال ابن الأنباري: يختم على قلبك تام وما بعده مستأنف،

وقال الكسائي: فيه تقديم وتأخير، أي والله يمحو الباطل، وقال الزجاج: ويمحو الله الباطل احتجاجاً على من أنكر ما أتى به النبي صلى الله عليه وسلم، أي لو كان ما أتى به باطلاً لمحاه كما جرت به عادته في المفتريين؛ وسقطت الواو من يمحو في بعض المصاحف كما حكاها الكسائي.

﴿ويحق الحق﴾ أي الإسلام فيبينه ﴿بكلماته﴾ أي بما أنزله من القرآن وقد فعل الله تعالى ذلك فمحاه باطلهم. وأعلى كلمة الإسلام ﴿إنه عليم بذات الصدور﴾ أي عالم بما في قلوب العباد.

﴿وهو الذي يقبل التوبة عن عباده﴾ المذنبين أي يقبل توبتهم إليه مما عملوا من المعاصي، واقتربوا من السيئات والتوبة الندم على المعصية والقلع عنها والعزم على عدم المعاودة لها، وهذه ثلاثة شروط فيما بينه وبين الله تعالى فإذا حصلت هذه الشروط صحت التوبة، وإن فقد أحد الثلاثة لم تصح، وأما فيما يتعلق بحق آدمي فشروطها أربعة هذه الثلاثة، والرابع أن يبرأ من حق صاحبها، وقيل: يقبل التوبة عن أوليائه وأهل طاعته، والأول أولى، فإن التوبة مقبولة من جميع العباد مسلمهم وكافرهم إذا كانت صحيحة صادرة عن خلوص نية وعزيمة صحيحة والأحاديث في ذكر التوبة وحكمها كثيرة في الصحيحين وغيرها.

﴿ويعفو عن السيئات﴾ على العموم لمن تاب عن سيئة، ويعفو لمن يشاء بلا توبة أيضاً إذا كان ما دون الشرك ﴿ويعلم ما تفعلون﴾ من خير وشر فيجازي كلاً بما يستحقه قرأ حمزة وغيره تفعلون بالفوقية على الخطاب وقرئ بالتحتية على الخبر، وهما سبعيتان، واختار الثانية أبو عبيد وأبو حاتم لأن هذا الفعل وقع بين خبرين.

﴿ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي يعطيهم ما طلبوه منه يقال أجب واستجاب بمعنى وقيل المعنى تقبل عبادة المخلصين وقيل التقدير يستجيب لهم فحذف اللام كما حذف في قوله: ﴿وإذا كالوهم﴾ أي كالوا لهم وقيل إن

الموصول في محل رفع أي يجيبون ربهم إذا دعاهم ، كقوله ﴿استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم﴾ واستظهره السفاقي ، قال المبرد المعنى يستدعي الذين آمنوا الإجابة هكذا حقيقة معنى استفعل ، فالذين في موضع رفع والأول أولى ﴿ويزيدهم﴾ على ما طلبوه ﴿من فضله﴾ أو على ما يستحقونه من الثواب تفضلاً منه ، وقيل يشفعهم في إخوانهم ﴿والكافرون لهم عذاب شديد﴾ هذا للكافرين مقابلاً لما ذكره للمؤمنين فيما قبله .

﴿ولو بسط الله الرزق لعباده﴾ جميعهم ، أي لو وسع الله لهم رزقهم ﴿لبغوا﴾ أي لعصوا وطفخوا جميعهم ﴿في الأرض﴾ ويطروا النعمة وتكبروا وطلبوا ما ليس لهم طلبه ، لأن الغنى مبطرة مأسرة ، وكفى بحال قارون وفرعون عبرة وقيل المعنى لو جعلهم سواء في الرزق لما انقاد بعضهم لبعض ولتعطلت الصنائع ، والأول أولى ، والظاهر عموم أنواع الرزق وقيل هو المطر خاصة وذكروا في كون بسط الرزق موجباً للطغيان وجوهاً لا نطول بذكرها ؛ وأصل البغي طلب تجاوز الاقتصاد فيما يتحرى كمية أو كيفية ، وفي القرطبي بغيمهم طلبهم منزلة بعد منزلة ، ودابة بعد دابة ، ومركباً بعد مركب ، وملبساً بعد ملابس .

﴿ولكن ينزل﴾ بالتشديد وضده سبعيتان ﴿بقدر ما يشاء﴾ أي ينزل من الرزق لعباده بتقدير على حسب مشيئته ، وما تقتضيه حكمته البالغة ﴿إنه بعباده﴾ أي بأحوالهم ﴿خير بصير﴾ بما يصلحهم من توسيع الرزق وتضييقه فيقدر لكل أحد منهم ما يصلحه ويكفيه عن الفساد بالبغي في الأرض ويقدر لهم ما تقتضيه حكمته ، فيفقر ويغني ، ويمنع ويعطي ، ويبسط ويقبض ، ولو أغناهم جميعاً لبغوا ، ولو أفقرهم هلكوا ، وما ترى من البسط على من يبغي ، ومن البغي بدون البسط فهو قليل ، ولا شك أن البغي مع الفقر أقل ومع البسط أكثر وأغلب ، عن أبي هانئ الخولاني قال : سمعت عمرو بن خريت وغيره يقولون : « إنما أنزلت هذه الآية في أصحاب الصفة وذلك أنهم قالوا لو أن لنا فتمنوا الدنيا » قال السيوطي سنده صحيح وعن علي « مثله » .

وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ ۚ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾
 وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَابَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ
 قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ
 ﴿٣٠﴾ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾

﴿ وهو الذي ينزل ﴾ بالتشديد والتخفيف سبعيتان ﴿ الغيث ﴾ أي المطر الذي هو أرفع أنواع الرزق وأعمها فائدة ، وأكثرها منفعة ومصلحة ﴿ من بعدما قنطوا ﴾ أي أيسوا عن ذلك ، فيعرفون بهذا الإنزال للمطر بعد القنوط مقدار رحمته لهم ويشكرون له ما يجب الشكر عليه ، والعامّة على فتح النون ، وقرىء بكسرهما وهي لغة ، وعليها قرىء لا تقنطوا بفتح النون في المتواتر ولم يقرأ بالكسر في الماضي إلا شاذاً وما مصدرية أي من بعد قنوطهم .

﴿ وينشر رحمته ﴾ أي بركات الغيث ومنافعه في كل شيء من السهل والجبل ، والنبات والحيوان ، وما يحصل به من الخصب أو رحمته الواسعة المنتظمة لما ذكر انتظاماً أولاً ، والمراد بالرحمة المطر ، فذكر المطر بإسمين الغيث لأنه يغيث من الشدائد ، والرحمة لأنه رأفة وإحسان .

﴿ وهو الولي ﴾ للصالحين من عباده بالإحسان وجلب المنافع لهم ودفع الشرور عنهم ﴿ الحميد ﴾ المستحق للحمد منهم على إنعامه خصوصاً وعموماً ، ثم ذكر سبحانه بعض آياته الدالة على كمال قدرته الموجبة لتوحيده وصدق ما وعد به من البعث فقال :

﴿ ومن آياته خلق السموات والأرض ﴾ أي خلقهما على هذه الكيفية العجيبة ، والصنعة الغريبة ، الدالة على وجود صانع حكيم قادر ، وفيه إشارة إلى ما قرر في الكلام من المسالك الأربعة في الاستدلال على وجود الصانع تعالى ، وهي حدوث الجواهر ، وإمكانها ، وحدوث الأعراض القائمة بها ،

وإمكانها أيضاً ، وفيه إشارة أيضاً إلى أن خلق السموات والأرض من إضافة الصفة للموصوف ، أي السموات المخلوقة والأرض المخلوقة .

﴿ وما بث فيها من دابة ﴾ يجوز عطفه على خلق بتقدير مضاف ، ويجوز عطفه على السموات ، وقدمه القاضي على الأول والدابة اسم لكل ما دب ، قال الفراء أراد ما بث في الأرض دون السماء كقوله ﴿ يخرج منها اللؤلؤ والمرجان ﴾ وإنما يخرج من الملح دون العذب وقال أبو علي الفارسي : تقديره وما بث في أحدهما فحذف المضاف ، قال مجاهد : يدخل في هذا الملائكة والناس ، وقد قال تعالى ﴿ ويخلق ما لا تعلمون ﴾ قال الكرخي وما جوزه الزمخشري من أن يكون للملائكة مشي مع الطيران فيوصفون بالديب كما وصف به الأناسي أو يخلق الله تعالى في السموات حيوانات يمشون فيها مشي الأناسي على الأرض بعيد من الأفهام لكونه على خلاف العرف العام ولأن الشيء إنما يكون آية إذا كان معلوماً ظاهراً مكشوفاً ومن ثم أهمل القاضي ذكره .

﴿ وهو على جمعهم ﴾ أي حشرهم يوم القيامة ، في الضمير تغليب العاقل على غيره ، لأنه راجع إلى الدابة ، ولولاه لكان يقال : على جمعها ﴿ إذا ﴾ أي في وقت ﴿ يشاء قدير ﴾ والظرف متعلق بجمعهم لا بقدير ، فإن المقيد بالمشيئة جمعه تعالى لا قدرته ؛ قال أبو البقاء . لأن ذلك يؤدي إلى أن يصير المعنى : وهو على جمعهم قدير إذا يشاء فتعلق القدرة بالمشيئة وهو محال ، قال شهاب الدين والسمين ولا أدري ما وجه كونه محالاً على مذهب أهل السنة فإن كان يقول بقول المعتزلة وهو أن القدرة تتعلق بما لم يشأ الله ثمشي كلامه ولكنه مذهب رديء لا يجوز اعتقاده .

﴿ وما أصابكم من مصيبة ﴾ من المصائب كائنة ما كانت ﴿ فيما ﴾ أي بسبب ما ﴿ كسبت أيديكم ﴾ من المعاصي ، وما هي الشرطية ، ولذا دخلت الفاء في جوابها على قراءة الجمهور ، ولا يجوز حذفها عند سيبويه ، وجوز الأخفش وبعض البغداديين الحذف كما في قوله ﴿ وإن أطعتموهم إنكم

لمشركون ﴿ وبه قال أبو البقاء ، وقيل : هي الموصولة فيكون الحذف والإثبات جائزين ، والأول أولى .

قال الزجاج : إثبات الفاء أجود لأن الفاء مجازات جواب الشرط ومن حذف الفاء فعلى أن ما في معنى الذي ، والمعنى الذي أصابكم وقع بما كسبت أيديكم ، وعبر بالأيدي لأن أكثر الأفعال تزاوّل بها وتعالج وتحصل .

قال الحسن : المصيبة هنا الحدود على المعاصي ، والأولى الحمل على العموم كما يفيد وقوع النكرة في سياق النفي ، ودخول من الاستغرافية عليها قال الضحاك : ماتعلم الرجل القرآن ثم نسيه إلا بذنب ، ثم قرأ هذه الآية وقال أي مصيبة أعظم من نسيان القرآن . قلت ويلحق بالقرآن نسيان السنة المطهرة . وترك العمل بها وإيثار الرأي عليها أيضاً ، عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه قال ألا أخبركم بأفضل آية في كتاب الله حدثنا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ « وما أصابكم من مصيبة الآية وسأفسرها لك يا علي ما أصابكم من مرض أو عقوبة أو بلاء في الدنيا فيما كسبت أيديكم ، والله أكرم من أن يثني عليكم العقوبة في الآخرة ، وما عفا الله عنه في الدنيا فالله أكرم من أن يعود بعد عفوّه » .

أخرجه أحمد وابن راهويه وابن منيع وعبد بن حميد والحكيم الترمذي وأبو يعلى وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم ، قيل : المراد بهذه المصائب الأحوال المكروهة ، نحو الأوجاع والأسقام والقحط والبلاء والغرق والصواعق وغير ذلك ، من الذنوب والمعاصي وتعلق بهذه الآية من يقول بالتناسخ ، وقال : لو لم يكن للأطفال حالة كانوا عليها قبل هذه الحالة لما تألموا ، والحق أن الآية مخصوصة بالمكلفين بالسياق والسباق .

﴿ و ﴾ هو ﴿ يعفو عن كثير ﴾ أي من المعاصي التي يفعلها العباد ، فلا يعاقب عليها أو عن كثير من الناس فلا يعاجلهم بالعقوبة فمعنى الآية أنه يكفر عن العبد بما يصيبه من المصائب ويعفو عن كثير من الذنوب وقد أثبت بالأدلة الصحيحة أن جميع ما يصاب به الإنسان في الدنيا يؤجر عليه أو يكفر عنه من

ذنوبه وقيل هذه آية مختصة بالكافرين على معنى أن ما يصابون به بسبب ذنوبهم من غير أن يكون ذلك مكفراً عنهم لذنوب ولا محصلاً لثواب ويترك عقوبتهم عن كثير من ذنوبهم فلا يعاجلهم في الدنيا بل يمهلهم إلى الدار الآخرة والأولى حمل الآية على العموم ، والعفو يصدق على تأخير العقوبة ، كما يصدق على محو الذنب ورفع الخطأ به .

وقال الواحدي وهذه أرجى آية في كتاب الله لأنه جعل ذنوب المؤمنين صنفين ، صنف كفره عنهم بالمصائب ، وصنف عفا عنه في الدنيا وهو كريم لا يرجع في عفوه ، فهذه سنة الله مع المؤمنين ، وأما الكافر فإنه لا يعجل له في الدنيا عقوبة ذنبه حتى يوافي به يوم القيامة ، وعن أبي موسى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا تصيب عبداً نكبة فما فوقها أو دونها إلا بذنب وما يعفو الله عنه أكثر ، وقرأ وما أصابكم الآية » أخرجه الترمذي وعبد بن حميد وعن عمران ابن حصين أنه دخل عليه بعض أصحابه وكان قد ابتلى في جسده فقال إنا لنبتئس لك لما نرى فيك ، قال فلا تبتئس لما ترى ، فإن ما ترى بذنب ، وما يعفو الله عنه أكثر ، ثم تلا هذه الآية إلى آخرها وعن معاوية بن أبي سفيان سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ما من شيء يصيب المؤمن في جسده يؤذيه إلا كفر الله به عنه من سيئاته » ، أخرجه أحمد وعن البراء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما عثرة قدم ، ولا اختلاج عرق . ولا خدش عود . إلا بما قدمت أيديكم وما يعفو الله أكثر أخرجه ابن مردويه .

﴿ وما أنتم بمعجزين في الأرض ﴾ أي بفائتين ما قضاء عليهم هرباً في الأرض ولا في السماء لو كانوا فيها ، بل ما قضاء عليهم من المصائب واقع عليهم نازل بهم ﴿ وما لكم من دون الله من ولي ﴾ أي واليكم فيمنع عنكم ما قضاء الله ﴿ ولا نصير ﴾ بنصركم من عذاب الله في الدنيا ولا في الآخرة ، ثم ذكر سبحانه آية أخرى من آياته العظيمة الدالة على توحيده وصدق ما وعد به فقال :

وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٣٢﴾ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ
 إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوقِفَهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ
 الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَّخِصٍ ﴿٣٥﴾ فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ
 اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾

﴿ ومن آياته الجوار ﴾ بحذف الياء من الخط لأنها من يآآت الزوائد وبإثباتها وحذفها في اللفظ في كل من الوصل والوقف قراءات سبعة ؛ وهي السفن ، واحدها جارية أي سائرة ﴿ في البحر كالأعلام ﴾ أي الجبال جمع علم ؛ وهو الجبل ؛ قال الخليل : كل شيء مرتفع عند العرب فهو علم وقال مجاهد : الأعلام القصور واحدها علم .

﴿ إِنْ يَشَأْ ﴾ قرأ الجمهور بالهمز وقرىء بلا همز ﴿ يسكن الريح ﴾ قرأ الجمهور بالافراد وقرىء بالجمع والمعنى يسكن الريح التي تجري بها السفن ﴿ فيظللن ﴾ أي السفن الجواري . العامة على فتح اللام التي هي عين الفعل ؛ وهو القياس لأن الماضي بكسرها ؛ وقرىء بكسرها ؛ وهو شاذ ، وقال الزنجشيري : من ظل يظل ويظل نحوضل يضل ويضل ؛ قال الشيخ : وليس كما ذكر ؛ لأن يضل بفتح العين من ضللت بكسرها في الماضي ، ويضل بالكسر من ضللت بالفتح وكلاهما مقيس يعني أن كلا منهما له أصل يرجع إليه ، بخلاف ظل فان ماضيه مكسور العين فقط ، وظل هنا بمعنى صار ، لان المعنى ليس على وقت الظلول وهو النهار فقط ، أفاده السمين .

﴿ رواكد ﴾ أي سواكن ثوابت وقوفاً يقال ركد الماء ركوداً سكن وكذلك ركدت الريح وركدت السفينة وكل ثابت في مكان فهو راكد وركد الميزان استوى ، وركد القوم هداؤا والمراكذ المواضع التي يركد فيها الإنسان وغيره ﴿ على ظهره ﴾ أي ظهر البحر لا تجري ، قال ابن عباس : يتحركن ولا

يجرين في البحر ﴿ إن في ذلك ﴾ الذي ذكر من أمر السفينة ﴿ آيات ﴾ دلالات عظيمة ﴿ لكل صبار شكور ﴾ أي لكل من كان كثير الصبر على البلوى كثير الشكر على النعماء ، قيل الإيمان نصفان نصف صبر عن المعاصي ونصف شكر وهو الإتيان بالواجبات ، وقال قطرب : الصبار الشكور الذي إذا أعطى شكر ، وإذا ابتلى صبر ، قال عون ابن عبد الله فكم من منعم عليه غير شاكر وكم من مبتلى غير صابر .

﴿ أو يوبقهن ﴾ أي يهلكهن بالغرق قاله ابن عباس والمراد أهلكهن يقال أوبقه أي أهلكه ﴿ بما كسبوا ﴾ من الذنوب ، وقيل بما أشركوا والأول أولى ، فإنه يهلك في البحر المشرك وغير المشرك ﴿ ويعف عن كثير ﴾ من أهلها بالتجاوز عن ذنوبهم ؛ فينجيهم من الغرق ، قرأ الجمهور يعف بالجزم عطفاً على جواب الشرط ، قال القشيري ، وفي هذه القراءة إشكال لأن المعنى إن يشأ يسكن الريح فتبقى تلك السفن رواكد ، أو يهلكها بذنوب أهلها ، فلا يحسن عطف ﴿ ويعف ﴾ على هذا لأنه يصير المعنى إن يشأ يعف ، وليس المعنى ذلك بل المعنى الإخبار عن العفو من غير شرط المشيئة ، فهو إذن عطف على المجزوم من حيث اللفظ ، لا من حيث المعنى ، وقد قرأ قوم يعفو بالرفع وهي جيدة في المعنى ، قال أبو حيان : وما قاله ليس بجيد إذ لم يفهم مدلول التركيب ، والمعنى ألا إنه تعالى إن يشأ أهلك ناساً وأنجي ناساً على طريق العفو عنهم ، وقرئ بالنصب بإضمار إن بعد الواو .

﴿ ويعلم الذين يجادلون في آياتنا ﴾ قرأ الجمهور بنصب يعلم ، قال الزجاج على الصرف ، قال : ومعنى الصرف صرف العطف على اللفظ إلى العطف على المعنى ، قال : وذلك أنه لما لم يحسن عطف ويعلم مجزوماً على ما قبله إذ يكون المعنى إن يشأ يعلم ، عدل إلى العطف على مصدر الفعل الذي قبله ، ولا يتأتى ذلك إلا بإضمار إن ، ليكون مع الفعل في تأويل اسم ، وكما قال الزجاج : قال المبرد وأبو علي الفارسي : واعترض على هذا الوجه بما لا طائل تحته ، وقيل النصب على العطف على تعليل محذوف ، والتقدير ليتنقم

منهم ويعلم واعترضه الحفناوي بأنه ترتب على الشرط إهلاك قوم ونجاة قوم ، فلا يحسن تقدير لينتقم منهم .

وقرأ نافع وابن عامر برفع يعلم على الاستثناف ، أي على أنه جملة إسمية أو فعلية ، فعلى كونها فعلية يكون الموصول فاعلاً ، وعلى كونها إسمية يكون مفعولاً والفاعل ضمير مستتر يعود على مبتدأ مقدر ، أي وهو يعلم الذين ، وهي قراءة ظاهرة واضحة اللفظ ، وقرئ بالجزم عطفاً على المجزوم قبله على معنى : وإن يشأ يجمع بين الإهلاك والنجاة والتحذير .

ومعنى قوله : ﴿ ما لهم من محيص ﴾ ما لهم من فرار ولا مهرب من العذاب قاله قطرب وقال السدي : ما لهم من ملجأ وهو مأخوذ من قولهم : حاص به البعير حيصة إذا رمى به ، ومنه قولهم ، فلان يحيص عن الحق أي يميل عنه ثم لما ذكر سبحانه دلائل التوحيد ذكر التنفير عن الدنيا فقال :

﴿ فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا ﴾ أي ما أعطيتكم أيها الناس من الغنى والسعة في الرزق وأثاث الدنيا فإنما هو متاع قليل يتمتع به في أيام قليلة تنقضي وتذهب وتزول .

إنما الدنيا فناء ليس للدنيا ثبوت
إنما الدنيا كبيت نسجته العنكبوت

ثم رغبهم في ثواب الآخرة وما عند الله من النعيم المقيم فقال : ﴿ وما عند الله ﴾ من ثواب الطاعات والجزاء عليها بالجنات هو ﴿ خير ﴾ من متاع الدنيا ﴿ وأبقى ﴾ لأنه دائم لا ينقطع ومتاع الدنيا ينقطع بسرعة ، ثم بين سبحانه لمن هذا فقال .

﴿ للذين آمنوا ﴾ أي صدقوا وعملوا على ما يوجبه الإيمان ﴿ وعلى ربهم ﴾ لا على غيره ﴿ يتوكلون ﴾ أي يفوضون إليه أمورهم ويعتمدون عليه في كل شؤونهم ، قيل : « نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه حين تصدق بجميع ماله ، ولأومه الناس » .

وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾

﴿والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش﴾ الموصول في محل جر معطوف على الذين آمنوا ، أو بدل منه ، أو في محل نصب على إضمار أعني ، والأول أولى ، والمراد الكبائر من الذنوب وقد قدمنا تحقيقها في سورة النساء ، قرأ الجمهور كبائر بالجمع وقرئ كبير بالإفراد وهو يفيد مفاد كبائر لأن الإضافة للجنس كاللام ، والرسم الكريم يحتمل القراءتين ؛ والفواحش هي من الكبائر ، ولكنها مع وصف كونها فاحشة كأنها فوقها ، وذلك كالقتل والزنا ونحو ذلك ، وقال مقاتل : الفواحش موجبات الحدود ؛ وقال السدي هي الزنا فعطفها من عطف الخاص على العام ، والبعض على الكل إذ الكبائر قد لا توجب الحد كالغيبة والنميمة .

﴿وإذا ما غضبوا هم يغفرون﴾ أي يتجاوزون عن الذنب الذي أغضبهم ويكظمون الغيظ ويحلمون على من ظلمهم وخص الغضب بالغفران ، لأن استيلاءه على طبع الإنسان وغلبته عليه شديدة فلا يغفره عند سورة الغضب إلا من شرح الله صدره ، وخصه بمزيد الحلم ، ولهذا أثنى الله سبحانه عليهم بقوله في آل عمران ﴿والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس﴾ قال ابن زيد : جعل الله المؤمنين صنفين صنفاً يعفون عن ظالمهم فبدأ بذكرهم : وصنفاً ينتصرون من ظالمهم وهم الذين سيأتي ذكرهم .

﴿والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة﴾ أي أجابوه إلى ما دعاهم

إليه وأقاموا ما أوجبه عليهم من فريضة الصلاة ، قال ابن زيد هم الأنصار بالمدينة استجابوا إلى الإيمان بالرسول حين أنفذ إليهم اثني عشر نقيباً منهم قبل الهجرة وأقاموا الصلاة لمواقيتها بشروطها وهيئاتها قاله القرطبي ، ونحوه البيضاوي .

﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾ أي يتشاورون فيما بينهم ولا يعجلون ولا ينفردون بالرأي ، والشورى مصدر شاورته مثل البشرى والقربى ، قال الضحاك : هو تشاورهم حين سمعوا بظهور رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وورد النقباء إليهم حين اجتمع رأيهم في دار أبي أيوب على الإيمان به ، والنصرة له ، وقيل : المراد تشاورهم في كل أمر يعرض لهم فلا يستأثر بعضهم على بعض برأي ، قال ابن العربي : الشورى ألفة للجماعة ، وسبار للعقول ، وسبب إلى الصواب ، وما تشاور قوم قط إلا هدوا ، فمدح الله تعالى المشاورة في الأمور بمدح القوم الذين كانوا يمثلون ذلك وما أحسن ما قاله بشار بن برد :

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن برأي نصيح أو نصيحة حازم
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة فريش الخوافي قوة للقدام

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشاور أصحابه في أموره ، وأمره الله سبحانه بذلك فقال : ﴿ وشاورهم في الأمر ﴾ وذلك في الآراء كثير ، ولم يكن يشاورهم في الأحكام لأنها منزلة من عند الله على جميع الأقسام من الفرض ، والندب والمكروه والمباح والحرام ، فأما الصحابة بعده صلى الله عليه وسلم فكانوا يتشاورون في الأحكام ، ويستنبطونها من الكتاب والسنة ، وأول ما تشاور فيه الصحابة الخلافة ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم ينص عليها وتشاوروا في أهل الردة ، فاستقر رأي أبي بكر على القتال ، وشاور عمر رضي الله عنه الهرمزان حين وفد عليه مسلماً ، وقد قدمنا في آل عمران كلاماً في الشورى .

﴿وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يُتَفَقُونَ﴾ في سبيل الخير ، ويتصدقون به على المحاييج ، ثم ذكر سبحانه الطائفة التي تنتصر من ظلمها فقال : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ﴾ أي بغى من بغى عليهم بغير الحق ﴿هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ أي ينتقمون من ظالمهم من غير تعد ، ذكر سبحانه هؤلاء المنتصرين في معرض المدح كما ذكر المغفرة عند الغضب في معرض المدح ، لأن التذلل لمن بغى ليس من صفات من جعل الله له العزة ، حيث قال ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فالانتصار عند البغي فضيلة ، كما أن العفو عند الغضب فضيلة .

قال ابن العربي ذكر الله الانتصار في البغي في معرض المدح وذكر العفو عن الجرم في موضع آخر ، في معرض المدح ، فاحتمل أن يكون أحدهما رافعاً للآخر ، أو يكون ذلك راجعاً إلى حالتين إحداهما أن يكون الباغي معلناً بالفجور مؤذياً للصغير والكبير ، فيكون الانتقام منه أفضل ، الثانية أن يقع ذلك ممن لم يعرف بالزلة ويسأل المغفرة فالعفو ههنا أفضل ، وهكذا ذكر الكيا الطبري في أحكامه .

وقال النخعي : كانوا يكرهون أن يذلوا أنفسهم فيجترى عليهم السفهاء والفساق ، لكن هذا الانتصار مشروط بالاعتصار على ما جعله الله له وعدم مجاوزته كما بينه سبحانه عقب هذا بقوله :

﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ فبين سبحانه أن العدل في الانتصار هو الاقتصار على المساواة وظاهر هذا العموم ، وقال مقاتل والشافعي وأبو حنيفة وسفيان إن هذا خاص بالمجروح ، ينتقم من الجارح بالقصاص دون غيره وقال مجاهد والسدي هو جواب القبيح إذا قال شخص أخزأك الله يقول : أخزأك الله من غير أن يعتدي ، وإذا انتصر فقد استوفى ظلامته وبرىء الأول من حقه ، وبقي عليه إثم الابتداء ، والإثم لحق الله تعالى ، وتسمية الجزاء سيئة إما لكونها تسوء من وقعت عليه أو على طريق المشاكلة لتشابهها في الصورة .

أخرج النسائي وابن ماجه وابن مردويه عن عائشة قالت : « دخلت عليّ

زينب وعندي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأقبلت عليّ فسبّني فردعها النبي صلى الله عليه وسلم فلم تنته ، فقال لي سبّتها فسبّتها حتى جف ريقها في فمها ووجه رسول الله صلى الله عليه وسلم يتهلل سروراً ، وأخرج أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي وابن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «المستبّان ما قالاً من شيء فعلى البادىء حتى يعتدي المظلوم ثم قرأ ﴿وجزاء سيئة مثلها﴾» .

﴿فمن عفا﴾ الفاء للتفريع أي إذا كان الواجب في الجزاء رعاية المماثلة من غير زيادة ، وهي عسرة جداً ، فالأولى العفو والإصلاح إذا كان قابلاً للإصلاح ، فلا يرد أنه يخالف قولهم الحلم على العاجز محمود ، وعلى المتغلب مذموم ، والمعنى من عفا عمن ظلمه .

﴿وأصلح﴾ بالعفو بينه وبين ظالمه ﴿فأجره على الله﴾ أي يأجره على ذلك لا محالة ، وأبهم الأجر تعظيماً لشأنه ، وتنبيهاً على جلالته ، قال مقاتل فكان العفو من الأعمال الصالحة ، وقد بينا هذا في سورة آل عمران ، والمقصود من الآية التحريض على العفو ، وقد عرفت التوفيق بينه وبين الانتصار .

أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كان يوم القيامة أمر الله منادياً ينادي ألا ليقيم من كان له على الله أجر ، فلا يقوم إلا من عفا في الدنيا ، وذلك قوله فمن عفا الآية .

وأخرج البيهقي عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ينادي مناد من كان له أجر على الله فليدخل الجنة مرتين فيقوم من عفا عن أخيه قال الله تعالى : فمن عفى الآية ثم ذكر سبحانه خروج الظلمة عن محبته التي هي سبب الفوز والنجاة فقال ﴿إنه لا يحب الظالمين﴾ يعني من يبدأ بالظلم قاله مقاتل وبه قال سعيد بن جبير وقيل: لا يحب من يتعدى في الاقتصاص . ويجاوز الحد فيه لأن المجاوزة ظلم .

وَلَمَنْ أَنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ
وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ
لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾

﴿ولمن انتصر بعد ظلمه﴾ مصدر مضاف إلى المفعول ، أي بعد أن ظلمه الظالم واللام هي لام الابتداء وقال الحوفي وابن عطية هي لام القسم وليس بجيد بل الأول أولى ، ومن هي الشرطية وجوابه ﴿فأولئك ما عليهم من سبيل﴾ بمواخذاً وعقوبة لأنهم فعلوا ما هو جائز لهم ، وقيل من موصولة ، والأول أولى . وفي القرطبي : الآية دليل على أن له يستوفي ذلك بنفسه ، وهذا ينقسم ثلاثة أقسام وذكرها في حاشية الجمل لا نطول ببسطها فمحلها كتب الفقه دون التفاسير ، ولما نفى سبحانه السبيل على من انتصر بعد ظلمه بين من عليه السبيل فقال :

﴿إنما السبيل على الذين يظلمون الناس﴾ أي يتعدون عليهم ابتداء كذا قال الأكثر ، وقال ابن جريج : أي يظلمونهم بالشرك المخالف لدينهم ﴿ويبغون في الأرض﴾ أي يعملون في النفوس والأموال ﴿بغير الحق﴾ كذا قال الأكثر قيد به لأن البغي قد يكون مصحوباً بحق كالانتصار المقتصر بالتعدي فيه ، وقال مقاتل : بغيتهم عملهم بالمعاصي ، وقيل : يتكبرون ويتجبرون ؛ وقال أبو مالك : هو ما يرجوه أهل مكة أن يكون بمكة غير الإسلام ديناً .

﴿أولئك﴾ أي الذين يظلمون الناس ﴿لهم﴾ بهذا السبب ﴿عذاب أليم﴾ شديد الألم ثم رغب سبحانه في الصبر والعفو فقال : ﴿ولمن صبر

وغفر ﴿كرره اهتماماً بالصبر وترغيباً فيه ، والصبر هنا هو الإصلاح المتقدم . فأعيد هنا وعبر عنه بالصبر ، لأنه من شأن أولي العزم وإشارة إلى أن العفو المحمود ما نشأ عن التحمل ، لا عن العجز ، والمعنى ومن صبر على الأذى وغفر لمن ظلمه لوجه الله ولم ينتصر ، وهذا فيمن ظلمه مسلم .

ويحكى أن رجلاً سب رجلاً في مجلس الحسن رحمه الله فكان المسبوب يكظم ويعرق فيمسح العرق ، ثم قام فتلا هذه الآية ، فقال الحسن عقلمها والله وفهمها إذ ضيعها الجاهلون ، وبالجملّة العفو مندوب إليه ثم قد ينعكس في بعض الأحوال فيرجع ترك العفو مندوباً إليه كما تقدم ، وذلك إذا احتيج إلى كف زيادة البغي ، وقطع مادة الأذى .

﴿إن ذلك﴾ الصبر والمغفرة منه وحذف الراجع لأنه مفهوم كما حذف من قولهم السمن منوان بدرهم ﴿لمن عزم الأمور﴾ قال مقاتل: أي من الأمور التي أمر الله بها ، وندب إليها ، أو مما ينبغي أن يوجهه العاقل على نفسه ولا يترخص في تركه قال أبو سعيد القرشي الصبر على المكارة من علامات الانتباه فمن صبر على مكروه يصيبه ولم يجزع أورثه الله تعالى حال الرضاء ، وهو أجل الأحوال ومن جزع من المصيبات وشكا وكله الله تعالى إلى نفسه ، ثم لم تنفعه شكواه .

وقال الزجاج الصابر يؤق بصبره ثواباً فالرغبة في الثواب أتم عزمًا قال ابن زيد إن هذا كله منسوخ بالجهاد ، وأنه خاص بالمشركين ، وقال قتادة إنه عام ، وهو ظاهر النظم القرآني ، وقال هنا بلام التوكيد ، وفي لقمان بدونها لأن الصبر على مكروه حدث بظلم كقتل ولد أشد من الصبر على مكروه حدث بلا ظلم كموت ولد ، كما أن العزم على الأول أكد منه على الثاني ، وما هنا من القبيل الأول فكان أنسب بالتوكيد ، وما في لقمان القبيل الثاني فكان أنسب بعدمه ، أفاده الكرخي .

وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ، مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ ۖ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرْتَهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعَاتٍ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا إِلَّا أَلْبَلَغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مَتَارَحِمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾

﴿ومن يضلل الله﴾ أي يخذله ﴿فما له من ولي من بعده﴾ أي فما له من أحد يلي هدايته وينصره ، وظاهر الآية العموم ، وقيل هي خاصة بمن أعرض عن النبي صلى الله عليه وسلم ولم يعمل بما دعاه إليه من الإيمان بالله والعمل بما شرعه الله والمودة في القربى ، أي فمن أضله الله عن هذه الأشياء فلا يهديه هاد ، قاله القرطبي والأول أولى .

﴿وترى﴾ الخطاب في الموضعين لكل من تتأق منه الرؤية والرؤية فيهما بصرية ، والجملة الواقعة بعد كل منهما حالية ﴿الظالمين﴾ أي المشركين المكذبين بالبعث ﴿لما رأوا العذاب﴾ أي حين نظروا النار ، وقيل نظروا ما أعده الله لهم عند الموت ، واختير لفظ الماضي للتحقيق ﴿يقولون : هل إلى مرد من سبيل﴾ أي هل إلى الرجعة إلى الدنيا من طريق ؟

﴿وتراهم يعرضون عليها﴾ أي على النار ﴿خاشعين من الذل﴾ أي ساكنين متواضعين من أجله ﴿ينظرون﴾ إليها ﴿من طرف خفي﴾ أي ذليل ، فإله ابن عباس ، ومن هي لابتداء الغاية ، أي يبتدىء نظرهم إلى النار ، ويجوز أن تكون تبعية ، وقال يونس : من بمعنى الباء ، أي ينظرون بطرف ضعيف من الذل والخوف ، وبه قال الأخفش ، والطرف الخفي الذي يخفي نظره كالمصبور ينظر إلى السيف لما لحقهم من الذل والخوف والوجل قال مجاهد : وإنما ينظرون بقلوبهم لأنهم يحشرون عمياً وعين القلب طرف خفي وقال قتادة وسعيد بن جبير والسدي ومحمد بن كعب القرظي : يسارقون النظر إلى النار من شدة الخوف .

﴿وقال الذين آمنوا إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم﴾ أي إن الكاملين في الخسران هم هؤلاء الذين جمعوا بين خسران الأنفس والأهلين بتخليدهم في النار ﴿يوم القيامة﴾ إما ظرف لخسروا فالقول في الدنيا أو لقال فالقول في القيامة ، ويكون التعبير عنه بالماضي للدلالة على تحقق وقوعه قاله أبو السعود وأما خسرانهم لأنفسهم فلكونهم صاروا في النار معذبين بها ، وأما خسرانهم لأهليهم فلأنهم إن كانوا معهم في النار فلا يتفعون بهم وإن كانوا في الجنة فقد حيل بينهم وبينهم ، وقيل خسران الأهل أنهم لو آمنوا لكان لهم في الجنة أهل من الحور العين .

﴿ألا إن الظالمين في عذاب مقيم﴾ هذا من تمام كلام المؤمنين ، أو من كلام الله سبحانه أي هم في عذاب دائم لا ينقطع ﴿وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله﴾ أي لم يكن لهم أعوان يدفعون عنهم العذاب ، وأنصار ينصرونهم في ذلك الموطن من دون الله ، بل هو المتصرف سبحانه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ﴿ومن يضلل الله فما له من سبيل﴾ أي من طريق

يسلكها إلى النجاة ، ثم أمر سبحانه عباده بالاستجابة وحذرهم فقال :

﴿ استجيبوا لربكم ﴾ أي استجيبوا لدعوته لكم إلى الإيمان به وبكتبه ورسله ﴿ من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله ﴾ أي لا يقدر أحد على رده ودفعه على معنى من قبل أن يأتي من الله يوم لا يرده أحد ، ولا يرده الله بعد^(١) كالأليم بمعنى المؤلم ، أي لا تجدون يومئذ منكراً لما ينزل بكم من العذاب حكاه ابن أبي حاتم ، وقاله الكلبي وغيره : والأول أولى قال الزجاج . معناه أنهم لا يقدر أن ينكروا الذنوب التي يوقفون عليها .

﴿ فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً ﴾ أي حافظاً تحفظ أعمالهم الصادرة عنهم حتى تحاسبهم عليها ولا موكلاً بهم رقيباً عليهم ، لتقهرهم على امتثال ما أرسلناك به .

﴿ إن ﴾ أي ما ﴿ عليك إلا البلاغ ﴾ لما أمرت بإبلاغه وليس عليك غير ذلك ، وهذا منسوخ بآية السيف ، لأنه قبل الأمر بالجهاد ﴿ وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة ﴾ أي إذا أعطيناه رخاء وصحة وغنى ﴿ فرح بها ﴾ بطراً ونعم الدنيا وإن كانت عظيمة إلا أنها بالنسبة إلى سعادة الآخرة كالقطرة بالنسبة إلى البحر ، فلهذا سمي الإنعام إذاقة ، والمراد بالإنسان الجنس ولهذا قال :

﴿ وإن تصبهم سيئة ﴾ أي بلاء وشدة ومرض وفقر ﴿ بما قدمت أيديهم ﴾ من الذنوب وعبر بالأيدي لأن أكثر الأفعال تزاوَل بها ﴿ فإن الإنسان كفور ﴾ أي كثير الكفر بما أنعم به عليه من نعمه غير شكور له عليها ، وهذا باعتبار غالب جنس الإنسان ، ولم يقل : فإنه كفور ، بل وضع الظاهر موضع المضمر ليسجل على أن هذا الجنس موسوم بكفران النعم ، كما قال ﴿ إن

(١) سقط من الأصل : أن حكم به على عباده ووعدهم به ، والمراد به يوم القيامة ، أي يوم الموت ﴿ مالكم من ملجأ يومئذ ﴾ تلجأون إليه ﴿ وما لكم من نكير ﴾ أي إنكار ، يعني بل تعترفون بذنوبكم لأنها مدونة في صحائفكم وتشهد بها عليكم جوارحكم ، وقال مجاهد : مالكم من ناصر ينصركم ، وقيل : النكير بمعنى المنكر .

لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يَزْوِجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ ﴿٥١﴾

الإنسان لظلم كفار ﴿٤٩﴾ والمعنى أنه يذكر البلاء وينسى النعم ويغطيها ، ثم ذكر سبحانه سعة ملكه ونفاذ تصرفه فقال :

﴿ لله ملك السموات والأرض ﴾ أي له التصرف فيها بما يريد لا مانع لما أعطى ولا معطى لما منع ، والملك بالضم الاستيلاء على الشيء والتمكن من التصرف فيه ، وفي المصباح وملك على الناس أمرهم ملكاً من باب ضرب إذا تولى السلطنة فهو ملك والاسم الملك بضم الميم .

﴿ يخلق ما يشاء ﴾ من الخلق ﴿ يهب لمن يشاء إناثاً ﴾ بدل مفصل من مجمل أي لا ذكور معهم ، قاله مجاهد والحسن والضحاك وأبو مالك وأبو عبيدة وقال ابن عباس يريد لوطاً وشعيباً لأنهما لم يكن لهما إلا البنات .

﴿ ويهب لمن يشاء الذكور ﴾ أي لا إناث معهم ، يريد إبراهيم لأنه لم يكن له إلا الذكور ، قاله ابن عباس ، قيل : وتعريف الذكور بالألف واللام للدلالة على شرفهم على الإناث ، ويمكن أن يقال إن التقديم للإناث قد عارض ذلك فلا دلالة في الآية على المفاضلة ، بل هي مسوقة لمعنى آخر ، وقد دل على شرف الذكور قوله سبحانه :

﴿ الرجال قوامون على النساء بما فضل الله ﴾ وغير ذلك من الأدلة الدالة على شرف الذكور على الإناث ، وقيل : تقديم الإناث لكثرتهم بالنسبة إلى الذكور . وقيل : لتطيب قلوب آبائهن ، وقيل لغير ذلك مما لا حاجة إلى

التطويل بذكره ، أخرج ابن مردويه وابن عساكر عن وائلة بن الأسقع عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من بركة المرأة ابتكارها بالأُنثى لأن الله قال : يهب لمن يشاء إناثاً » إلخ .

﴿ أو يزوجهم ذكراً وإناثاً ﴾ أي يقرن بين الإناث والذكور ، ويجعلهم أزواجاً فيهبهما جميعاً لبعض خلقه يريد محمداً صلى الله عليه وسلم فإنه كان له من البنين ثلاثة على الصحيح ، القاسم وعبدالله وإبراهيم ، ومن البنات أربع زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة ، قاله ابن عباس قال مجاهد . هو أن تلد المرأة غلاماً ثم تلد جارية ، ثم تلد غلاماً ، ثم تلد جارية . وقال محمد بن الحنفية : هو أن تلد توأماً غلاماً وجارية ، وقال القتيبي التزويج هنا هو الجمع بين البنين والبنات ، تقول العرب : زوجت إبلي إذا جمعت بين الصغار والكبار ، ومعنى الآية أوضح من أن يختلف في مثله ، فإنه سبحانه أخبر أنه يهب لبعض خلقه إناثاً ويهب لبعض خلقه ذكوراً ويجمع لبعض بين الذكور والإناث .

﴿ ويجعل من يشاء عقيماً ﴾ لا يولد له ذكر ولا أنثى ، والعقيم الذي لا يولد له يريد يحيى وعيسى ، قاله ابن عباس ، وقال أكثر المفسرين : هذا على وجه التمثيل ، وإنما الحكم عام في كل الناس ، لأن المقصود بيان نفاذ قدرة الله تعالى في تكوين الأشياء كيف يشاء ، فلا معنى للتخصيص ، يقال رجل عقيم ، وامرأة عقيم ، وعقمت المرأة تعقم عقماً ، وأصله القطع ، ويقال : نساء عقم وعقماء ﴿ إنه عليم قدير ﴾ أي بليغ العلم عظيم القدرة .

﴿ وما كان لبشر ﴾ أي ما صح لفرد من أفراد البشر ﴿ أن يكلمه الله ﴾ بوجه من الوجوه ﴿ إلا وحياً ﴾ بأن يوحى إليه فيلهمه في المنام ، ويقذف في قلبه ذلك ، قال مجاهد : نفث ينفث في قلبه فيكون إلهاماً منه كما أوحى إلى أم موسى وإلى إبراهيم في ذبح ولده ، والوحي الإشارة والرسالة والكتابة ، وكل ما ألقىته إلى غيرك ليعلمه وحي ، كيف كان ، قاله ابن فارس ، وهو مصدر وحي إليه

يحي من باب وعي ، وأوحى إليه بالألف مثله ، ثم غلب استعمال الوحي فيما يلقي الى الأنبياء من عند الله تعالى ، ولغة القرآن الفاشية أوحى بالألف .

﴿ أو من وراء حجاب ﴾ كما كلم موسى يريد أن كلامه يسمع من حيث لا يرى ، وهو تمثيل بحال الملك المحتجب الذي يكلم خواصه من وراء حجاب قال ابن عباس في الآية إلا أن يبعث ملكاً يوحى إليه من عنده ، أو يلهمه فيقذف في قلبه . أو يكلمه من وراء حجاب ، وقيل : المراد به أن السامع محجوب عن الرؤية في الدنيا .

﴿ أو يرسل رسولاً ﴾ أي ملكاً ﴿ فيوحى ﴾ ذلك الملك إلى الرسول من البشر ﴿ بإذنه ﴾ أي بأمر الله وتيسيره ﴿ ما يشاء ﴾ أن يوحى إليه ، قال الزجاج : المعنى أن كلام الله للبشر إما أن يكون بإلهام يلهمهم أو يكلمهم من وراء حجاب كما كلم موسى ، أو برسالة ملك إليهم ، وتقدير الكلام ما كان لبشر أن يكلمه الله إلا أن يوحى وحياً أو يكلمه من وراء حجاب ، أو يرسل رسولاً ، ومن قرأ يرسل رفعاً أراد وهو يرسل فهو ابتداء واستئناف لها .

وقرأ الجمهور بنصب يرسل وينصب فيوحى على تقدير أن ، وتكون أن وما دخلت عليه معطوفين على ﴿ وحياً ﴾ وحياً في محل الحال ، والتقدير : إلا موحياً أو مرسلأ ولا يصح عطف أو ﴿ يرسل ﴾ على أن ﴿ يكلمه ﴾ لأنه يصير التقدير : وما كان لبشر أن يرسل الله رسولاً ، وهو فاسد لفظاً ومعنى . وقد قيل في توجيه قراءة الجمهور غير هذا مما لا يخلو عن ضعف ، وقرئ بالرفع وكذلك فيوحى باسكان الياء على أنه خبر مبتدأ محذوف ، والتقدير أو هو يرسل ، كما قال الزجاج وغيره .

وجملة ﴿ إنه عليّ حكيم ﴾ تعليل لما قبلها أي متعال عن صفات النقص ، حكيم في كل أحكامه ، قال المفسرون سبب نزول هذه الآية أن اليهود قالوا للنبي صلى الله عليه وآله وسلم . ألا تكلم الله وتنظر إليه إن كنت نبياً كما كلمه موسى فنزلت .

وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطَ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿٥٣﴾

﴿ وكذلك ﴾ أي كالوحي الذي أوحينا إلى الأنبياء قبلك ﴿ أوحينا إليك روحاً من أمرنا ﴾ المراد به القرآن قاله ابن عباس ، وقيل النبوة ، قال مقاتل يعني الوحي بأمرنا ومعناه القرآن لأنه يهتدي به ففيه حياة من موت الكفر ، وقيل : من تبعيضية لأن الموحى إليه لا ينحصر في القرآن ، وقيل : المراد به الرحمة ، وقيل جبريل ، ثم ذكر سبحانه صفة رسوله قبل أن يوحى إليه فقال :

﴿ ما كنت تدري ما الكتاب ﴾ أي : أي شيء هو لأنه صلى الله عليه وسلم كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، وذلك أدخل في الإعجاز ، وأدل على صحة نبوته ، ومعنى ﴿ ولا الإيمان ﴾ أنه كان صلى الله عليه وسلم لا يعرف تفاصيل الشرائع ومعالمها ، ولا يهتدي إلى معانيها ، كالصلاة والصوم والزكاة والختان وإيقاع الطلاق والغسل من الجنابة ، وتحريم ذوات المحارم بالقرابة والصهر ، وهذا هو الحق وخص الإيمان لأنه رأسها وأساسها ، وقيل أراد بالإيمان هنا الصلاة ، قال بهذا جماعة من أهل العلم ، منهم إمام الأئمة محمد بن إسحق بن خزيمة واحتج بقوله تعالى :

﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم ﴾ يعني الصلاة ، فسمها إيماناً ، وذهب جماعة إلى أن الله لم يبعث نبياً إلا وقد كان مؤمناً به ، وقالوا معنى الآية ما كنت تدري قبل الوحي كيف تقرأ القرآن ؟ ولا كيف تدعو الخلق إلى الإيمان ؟ وقيل كان هذا قبل البلوغ حين كان طفلاً وفي المهد .

وقال الحسين بن الفضل إنه على حذف المضاف ، أي ولا أهل الإيمان ، وقيل المراد بالإيمان ، دين الاسلام ، وقيل الايمان هنا عبارة عن الاقرار بكل

ما كلف الله به العباد ، وقال الكواشي ويجوز أن يراد بالإيمان نفس الكتاب وهو القرآن وعطف عليه لاختلاف لفظيهما أي ما كنت تعرف القرآن وما فيه من الأحكام ، ويدل على هذا التأويل توحيد الضمير في جعلناه ، وقيل المراد بالإيمان الكلمة التي بها دعوة الإيمان والتوحيد ، وهي لا إله إلا الله محمد رسول الله ، والإيمان بهذا التفسير إنما علمه بالوحي لا بالعقل ، قاله الكرخي .

وعن علي قال : « قيل لمحمد صلى الله عليه وسلم هل عبدت وثناً قط ؟ قال : لا قالوا فهل شربت خمرأً قط ؟ قال : لا ، وما زلت أعرف أن الذي هم عليه كفر ، وما كنت أدري ما الكتاب ولا الإيمان ؟ وبذلك نزل القرآن » . ﴿ وما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ﴾^(١)

﴿ ولكن جعلناه نوراً ﴾ أي جعلنا الروح الذي أوحيناه إليك ضياءً ودليلاً على التوحيد والإيمان ﴿ نهدي به ﴾ المراد به الهداية الموصلة بدليل قوله ﴿ من نشاء ﴾ هدايته ﴿ من عبادنا ﴾ ونرشده إلى الدين الحق ﴿ وإنك لتهدي ﴾ أي كل مكلف فالهداية فيه أعم من التي قبلها قرأ الجمهور لتهدي على البناء للفاعل وقرىء على البناء للمفعول ، وقرىء بضم التاء وكسر الدال من أهدى ، وفي قراءة أبيّ وإنك لتدعو ﴿ إلى صراط مستقيم ﴾ قال قتادة والسدي ومقاتل : وإنك لتدعو إلى الإسلام فهو الصراط المستقيم .

ثم بين الصراط المستقيم بقوله :

﴿ صراط الله ﴾ بدل من الأول بدل المعرفة من النكرة وفي هذه الإضافة للصراط إلى الإسم الشريف من التعظيم له والتفخيم لشأنه مالا يخفى ﴿ الذي نه ما في السموات وما في الأرض ﴾ ملكاً وخلقاً وعبيداً والمعنى أنه المالك لذلك ، والمتصرف فيه .

﴿ ألا إلى الله تصير ﴾ أي ترجع ﴿ الامور ﴾ يوم القيامة لا إلى غيره ، أي جميع أمور الخلائق بارتفاع الوسائط والتعلقات وعلى هذا المضارع على

ظاهره ، وقيل : المراد بهذا المضارع الديمومة كقولك زيد يعطي ويمنع أي من شأنه ذلك وليس المراد حقيقة المستقبل لأن الأمور منوطة به تعالى كل وقت وفيه وعيد بالبعث المستلزم للمجازاة ووعد بنعيم الجنات فيثيب المحسن ويعاقب المسيء .

قال سهيل بن أبي الجعد : أحترق مصحف ولم يبق منه إلا قوله ﴿ إلا ﴾ إلى الله تصير الأمور ﴿ وغرق مصحف فأنحى كله إلا قوله ذلك والله أعلم القرطبي .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الزخرف

﴿ وهي تسع وثمانون آية ﴾

قال القوطبي : هي مكية بالاجماع وبه قال ابن عباس ، قال مقاتل
إلا قوله ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا ﴾ يعني فأنها نزلت
بالمدينة .

حَمَّ ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾
وَلَئِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا
أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْنِيهِمْ
مِّنْ نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ
الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ
الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾

﴿ حَمَّ ﴾ الكلام ههنا كالكلام الذي قدمناه والله أعلم بمراذه به
﴿ والكتاب المبين ﴾ أقسم بالقرآن الذي أبان طرق الهدى من طرق الضلالة ،
وأبان ما تحتاج اليه الأمة من الشريعة ، وقيل المبين الواضح للمتدبرين وهو من
الايمان الحسنة البديعة لتناسب القسم والمقسم عليه ولعل أقسام الله بالأشياء
استشهاده بما فيها من الدلالة على المقسم عليه ، وجواب القسم .

﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ وهذا عندهم من البلاغة وهو كون القسم
والمقسم عليه من واد واحد إن أريد بالكتاب القرآن وإن أريد به جنس الكتب
المنزلة لم يكن من ذلك والضمير في جعلناه على الأول ، يعود على الكتاب ،
وعلى الثاني يعود على القرآن وإن لم يصرح بذكره ، والنجعل هنا تصيير ولا
يلتفت لخطأ الزمخشري في تجويزه أن يكون بمعنى خلقناه قاله السمين .

والمعنى سميناه وصيرناه ووصفناه ولذلك تعدى الى مفعولين ، وقال
السدي : أي أنزلناه قرآنًا ، وقال مجاهد قلناه وقال سفيان الثوري : بيناه ،
وكذا قال الزجاج أي أنزل بلسان العرب لأن كل نبي أنزل كتابه بلسان قومه ،
وقال مقاتل لأن لسان أهل الجنة عربي .

﴿ لعلكم تعقلون ﴾ أي لكي تفهموه وتتعللوا معانيه وتحيطوا بما فيه ، قال ابن زيد لعلكم تتفكرون ﴿ وإنه ﴾ أي وإن القرآن ﴿ في أم الكتاب لدينا ﴾ أي عندنا ﴿ لعلني حكيم ﴾ أخبر عن منزلته وشرفه وفضله أي ان كذبت به يا أهل مكة فانه عندنا شريف رفيع القدر محكم النظم في أعلى طبقات البلاغة ، ودرجات الفصاحة ، لا يوجد فيه اختلاف ولا تناقض ، والجملة عطف على الجملة المقسم بها داخله تحت معنى القسم أو مستأنفة مقررة لما قبلها ، قال الزجاج : أم الكتاب أصل الكتاب ، وأصل كل شيء أمه والقرآن مثبت عند الله في اللوح المحفوظ ، كما قال ﴿ بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ ﴾ .

قال ابن جريج : المراد بقوله وانه الخ أعمال الخلق من إيمان وكفر وطاعة ومعصية ، عن ابن عباس قال : « إن أول ما خلق الله من شيء القلم ، وأمره أن يكتب ما هو كائن الى يوم القيامة عنده »^(١) ، ثم قرأ هذه الآية وأخرج ابن مردويه نحوه عن أنس مرفوعاً .

﴿ أفنضرب عنكم الذكر صفحاً ﴾ يقال : ضربت عنه وأضربت عنه إذا تركته وأمسكت عنه ، كذا قال الفراء والزجاج وغيرهما ، وانتصاب صفحاً على المصدرية أو على الحال أي صافحين ، والصفح مصدر قولهم : صفحت عنه إذا عرضت عنه ، وذلك أنك توليه صفحة وجهك وعنقك ، والمراد بالذكر هنا القرآن ، والاستفهام للانكار والتوبيخ قال الكسائي :

المعنى أفنضرب عنكم الذكر طياً فلا توعظون ولا تؤمرون . وقال مجاهد وأبو صالح والسدي أفنضرب عنكم العذاب ولا نعاقبكم على إسرافكم وكفركم ؟ وقال قتادة المعنى أفنهلككم ولا نأمركم ولا ننهاكم ، وروي عنه انه قال : المعنى أفنمسك عن إنزال القرآن من قبل ، أنكم لا تؤمنون به ، وقيل : الذكر التذكير كأنه قال أنترك تذكيركم .

﴿ أن كتمت قوماً مسرفين ﴾ قرىء إن بالكسر على أنها الشرطية والجزاء

محذوف لدلالة ما قبله عليه وبفتحها على التعليل ، أي لأن كنتم قوماً منهمكين في الإسراف مصرين عليه مفرطين في الجهالة مجاوزين الحد في الضلالة ، قال ابن عباس في الآية أحببتم أن نصفح عنكم ولم تفعلوا ما أمرتم به ، ثم سلى سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم ، فقال : ﴿ وكم أرسلنا من نبي في الأولين ﴾ كم هي الخبرة التي معناها التكثير والمعنى : ما أكثر ما أرسلنا من الأنبياء في الأمم السابقة .

﴿ وما يأتيهم من نبي إلا كانوا به يستهزئون ﴾ كاستهزاء قومك بك ﴿ فأهلكنا ﴾ قوماً ﴿ أشد منهم ﴾ أي من هؤلاء القوم ﴿ بطشاً ﴾ أي قوة تمييز أو حال ، أو باطشين والأول أحسن ، والبطش شدة الأخذ ﴿ ومضى مثل الأولين ﴾ أي سلف في القرآن في غير موضع منه ، ذكر قصتهم وحالهم العجيبة التي حقها أن تسير مسير المثل لشهرتها ، وقال قتادة : عقوبتهم ، وقيل : صفتهم في الإهلاك والمثل الوصف والخبر ، وفي هذا وعد لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وتهديد شديد لهم لأنه يتضمن أن الأولين أهلكوا بتكذيب الرسل ، وهؤلاء إن استمروا على تكذيبك والكفر بما جئت به هلكوا مثلهم .

﴿ ولئن ﴾ لام قسم ﴿ سألتهم ﴾ أي هؤلاء الكفار من قومك ﴿ من خلق السموات والأرض ﴾ أي هذه الأجرام العلوية والسفلية ﴿ ليقولن خلقهن العزيز العليم ﴾ جواب القسم لا جواب الشرط ، وهذا على القاعدة في اجتماع الشرط والقسم ، من حذف جواب المتأخر منهما وحذف منه نون الرفع لتوالي النونات وواو الضمير لالتقاء الساكنين ، وكرر الفعل للتوكيد إذ لو جاء ﴿ العزيز ﴾ بغير ﴿ خلقهن ﴾ لكان كافياً ، والمعنى أقروا بأن الله خالقهن ولم ينكروا ذلك وهذا أسوأ لحالهم وأشد لعقوبتهم ، لأنهم عبدوا بعض مخلوقات الله وجعلوه شريكاً له ، بل عمدوا إلى ما لا يسمع ولا يبصر ، ولا ينفع ولا يضر من المخلوقات ، وهي الأصنام فجعلوها شركاء لله ، ثم وصف سبحانه نفسه بما يدل على عظيم نعمته على عباده ، وكمال قدرته في مخلوقاته فقال :

الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾
 وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يُقَدِّرُ فَأَنْشُرْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ نُخْرِجُوكَ ﴿١١﴾
 وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لَيْسَتُوا عَلَيَّ
 ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذَكَّرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا
 هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾

﴿الذي جعل لكم الأرض مهذاً﴾ أي فراشاً كالْمَهْد للصبي ، ولو شاء لجعلها مزلة لا يثبت فيها شيء كما ترون من بعض الجبال ، ولو شاء لجعلها متحركة فلا يمكن الانتفاع بها في الزراعة والأبنية ، فالانتفاع بها إنما حصل لكونها مسطحة قارة ساكنة وقد تقدم بيانه ، قرأ الجمهور مهذاً وقرأ الكوفيون مهذاً وهذا كلام مبتدأ غير متصل بما قبله ، ولو كان متصلاً بما قبله من جملة مقول الكفار لقالوا : الذي جعل لنا الأرض مهذاً .

﴿وجعل لكم فيها سبلاً﴾ أي طرقاً تسلكونها إلى حيث تريدون ولو شاء لجعلها بحيث لا يسلك في مكان منها كما جعل بعض الجبال كذلك وقيل معاش تعيشون بها ﴿لعلكم تهتدون﴾ بسلوكها إلى مقاصدكم ومنافعكم في أسفاركم .

﴿والذي نزل من السماء ماء بقدر﴾ أي بقدر الحاجة وحسبما تقتضيه المصلحة^(١) بالغرق ولا دونها حتى تحتاجوا إلى الزيادة وعلى حسب ما تقتضيه مشيئته في أرزاق عباده بالتوسيع تارة والتقتير أخرى .

﴿فأنشُرنا به بلدة ميتاً﴾ أي أحيينا بذلك الماء بلدة مقفرة من النبات
 (١) سقط من الأصل : ولم ينزل عليكم منه فوق حاجتكم حتى يهلك زرعكم ويهدم منازلكم ويهلككم.....

وفيه التفات قرأ الجمهور ميتاً بالتخفيف وقرأء بالتشديد ﴿ كذلك ﴾ أي مثل ذلك الإحياء للأرض بإخراج نباتها بعد أن كانت لا نبات بها ﴿ تخرجون ﴾ أي تبعثون من قبوركم أحياء فإن من قدر على هذا قدر على ذلك ، وقد مضى بيان هذا في آل عمران والأعراف ، قرأ الجمهور : تخرجون مبنياً للمفعول وقرأء مبنياً للفاعل .

﴿ والذي خلق الأزواج كلها ﴾ أي الضروب والأنواع كالحلو والحامض والأبيض والأسود ، قال سعيد بن جبير الأصناف كلها وقال الحسن الأزواج الشتاء والصيف ، والليل والنهار ، والسموات والأرض والجنة والنار . وقيل أزواج الحيوان من ذكر وأنثى ، وقيل أزواج النبات كقوله :

﴿ وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ﴾ و ﴿ من كل زوج كريم ﴾ وقيل : ما يتقلب فيه الانسان من خير وشر وإيمان وكفر ، ونفع وضر وفقر وغنى ، وصحة وسقم وهذا القول يعم الأقوال ويجمعها بعمومه ، وقيل : الأول أولى ، قال بعض المحققين : كل ما سوى الله فهو زوج كالفوق والتحت ، والربيع والخريف ، واليمين واليسار ، والقدام والخلف ، والماضي والمستقبل والذوات والصفات ، وكونها أزواجاً يدل على أنها ممكنة الوجود ، محدثة مسبقة بالعدم ، فأما الحق تعالى فهو الفرد المنزه عن الضد والند والمقابل والمعا ضد .

﴿ وجعل لكم من الفلك ﴾ السفن ﴿ والأنعام ما تركبون ﴾ أي ما تركبونه في البحر والبر وأريد بالأنعام هنا ما يركب من الحيوان ، وهو الابل والخيول والبغال والحمير ، وقرينة هذا قوله في سورة النحل ﴿ والخيول والبغال والحمير لتركبوها ﴾ فحيث في الأنعام هنا تغليب إذ الأنعام هي الابل والبقر والغنم وقال

الشوكاني : المراد بالأنعام ههنا الابل خاصة ، وقيل : الابل والبقر والأول أولى انتهى .

﴿ لتستووا ﴾ اللام لام العلة ، وهو الظاهر ، أو للصيرورة وجوز ابن عطية أن تكون لام الأمر ، وفيه بعد لقلة دخولها على أمر المخاطب ﴿ على ظهوره ﴾ الضمير راجع الى ما قاله أبو عبيد ، وقال الفراء أضاف الظهور إلى واحد لأن المراد الجنس ، فصار الواحد في معنى الجمع بمنزلة الجنس فلذلك ذكر وجمع الظهر لأن المراد ظهور هذا الجنس ، والاستواء الاستعلاء أي لتستعلوا على ظهور ما تركبون من الفلك والأنعام .

﴿ ثم تذكروا نعمة ربكم ﴾ أي التي أنعم بها عليكم من تسخير ذلك المركب في البحر والبر ﴿ إذا استويتم عليه ﴾ أي على ما تركبون ففيه مراعاة لفظ ﴿ ما ﴾ أيضا قال مقاتل والكلبي هو أن تقول الحمد لله الذي رزقني هذا وحملني عليه :

﴿ وتقولوا ﴾ أي بألسنتكم جمعاً بين القلب واللسان : ﴿ سبحان الذي سخر لنا هذا ﴾ وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه سبحان من سخر لنا هذا ، وقال قتادة قد علمكم كيف تقولون إذا ركبتم والمعنى ذلل لنا هذا المركب الذي ركبناه سفينة كان أو دابة قاله الخطيب وصرح غيره بأنه خاص بالدابة ، وأما السفينة فيقول فيها ﴿ بسم الله مجريها ومرساها ﴾ ويؤيده :

﴿ وما كنا له مقرنين ﴾ فان الامتناع والتعاصي والتوحش لولا تسخير الله وإذلاله إنما يتأتى في الدواب . وأما السفن فهي من عمل ابن آدم فليس لها امتناع بقوتها كامتناع الدابة . قال ابن عباس والكلبي : مقرنين مطيقين يقال أقرن هذا البعير إذا أطاقه . وقال الأخفش وأبو عبيدة : مقرنين ضابطين ، يقال فلان مقرن لفلان أي ضابط له ، وقيل مماثلين له في القوة من قولهم : هو قرن فلان إذا كان مثله في القوة .

وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ وَجَعَلُوا آلَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنْ الْإِنْسَانُ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَنَكُمْ بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوْ مَنْ يُنْشِئُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكُنَبُ لَهُمْ شُهُودٌ لَهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾

﴿ وإنا إلى ربنا لمنقلبون ﴾ أي راجعون إليه وهذا تمام ما يقال عند ركوب الدابة أو السفينة ، وفيه إشارة إلى الرد عليهم في إنكار البعث أخرج مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي والحاكم وابن مردويه عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، « كان إذا سافر ركب راحلته ثم كبر ثلاثاً ، ثم قال : سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ، وإنا إلى ربنا لمنقلبون » .

روي أن قوماً ركبوا ، وقالوا سبحان الذي سخر لنا هذا الخ وفيهم رجل على ناقة لا تتحرك هزاً فقال : إني مقرن لهذه فسقط لوثبها واندقت عنقه ، وينبغي أن لا يكون ركوب العاقل للتنزه والتلذذ ، بل للاعتبار ، ويتأمل عنده أنه هالك لا محالة ومنقلب إلى الله غير منفلت من قضائه .

قال القرطبي علمنا سبحانه وتعالى ما نقول إذا ركبنا الدواب وعرفنا في آية أخرى على لسان نوح عليه السلام ما نقول إذا ركبنا السفن فكم من راكب دابة عثرت به أو شمسست أو تقحمت أو طاح عن ظهرها فهلك ، وكم من راكب سفينة انكسرت به فغرق فلما كان الركوب مباشرة أمر مخوف واتصالاً بسبب من أسباب التلف أمر أن لا ينسى عند اتصاله به موته ولا يدع ذكر ذلك بقلبه

ولسانه ، حتى يكون مستعداً لقضاء الله بإصلاحه من نفسه ، والحذر من أن يكون ركوبه ذلك من أسباب موته في علم الله ، وهو غافل عنه . وقال ابن العربي : ليس بواجب ذكره باللسان بل يستحب وإنما الواجب اعتقاده بالقلب والأول أولى والجمع أفضل .

ثم رجع سبحانه الى ذكر الكفار الذين تقدم ذكرهم فقال :

﴿ وجعلوا له ﴾ أي بعد ذلك الاعتراف كما قاله القاضي أو معه كذا في الكشف ، والجملة حالية والجعل تصيير قولي أي حكموا وأثبتوا له أو بمعنى سمووا واعتقدوا ﴿ من عباده جزءاً ﴾ أي ولداً وسماء جزءاً دلالة على استحالة على الواحد في ذاته ، لأن المركب لا يكون واحد الذات ، قال قتادة جزءاً أي عدلاً يعني ما عبد من دون الله ، وقال الزجاج والمبرد الجزء هنا البنات ، والجزء عند أهل العربية البنات ، يقال : قد أجزأت المرأة إذا ولدت البنات .

وقد جعل صاحب الكشف تفسير الجزء بالبنات من بدع التفسير ، وصرح بأنه مكذوب على العرب ويجاب عنه بأنه قد رواه الزجاج والمبرد وهما إماما اللغة العربية وحافظاها ومن إليهما المنتهى في معرفتها ، ويؤيد تفسير الجزء بالبنات ما سيأتي من قوله ﴿ أم اتخذ مما يخلق بنات ﴾ وقوله ﴿ وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ﴾ وقوله ﴿ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً ﴾ وقيل : المراد بالجزء هنا الملائكة فانهم جعلوهم أولاداً لله سبحانه قاله مجاهد والحسن قال الأزهري ، ومعنى الآية أنهم جعلوا لله من عباده نصيباً على معنى أنهم جعلوا نصيب الله من الولدان .

﴿ إن الانسان ﴾ القائل ما تقدم ﴿ لكفور مبين ﴾ أي ظاهر الكفران مبالغ فيه قيل المراد بالانسان هنا الكافر فإنه الذي يجحد نعم الله عليه جحوداً بيناً ثم أنكر عليهم هذا فقال : ﴿ أم اتخذ مما يخلق بنات ﴾ هذا استفهام تقرير وتوبيخ وأم هي المنقطعة بمعنى همزة الإنكار وقدرها بعضهم ببل التي للانتقال وبعضهم بهما وكل صحيح لأن فيها مذاهب ثلاثة كما نقله أبو حيان والمعنى أتقولون اتخذ ربكم لنفسه البنات .

﴿ وأصفاكم ﴾ أخلصكم وخصكم ﴿ بالبنين ﴾ فجعل لنفسه المفضل من الصنفين ، ولكم الفاضل منهما يقال أصفيته بكذا أي أثرته به وأصفيته الود أخلصته له ، ومثل هذه الآية قوله ﴿ ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذا قسمة ضيزى ﴾ وهذه الجملة معطوفة على اتخذ داخلة معها تحت الانكار ، ثم زاد في تقييعهم وتوبيخهم فقال :

﴿ وإذا بشر أحدهم ﴾ استئناف أو حال ﴿ بما ضرب للرحمن مثلاً ﴾ أي بما جعله للرحمن سبحانه من كونه جعل لنفسه البنات ، والالتفات الى الغيبة للإيذان بأن قبائحهم اقتضت أن يعرض عنهم ، وتحكى لغيرهم ليتعجب منها والمثل بمعنى الشبه أي المشابه لا بمعنى الصفة الغربية العجيبة ، والمعنى إذا بشر أحدهم بأنها ولدت له بنت اغتم لذلك وظهر عليه أثره ، وهو معنى قوله :

﴿ ظل ﴾ أي صار ﴿ وجهه مسوداً ﴾ بسبب حدوث الأنثى له حيث لم يكن الحادث له ذكراً مكانها ﴿ وهو كظيم ﴾ أي والحال انه شديد الحزن كثير الكرب مملوء منه قال قتادة : حزين وقال عكرمة : مكروب ، وقيل ساكت ثم زاد في توبيخهم وتقييعهم فقال :

﴿ أو من ينشأ في الحلية ﴾ النشوء التربية والحلية الزينة و﴿ من ﴾ عبارة عن الأنثى أي يجعلون لله الأنثى التي تربي في الزينة لنقصها إذ لو كملت في نفسها لما تكملت بالزينة قرأ الجمهور ينشأ بفتح الياء واسكان النون وقرأ ابن عباس والضحاك وحفص بضم الياء وفتح النون وتشديد الشين ، واختار القراءة الأولى أبو حاتم واختار الثانية أبو عبيدة ، وقال الهروي : الفعل على القراءة الأولى لازم ، وعلى الثانية متعد ، والمعنى يربى ويكبر في الحلية .

﴿ وهو في الخصام غير مبين ﴾ أي عاجز عن أن يقوم بأمر نفسه وإذا خوصم لا يقدر على إقامة حجته وتقرير دعواه ، ودفع ما يجادله به خصمه لنقصان عقله ، وضعف رأيه، وإضافة ﴿ غير ﴾ لا يمنع عمل ما بعدها في الجار المتقدم عليها . لأنها بمعنى النفي قال المبرد : تقدير الآية ويجعلون له من

ينبت في الزينة ، وإذا احتاج إلى مجاثاة الخصوم ومجاراة الرجال كان غير مبين ليس عنده بيان ولا يأتي ببرهان .

وفيه أنه جعل النشأة في الزينة من المعايير فعلى الرجل أن يجتنب ذلك ويتزين بلباس التقوى . قال قتادة : قلما تتكلم امرأة بحجتها إلا تكلمت بالحجة عليها ، وقال ابن زيد والضحاك : الذي ينشأ في الحلية أصنامهم التي صاغوها من ذهب وفضة ، قال ابن عباس في الآية هو النساء فرق بين زيهن وزى الرجال ونقصهن من الميراث ومن الشهادة ، وأمرهن بالقعدة وسماهن الخوالف .

﴿ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً ﴾ الجعل هنا بمعنى القول والحكم على الشيء كما تقول : جعلت زيداً أفضل الناس أي قلت بذلك وحكمت له به أي سموهم وحكموا ، وقالوا : أنهم إناث وجمعوا في كفرهم ثلاث كفرات وذلك أنهم نسبوا إلى الله الولد ونسبوا إليه أخس النوعين وجعلوا ملائكته المكرمين إناثاً فاستخفوا بهم قرأ الجمهور : عباد بالجمع ، وبها قرأ ابن عباس وقرأ الباقر عند بنون ساكنة ، واختار الأولى أبو عبيد لأن الاسناد فيها على ، ولأن الله إنما كذبهم في قولهم إنهم بنات الله فأخبرهم بأنهم عباده .

قال النسفي : وهو ألزم في الحجاج مع أهل العناد لتضاد بين العبودية والولادة انتهى ، ويؤيد هذه القراءة قوله ﴿ بل عباد مكرمون ﴾ واختار أبو حاتم الثانية قال : وتصديق هذه القراءة قوله : ﴿ إن الذين عند ربك ﴾ عن سعيد بن جبير قال كنت أقرأ هذا الحرف الذين هم عند الرحمن إناثاً فسألت ابن عباس فقال عباد الرحمن ، قلت فإنها في مصحفي قال فامحها واكتبها عباد الرحمن ثم وبخهم وقرعهم فقال :

﴿ أشهدوا خلقهم ﴾ أي أحضروا خلق الله إياهم فهو من الشهادة التي هي الحضور وفي هذا تهكم بهم ، وتجهيل لهم ، قرأ الجمهور : ﴿ ستكتب شهادتهم ﴾ بضم الفوقية وبناء الفعل للمفعول ورفع شهادتهم ، وقرئ بالنون

وبناء الفعل للفاعل ، ونصب شهادتهم ، وقرئ شهاداتهم بالجمع ، والمعنى سنكتب هذه الشهادة التي شهدوا بها في ديوان أعمالهم ، لنجازيهم على ذلك ، قال البقاعي يجوز أن يكون في السين استعطاف الى التوبة قبل كتابة ما قالوا ولا علم لهم به ﴿ ويسألون ﴾ عنها يوم القيامة في الآخرة ، وهذا وعيد . قال سليمان الجمل وهذا يدل على أن القول بغير دليل منكر ، وأن التقليد حرام يوجب الذم العظيم انتهى .

﴿ وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ﴾ هذا فن آخر من فنون كفرهم بالله جاؤوا به للاستهزاء والسخرية ، ومعناه لو شاء الرحمن في زعمكم عدم عبادة الملائكة ما عبدنا هذه الملائكة ، فاستدلوا بنفي مشيئته عدم العبادة على امتناع النهي عنها ، أو على حسنها ، وذلك باطل لأن المشيئة ترجيح بعض الممكنات على بعض ، مأموراً كان أو منهيأ ، حسناً كان أو غيره ، وبالجمله هذا كلام حق يراد به باطل ، وقد مضى بيانه في الأنعام ، وتعلقت المعتزلة بظاهر هذه الآية في أن الله لم يشأ الكفر من الكافر ، وإنما شاء الإيمان ، فإن الكفار ادعوا أن الله شاء منهم الكفر ، وما شاء منهم ترك عبادة الأصنام فرد الله عليهم قولهم واعتقادهم ، وبين جهلهم بقوله :

﴿ ما لهم بذلك ﴾ أي بما قالوه من أن الله لو شاء عدم عبادتهم للملائكة ما عبدوهم ﴿ من علم ﴾ بل تكلموا بذلك جهلاً ، وأرادوا بما صورته صورة الحق باطلاً ، وزعموا انه إذا شاء فقد رضي . وقيل : الإشارة بذلك إلى قوله ﴿ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً ﴾ قاله قتادة ومقاتل والكلبي ، وقال مجاهد وابن جريج أي ما لهم بعبادة الأوثان من علم ثم بين انتفاء علمهم بقوله :

﴿ إن هم إلا يخرصون ﴾ أي ما هم إلا يكذبون فيما قالوا ويتمحلون تمحلاً باطلاً ، قال هنا ﴿ يخرصون ﴾ وفي الجاثية ﴿ يظنون ﴾ ، هذا كذب فناسبه الخرص وما هناك صدق مخلوط بالكذب فناسبه الظن .

﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾

﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ﴾ أم هي المنقطعة بمعنى همزة الاستفهام الإنكاري أي أعطيناهم كتاباً من قبل القرآن ، بما ادعوه بأن يعبدوا غير الله وقيل إن الضمير في ﴿من قبله﴾ يعود إلى ادعائهم ، أي أم آتيناهم كتاباً من قبل ادعائهم ينطق بصحة ما يدعونه ؟ والأول أولى أو أم معادلة لقوله أشهدوا فتكون متصلة ، والمعنى أحضروا أم آتيناهم كتاباً الخ والأول أرجح وأولى ، كما أفاده الشهاب ﴿فهم به مستمسكون﴾ يأخذون بما فيه ويحتجون به ويجعلونه لهم دليلاً .

ثم بين سبحانه أنه لا حجة بأيديهم ولا شبهة ولكنهم اتبعوا آباءهم في الضلالة فقال :

﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ أي على طريقة ومذهب ، قال أبو عبيدة هي الطريقة والدين ، وبه قال ابن عباس وقتادة وغيره قال الجوهري والأمة الطريقة والدين يقال فلان لا أمة له ولا نحلة أي لا دين له وقال الفراء وقطرب على قبله . وقال الأخفش على استقامة قرأ الجمهور أمة بالضم ، وقرئ بكسرهما قال الجوهري والإمة بالكسر النعمة والإمة أيضاً لغة في الأمة .

﴿وَإِنَّا﴾ ماشون ﴿على آثَرِهِمْ مهتدون﴾ بهم وكانوا يعبدون غير الله اعترفوا بأنه لا مستند لهم من حيث العيان ولا من حيث العقل ولا من حيث السمع والبيان سوى تقليد آبائهم قال الخازن جعلوا أنفسهم مهتدين باتباع

آبائهم وتقليدهم من غير حجة انتهى ؛ وعبارة أبي السعود لم يأتوا بحجة عقلية ولا نقلية ، بل اعترفوا بأنه لا مستند لهم سوى تقليد آبائهم الجهلة مثلهم اهـ .

وقال هنا : مهتدون ، وفيما بعده : مقتدون ، لأن الأول وقع في محاجتهم النبي صلى الله عليه وسلم ، وادعائهم أن آباءهم كانوا مهتدين ، وأنهم مهتدون كآبائهم ، فناسبه مهتدون والثاني وقع حكاية عن قوم ادعوا الاقتداء بالآباء دون الاهتداء ، فناسبه مقتدون ، أفاده الكرخي . ثم أخبر سبحانه أن غير هؤلاء من الكفار قد سبقهم الى هذه المقالة ، وقال بها فقال :

﴿ وكذلك ﴾ أي الأمر كما ذكر من عجزهم عن الحجة وتمسكهم بالتقليد ، وقوله ﴿ ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة ، وإنا على آثارهم مقتدون ﴾ استئناف مبين لذلك ، دال على أن التقليد فيما بينهم ضلال قديم ، ليس لأسلافهم أيضاً مستند غيره ، قاله أبو السعود ، والمترفون الأغنياء والرؤساء والمتنعمون جمع مترف . اسم مفعول من أترف ، وأترفته النعمة أطفته .

قال الكرخي : هذا تسليية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودلالة على أن التقليد في نحو ذلك ضلال قديم ، وأن من تقدمهم أيضاً لم يكن لهم مستند منظور إليه ، وتخصيص المترفين للإشعار بأن التنعم هو الذي أوجب البطر ، وصرفهم عن النظر الى التقليد انتهى . والأمة هي من الأم وهو القصد ، فالأمة الطريقة التي تؤم أي تقصد ، ومقتدون أي متبعون ، قاله قتادة ، قال النسفي : وهذه تسليية للنبي صلى الله عليه وسلم ، وبيان أن تقليد الآباء داء قديم اهـ .

قال الرازي في تفسيره : لو لم يكن في كتاب الله إلا هذه الآيات لكفت في إبطال القول بالتقليد ، وذلك لأنه تعالى بين أن هؤلاء الكفار لم يتمسكوا في إثبات ما ذهبوا إليه لا بطريق عقلي ، ولا بدليل نقلي ثم بين أنهم إنما ذهبوا إليه بمجرد تقليد الآباء والأسلاف ، وإنما ذكر تعالى هذه المعاني في

معرض الذم والتهجين ، وذلك يدل على أن القول بالتقليد باطل .

ومما يدل عليه أيضاً من حيث العقل أن التقليد أمر مشترك فيه بين المبطل وبين المحق ، وذلك لأنه كما حصل لهذه الطائفة قوم من المقلدة ، فكذلك حصل لأضدادهم أقوام من المقلدة ، فلو كان التقليد ، طريقاً إلى الحق لوجب كون الشيء ونقيضه حقاً ، ومعلوم أن ذلك باطل ، وأنه تعالى بين أن الداعي إلى القول بالتقليد والحامل عليه إنما هو حب التنعم في طيبات الدنيا ، وحب الكسل والبطالة ، وبغض تحمل مشاق النظر والاستدلال ، لقوله : ﴿ إلا قال مترفوها ﴾ والمترفون هم الذين أترفهم النعمة ، أي أبطرتهم ، فلا يحبون إلا الشهوات والملاهي ، ويبغضون تحمل المشاق في طلب الحق أهـ .

أقول وقد احتج جماعة من الفقهاء وأهل النظر على من أجاز التقليد بحجج نظرية عقلية ، منها ما ذكره ابن القيم ، وأنا أورده ههنا قال : يقال لمن حكم بالتقليد : هل لك من حجة فيما حكمت به ؟ فإن قال : نعم بطل التقليد لأن الحجة أوجبت ذلك عنده لا التقليد ، وإن قال : حكمت به بغير حجة ، قيل له : فلم أرقت الدماء وأبحت الفروج وأتلفت الأموال وقد حرم الله ذلك إلا بحجة قال الله عز وجل .

﴿ هل عندكم من سلطان بهذا ﴾ أي من حجة بهذا ، فإذا قال أنا أعلم أي قد أصبت ، وإن لم أعرف الحجة لأنني قلدت كثيراً من العلماء ، وهو لا يقول إلا بحجة خفيت على قيل له : إذا جاز تقليد معلمك لأنه لا يقول إلا بحجة خفيت عليك فتقليد معلم معلمك أولى ، لأنه لا يقول إلا بحجة خفيت على معلمك ، كما لم يقل معلمك إلا بحجة خفيت عليك . فإن قال نعم ترك تقليد معلمه إلى تقليد معلم معلمه ، وكذلك من هو أعلى حتى ينتهي الأمر إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإن أبى ذلك نقض قوله ، وقيل له كيف يجوز تقليد من هو أصغر وأقل علماً ؟ ولا

يجوز تقليد من هو أكبر وأكثر علماً ؟ وهذا تناقض ، فإن قال لأن معلمي - وإن كان أصغر - فقد جمع علم من هو فوقه إلى علمه ، فهو أبصر بما أخذ وأعلم بما ترك ، قيل له وكذلك من تعلم من معلمك فقد جمع علم معلمك وعلم من فوقه إلى علمه فليلزمه تقليده ، وترك تقليد معلمك وكذلك أنت أولى أن تقلد نفسك من معلمك لأنك جمعت علم معلمك وعلم من هو فوقه إلى علمك ؛ فإن قلد قوله جعل الأصغر ومن يحدث من صغار العلماء أولى بالتقليد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكذلك الصاحب عنده يلزمه تقليد التابع والتابع من دونه في قياس قوله ، والأعلى للأدنى أبداً ، وكفى بقول يؤول إلى هذا تناقضاً وفساداً .

قال أبو عمرو قال أهل العلم والنظر حد العلم التبيين ، وادراك المعلوم على ما هو به ، فمن بان له الشيء فقد علمه ، قالوا والمقلد لا علم له ، لم يختلفوا في ذلك ، ومن ههنا والله أعلم قال البخاري :

عرف العالمون فضلك بالعلم - ثم وقال الجهال بالتقليد
وأرى الناس مجمعين على فضلك من بين سيد ومسود

وقال أبو عبد الله بن خواز منداد البصري المالكي : التقليد معناه في الشرع الرجوع الى قول لا حجة لقائله ، وذلك ممنوع منه في الشريعة ، والاتباع ما ثبت عليه حجة . وقال في موضع آخر من كتابه كل من اتبع قوله من غير أن يجب عليك قبوله بدليل يوجب ذلك فأنت مقلده ، والتقليد في دين الله غير صحيح وكل من أوجب الدليل عليك اتباع قوله فأنت متبعه ، والاتباع في الدين مسوغ ، والتقليد ممنوع اهـ .

قال ابن حارث : هذا والله الدين الكامل والعقل الراجح . لا كمن يأتي بالهذيان ويريد أن ينزل قوله من القلوب منزلة القرآن اهـ . ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم ، أن يرد عليهم فقال :

﴿ قُلْ أُولُو حِجَّتِكُمْ بَاهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءُكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾
 ﴿ ٢٤ ﴾ فَأَنْقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿ ٢٥ ﴾

﴿ قال أولو حجتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ﴾ أي أتبعون آباءكم وتقلدونهم ؟ ولو حجتكم بدين أهدى من دين آبائكم ؟ قال الزجاج المعنى قل لهم أتبعون ما وجدتم عليه آباءكم من الضلالة التي ليست من الهداية في شيء وإن حجتكم بأهدى منه ؟ قرأ الجمهور قل وقرىء قال : وهو حكاية لما جرى بين المنذرين وقومهم ، أي قال كل منذر من أولئك المنذرين لأمته ، وقيل إن كلنا القراءتين حكاية لما جرى بين المنذرين وقومهم أي قال كل منذر من أولئك المنذرين لأمته المقلدين ، كأنه قال لكل نبي قل بدليل قوله :

﴿ قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون ﴾ قال الشوكاني وهذا من أعظم الأدلة الدالة على بطلان التقليد وقبحه ، فإن هؤلاء المقلدة في الاسلام إنما يعملون بقول أسلافهم ، ويتبعون آثارهم ، ويقتدون بهم فإذا رام الداعي إلى الحق أن يخرجهم من ضلالة أو يدفعهم عن بدعة قد تمسكوا بها ، وورثوها عن أسلافهم بغير دليل نير ، ولا حجة واضحة ، بل لمجرد قيل وقال ، لشبهة داحضة ، وحجة زائفة ، ومقالة باطلة ، قالوا بما قاله المترفون من هذه الملل ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ﴾ أو بما يلاقي معناه معنى ذلك .

فإن قال لهم الداعي إلى الحق قد جمعنا الملة الاسلامية وشمطنا هذا الدين المحمدي ، ولم يتبعنا الله ولا تعبدكم ولا آباءكم من قبلكم إلا بكتابة الذي أنزله على رسوله ، وبما صح عن رسوله صلى الله عليه وسلم ، فإنه

المبين لكتاب الله ، الموضح لمعانيه ، الفارق بين محكمه ومتشابهه ، فتعالوا نرد ما تنازعنا فيه إلى كتاب الله وسنة رسوله ، كما أمرنا الله بذلك في كتابه بقوله :

﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ فَإِنْ الرَّدُ إِلَيْهِمَا أَهْدَى لَنَا وَلَكُمْ مِنَ الرَّدِ إِلَى مَا قَالَه أَسْلَافُكُمْ وَدَرَجَ عَلَيْهِ آبَاؤُكُمْ ، نَفَرُوا نَفُورَ الْوَحْشِ ، وَرَمَوْا الدَّاعِيَ لَهُمْ إِلَى ذَلِكَ بِكُلِّ حَجَرٍ وَمَدْرٍ ، كَأَنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا قَوْلَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ وَلَا قَوْلَهُ ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ، ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيَسْلُمُوا تَسْلِيمًا ﴾ .

فَإِنْ قَالَ لَهُمُ الْقَائِلُ : هَذَا الْعَالَمُ الَّذِي تَقْتَدُونَ بِهِ وَتَتَّبِعُونَ أَقْوَالَهُ هُوَ مِثْلُكُمْ فِي كَوْنِهِ مُتَعَبِّدًا بِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ، مَطْلُوبًا مِنْهُ مَا هُوَ مَطْلُوبٌ مِنْكُمْ ، وَإِذَا عَمِلَ بِرَأْيِهِ عِنْدَ عَدَمِ وَجْدَانِهِ لِلدَّلِيلِ ، فَذَلِكَ رَخْصَةٌ لَهُ ، لَا يَحِلُّ أَنْ يَتَّبِعَهُ غَيْرُهُ عَلَيْهَا ، وَلَا يَجُوزُ لَهُ الْعَمَلُ بِهَا ، وَقَدْ وَجَدَ الدَّلِيلَ الَّذِي لَمْ يَجِدْهُ ، وَهِيَ أَنَا أَوْ جَدُّكُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ ، أَوْ فِيمَا صَحَّ مِنْ سُنَّةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَذَلِكَ أَهْدَى لَكُمْ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءُكُمْ ، قَالُوا : لَا نَعْمَلُ بِهَذَا ، وَلَا سَمِعْنَا لَكَ وَلَا طَاعَةَ ، وَوَجَدُوا فِي صُدُورِهِمْ أَعْظَمَ الْحَرَجِ مِنْ حَكْمِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، وَلَمْ يَسْلُمُوا لِذَلِكَ وَلَا أَذْعَنُوا لَهُ .

وَقَدْ وَهَبَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ عَصَا يَتَوَكَّأُونَ عَلَيْهَا عِنْدَ أَنْ يَسْتَمْعُوا مِنْ يَدْعُوهُمْ إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، وَهِيَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ : إِنْ إِمَامِنَا الَّذِي قَلَدْنَاهُ وَاقْتَدَيْنَا بِهِ أَعْلَمَ مِنْكَ بِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ قَدْ تَصَوَّرَتْ مِنْ يَقْتَدُونَ بِهِ تَصَوُّرًا عَظِيمًا بِسَبَبِ تَقَدُّمِ الْعَصْرِ وَكَثْرَةِ الْأَتْبَاعِ ، وَمَا عَلِمُوا أَنَّ هَذَا مَنْقُوضٌ عَلَيْهِمْ مَدْفُوعٌ بِهِ فِي وُجُوهِهِمْ .

فَإِنَّهُ لَوْ قِيلَ لَهُمْ : إِنْ فِي التَّابِعِينَ مِنْ هُوَ أَعْظَمُ قَدْرًا وَأَقْدَمُ عَصْرًا مِنْ صَاحِبِكُمْ ، فَإِنْ كَانَ لَتَقْدُمَ الْعَصْرُ وَجَلَالَةُ الْقَدْرِ مَزِيَّةٌ تَوْجِبُ الْاِقْتِدَاءَ فَتَعَالُوا

حتى أريكم من هو أقدم عصراً وأجل قدراً ، فإن أبيتم ذلك ففي الصحابة رضي الله عنهم من هو أعظم قدراً من صاحبكم علماً وفضلاً وجلالة قدر ، فإن أبيتم ذلك فما أنا أدلكم على من هو أعظم قدراً وأجل خطراً ، وأكثر أتباعاً ، وأقدم عصراً ، وهو محمد بن عبد الله نبينا ونبيكم صلى الله عليه وسلم ، ورسول الله إلينا وإليكم ، فتعالوا فهذه سنته موجودة في دفاتر الاسلام ودواوينه التي تلقتها جميع هذه الأمة قرناً بعد قرن ، وعصراً بعد عصر ، وهذا كتاب ربنا خالق الكل ، ورازق الكل ، وموجد الكل ، بين أظهرنا ، موجود في كل بيت ، ويبد كل مسلم ، لم يلحقه تغيير ولا تبديل ، ولا زيادة ولا نقص ، ولا تحريف ولا تصحيف ، ونحن وأنتم ممن يفهم ألفاظه ، ويتعقل معانيه ، فتعالوا لناخذ الحق من معدنه ، ونشرب صفو الماء من منبعه ، فهو مما وجدتم عليه آباءكم .

قالوا : لا سمع ولا طاعة ، إما بلسان القال أو بلسان الحال ، فتدبر هذا وتأمله إن بقي فيك بقية من إنصاف وشعبة من خير ، ومزعة من حياء ، وحصّة من دين ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وقد أوضحت هذا غاية الايضاح في كتابي الذي سمّيته أدب الطلب ومتهى الأرب انتهى . وقد أوضحه الحافظ ابن القيم في إعلام الموقعين عن رب العالمين فأرجع إليهما إن رمت أن تنجلي عنك ظلمات التعصب ، وتنقشع لك سحائب التقليد .

﴿ فانتقمنا منهم ﴾ وذلك الانتقام ما أوقعه الله بقوم نوح وعاد وثمود بما استحقوه على اصرارهم على التقليد ﴿ فانظر كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ للأنبياء من تلك الأمم . فإن آثارهم موجودة ، ولا تكثر بتكذيب قومك لك ، ثم لما بين في الآية المتقدمة أنه ليس لأولئك الكفار داع يدعوهم إلى تلك الأقاويل الباطلة إلا تقليد الآباء والأسلاف ، وبين أنه طريق باطل ، ومنهج فاسد ، وأن الرجوع إلى الدليل أولى من الاعتماد على التقليد ، أردفه بهذه الآية :

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرْمِطِينَ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾

﴿ وإذا قال إبراهيم ﴾ الذي هو أعظم آبائهم ، ومحط فخرهم ، والمجمع على محبته وحقية دينه منهم ومن غيرهم ﴿ لأبيه ﴾ أي واذكر لهم وقت قوله لأبيه من غير أن يقلده ، كما قلتم أنتم آباءكم ﴿ وقومه ﴾ أي الذين قلدوا آباءهم ، وعبدوا الأصنام .

﴿ إنني براء مما تعبدون ﴾ تبرأ مما هم عليه وتمسك بالبرهان ، ليسلكوا مسلكه في الاستدلال ، والبراء مصدر نعت به للمبالغة ، وهو يستعمل للواحد والمثنى والمجموع والمذكر والمؤنث ، وقال الجوهري : وتبرأت من كذا وأنا منه براء وخلاء لا يثنى ولا يجمع ، لأنه مصدر في الأصل وبه قال الكسائي والمبرد والزجاج ، ثم استثنى خالقه من البراءة فقال :

﴿ إلا الذي فطرني ﴾ أي خلقتني ، والاستثناء منقطع أي لكن الذي فطرني أو متصل من عموم ﴿ ما ﴾ لأنهم كانوا يعبدون الله والأصنام ، أو إلا صفة بمعنى غير ، وما نكرة موصوفة ، قاله الزمخشري ﴿ فانه سيهدين ﴾ أي سيرشدني لدينه ، ويوفقني لطاعته ، ويثبتني على الحق ، وإخباره بأنه سيهديه جزماً لثقتة بالله سبحانه ، وقوة يقينه ، والأوجه أن السين للتأكيد دون التسويف ، وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار .

﴿ وجعلها كلمة باقية في عقبه ﴾ الضمير في جعلها عائد الى قوله إلا الذي فطرني ، وهي بمعنى التوحيد كأنه قال : وجعل كلمة التوحيد باقية في عقب إبراهيم ، وهم ذريته ، فلا يزال فيهم من يوحد الله ، وفاعل جعلها

إبراهيم ، وذلك حيث وصاهم بالتوحيد ، وأمرهم أن يدينوا به ، كما في قوله :

﴿ ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب ﴾ الآية ، وقيل : الفاعل هو الله عز وجل ، أي وجعل الله سبحانه كلمة التوحيد باقية في عقب إبراهيم ، والعقب من بعد ، قال مجاهد وقتادة . الكلمة لا إله إلا الله ، لا يزال من عقبه من يعبد الله إلى يوم القيامة ، ويوحده ويدعو إلى توحيده وقال عكرمة : هي الإسلام ، قال ابن زيد : الكلمة هي قوله ﴿ أسلمت لرب العالمين ﴾ قال ابن عباس : كلمة باقية لا إله إلا الله وعقب إبراهيم ولده .

﴿ لعلمهم يرجعون ﴾ تعليل للجعل أي جعلها باقية رجاء أن يرجع إليها من يشرك منهم بدعاء من يوحد ، وقيل : الضمير في لعلمهم يرجع إلى أهل مكة أي لعل أهلها يرجعون إلى دينك الذي هو دين إبراهيم ، وقيل : في الكلام تقديم وتأخير ، والتقدير فإنه سيهدين لعلمهم يرجعون وجعلها الخ ، قال السدي : لعلمهم يتوبون فيرجعون عما هم عليه إلى عبادة الله ، قال الرازي في تفسيره .

والمقصود من هذه الآية ذكر وجه آخر يدل على فساد القول بالتقليد ، وتقريره من وجهين ، الأول انه تعالى حكى عن إبراهيم عليه السلام أنه تبرأ عن دين آبائه بناء على الدليل ، فنقول : إما أن يكون تقليد الآباء في الأديان محرماً أو جائزاً فإن كان محرماً فقد بطل القول بالتقليد ، وإن كان جائزاً فمعلوم أن أشرف آباء العرب هو إبراهيم عليه السلام ، وذلك لأنه ليس لهم فخر ولا شرف إلا بأنهم من أولاده ، وإذا كان كذلك فتقليد هذا الأب الذي هو أشرف الآباء أولى من تقليد سائر الآباء وإذا ثبت أن تقليده أولى من تقليد غيره فنقول : إنه ترك دين الآباء وحكم بأن اتباع الدليل أولى من متابعة الآباء ، وإذا كان كذلك وجب تقليده في ترك تقليد الآباء ، ووجب تقليده في ترجيح الدليل على التقليد

وإذا ثبت هذا فنقول : فقد ظهر أن القول بوجوب التقليد يوجب المنع من التقليد ، وما أفضى ثبوته إلى نقله كان باطلاً ، فوجب أن يكون القول بالتقليد باطلاً ، فهذا طريق دقيق في ابطال التقليد ، وهو المراد من هذه الآية ، الوجه الثاني في بيان أن ترك التقليد والرجوع إلى متابعة الدليل أولى في الدنيا والدين ، انه تعالى بين أن ابراهيم عليه السلام لما عدل عن طريقة أبيه إلى متابعة الدليل ، لا جرم جعل الله دينه ومذهبه باقياً في عقبه الى يوم القيامة ، وأما أديان آبائه فقد اندرست وبطلت ، فثبت أن الرجوع الى متابعة الدليل يبقى محمود الأثر إلى قيام الساعة ، وأن التقليد والاصرار ينقطع أثره ولا يبقى منه في الدنيا خبر ، ولا أثر ، فثبت من هذين الوجهين أن متابعة الدليل ، وترك التقليد أولى ، فهذا بيان المقصود الأصلي من هذه الآية انتهى .

ثم ذكر سبحانه نعمته على قريش ، ومن وافقهم من الكفار المعاصرين لهم فقال :

﴿ بل متعت هؤلاء ﴾ أي أهل مكة عقب إبراهيم ﴿ وآباءهم ﴾ أضرب سبحانه عن الكلام الأول الى ذكر ما متعهم به من الأنفس والأهل والأموال ، والمد في الأعمار ، وأنواع النعم ، وسلامة الأبدان من البلايا والنقم ، وما متع به آباءهم ولم يعاجلهم بالعقوبة فاغثروا بالمهلة ، وأنكبوا على الشهوات ، وشغلوا بالتنعم عن كلمة التوحيد ، وبطروا وتمادوا على الباطل .

﴿ حتى جاءهم الحق ﴾ يعني القرآن ﴿ ورسول مبين ﴾ يعني محمداً صلى الله عليه وسلم ، ظاهر الرسالة واضحها ، أو مبين لهم ما يحتاجون اليه من أمر الدين ، فلم يجيبوه ولم يعملوا بما أنزل عليه ، وفي هذه الغاية خفاء بيّنة في الكشف وشروحه ، وهو أن ما ذكر ليس غاية للتمتع ، إذ لا مناسبة بينهما مع أن مخالفة ما بعدها لما قبلها غير مرعي فيها .

والجواب أن المراد بالتمتع ما هو سببه من اشتغالهم به عن شكر

المنعم ، فكأنه قال : اشتغلوا به حتى ﴿ جاءهم الحق ورسول مبين ﴾ وهو غاية في نفس الأمر لأنه مما ينبههم ويزجرهم ، لكنهم لطغيانهم عكسوا ، فهو كقوله : ﴿ وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة ﴾ أفاده الشهاب ثم بين سبحانه ما صنعوه عند مجيء الحق فقال :

﴿ ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإننا به كافرون ﴾ أي جاحدون فسموا القرآن سحراً وجحدوه واستحققروا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووجه النظم أنهم لما عولوا على تقليد الآباء والأسلاف لم يتفكروا في الدليل واغتروا بطول الامهال ، وامتناع الله إياهم بنعيم الدنيا فأعرضوا عن الحق والغرض بهذا الكلام توبيخ المقلد المسيء .

﴿ وقالوا ﴾ متحكمين بالباطل ﴿ لو لا ﴾ هلا ﴿ نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ أي رجل عظيم من إحدى القريتين كقوله ﴿ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ﴾ أي من أحدهما ، والمراد بهما مكة والطائف ، قاله ابن عباس ، وبالرجلين الوليد بن المغيرة من مكة ، وعروة بن مسعود الثقفي من الطائف ، كذا قال قتادة وغيره : وقال مجاهد وغيره عتبة بن ربيعة من مكة وعمير بن عبد ياليل الثقفي من الطائف ، وقال ابن عباس ، عمير بن مسعود وخيار قريش ، وقال أيضا العظيم الوليد بن المغيرة القرشي وحبيب بن عمير الثقفي ، وعنه قال : يعنون أشرف من محمد الوليد بن المغيرة من أهل مكة ومسعود الثقفي من أهل الطائف ، وقيل غير ذلك ، وظاهر النظم أن المراد رجل من إحدى القريتين عظيم الجاه ، واسع المال ، مسود في قومه ، والمعنى أنه لو كان قرآنا لنزل على رجل من عظماء القريتين ، فهؤلاء المساكين قالوا من نصب رسالة الله منصب شريف ، فلا يليق إلا برجل شريف ، وقد صدقوا في ذلك إلا أنهم ضموا إليه مقدمة فاسدة ، وهي أن الرجل الشريف عندهم هو الذي يكون كثير المال والجاه ، ومحمد صلى الله عليه وسلم ، ليس كذلك ، فأجاب الله سبحانه عليهم بقوله :

أَمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ
فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُلْخِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾
وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ
سُقْفًا مِّنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُورًا عَلَيْهَا
يَتَكَبَّرُونَ ﴿٣٤﴾

﴿أَمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ﴾ يعني النبوة أو ما هو أعم منها والاستفهام للإنكار المستقل بالتجهيل والتعجيب من تحكمهم في اختيار من يصلح للنبوة وترسم هذه التاء مجرورة اتباعاً لرسم المصحف الإمام كما نص عليه ابن الجزري ثم بين أنه سبحانه هو الذي قسم بينهم ما يعيشون به من أمور الدنيا فقال :

﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي نحن أوقعنا هذا التفاوت بين العباد ، فجعلنا هذا غنياً وهذا فقيراً ، وهذا مالكاً ، وهذا مملوكاً ، وهذا قوياً ، وهذا ضعيفاً ، ولم نفوض ذلك إليهم ، وليس لأحد من العباد أن يتحكم في شيء بل الحكم لله وحده ، وإذا كان الله سبحانه هو الذي قسم بينهم أرزاقهم فكيف لا يقنعون بقسمته في أمر النبوة ؟ وتفويضها إلى من يشاء من خلقه ؟ قال مقاتل : يقول بأيديهم مفاتيح الرسالة فيضعونها حيث شاؤوا ، قرأ الجمهور معيشتهم الافراد ، وقرأ ابن عباس ومجاهد وابن محيصن معایشهم بالجمع .

﴿و﴾ معنى ﴿رفعنا بعضهم فوق بعض درجات﴾ أنه فاضل بينهم فجعل بعضهم أفضل من بعض في الدنيا بالرزق والرياسة والقوة والحرية والعقل والعلم ، ثم ذكر العلة لرفع درجات بعضهم على بعض فقال :

﴿ ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ﴾ أي ليستخدم بعضهم بعضاً فيستخدم الغني الفقير ، والرئيس المرؤوس والقوي الضعيف ، والحر العبد ، والعاقل من دونه في العقل والعالم الجاهل وهذا في غالب أحوال أهل الدنيا ، وبه تتم مصالحهم وينتظم معاشهم ، ويصل كل واحد منهم الى مطلوبه ، فإن كل صناعة دنيوية يحسنها قوم دون آخرين فجعل البعض محتاجاً الى البعض لتحصل المواساة بينهم في متاع الدنيا ويحتاج هذا إلى هذا ويصنع هذا لهذا ويعطي هذا هذا .

وقال السدي وابن زيد سخرياً خولاً وخداماً ، يسخر الأغنياء الفقراء ، فيكون بعضهم سبباً لمعاش بعض ، وقال قتادة والضحاك : ليملك بعضهم بعضاً ، وقيل هو من السخرية التي بمعنى الاستهزاء ، قال الأخفش سخرت به ، وسخرت منه ، وضحكت به ، وضحكت منه ، وهزأت به ، وهزأت منه ، وهذا وإن كان مطابقاً للمعنى اللغوي لكنه بعيد من معنى القرآن ، ومناف لما هو مقصود السياق ، وعلى هذا القول تكون اللام للصيرورة والعاقبة ، لا للعلة والسببية .

﴿ ورحمة ربك ﴾ يعني بالرحمة ما أعده الله لعباده الصالحين في الدار الآخرة . وقيل هي النبوة لأنها المرادة بالرحمة المتقدمة في قوله ﴿ أهم يقسمون رحمة ربك ﴾ ولا مانع من أن يراد كل ما يطلق عليه اسم الرحمة إما شمولاً أو بدلاً ﴿ خير مما يجمعون ﴾ أي مما يجمعونه من الأموال وسائر متاع الدنيا لأن الدنيا على شرف الزوال والانقراض وفضل الله ورحمته تبقى أبد الأبدن ، ثم بين سبحانه حقارة الدنيا عنده فقال :

﴿ ولولا أن يكون الناس أمة واحدة ﴾ أي لولا أن يجتمعوا على الكفر ميلاً الى الدنيا وزخرفها أو يرغبوا فيه إذا رأوا الكفار في سعة وتنعم ﴿ لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ﴾ جمع الضمير في بيوتهم وأفردته في ﴿ يكفر ﴾ باعتبار معنى من ولفظها ولبيوتهم بدل اشتمال من

الموصول واللام للاختصاص ، والسقف جمع سقف قرأ الجمهور بضم السين والقاف كرهن ورهن ، قال أبو عبيدة ولا ثالث لهما ، وقال الفراء . هو جمع سقيف نحو كثيب وكثب ورغيف ورغف وقيل : هو جمع سقوف ، فيكون جمعاً للجمع ، وقرئ بفتح السين وإسكان القاف على الافراد ، ومعناه الجمع لكونه الجنس قال الحسن : معنى الآية لولا أن يكفر الناس جميعاً بسبب ميلهم الى الدنيا وتركهم الآخرة لأعطيناهم في الدنيا ما وصفناه لهوان الدنيا عندنا وقال بهذا أكثر المفسرين .

وقال ابن زيد لولا أن يكون الناس أمة واحدة في طلب الدنيا واختيارهم لها على الآخرة ، وقال الكسائي المعنى لولا ان يكون في الكفار غني وفقير وفي المسلمين مثل ذلك لأعطينا الكفار من الدنيا لهوانها .

﴿ ومعارج ﴾ كالدرج من فضة ، جمع معرج بفتح الميم وكسرهما ، وسميت المصاعد من الدرج المعارج ، لأن المشي عليها مثل مشي الأعرج ومعاريج جمع معراج ، والمعراج السلم ، وهي لغة بعض تميم وهذا كمفاتيح جمع مفتاح ، ومفاتيح جمع مفتاح قال الأخفش إن شئت جعلت الواحدة معرج ومعرج مثل مرقا ومرقا والمعنى جعلنا لهم معارج من فضة .

﴿ عليها ﴾ أي على المعارج ﴿ يظهرون ﴾ يرتقون ويصعدون يقال : ظهرت على البيت أي علوت سطحه ﴿ وليبوتهم أبواباً وسرراً ﴾ أي وجعلنا لبيوتهم أبواباً من فضة وسرراً من فضة وتكرير لفظ البيوت لزيادة التقرير ﴿ عليها ﴾ أي على السرر ، وهو جمع سرير ، وقيل جمع أسرة فيكون جمعاً للجمع ﴿ يتكئون ﴾ الاتكاء والتوكؤ التحامل على الشيء ومنه ﴿ أتوكأ عليها ﴾ واتكأ على الشيء فهو متكئ والموضع متكأ .

وَزُخْرَفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾
 وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِيضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ
 السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ
 الْمَشْرِقَيْنِ فَيَلْسَ الْقَرِينُ ﴿٣٨﴾

﴿وزخرفاً﴾ أي وجعلنا لهم زخرفاً ليجعلوه في السقف والمعارج والأبواب والسرر ، ليكون بعض كل منها من فضة ، وبعضه من ذهب ، لأنه أبلغ في الزينة ، وقيل : النصب بنزع الخافض أي أبواباً وسرراً من فضة ومن ذهب فلما حذف الخافض انتصب ، والزخرف الذهب ، وقيل : الزينة أعم من أن يكون ذهباً أو غيره ، قال ابن زيد هو ما يتخذه الناس في منازلهم من الأمتعة والأثاث ، وقال الحسن : النقوش ، وأصله الزينة ، يقال : زخرفت الدار زينتها ، وتزخرف فلان أي تزين ، قال ابن عباس في الآية : يقول لولا أن نفعل الناس كلهم كفاراً لجعلنا لبيوت الكفار سقفاً من فضة ، ومعارج من فضة ، وهي درج عليها يصعدون الى الغرف وسرر فضة وزخرفاً وهو الذهب .

وأخرج الترمذي وصححه ، وابن ماجه عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء » وعن المسور بن شداد قال : كنت في الركب الذين وقفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على السخلة الميتة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أترون هذه هانت على أهلها حين ألقيوها ؟ قالوا : من هوانها ألقيوها يا رسول الله ، قال : فإن

الدنيا أهون على الله من هذه الشاة على أهلها» أخرجه الترمذي وحسنه، وعن قتادة بن النعمان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا أحب الله عبداً حماه من الدنيا كما يظل أحدكم يحمي سقيم الماء » أخرجه الترمذي وقال حسن غريب .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر » أخرجه مسلم ، قال البقاعي : ولا يبعد أن يكون ما صار اليه الفسقة والجبابرة من زخرفة الأبنية وتذهيب السقوف وغيرها من مبادئ الفتنة بأن يكون الناس أمة واحدة في الكفر قرب الساعة ، حتى لا تقوم الساعة على من يقول : الله ، أو في زمن الدجال ، لأن من يبقى إذ ذاك على الحق في غاية القلة بحيث إنه لا عداد له في جانب الكفرة لأن كلام الملوك لا يخلو عن حقيقة ، وإن خرج مخرج الشرط فكيف بملك الملوك سبحانه ثم أخبر سبحانه أن جميع ذلك إنما يتمتع به في الدنيا فقال :

﴿ وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا ﴾ قرأ الجمهور لما بالتخفيف ، وقرأء بالتشديد ، فعلى الأولى إن هي المخففة من الثقيلة ، وعلى الثانية هي النافية ، ولما بمعنى إلا ما كل ذلك إلا ما يتمتع به في الدنيا ، وقرأء بكسر اللام من لما على أن اللام للعلة ، وما موصولة ، والعائد محذوف ، أي للذي هو متاع ﴿ والآخرة ﴾ أي الجنة ﴿ عند ربك للمتقين ﴾ أي لمن اتقى الشرك والمعاصي وآمن بالله وحده ، وعمل بطاعته ، وترك الدنيا وآثر الآخرة فإنها الباقية التي لا تفنى ، ونعيمها الدائم الذي لا ينقطع .

﴿ ومن يعيش ﴾ يقال عشوت الى النار قصدها وعشوت عنها أي أعرضت عنها ، كما تقول : عدت الى فلان وعدلت عنه ، أي ملت اليه

وملت عنه كذا قال الفراء والزجاج وأبو الهيثم والأزهري ، وقال الخليل :
العشو النظر الضعيف ، وقال أبو عبيدة والأخفش . ان معنى (ومن يعش)
ومن تظلم عينه وهو نحو قول الخليل ، وهذا على قراءة الجمهور من
يعش بضم الشين من عشا يعشو ، وقرئ بفتح الشين يقال : عشى
الرجل يعشى عشا إذا عمى ، وقال الجوهري : العشا مقصور مصدر
الأعشى وهو الذي لا يبصر بالليل ويبصر بالنهار ، والمرأة عشوى ، وقرئ
يعشوبالواو على أن من موصولة غير متضمنة معنى الشرط .

والمعنى ومن يعرض ويتعمى ويتجاهل ويتغافل ﴿ عن ذكر
الرحمن ﴾ ولم يخف عقابه ولم يرد ثوابه ، وقيل : يول ظهره عن القرآن
﴿ نقيض له شيطانياً ﴾ قرأ الجمهور بالنون ، وقرئ بالتحية مبنياً للفاعل ،
وقرأ ابن عباس بالتحية مبنياً للمفعول ، ورفع شيطان على النيابة والمعنى
نسب له جزاء على كفره شيطانياً .

﴿ فهو له قرين ﴾ أي ملازم له في الدنيا ، يمنعه من الحلال ويبعثه
على الحرام وينهاه عن الطاعة ويأمره بالمعصية ولا يفارقه . وقيل في
الآخرة إذا قام من قبره قاله سعيد الجريري وقيل : فيهما قال القشيري :
وهو الصحيح أو هو ملازم للشيطان لا يفارقه بل يتبعه في جميع أموره
ويطيعه في كل ما يوسوس به إليه وقال الزجاج معنى الآية أن من أعرض
عن القرآن وما فيه من الحكم الى أباطيل المضلين يعاقبه الله بشيطان
يقيضه له حتي يضلّه ويلازمه قريناً فلا يهتدي مجازاة له حين أثر الباطل
على الحق البين .

أخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن عثمان المخزومي « أن قریشاً
قالت قيسوا لكل رجل من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم رجلاً
يأخذه فقيضوا لأبي بكر طلحة ابن عبيد الله فأتاه وهو في القوم فقال أبو

بكر : إلام تدعوني ؟ قال أدعوك الى عبادة اللات والعزى ، قال أبو بكر وما اللات ؟ قال أولاد الله قال وما العزى ؟ قال بنات الله قال أبو بكر فمن أمهم ؟ فسكت طلحة فلم يجبه فقال لأصحابه أجيئوا الرجل فسكت القوم فقال طلحة قم يا أبا بكر أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فأنزل الله هذه الآية « وثبت في صحيح مسلم وغيره أن مع كل مسلم قرين من الجن .

﴿ وإنهم ﴾ أي وإن الشياطين الذين يقيضهم الله لكل أحد ممن يعيشون عن ذكر الرحمن كما هو معنى من ﴿ ليصدونهم عن السبيل ﴾ أي يحولون بينهم وبين سبيل الحق ويمنعونهم منه ويوسوسون لهم أنهم على الهدى حتى يظنوا اصدق ما يوسوسون به ، وهو معنى قوله :

﴿ ويحسبون أنهم ﴾ أي يحسب الكفار أن الشياطين ﴿ مهتدون ﴾ فيطيعونهم أو يحسب الكفار بسبب تلك الوسوسة أنهم في أنفسهم مهتدون ، وصيغة المضارع في الأفعال الأربعة للدلالة على الاستمرار التجديدي لقوله :

﴿ حتى إذا جاءنا ﴾ فإن حتى وإن كانت ابتدائية داخلة على الجملة الشرطية لكنها تقتضي حتماً أن تكون غاية لأمر ممتد ، كما مر مراراً ، قاله ابو السعود قرأ الجمهور بالثنية أي الكافر والشيطان المقارن له ، وقرئ بالافراد أي الكافر أو كل واحد منهما .

﴿ قال ﴾ الكافر مخاطباً للشيطان : ﴿ يا ليت ﴾ كان في الدنيا ﴿ بيني وبينك بعد المشرقين ﴾ أي بعد ما بين المشرق والمغرب ، فغلب المشرق على المغرب ، قال مقاتل : يتمنى الكافر أن بينهما بعد مشرق أطول يوم في السنة من مشرق أقصر يوم في السنة والأول أولى وبه قال الفراء ﴿ فبئس القرين ﴾ أي أنت أيها الشيطان .

وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْكُرُ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ
الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَأَمَّا نَذَاهِبُكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ
مُنْقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْزَيْنَاكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَاسْتَمْسِكْ
بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ
تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسَأَلَ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا
يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾

﴿ ولن ينفعكم اليوم ﴾ هذا حكاية لما سيقال لهم يوم القيامة ﴿ إذ ظلمتم ﴾ أي لأجل ظلمكم أنفسكم في الدنيا ، وقيل : إن إذ بدل من اليوم لأنه تبين ذلك في اليوم أنهم ظلموا أنفسهم في الدنيا ﴿ أنكم في العذاب مشتركون ﴾ قرأ الجمهور بفتح إن على أنها وما بعدها في محل رفع على الفاعلية ، أي لن ينفعكم اليوم اشتراككم في العذاب ، قال المفسرون لا يخفف عنهم بسبب الاشتراك شيء من العذاب ، لأن لكل أحد من الكفار والشياطين الحظ الأوفر منه وقيل إنها للتعليل لنفي النفع ، أي لن ينفعكم الاعتذار والندم اليوم ، فأنتم وقرنائكم اليوم مشتركون في العذاب كما كنتم مشتركين في سببه في الدنيا ويقوي هذا المعنى قراءة إن بالكسر .

ثم ذكر سبحانه أنها لا تنفع الدعوة والوعظ من سبقت له الشقاوة فقال ﴿ أفأنت تسمع الصم أو تهدي العمي ﴾ الهمزة لانكار التعجب أي ليس لك ذلك فلا يضيق صدرك ان كفروا ، وفيه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وإخبار له بأنه لا يقدر على ذلك إلا الله عز وجل .

﴿ ومن كان في ضلال مبين ﴾ عطف على العمي للتغاير العنواني ، وإلا فالمصداق واحد ، أي إنك لا تهدي من كان كذلك ، ومعنى الآية أن هؤلاء الكفار بمنزلة الصم الذين لا يعقلون ما جئت به ، وبمنزلة العمي

الذين لا يبصرون لأفراطهم في الضلالة وتمكنهم من الجهالة .

﴿ فإما نذهبن بك ﴾ بالموت قبل أن ننزل بهم العذاب ، وقيل : المعنى نخرجنك من مكة ﴿ فإننا منهم منتقمون ﴾ إما في الدنيا أو في الآخرة ، قال علي كرم الله وجهه : ذهب الله بنبيه صلى الله عليه وسلم وبقيت نعمته في عدوه ﴿ أو نرينك الذي وعدناهم ﴾ من العذاب قبل موتك ﴿ فإننا عليكم مقتدرون ﴾ متى شئنا عذبناهم .

قال كثير من المفسرين قد أراه ذلك يوم بدر وبه قال ابن عباس وقال الحسن وقتادة : هي في أهل الاسلام يريد ما كان بعد النبي صلى الله عليه وسلم من الفتن ، وقد كان بعد النبي صلى الله عليه وسلم فتنة شديدة فأكرم الله نبيه صلى الله عليه وسلم وذهب به فلم يره في أمته شيئاً من ذلك والأول أولى .

﴿ فاستمسك بالذي أوحى إليك ﴾ من القرآن وإن كذب به من كذب ﴿ إنك على صراط مستقيم ﴾ أي طريق واضح تعليل للإستمسك أو للأمر به ﴿ وأنه ﴾ أي وإن القرآن ﴿ لذكر لك ولقومك ﴾ أي شرف لك ولقريش إذ نزل عليك وأنت منهم بلغتك ولغتهم ، ومثله قوله :

﴿ لقد أنزلنا اليكم كتاباً فيه ذكركم ﴾ وقيل بيان لك ولأمتك فيما لكم حاجة ، وقيل تذكره تذكرون بها أمر الدين وتعملون به ؛ وعن علي وابن عباس قالا : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه على القبائل بمكة ويعددهم الظهور ، فاذا قالوا لمن الملك بعدك أمسك فلم يجبههم بشيء لأنه لا يؤمر في ذلك بشيء حتى نزلت ﴾ وإنه لذكر لك ولقومك ﴿ فكان إذا سئل بعد قال لقريش فلا يجيبوه حتى قبلته الأنصار على ذلك » .

وعن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يزال هذا الأمر في قریش ما بقي منهم اثنان » أخرجه الشيخان ، وعن معاوية قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن هذا الأمر في

قريش لا يعاديهم أحد إلا أكبه الله تعالى على وجهه ، ما أقاموا الدين »
أخرجه البخاري .

﴿ وسوف تسألون ﴾ عما جعله الله لكم من الشرف ، كذا قال
الزجاج والكلبي وغيرهما ، وقيل يسألون عما يلزمهم من القيام بما فيه
والعمل به وعن تعظيمهم له ، وشكرهم لهذه النعمة يوم القيامة .

﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن ﴾
أي غيره ﴿ آلهة يعبدون ﴾ قال الزهري وسعيد بن جبير وابن زيد أن
جبريل قال ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم لما أسرى به فالمراد سؤال
الأنبياء في ذلك الوقت عند ملاقاته لهم ، وبه قال جماعة من السلف .
وقال المبرد والزجاج وجماعة من العلماء إن المعنى واسأل أمم من قد
أرسلنا وبه قال ابن عباس ومجاهد والسدي والضحاك وقتادة وعطاء
والحسن ، وفائدة إيقاع السؤال على الرسل مع أن المراد أممهم التنبيه
على أن المسؤول عنه عين ما نطقت به السنة الرسل ، لا ما تقوله
علمائهم من تلقاء أنفسهم ، وعلى الأول هي مكة ، وعلى الثاني مدنية .

ومعنى الآية على القولين سؤالهم هل أذن الله بعبادة الأوثان في ملة
من الملل وهل سوغ ذلك لأحد منهم ؟ والمقصود تقرير مشركي قريش
بأن ما هم عليه لم يأت في شريعة من الشرائع . وقيل ليس المراد بسؤال
الرسل حقيقة السؤال ولكنه مجاز عن النظر في أديانهم ، والفحص عن
مللهم ، هل جاءت عبادة الأوثان قط في ملة من ملل الأنبياء ؟ وكفاه
فحصاً ونظرة في كتاب الله المعجز المصدق لما بين يديه ، وإخبار الله فيه
بأنهم يعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطاناً ، وهذه الآية في نفسها
كافية لا حاجة الى غيرها .

ولما أعلم الله سبحانه نبيه بأنه منتقم له من عدوه وذكر اتفاق الأنبياء
على التوحيد ، أتبعه بذكر قصة موسى وفرعون ، وبيان ما نزل بفرعون
وقومه من النعمة فقال .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا يَا أَيُّهُ السَّاحِرُ الدَّعُكُنَا رَبَّكَ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَبْقَوْمِ الْإِنْسَ إِلَىٰ مُلْكِ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾

﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا ﴾ التسع التي تقدم بيانها ﴿ الى فرعون وَمَلَئِهِ ﴾ أي القبط ﴿ فقال إني رسول رب العالمين ﴾ أرسلني اليكم ما أجابوه به عند قوله هذا محذوف دل عليه قوله ﴿ فلما جاءهم بآياتنا ﴾ وهو مطالبته إياه باحضار البينة على دعواه وإبراز الآية ﴿ إذا هم منها يضحكون ﴾ استهزاء وسخرية وجواب لما هو اذا الفجائية لأن التقدير فاجأوا وقت ضحكهم .

﴿ وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها ﴾ أي كل واحدة من آيات موسى أكبر مما قبلها وأعظم قدراً مع كون التي قبلها عظيمة في نفسها وقيل المراد بهذا الكلام أنهم موصوفات بالكبر ولا يكدن يتفاوتن فيه وعليه كلام الناس هما أخوان كل واحد منهما أكبر من الآخر وقيل المعنى إن الأولى تقتضي علماً والثانية تقتضي علماً فإذا ضمت الثانية الى الأولى ازداد الوضوح ومعنى الأخوة بين الآيات أنها متشاكلة متناسبة في دلالتها

على صحة نبوة موسى كما يقال هذه صاحبة هذه أي هما قريرتان في المعنى وقيل المعنى أن كل واحدة من الآيات اذا انفردت ظن الظان أنها أكبر من سائر الآيات .

﴿ وأخذناهم ﴾ بسبب تكذيبهم بتلك الآيات ﴿ بالعذاب ﴾ أي بالسنين والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والطمس ، كما قال تعالى ﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ﴾ الآية ، ثم بين سبحانه أن العلة في أخذه لهم بالعذاب هو رجاء رجوعهم ، فقال : ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ أي لكي يرجعوا عن الكفر الى الإيمان ، ولما عاينوا ما جاءهم به من الآيات البينات ، والدلالات الواضحات ، ظنوا ان ذلك من قبيل السحر .

﴿ وقالوا يا أيها الساحر ﴾ وكانوا يسمون العلماء سحرة ، ويوقرون السحرة ويعظمونهم ، ولم يكن السحر صفة ذم عندهم ، قال الزجاج : خاطبوه بما تقدم له عندهم من التسمية بالساحر ، أو نادوه بذلك في تلك الحال لشدة شكيمتهم ، وفرط حماقتهم ، والأظهر أن النداء كان باسمه العلم ، كما في الأعراف في قوله : قالوا : يا موسى .

﴿ ادع لنا ربك بما عهد عندك ﴾ لكن حكى الله سبحانه هنا كلامهم لا بعبارتهم ، بل على وفق ما أضمرته قلوبهم من اعتقادهم أنه ساحر ، لاقتضاء مقام التسليّة ذلك فإن قريشاً سموه ساحراً ، وسموا ما أتى به سحراً ، أفاده الكرخي ، والمعنى : ادع الله بما أخبرتنا من عهده إليك أنا إذا آمنّا كشف عنا العذاب الذي نزل بنا ﴿ إننا لمهتدون ﴾ أي فنحن مهتدون فيما يستقبل من الزمان ومؤمنون بما جئت به .

﴿ فلما كشفنا عنهم العذاب ﴾ في الكلام حذف ، والتقدير فدعا موسى ربه ، فكشف عنهم العذاب ، فلما كشف عنهم العذاب ﴿ اذا هم ينكثون ﴾ فاجأوا نكثهم للعهد الذي جعلوه على أنفسهم من الاهتداء ، والنكث النقض وكانوا ينقضونه في كل مرة من مرات العذاب .

﴿ ونادى فرعون ﴾ افتخاراً ﴿ في قومه ﴾ قيل : لما رأى تلك الآيات خاف ميل القوم الى موسى فجمعهم ونادى بصوته فيما بينهم ، أو أمر منادياً ينادي بقوله : ﴿ قال : يا قوم أليس لي ملك مصر ﴾ لا ينازعني فيه أحد ، ولا يخالفني فيه مخالف .

﴿ وهذه الأنهار تجري من تحتي ﴾ أي والحال أن الأنهار تجري من تحت قصري ، والمراد هنا أنهار النيل ، وقال قتادة : المعنى تجري بين يدي وفي بساطيني ، قال الحسن : تجري بأمرى أي تجري تحت أمري وقال الضحاك : أراد بالأنهار القواد والرؤساء والجبابرة ، وأنهم يسرون تحت لوائه ، وقيل : أراد بالأنهار الأموال ، والأول أولى .

﴿ أفلا تبصرون ﴾ ذلك وتستدلون به على قوة ملكي وعظم قدري ، وضعف موسى عن مقاومتي ، وعن الرشيد أنه لما قرأها قال : لأوليتها أحسن عبيدي ، فولأها الخصيب ، وكان خادمه على وضوئه ، وعن عبد الله بن طاهر أنه وليها فخرج إليها ، فلما شارفها قال : أهي القرية التي افتخر بها فرعون حتى قال ﴿ أليس لي ملك مصر ﴾ والله لهي أقل عندي من أن أدخلها فثنى عنانه .

أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلِكُ مَقْفَرِينَ ﴿٥٣﴾ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَافًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوا آلِ هَٰئِنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾

﴿ أم أنا خير ﴾ أم هي المنقطعة المقدرة ببل ، التي للاضراب دون الهمزة التي للانكار أي بل أنا خير ، قال أبو عبيدة أم بمعنى : بل ، والمعنى قال فرعون لقومه بل أنا خير ، وقال الفراء : إن شئت جعلتها من الإستفهام الذي جعل بأم لاتصاله بكلام قبله - وقيل : هي زائدة ، وحكى أبو زيد عن العرب أنهم يجعلون أم زائدة ، والمعنى أنا خير من هذا ، وقال الأخفش : في الكلام حذف ، والمعنى أفلا تبصرون أم تبصرون ؟ ثم ابتداء فقال : أنا خير ، وروي عن الخليل وسيبويه نحو قول الأخفش ، ويؤيد هذا أن عيسى الثقفي ويعقوب الحضرمي وقفوا على أم على تقدير أم تبصرون فحذف لدلالة الأول عليه ، وعلى هذا فتكون أم متصلة لا منقطعة والأول أولى ، وحكى الفراء أن بعض القراء قرأ أما أنا خير ؟ أي أأست خيراً ؟

﴿ من هذا الذي هو مهين ﴾ أي ضعيف حقير ممتهن في نفسه ، لا عز له لأنه يتعاطى أموره بنفسه وليس له ملك ولا قوة يجري بها نهراً وينفذ بها أمراً ﴿ ولا يكاد يبين ﴾ الكلام لما في لسانه من العقدة ، وقد تقدم بيانه في سورة طه ، قال ابن عباس في الآية : كانت بموسى لثغة في

لسانه ، واللثغة بالضم ان تصير الراء غيناً أو لاماً أو السين ثاء ، وقد لثغ من باب طرب فهو ألثغ ، وقيل المعنى لا يكاد يبين خجته التي تدل على صدقه فيما يدعي ، ولم يرد به أنه لا قدرة له على الكلام ، والأول أولى .

﴿ فلولا ألقى عليه ﴾ من عند مرسله الذي يدعي أنه الملك بالحقيقة ﴿ أسورة ﴾ جمع سوار ، وبها قرأ حفص ، وقرأ الجمهور أساور جمع أسورة ، وقال أبو عمرو بن العلاء واحد الأساورة والأساور والأساوير أسوار ، وهي لغة في سوار ، وقرأ أبي أساور ، وابن مسعود أساوير ، قال مجاهد : كانوا اذا سودوا رجلاً سوروه بسوارين ، وطوقوه بطوق ذهب ، علامة لسيادته ، أرادوا بإلقاء الأسورة عليه إلقاء مقاليد الملك إليه ، أي فهلا حلي بأسورة ﴿ من ذهب ﴾ إن كان عظيماً مقدماً سيداً .

﴿ أو جاء معه الملائكة مقترنين ﴾ أي هلا جاء معه الملائكة متتابعين متقارنين إن كان صادقاً يعينونه على أمره ، ويشهدون له بالنبوة ، ويمشون معه ، فأوهم اللعين قومه أن الرسل لا بد أن يكونوا على هيئة الجبابرة ، ومحفوفين بالملائكة ﴿ فاستخف قومه ﴾ أي حملهم على خفة الجهل والسفه ، بقوله وكيده ، واستفزه بالقول ، واستزلهم وعمل فيهم كلامه ، وقيل : طلب منهم الخفة في الطاعة وهي الاسراع ، قال ابن الأعرابي المعنى فاستجهل قومه فأطاعوه لخفة أحلامهم ، وقلة عقولهم ، فقال استخفه الفرخ ، أي أزعجه ، استخفه أي حملة ، ومنه ﴿ ولا يستخفك الذين لا يوقنون ﴾ ، وقد استخف بقومه وقهرهم حتى اتبعوه وعزروه وقيل استخف قومه أي وجدهم خفاف العقول ، فصيغة الاستفعال للوجدان ، وفي نسبه الى القوم تجوز .

﴿ فأطاعوه ﴾ فيما أمرهم به وقبلوا قوله وكذبوا موسى ﴿ إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾ أي خارجين عن طاعة الله .

﴿ فلما آسفونا ﴾ أي اغضبونا قاله المفسرون ، والأسف الغضب وقيل أشد الغضب ، وقيل السخط ، وقيل ، المعنى أغضبوا رسلنا قال ابن عباس فلما أسخطونا وأغضبونا أي بالافراط في الفساد والعصيان ﴿ انتقمنا منهم ﴾ ثم بين العذاب الذي وقع به الانتقام فقال ﴿ فأغرقناهم أجمعين ﴾ في البحر وإنما أهلكوا بالغرق ليكون هلاكهم بما تعززوا به وهو الماء في قوله ﴿ وهذه الأنهار تجري من تحتي ﴾ ففيه إشارة الى أن من تعزز بشيء دون الله أهلكه الله به وقد استضعف اللعين موسى وعابه بالفقر والضعف ، فسقطه الله تعالى عليه إشارة الى أنه ما استضعف أحد شيئاً إلا غلبه ، أفاده القشيري .

أخرج أحمد والطبراني والبيهقي في الشعب وابن أبي حاتم عن عقبة ابن عامر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « قال إذا رأيت الله يعطى العبد ما شاء وهو مقيم على معاصيه فإنما ذلك استدراج منه له وقرأ ﴿ فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين ﴾ وعن طاوس بن شهاب قال كنت عند عبد الله فذكر عنده موت الفجاءة فقال تخفيف على المؤمن وحسرة على الكافر ﴿ فلما آسفونا انتقمنا منهم ﴾ .

﴿ فجعلناهم سلفاً ﴾ أي قدوة لمن عمل بعملهم من الكفار ، في استحقاق العذاب ، لأجل الاعتبار بهم ، قرأ الجمهور سلفاً بفتح السين واللام جمع سالف كخدم وخدام ، ورصد وراصد ، وحرس وحارس ، يقال سلف يسلف إذا تقدم ومضى ، قال الفراء والزجاج جعلناهم متقدمين سابقين ، ليتعظ بهم الآخرون اللاحقون ، وقرئ سلفاً بضم السين واللام ، قال الفراء هو جمع سليف نحو سرر وسرير ، وقال أبو حاتم هو جمع سلف نحو خشب وخشب ، وقرئ بضم السين وفتح اللام جمع سلفة ، وهم الفرقة المتقدمة نحو غرف وغرفة ، كذا قال النضر بن شميل ، وقال ابن عباس سلفاً أهواء مختلفة .

﴿ ومثلاً للآخرين ﴾ أي عبرة وموعظة لمن يأتي بعدهم ، أو قصة عجيبة تجري مجرى الأمثال ، وتسير سير الأقوال ، ولما قال سبحانه ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ﴾ تعلق المشركون بأمر عيسى وقالوا ما يريد محمد صلى الله عليه وسلم إلا أن نتخذه إلهاً ، كما اتخذ النصارى عيسى بن مريم فأنزل الله ﴿ ولما ضرب ابن مريم مثلاً ﴾ كذا قال قتادة ومجاهد .

وقال الواحدي : أكثر المفسرين على أن هذه الآية نزلت في مجادلة ابن الزبعرى مع النبي صلى الله عليه وسلم لما نزل قوله تعالى ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ﴾ قال ابن الزبعرى : خصمتك ورب الكعبة اليس النصارى يعبدون المسيح ؟ واليهود عزيزاً ؟ وبنو مليح الملائكة ؟ فإن كان هؤلاء في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم ، ففرحوا به ، وضحكوا وارتفعت أصواتهم ، فأنزل الله ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون ﴾ ونزلت هذه الآية المذكورة هنا ، وقد مضى هذا في سورة الأنبياء ، ولا يخفك أن ما قاله ابن الزبعرى مندفع من أصله ، وباطل برمته فإن الله سبحانه قال : ﴿ إنكم وما تعبدون ﴾ ولم يقل : ومن تعبدون ، حتى يدخل في ذلك العقلاء كالمسيح وعزير والملائكة ، قال الشهاب : ابن الزبعرى هو عبد الله الصحابي المشهور ، وهذه القصة على تقدير صحتها كانت قبل إسلامه .

﴿ إذا قومك ﴾ يا محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ منه ﴾ أي من ذلك المثل المضروب ﴿ يصدون ﴾ أي يضجون ويصيحون ، فرحاً بذلك المثل المضروب ، والمراد بقومه هنا كفار قريش ، إذ ظنوا أنه ألزم وأفحم النبي صلى الله عليه وسلم به ، وهو إنما سكت انتظاراً للوحي .

قرأ الجمهور : يصدون بكسر الصاد ، وقرئ بضمها ، وهما سبعيتان قال الكسائي والفراء والزجاج والأخفش : هما لغتان ومعناهما يضجون ،

قال الجوهري : صد يصد صديداً أي ضج ، وقيل : إنه بالضم للإعراض ، وبالكسر من الضجيج ، قاله قطرب ، قال أبو عبيدة : لو كانت من الصدود عن الحق يقال : اذا قومك عنه يصدون ، عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لقريش : « إنه ليس أحد يعبد من دون الله فيه خير ، قالوا : ألسن تزعم أن عيسى كان نبياً ؟ وعبداً من عباد الله صالحاً ؟ وقد عبدته النصارى ، فإن كنت صادقاً فإنه كآلهتهم ، فأنزل الله : ولما ضرب ابن مريم مثلاً » الآية ، قلت : وما يصدون ؟ قال : يضجون .

﴿ وقالوا آلهتنا خير ﴾ عندك ﴿ أم هو ﴾ أي المسيح ، قال السدي وابن زيد : خاصموه وقالوا إن كان كل من عبد غير الله في النار فنحن نرضى أن تكون آلهتنا مع عيسى وعزير والملائكة ، وقال قتادة يعنون محمداً صلى الله عليه وسلم ، أي آلهتنا خير أم محمد صلى الله عليه وسلم ؟ ويقوي هذا قراءة ابن مسعود آلهتنا خير أم هذا .

﴿ ما ضربوه لك إلا جدلاً ﴾ أي ما ضربوا لك هذا المثل في عيسى إلا ليجادلوك لا لطلب الحق حتى يرجعوا له عند ظهوره وبيانه ، على أن جدلاً منتصب على العلة ، أو مجادلين على أنه مصدر في موضع الحال وقرئ جدالاً .

﴿ بل هم قوم خصمون ﴾ أي شديداً الخصومة ، كثيروا اللد ، عظيموا الجدل ، وأخرج سعيد بن منصور وأحمد وعبد بن حميد والترمذي وصححه وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن أبي أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل » ، ثم تلا هذه الآية ، وقد ورد في ذم الجدل بالباطل أحاديث كثيرة ، ثم بين سبحانه أن عيسى ليس برب ، وإنما هو عبد من عباده اختصه بنبوته فقال :

إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُ بِهَا وَاتَّبِعُونْ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾

﴿ إن هو إلا عبد أنعمنا عليه ﴾ بما أكرمناه به من النبوة ، وأنعمنا عليه برفعة المنزلة والذكر ﴿ وجعلناه مثلاً لبني اسرائيل ﴾ أي آية وعبرة لهم ، يعرفون به قدرة الله سبحانه ، فإنه كان من غير أب ، وكان يحيي الموتى ويرى الأكمه والأبرص ، وكل مريض بإذن الله ، فمن أين يدخل في قوله ﴿ إنكم وما تعبدون ؟ ﴾ .

أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال إن المشركين أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا أرأيت من يعبد من دون الله أين هم ؟ قال في النار ، قالوا الشمس والقمر قال والشمس والقمر قالوا فاعسى ابن مريم ؟ قال : قال الله ﴿ إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبني اسرائيل ﴾ .

﴿ ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون ﴾ الخطاب لقريش ، أي لو نشاء لأهلكناكم ، وجعلنا بدلکم في الأرض ملائكة مكرمين يعمرونها ، ويعبدوننا ، فهذا تهديد وتخويف لقريش ، قال السمين في ﴿ من ﴾ هذه أقوال أحدها أنها بمعنى بدل أي لجعلنا بدلکم ، ومنه قوله تعالى ﴿ أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ﴾ أي بدلها ، والثاني وهو المشهور أنها ابتدائية وتأويل الآية عليه لولدنا منكم يا رجال ملائكة في الأرض يخلفونكم كما تخلفكم أولادكم ، كما ولدنا عيسى من أنثى دون ذكر ، ذكره الزمخشري ، والثالث أنها تبعيضية قال أبو البقاء وقيل المعنى لحولنا بعضكم ملائكة ، وقال ابن عطية لجعلنا بدلاً منكم ، ومقصود الآية

أنا لو نشاء لأسكننا الملائكة الأرض ، وليس في إسكاننا إياهم السماء شرف حتى يعبدوا .

﴿ وإنه لعلم للساعة ﴾ قال مجاهد والضحاك والسدي وقتادة إن المراد المسيح ، وأن خروجه أي نزوله مما يعلم به قيام الساعة ، أي قربها لكونه شرطاً من أشراتها لأن الله سبحانه ينزله من السماء قبيل قيام الساعة ، كما أن خروج الدجال من أعلام الساعة ، وقال الحسن وسعيد بن جبير المراد القرآن لأنه يدل على قرب مجيء الساعة ، وبه يعلم وقتها وأحوالها وأحوالها ، وقيل المعنى أن حدوث المسيح من غير أب وإحياءه للموتى دليل على صحة البعث ، وقيل الضمير لمحمد صلى الله عليه وسلم والأول أولى .

قال ابن عباس « أي خروج عيسى ابن مريم عليه السلام قبل يوم القيامة »^(١) ، وأخرجه الحاكم وابن مردويه عنه مرفوعاً ، وعن أبي هريرة نحوه أخرجه عبد بن حميد قرأ الجمهور لعلم بصيغة المصدر ، جعل المسيح علماً للساعة مبالغة ، لما يحصل من العلم بحصولها عند نزوله ، وقرأ جماعة من الصحابة بفتح العين واللام ، أي خروجه علم من أعلامها ، وشرط من شروطها ، وقرئ للعلم بلامين مع فتح العين واللام أي للعلامة التي يعرف بها قيام الساعة .

﴿ فلا تمترن بها ﴾ أي فلا تشكن في وقوعها ، ولا تكذبن بها ، فإنها كائنة لا محالة ﴿ واتبعون ﴾ قرأ الجمهور بحذف الياء وصلاً ووقفاً ، وقرئ بإثباتها وصلاً ووقفاً وقرئ بحذفها في الوصل دون الوقف أي اتبعوني فيما أمركم به من التوحيد وبطلان الشرك ، وفرائض الله التي فرضها عليكم ﴿ هذا ﴾ أي الذي أمركم به وأدعوكم إليه ﴿ صراط مستقيم ﴾ أي طريق قيم ، موصل الى الحق .

(١) وقد قال به ابن كثير في تفسيره .

وَلَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ الْيَمِّ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾

﴿ ولا يصدنكم الشيطان ﴾ أي لا تغتروا بوساوسه وشبهه التي يوقعها في قلوبكم فيمنعكم ذلك من اتباعي أو من الإيمان بالساعة ، فإن الذي دعوتكم إليه هو دين الله الذي اتفق عليه رسله وكتبه ، ثم علل نهيهم عن أن يصددهم الشيطان ببيان عداوته لهم فقال : ﴿ إنه لكم عدو مبين ﴾ أي مظهر لعداوته لكم غير متحاش عن ذلك ولا متكتم به كما يدل على ذلك ما وقع بينه وبين آدم ، وما ألزم به نفسه من إغراء جميع بني آدم إلا عباد الله المخلصين .

﴿ ولما جاء عيسى ﴾ الى بني إسرائيل ﴿ بالبينات ﴾ أي بالمعجزات الواضحة ، والشرائع النيرة ، قال قتادة البينات ههنا الانجيل ﴿ قال قد جئكم بالحكمة ﴾ أي النبوة وقيل : الانجيل ، وقيل ما يرغب في الجميل ويكف عن القبيح .

﴿ و ﴾ جئكم ﴿ لأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه ﴾ من أحكام التوراة ، ولم يترك العاطف ليتعلق بما قبله ليؤذن بالاهتمام بالعلة حتى جعلت كأنها كلام برأسه والبعض هو أمر الدين قال قتادة يعني اختلاف الفرق الذين تحزبوا في أمر عيسى ، قال الزجاج : الذي جاء به عيسى

في الانجيل إنما هو بعض الذي اختلفوا فيه فبين لهم في غير الإنجيل ما احتاجوا اليه .

وقيل : إن بني اسرائيل اختلفوا بعد موت موسى في أشياء من أمر دينهم وقال أبو عبيدة ان بعض هنا بمعنى كل كما في قوله ﴿ يصبكم بعض الذي يعدكم ﴾ وقال مقاتل هو كقوله ﴿ ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم ﴾ يعني ما أحل في الانجيل مما كان محرماً في التوراة كلحم الابل والشحم من كل حيوان وصيد السمك يوم السبت ثم أمرهم بالتقوى والطاعة فقال :

﴿ فاتقوا الله ﴾ أي اتقوا معاصيه ﴿ وأطيعون ﴾ فيما أمركم به من التوحيد والشرائع وأبلغه عنه ﴿ إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه ﴾ هذا بيان لما أمرهم بأن يطيعوه فيه ﴿ هذا ﴾ أي عبادة الله وحده والعمل بشرائعه ﴿ صراط مستقيم ﴾ وهذا تمام كلام عيسى عليه السلام أو استئناف من الله يدل على ما هو المقتضى للطاعة في ذلك .

﴿ فاختلف الأحزاب من بينهم ﴾ قال مجاهد والسدي الأحزاب هم أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، وقال الكلبي ومقاتل هم فرق النصارى اختلفوا في أمر عيسى ، قال قتادة المعنى أنهم اختلفوا فيما بينهم ، وقيل اختلفوا من بين من بعث إليهم من اليهود والنصارى والأحزاب هي الفرق المتحيزة قيل هم اليعقوبية والنسطورية والملكانية والشمعونية ، وهذا مبني على أنه بعث لجميع بني اسرائيل فتحزبوا في أمره ، وقيل المراد بالأحزاب الذين تحزبوا على النبي صلى الله عليه وسلم وكذبوه وهم المرادون بقوله : ﴿ هل ينظرون إلا الساعة ﴾ والأول أولى .

﴿ فويل للذين ظلموا ﴾ من هؤلاء المختلفين وهم الذين أشركوا بالله ولم يعملوا بشرائعه ، وقالوا في عيسى ما كفروا به ﴿ من عذاب يوم أليم ﴾ أي أليم عذابه وهو يوم القيامة .

﴿ هل ينظرون ﴾ أي هل يترقب وينتظر هؤلاء الأحزاب أو الكفار
﴿ إلا الساعة ان تأتيهم بغتة ﴾ أي فجأة ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ أي لا
يفطنون بذلك لاشتغالهم بأمر دنياهم وإنكارهم لها ، كقوله تأخذهم وهم
يخضمون .

﴿ الأخلاء ﴾ في الدنيا أي المتحابون فيها ﴿ يومئذ ﴾ أي يوم تأتيهم
الساعة ﴿ بعضهم لبعض عدو ﴾ أي يعادي بعضهم بعضاً لأنه ، قد انقطعت
بينهم العلائق واشتغل كل واحد منهم بنفسه ووجدوا تلك الأمور التي كانوا
فيها أخلاء أسباباً للعذاب ، فصاروا أعداء ثم استثنى المتقين فقال ﴿ إلا
المتقين ﴾ فإنهم أخلاء في الدنيا والآخرة ، لأنهم وجدوا تلك الخلقة التي
كانت بينهم من أسباب الخير والثواب فبقيت خلقتهم على حالها .

عن علي بن أبي طالب في الآية « قال : خليلان مؤمنان ، وخليلان
كافران توفي أحد المؤمنين فبشر بالجنة فذكر خليله فقال : اللهم إن خليلي
فلاناً كان يأمرني بطاعتك وطاعة رسولك ، ويأمرني بالخير وينهاني عن
الشر ، وينبئني أنني ملائكتك ، اللهم لا تضله بعدي حتى تريه ما أريتني ،
وترضى عنه كما رضيت عني فيقال له : اذهب فلو تعلم ما له عندي
لضحكت كثيراً ولبكيت قليلاً ، ثم يموت الآخر فيجمع بين أرواحهما
فيقال : ليشن كل واحد منكما على صاحبه فيقول كل واحد منهما
لصاحبه : نعم الأخ ونعم الصاحب ونعم الخليل ، وإذا مات أحد الكافرين
بشر بالنار ، فيذكر خليله فيقول : اللهم إن خليلي فلاناً كان يأمرني
بمعصيتك ومعصية رسولك ، ويأمرني بالشر وينهاني عن الخير ، وينبئني
أنني غير ملائكتك اللهم فلا تهده بعدي حتى تريه مثل ما أريتني وتسخط
عليه كما سخطت علي فيموت الآخر فيجمع بين أرواحهما فيقال : ليشن كل
واحد منكما على صاحبه فيقول كل لصاحبه . بش الأخ وبش الصاحب ،
وبش الخليل » ، أخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد وحميد بن زنجويه في
ترغيبه وابن جرير والبيهقي وابن مردويه وابن أبي حاتم .

يَعْبَادٍ لَا خَوْفَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا
 مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ
 مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا
 خَالِدُونَ ﴿٧١﴾

﴿ يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون ﴾ أي يقال لهؤلاء
 المتقين المتحابين في الله بهذه المقالة تشريفاً لهم وتطيباً لقلوبهم ،
 فيذهب عند ذلك خوفهم ، ويرتفع حزنهم ﴿ الذين آمنوا بآياتنا وكانوا
 مسلمين ﴾ لله منقادين له مخلصين في أمر الدين .

﴿ ادخلوا الجنة ﴾ أي يقال لهم ذلك ، قال مقاتل ، إذا وقع الخوف
 يوم القيامة نادى مناد يا عبادي لا خوف عليكم ، فإذا سمعوا النداء رفع
 الخلائق رؤوسهم فيقال : الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين ، فينكس أهل
 الأوثان رؤوسهم غير المسلمين .

﴿ أنتم وأزواجكم ﴾ المراد بها نساؤهم المؤمنات وقيل قرنائهم من
 المؤمنين وقيل زوجاتهم من الحور العين ﴿ تحبرون ﴾ تكرمون أو تنعمون
 أو تفرحون أو تسرون أو تعجبون أو تلهذون بالسماع ، والأولى تفسير ذلك
 بالفرح والسرور الناشئين عن الكرامة والنعمة ، ناداهم بأربعة أمور الأول
 نفي الخوف ، والثاني نفي الحزن ، والثالث الأمر بدخول الجنة ، والرابع
 البشارة بالسرور .

﴿ يطاف عليهم بصحاف من ذهب ﴾ جمع صحيفة وهي القصعة
 الواسعة العريضة ، قال الكسائي أعظم القصاع الجفنة ، ثم القصعة ، وهي
 تشبع عشرة ثم الصحيفة ، وهي تشبع الخمسة ، ثم الميكلة ، وهي تشبع
 الرجلين أو الثلاثة ، والمعنى أن لهم في الجنة أطعمة يطاف عليهم بها في

صحاف الذهب

﴿ وأكواب ﴾ أي ولهم فيها أشربة يطاف عليهم بها في الأكواب ، وهي جمع كوب قال الجوهري الكوب كوز لا عروة له والجمع أكواب ، قال قتادة الكوب المدور القصير العنق ، القصير العروة ، والإبريق المستطيل العنق الطويل العروة ، وقال الأخفش الأكواب الأباريق التي لا خراطيم لها ، وقال قطرب هي الأباريق التي ليست لها عرى ، والعروة ما يمسك منه ويسمى أذنًا ، قال ابن عباس الأكواب الجرار من الفضة .

﴿ وفيها ﴾ أي في الجنة ﴿ ما تشتهي النفس ﴾ أي أنفس أهل الجنة من فنون الأطعمة والأشربة ، والأشياء المعقولة والمسموعة والملموسة ونحوها . مما تتطلبه النفس وتهواه كائناً ما كان ، جزاء لهم بما منعوا أنفسهم من الشهوات في الدنيا قرأ الجمهور تشتهي وفي مصحف عبد الله ابن مسعود تشتهي بإثبات الضمير العائد الى الموصول .

﴿ وتلذ الأعين ﴾ من كل المستلذات التي يستلذ بها ويطلب مشاهدتها ، وأعلاها النظر الى وجهه الكريم ، جزاء ما تحملوه من مشاق الاشتياق ، تقول لذ الشيء يلذ لذاذاً ولذاذة إذا وجده لذيذاً أو التذ به ، وهذا حصر لأنواع النعم ، لأنها إما مشتهيات في القلوب أو مستلذات في العيون .

عن عبد الرحمن بن سابط قال : قال رجل « يا رسول الله ، هل في الجنة خيل ؟ فإني أحب الخيل ، قال إن يدخلك الله الجنة فلا تشاء أن تركب فرساً من ياقوتة حمراء فتطير بك في أي الجنة شئت إلا فعلت ، وسأله آخر فقال : يا رسول الله هل في الجنة من إبل ؟ فإني أحب الإبل قال فلم يقل له ما قال لصاحبه فقال إن يدخلك الله الجنة يكن لك ما اشتئت نفسك ولذت عينك » أخرجه الترمذي ﴿ وأنتم فيها خالدون ﴾ لا تموتون ولا تخرجون منها .

وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ
 مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ
 مُبْسَوْنَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا أَيْمَنَّاكَ لِيَقْضَ عَلَيْنَا
 رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَكِيدُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ
 أَمَرُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾

﴿ وتلك الجنة التي أورثتموها ﴾ أي يقال لهم يوم القيامة هذه المقالة أي صارت اليكم كما يصير الميراث الى الوارث ﴿ بما كنتم تعملون ﴾ في الدنيا من الأعمال الصالحة ، وتلك مبتدأ والجنة صفة والموصول مع صلته صفة للجنة ، والخبر بما كنتم الخ ، وقيل الخبر الموصول مع صلته ، والأول أولى وفيه التفات من الغيبة الى الخطاب للتشريف ، والمخاطب كل واحد من أهل الجنة ، فلذلك أفرد الكاف ، ولم يقل وتلكم الذي هو مقتضى أورثتموها إيداناً بأن كل واحد مقصود بذاته .

أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما من أحد إلا وله منزل في الجنة ، ومنزل في النار ، فالكافر يرث المؤمن منزله من النار ، والمؤمن يرث الكافر منزله في الجنة ، وذلك قوله وتلك الجنة التي أورثتموها » .

﴿ لكم فيها ﴾ سوى الطعام والشراب ﴿ فاكهة كثيرة ﴾ أي كثيرة الأنواع والأصناف والفاكهة معروفة وهي الثمار كلها رطبها ويابسها ﴿ منها تأكلون ﴾

وكل ما يؤكل يخلف بدله ومن تبعضيه أو ابتدائية ، وقدم الجار لأجل الفاصلة ، ثم شرع سبحانه في الوعيد بعد ذكر الوعد كما هو دأب القرآن الكريم فقال :

﴿ إن المجرمين ﴾ أي أهل الاجرام الكفرية ، كما يدل عليه إيرادهم في مقابلة المؤمنين الذين لهم ما ذكره الله سبحانه قبل هذا ﴿ في عذاب جهنم خالدون ﴾ لا ينقطع عنهم العذاب أبداً ﴿ لا يفتر عنهم ﴾ أي لا يخفف عنهم ذلك العذاب جملة حالية وكذلك .

﴿ وهم فيه مبلسون ﴾ أي آيسون من النجاة وقيل ساكتون سكوت يأس ، وقد مضى تحقيق معناه في الأنعام ، ولا يشكل على هذا قوله الآتي ؛ ﴿ ونادوا ﴾ الخ لأن تلك أزمنة متطاولة وأحقاب ممتدة ، فتختلف بهم الأحوال فيسكتون تارة لغلبة اليأس عليهم ، وعلمهم أنه لا فرج ويشدد عليهم العذاب تارة فيستغيثون ، وقرأ عبد الله : هم فيها أي في النار لدلالة العذاب عليها .

﴿ وما ظلمناهم ﴾ أي ما عذبناهم بغير ذنب ، ولا بزيادة على ما يستحقونه ﴿ ولكن كانوا هم الظالمين ﴾ لأنفسهم بما فعلوا من الذنوب ، قرأ الجمهور الظالمين ، بالنصب على أنه خبر كان والضمير ضمير فصل ، وقرئ الظالمون بالرفع على أن الضمير مبتدأ ، وما بعده خبره ، والجملة خبر كان .

﴿ ونادوا يا مالک ﴾ أي نادى المجرمون هذا النداء ، والإتيان بالماضي على حد ﴿ أتى أمر الله ﴾ ومالك هو خازن النار ، قرأ الجمهور بغير الترخيم ، وقرئ يا مال بالترخيم ، قيل لابن عباس : إن ابن مسعود قرأ يا مال ، فقال ما أشغل أهل النار عن الترخيم ﴿ ليقض علينا ربك ﴾ بالموت من قضى عليه إذا أماته قال تعالى : ﴿ فوكزه موسى فقضى عليه ﴾ توسلوا بمالك خازن النار الى الله سبحانه ليسأله لهم أن يقضى عليهم

بالموت ليستريحوا من العذاب ، وقال البيضاوي : هو لا ينافي بإبلاصهم فإنه جوار وتمن للموت من فرط الشدة .

﴿ قال إنكم ماكثون ﴾ أي مقيمون في العذاب ، هانت والله دعوتهم على مالك وعلى رب مالك قيل سكت عن إجابتهم أربعين سنة قاله الخازن والسنة ثلثمائة وستون يوماً واليوم كألف سنة مما تعدون قاله القرطبي وقيل : ثمانين سنة ، وقيل مائة سنة وقال ابن عباس يمكث عنهم ألف سنة ثم يجيبهم بهذا الجواب .

﴿ لقد جئناكم بالحق ﴾ يحتمل أن يكون هذا من كلام الله سبحانه أو من كلام مالك والأول أظهر ، والمعنى : إنا أرسلنا إليكم الرسل وأنزلنا عليهم الكتب فدعوكم فلم تقبلوا ولم تصدقوا وهو معنى قوله .

﴿ ولكن أكثركم للحق كارهون ﴾ أي لا تقبلونه وتنفرون منه ، لأن مع الباطل الدعة ومع الحق التعب ، قيل معنى أكثركم كلكم وقيل أراد الرؤساء والقادة ومن عداهم أتباع لهم والمراد بالحق كل ما أمر الله به على ألسن رسله وأنزله في كتبه وقيل هو خاص بالقرآن :

﴿ أم أبرموا أمراً فلإنا مبرمون ﴾ كلام مستأنف ناع على المشركين ما فعلوا من الكيد برسول الله صلى الله عليه وسلم . وأم هي المنقطعة التي بمعنى بل والهمزة أي بل أبرموا أمراً وفي ذلك انتقال من توبيخ أهل النار وحكاية حالهم إلى حكاية ما يقع من هؤلاء والابرام الاتقان والإحكام ، يقال برمت الشيء أحكمته واتقنته وأبرم الحبل إذا أحكم فتله .

والمعنى بل أحكموا كيلاً للنبي صلى الله عليه وسلم فلإنا محكمون لهم كيلاً قاله مجاهد وقتادة وابن زيد ومثل هذا قوله تعالى : ﴿ أم يريدون كيلاً فالذين كفروا هم المكيدون ﴾ وقيل المعنى أم قضوا أمراً فلإنا قاضون عليهم أمرنا بالعذاب قاله الكلبي .

أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨١﴾ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِينَ ﴿٨٢﴾ سُبْحَنَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٣﴾ فَذَرَهُمْ يَخْضِبُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلْقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ ﴿٨٤﴾ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٥﴾ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٧﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٨٨﴾

﴿ أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم ﴾ أي بل أيجسبون أنا لا نسمع ما يسرون في أنفسهم أو ما يتحادثون به سرّاً في مكان خال ، وما يتناجون به فيما بينهم ﴿ بلى ﴾ نسمع ذلك ونعلم به ﴿ ورسُلنا لديهم يكتبون ﴾ أي الحفظة عندهم يكتبون جميع ما يصدر عنهم من قول أو فعل . عن يحيى بن معاذ قال من ستر من الناس ذنوبه وأبداها لمن لا تخفى عليه خافية فقد جعله أهون الناظرين إليه وهو من أمارات النفاق .

أخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي قال : « بينا ثلاثة بين الكعبة وأستارها قرشيان وثقفي ، أو ثقفيان وقرشي ، فقال واحد منهم : أترون أن الله يسمع كلامنا ؟ فقال واحد : إذا جهرتم يسمع ، وإذا أسررتم لم يسمع فنزلت هذه الآية » .

ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول للكفار قولاً يلزمهم به الحجة ، ويقطع ما يوردونه من الشبهة فقال :

﴿ قل إن كان للرحمن ولد ﴾ وصح ذلك ببرهان صحيح ، أو إن كان له ولد في قولكم ، وعلى زعمكم ﴿ فأنا أول العابدين ﴾ أي أول من عبد الله وحده لأن من عبد الله وحده فقد دفع أن يكون له ولد ، قاله ابن قتيبة وقال الحسن والسدي . إن المعنى ما كان للرحمن ولد ، ويكون قوله : فأنا أول العابدين ابتداء كلام .

قال ابن عباس في الآية يقول إن يكن للرحمن ولد ﴿ فأنا أول العابدين ﴾ أي الشاهدين ، وعن زيد بن أسلم قال هذا معروف من كلام العرب إن كان هذا الأمر قط ، أي ما كان ، وعن قتادة نحوه وقيل : المعنى قل يا محمد : إن ثبت لله ولد ، فأنا أول من يعبد هذا الولد الذي تزعمون ثبوته ، ولكنه يستحيل أن يكون له ولد . وفيه نفي للولد على أبلغ وجه ، واتم عبارة ، وأحسن أسلوب ، وهذا هو الظاهر من النظم القرآني ، لأن هذا الكلام وارد على سبيل الفرض والمراد نفي الولد ، وذلك أنه علق العبادة بكيونة الولد وهي محال في نفسها فكان المعلق بها محالاً مثلها ، ومن هذا القبيل قوله تعالى :

﴿ وإنا و إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين ﴾ ومثل هذا قول الرجل لمن يناظره إن ثبت ما تقوله بالدليل فأنا أول من يعتقده ويقول به فتكون إن في ﴿ إن كان ﴾ شرطية ورجح هذا ابن جرير وغيره .

وقيل : معنى العابدين الأنفين من العبادة وهو تكلف لا ملجئ إليه ولكنه قرئء العبدین : بغير ألف ؛ من عبد يعبد عبداً بالتحريك إذا أنف وغضب ، فهو عبد ، والإسم العبدة مثل الأنفة ولعل الحامل على هذه القراءة الشاذة البعيدة لمن قرأها هو استبعاد معنى ﴿ فأنا أول العابدين ﴾ وليس بمستبعد ولا مستنكر وقد حكى الجوهري عن أبي عمرو في قوله : ﴿ فأنا أول العابدين ﴾ أنه من الأنف أو الغضب ؛ وحكاها الماوردي عن الكسائي والقتبي

وبه قال الفراء ، وكذا قال ابن الأعرابي إن معنى العابدين الغضاب الأنفين .
وقال أبو عبيدة : معناه الجاحدين ، وحكى عبدني حقي أي جحدني ولا
شك أن عبد وأعبد بمعنى أنف أو غضب ثابت في لغة العرب ، وكفى بنقل
هؤلاء الأئمة حجة ولكن جعل ما في القرآن من هذا من التكلف الذي لا
ملجىء إليه ومن التعسف الواضح ، وقد رد ابن عرفة ما قالوه فقال : إنما
يقال : عبد يعبد فهو عبد ، وقل ما يقال : عابد والقرآن لا يأتي بالقليل من
اللغة ولا الشاذ ، قرأ الجمهور ولد بالإنفراد وقرىء بضم الواو وسكون اللام .

﴿ سبحان رب السموات والأرض رب العرش عما يصفون ﴾ أي تنزيهاً
له وتقديساً عما يقولون من الكذب ، بأن له ولداً ويفترون عليه سبحانه ما لا
يليق بجنابه ، وهذا إن كان من كلام الله سبحانه فقد نزه نفسه الكريمة عما
قالوه وإن كان من تمام كلام رسوله صلى الله عليه وسلم الذي أمره بأن
يقوله فقد أمره بأن يضم إلى ما حكاه عنهم بزعمهم الباطل تنزيه ربه
وتقديسه .

﴿ فذرهم يخوضوا ويلعبوا ﴾ أي اترك الكفار حيث لم يهتدوا لما هديتهم
به ولا أجابوك فيما دعوتهم إليه يخوضوا في أباطيلهم ؛ ويلهوا في دنياهم ﴿ حتى
يلاقوا يومهم الذي يوعدون ﴾ وهو يوم القيامة ، وقيل العذاب في الدنيا :
وقيل يوم الموت وهو الأظهر فإن خوضهم ولعبهم إنما ينتهي بيوم الموت ،
قليل : وهذا منسوخ بآية السيف وقيل : هو غير منسوخ وإنما أخرج مخرج
التهديد ، وفيه دليل على أن ما يقولونه من باب الجهل والخوض واللب ، قرأ
الجمهور يلاقوا وقرىء يلقوا .

﴿ وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله ﴾ الجار والمجرور في
الموضعين متعلق بإله لأنه بمعنى معبود ، أو مستحق للعبادة والمعنى وهو الذي
معبود في السماء ومعبود في الأرض ، أو مستحق للعبادة في السماء والعبادة في
الأرض وبما تقرر من أن المراد بإله معبود اندفع ما قيل هذا يقتضي تعدد الآلهة

لأن النكرة إذا أعيدت نكرة تعددت ؛ كقولك : أنت طالق وطالق وإيضاح الاندفاع أن الإله هنا بمعنى المعبود ؛ وهو تعالى معبود فيهما والمغايرة إنما هي بين معبوديته في السماء ومعبوديته في الأرض ، لأن المعبودية من الأمور الإضافية فيكفي التغاير فيها من أحد الطرفين ؛ فإذا كان العابد في السماء غير العابد في الأرض صدق أن معبوديته في السماء غير معبوديته في الأرض ، مع أن المعبود واحد ، وفيه دلالة على اختصاصه باستحقاق الألوهية ، فإن التقديم يدل على الاختصاص أفاده الكرخي .^(١)

قال أبو علي الفارسي وإله في الموضعين مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هو الذي في السماء هو إله وفي الأرض هو إله وحسن حذفه لطول الكلام قال والمعنى على الإخبار بالإلهية لا على الكون فيهما ، قال قتادة يعبد في السماء والأرض وقيل في بمعنى على أي هو القادر على السماء والأرض ، كما في قوله ﴿ ولأصلبنكم في جذوع النخل ﴾

وقرأ عمر وعلي وابن مسعود : وهو الذي في السماء الله وفي الأرض الله على تضمين العلم معنى المشتق فيتعلق به الجار والمجرور من هذه الحيثية ﴿ وهو الحكيم العليم ﴾ أي البليغ الحكمة الكثير العلم .

﴿ وتبارك الذي له ملك السموات والأرض وما بينهما ﴾ تبارك تفاعل من البركة ؛ وهي كثرة الخيرات والمراد بما بينهما الهواء وما فيه من الحيوانات ﴿ وعنده علم الساعة ﴾ أي علم الوقت الذي يكون فيه قيامها ﴿ وإليه ترجعون ﴾ فيجازي كل أحد بما يستحقه من خير وشر ، وفيه وعيد شديد ، قرأ الجمهور بالفوقية على سبيل الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ، وقرئ بالتحية .

﴿ ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة ﴾ أي لا يملك من يدعونه

من دون الله من الأصنام ونحوها الشفاعة عند الله كما يزعمون أنهم يشفعون لهم قرأ الجمهور يدعون بالتحية وقرىء بالفوقية ﴿إلا من شهد بالحق﴾ أي التوحيد .

﴿وهم يعلمون﴾ أي هم على علم وبصيرة بما شهدوا به ، والإستثناء متصل والمعنى إلا من شهد بالحق وهم المسيح وعزير والملائكة فإنهم يملكون الشفاعة لمن يستحقها ، وقيل هو منقطع .

والمعنى ليكن من شهد بالحق يشفع فيه هؤلاء ، وقيل المستثنى منه محذوف ، أي لا يملكون الشفاعة في أحد إلا فيمن شهد بالحق قال سعيد بن جبير وغيره : معنى الآية أنه لا يملك هؤلاء الشفاعة إلا لمن شهد بالحق وآمن على علم وبصيرة قال قتادة : لا يشفعون لعابديها بل يشفعون لمن شهد بالوحدانية ، وقيل : مدار الاتصال في هذا الاستثناء على جعل الذين يدعون عاماً لكل ما يعبد من دون الله ومدار الانقطاع على جعله خاصاً بالأصنام .

﴿ولئن سألتهم﴾ اللام هي الموطئة للقسم ، والمعنى : لئن سألت هؤلاء المشركين العابدين للأصنام ﴿من خلقهم ليقولن الله﴾ جواب القسم وجواب الشرط محذوف على القاعدة أي أقروا واعترفوا بأن خالقهم الله ولا يقدرّون على الإنكار ، ولا يستطيعون الجحود لظهور الأمر وجلائه .

﴿فأنى يؤفكون﴾ أي فيكيف ينقلبون عن عبادة الله إلى عبادة غيره ، وينصرفون عنها مع هذا الاعتراف ، فإن المعترف بأن الله خالقه إذا عمد إلى صنم أو حيوان ، وعبده مع الله ، أو عبده وحده ، فقد عبد بعض مخلوقات الله ، وفي هذا من الجهل ما لا يقادر قدره يقال : أفكه يأفكه إفكاً إذا قلبه وصرفه عن الشيء ، وقيل : المعنى ولئن سألت المسيح وعزيراً والملائكة من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفك هؤلاء الكفار في اتخاذهم لهم آلهة ، وقيل المعنى ولئن سألت العابدين والمعبودين جميعاً .

وَقِيلَ يَكْرَبُ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

﴿وقيله﴾ قرأ الجمهور بالنصب عطفاً على محل الساعة ، كأنه قيل إنه يعلم الساعة ويعلم قيله ، أو عطفاً على سرهم ونجواهم ، أي يعلم سرهم ونجواهم ؛ ويعلم قيله أو عطفاً على مفعول يكتبون المحذوف ، أي يكتبون ذلك ويكتبون قيله ، أو عطفاً على مفعول يعلمون المحذوف ، أي يعلمون ذلك ويعلمون قيله ، أو هو مصدر أي قال قيله ، أو منصوب بإضمار فعل أي الله يعلم قيل رسولہ ، أو هو معطوف على محل بالحق أي شهد بالحق وبقيله ، أو منصوب على حذف حرف القسم ، ومن المجوزين للأول المبرد وابن الأنباري ، وللثاني الفراء والأخفش ، وللنصب على المصدرية أيضاً الفراء والأخفش .

وقرىء قيله بالجر عطفاً على لفظ الساعة أي ﴿وعنده علم الساعة﴾ وعلم ﴿قيله﴾ والقول والقال والقيل والمقال كلها مصادر بمعنى واحد ، جاءت على هذه الأوزان ، وقال أبو عبيدة : يقال قلت قولاً وقالاً وقيلاً أو على أن الواو للقسم .

وقرأ قتادة ومجاهد والحسن وأبو قلابة والأعرج بن هرمز ومسلم بن جندب قيله بالرفع عطفاً على علم ، أي ﴿وعنده علم الساعة﴾ وعنده ﴿قيله﴾ أو على الابتداء وخبره الجملة المذكورة بعده أو خبره محذوف تقديره وقيله كيت وكيت ، أو وقيله مسموع ، والضمير في وقيله راجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال قتادة : هذا نبيكم يشكو قومه إلى ربه وقيل عائد إلى المسيح وعلى الوجهين فالمعنى أنه قال منادياً لربه :

﴿يا رب إن هؤلاء﴾ الذين أرسلتني إليهم ﴿قوم لا يؤمنون﴾ ثم لما

نادى ربه بهذا ، أجابه بقوله : ﴿ فاصفح عنهم ﴾ أي أعرض عن دعوتهم .
 ﴿ وقل سلام ﴾ أي أمري تسليم منكم ، ومتاركة لكم ، وقال الفراء
 إن سلام مرفوع بإضمار عليكم ، قال عطاء : يريد مداراة حتى ينزل
 حكمي ، ومعناه المتاركة كقوله ﴿ سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين ﴾ فليس في
 الآية مشروعية السلام على الكفار كما قيل ، وقال قتادة أمره بالصفح عنهم ،
 ثم أمره بقتالهم ، فصار الصفع منسوخاً بالسيف ، وقيل هي محكمة لم تنسخ
 ﴿ فسوف يعلمون ﴾ قرأ الجمهور بالتحتيّة ، وقرأء بالفوقية ، وفيه تهديد
 شديد لهم ووعيد عظيم من الله عز وجل وتسلية له صلى الله عليه وسلم .

سورة الدخان

﴿ هي ست أو سبع أو تسع وخسون آية ﴾

قال القرطبي : هي مكية بالاتفاق الا قوله : ﴿ انا كاشفوا العذاب قليلاً ﴾ وبه قال ابن عباس وابن الزبير ، وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ حم الدخان في ليلة الجمعة أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك » أخرجه البيهقي في الشعب ، ورفع الثعلبي أيضاً والترمذي . وقال : غريب لا نعرفه الا من هذا الوجه . وعمرو بن أبي خثعم ضعيف . قال البخاري : منكر الحديث . وعنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ حم الدخان في ليلة الجمعة أصبح مغفوراً له » أخرجه البيهقي وابن مردويه ومحمد بن نصر والترمذي وقال غريب لا نعرفه الا من هذا الوجه . وهشام بن مقدم يضعف . والحسن لم يسمع من أبي هريرة . كذا قال أيوب ويونس بن عبيد وعلي بن زيد .

ويشهد له طرق أخرجا منها ما أخرجه الدارمي ومحمد بن نصر عن أبي رافع قال : « من قرأ الدخان في ليلة الجمعة أصبح مغفوراً له ، وزوج من الحور العين » . وأخرج ابن مردويه عن أبي أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ سورة حم الدخان في ليلة الجمعة أو يوم الجمعة بنح الله له بيتاً في الجنة » . قال الشهاب : في سورة الواقعة ، ولم يذكر البيضاوي في فضائل السور حديثاً غير موضوع من أول القرآن الك هذا غير ما هنا ، وما مر في سورة يس والدخان .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمَّ ① وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ② إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَرَّكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ
 ③ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ④ أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ⑤ رَحْمَةً مِنْ
 رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ⑥ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ⑦ إِنْ كُنْتُمْ
 مُوقِنِينَ ⑧ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ⑨

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ، حم ﴾ قد تقدم قبل هذه السورة الكلام
 على هذا والله أعلم بمبراده به ﴿ والكتاب ﴾ الواو للقسم والكتاب القرآن
 ﴿ المبين ﴾ أي المشتمل على بيان ما للناس حاجة إليه في دينهم ودنياهم .
 ﴿ إنا أنزلناه ﴾ جواب القسم ، وقد أنكر بعض النحاة أن تكون هذه
 الجملة جواباً للقسم ، لأنها صفة للمقسم به ، ولا تكون صفة المقسم به جواباً
 للقسم ، وقال : الجواب :

﴿ إنا كنا منذرين ﴾ واختاره ابن عطية ، وقال أيضاً وجملة إنا أنزلناه
 اعتراض متضمن لتفخيم الكتاب ، ورجح الأول بالسبق ، وبكونه من
 البدائع ، وبسلامته من الفك اللازم لما اختاره ابن عطية ، وقيل : إن قوله إنا
 كنا الخ جواب ثان أو جملة مستأنفة مقررة للإنزال ، وفي حكم العلة له كأنه
 قال : إنا أنزلناه لأن من شأننا الإنذار . والضمير في أنزلناه راجع إلى الكتاب
 وهو القرآن ، واقتصر على ذلك . البضاوي ، وتبعه الجلال المحلي .

وعلى هذا فقد أقسم بالقرآن أنه أنزل القرآن ، وهذا النوع من الكلام يدل على غاية تعظيم القرآن ، فقد يقول الرجل إذا أراد تعظيم الرجل له إليه حاجة : أتشفع بك إليك ، وأقسم بحقك عليك .

وجاء في الحديث : « أعوذ برضاك من سخطك وبغفوك من عقوبتك ، وبك منك ، لا أحصي ثناء عليك » . وقيل : المراد بالكتاب سائر الكتب المنزلة ، والضمير راجع إلى القرآن على معنى أنه سبحانه أقسم بسائر الكتب المنزلة أنه أنزل القرآن والأول أولى ، واستدلوا بهذه الآية على حدوث القرآن بوجوه لا دلالة لها عليه .

﴿ في ليلة مباركة ﴾ أي ليلة القدر ، كما في قوله ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر ﴾ ولها أربعة أسماء هي ، وليلة البراءة ، وليلة الصك ، وليلة الرحمة . قال عكرمة وطائفة الليلة المباركة هنا ليلة النصف من شعبان ، وقال النووي في باب صوم التطوع من شرح مسلم إنه خطأ ، والصواب وبه قال العلماء إنها ليلة القدر ، وقيل بينها وبين ليلة القدر أربعون ليلة .

والجمهور وأكثر المفسرين على الأول وليلة القدر في أكثر الأقاويل في شهر رمضان ، وقال قتادة أنزل القرآن كله في ليلة القدر من أم الكتاب ، وهو اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في سماء الدنيا ثم أنزل الله سبحانه على نبيه صلى الله عليه وسلم في الليالي والأيام في ثلاث وعشرين سنة في أنواع الوقائع حالاً فحالاً ، وقد تقدم تحقيق الكلام في هذا في سورة البقرة ، عند قوله :

﴿ شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن ﴾ وذكر سليمان الجمل أدلة القولين ، وبسط فيها لا تطول بذكرها هنا .

وقال مقاتل كان ينزل من اللوح المحفوظ كل ليلة قدر من الوحي على مقدار ما ينزل به جبريل في السنة إلى مثلها من العام ، وقيل ابتداء نزوله في ليلة القدر ، ووصف الله سبحانه هذه الليلة بأنها مباركة لنزول القرآن فيها

وهو مشتمل على مصالح الدين والدنيا ، ولكونها تنزل فيها الملائكة والروح كما سيأتي في سورة القدر إن شاء الله تعالى .

قال ابن عباس « أنزل القرآن في ليلة القدر ، ونزل به جبريل على رسول الله صلى الله عليه وسلم نجوماً لجواب الناس » ، وقيل المباركة الكثيرة الخير ، لما ينزل فيها من الخير والبركة ، ويستجاب من الدعاء ، ولو لم يوجد فيها إلا إنزال القرآن وحده لكفى به بركة .

﴿ إنا كنا منذرين ﴾ أي مخوفين عقابنا مستأنف أو جواب ثان بغير عاطف ، ومن جملة بركتها ما ذكره الله سبحانه ههنا بقوله : ﴿ فيها يفرق كل أمر حكيم ﴾ أي يفصل ويبين من قولهم فرقت الشيء أفرقه فرقاً ، والأمر الحكيم المحكم المبرم الذي لا يحصل فيه تغيير ولا نقض ، وذلك أن الله سبحانه يكتب فيها ما يكون في السنة من حياة وموت ، وبسط وقبض ، وخير وشر ، ورزق وأجل ، ونصر وهزيمة ، وخصب وقحط ، وغير ذلك من أقسام الحوادث وجزئياتها في أوقاتها وأماكنها ، ويبين ذلك للملائكة من تلك الليلة إلى مثلها من العام المقبل فيجدونه سواء ، فيزدادون بذلك إيماناً ، كذا قال مجاهد وقتادة والحسن وغيرهم .

وقيل : معنى حكيم أي مفعول على ما تقتضيه الحكمة ، وهو من الإسناد المجازي ، لأن الحكيم صاحب الأمر على الحقيقة ، ووصف به الأمر مجازاً ، وهذه الجملة إما صفة أخرى لليلة وما بينهما اعتراض أو مستأنفة لتقرير ما قبلها ، قرأ الجمهور يفرق بضم الياء وفتح الراء مخففاً ، وقرأ بفتح الياء وضم الراء ، ونصب كل أمر ورفع حكيم على أنه الفاعل .

والحق ما ذهب إليه الجمهور من أن هذه الليلة المباركة هي ليلة القدر لا ليلة النصف من شعبان لأن الله سبحانه أجملها هنا وبينها في سورة البقرة بقوله : ﴿ شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن ﴾ وبقوله في سورة القدر ﴿ إنا

أنزلناه في ليلة القدر ﴿ فلم يبق بعد هذا البيان الواضح ما يوجب الخلاف ، ولا ما يقتضي الاشتباه .

قال ابن عباس في الآية « يكتب من أم الكتاب في ليلة القدر ما يكون في السنة من رزق وموت وحياة ومطر ، حتى يكتب الحاج يحج فلان ويحج فلان » وقال ابن عمر : « أمر السنة إلى السنة إلا الشقاوة والسعادة ، فإنه في كتاب الله لا يبدل ولا يغير » أخرجه ابن أبي حاتم ، وأخرج عبد بن حميد وغيره عنه أنه قال : « إنك لترى الرجل يمشي في الأسواق وقد وقع اسمه في الموتى ، ففي تلك الليلة يفرق أمر الدنيا إلى مثلها من قابل من موت أو حياة أو رزق كل أمر الدنيا يفرق تلك الليلة إلى مثلها » ، وأخرج ابن زنجويه والديلمي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقطع الأجل من شعبان إلى شعبان حتى إن الرجل لينكح ويولد له قد خرج اسمه في الموتى » وأخرجه ابن أبي الدنيا وابن جرير عن عثمان بن محمد ، وهذا مرسل لا تقوم به الحجة ، ولا يعارض بمثله صرائح القرآن ، وما روي في هذا فهو إما مرسل أو غير صحيح ، وقد أورد ذلك صاحب الدر المنثور ، وأورد ما ورد في فضل ليلة النصف من شعبان ، وذلك لا يستلزم أنها المراد بقوله في ليلة مباركة^(١) .

وانتصاب قوله ﴿ أمراً من عندنا ﴾ بيفرق أي يفرق فرقاً لأن أمراً بمعنى فرقاً ، قاله الزجاج والفراء ، والمعنى أنا نأمر ببيان ذلك ونسخه من اللوح المحفوظ ، فهو على هذا منتصب على المصدرية ، مثل قولك يضرب ضرباً ، قال المبرد أمراً في موضع المصدر ، والتقدير أنزلناه إنزالاً ، وقال الأخفش انتصابه على الحال ، أي أمرين ، وقيل على الاختصاص أعني بهذا الأمر أمراً حاصلاً من عندنا ، وفيه تفخيم لشأن القرآن وتعظيم له . وقد ذكر بعض أهل العلم في انتصاب أمراً اثني عشر وجهاً أظهرها ما ذكرناه ، وقرأ زيد بن علي بالرفع أي هو أمر .

﴿إنا كنا مرسلين﴾ الرسل محمداً ومن قبله قال الرازي المعنى إنا فعلنا ذلك الإنذار لأجل أننا كنا مرسلين للأنبياء ، ومثله قال ابن الخطيب ، وانتصاب ﴿رحمة﴾ على العلة أي أنزلناه للرحمة ، قاله الزجاج وقال المبرد : إنها منتصبة على أنها مفعول لمرسلين ، أي إنا كنا مرسلين رحمة ، وقيل : هي مصدر في موضع الحال أي راحمين قاله الأخفش وقيل : إنها مصدر منصوب بفعل مقدر ، أي رحمنا رحمة ، وقيل : إنها حال من ضمير مرسلين أي ذوي رحمة ، وقرأ الحسن بالرفع أي هي رحمة ورافقة بالمرسل إليهم .

﴿من ربك﴾ متعلق بالرحمة أو صفة لمحذوف ، وفيه التفات من التكلم إلى الغيبة ، ولو جرى على منوال ما تقدم لقال : من ربنا ، والمعنى رافة مني بخلقي ونعمة عليهم بما بعثت إليهم من الرسل ﴿إنه هو السميع﴾ لمن دعاه ﴿العليم﴾ بكل شيء ثم وصف سبحانه نفسه بما يدل على عظيم قدرته الباهرة فقال :

﴿رب السموات والأرض وما بينهما﴾ قرأ الجمهور رب بالرفع على أنه عطف بيان على السميع العليم أو على أنه مبتدأ وخبره قوله الآتي ﴿لا إله إلا هو﴾ أو على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، أي هو رب وقرأ الكوفيون بالجر على أنه بدل من ربك أو بيان له أو نعت ﴿إن كنتم موقنين﴾ بأنه رب السموات والأرض وما بينهما ، وقد أقرؤا بذلك كما حكاه الله عنهم في غير موضع فأيقنوا بأن محمداً رسوله .

﴿لا إله إلا هو﴾ مستأنفة مقررة لما قبلها أو خبر رب السموات كما مر وكذلك جملة ﴿يحيي ويميت﴾ فانها مستأنفة مقررة لما قبلها ﴿ربكم ورب آبائكم الأولين﴾ قرأ الجمهور بالرفع على الاستئناف بتقدير مبتدأ أي هو ربكم أو على أنه بدل من رب السموات أو بيان أو نعت له وقرأ الكسائي في رواية الشيرازي عنه وغيره بالجر ووجه الجر ما ذكرناه في قراءة من قرأ بالجر في رب السموات ، وقرأ الأنطاكي بالنصب على المدح .

بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى
النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَتَى لَهُمُ
الذِّكْرُ وَفَجَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُو
الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْقِمُونَ ﴿١٦﴾
وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾

﴿ بل هم في شك يلعبون ﴾ أضرب عن كونهم موقنين إلى كونهم في شك من التوحيد والبعث وفي إقرارهم بأن الله خالقهم وخالق سائر المخلوقات ، وإنما يقولونه تقليداً لأبائهم من غير علم وأن ذلك منهم على طريقة اللعب والهزء في دينهم بما يعن لهم من غير حجة ، ومحل يلعبون الرفع على أنه خبر ثان أو النصب على الحال ﴿ فارتقب ﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها لأن كونهم في شك ولعب ، يقتضي ذلك والمعنى فانتظر لهم يا محمد .

﴿ يوم تأتي السماء بدخان مبين ﴾ وقيل المعنى احفظ قولهم هذا لتشهد عليهم يوم تأتي السماء الخ وقد اختلف في هذا الدخان المذكور في الآية متى يأتي فقيل إنه من أشراط الساعة ، وإنه يمكث في الأرض أربعين يوماً .

وقد ثبت في الصحيح أنه من جملة العشر الآيات التي تكون قبل قيام الساعة وقيل إنه أمر قد مضى ، « وهو ما أصاب قريشاً بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم حتى كان الرجل يرى بين السماء والأرض دخاناً » وهذا ثابت في الصحيحين وغيرهما وبه قال الفراء والزجاج ، وقيل انه يوم فتح مكة .

وقال ابن قتيبة : فيه وجهان ، الأول : أنه في سنة القحط يعظم ييس الأرض بسبب انقطاع المطر ويرتفع الغبار الكثير ، ويظلم الهواء وذلك يشبه الدخان ، ويقولون كان بيننا أمر ارتفع له دخان ، ولهذا يقال للسنة المجذبة : الغبراء (الثاني) : أن العرب يسمون الشيء الغالب بالدخان ، والسبب فيه أن الإنسان إذا اشتد خوفه أو ضعفه اظلمت عيناه ، ويرى الدنيا كالمملوءة من الدخان .

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود « أن قريشاً لما استعصت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبطأوا عن الإسلام قال : اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف ، فأصابهم قحط وجهد حتى أكلوا العظام ، فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجوع فأنزل الله هذه الآية فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقبل يا رسول الله استسقى الله المطر فاستسقى لهم فسقوا فأنزل الله ﴿ إنا كاشفو العذاب قليلاً إنكم عائدون ﴾ فلما أصابتهم الرفاهية عادوا إلى حالهم فأنزل الله ﴿ يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون ﴾ فانتقم الله منهم يوم بدر فقد مضى البطشة والدخان واللزام ، وقد روي عن ابن مسعود نحو هذا من غير وجه وروي نحوه عن جماعة من التابعين كمقاتل ومجاهد وعن أبي مليكة قال دخلت على ابن عباس فقال : « لم أنم هذه الليلة فقلت لم ؟ قال طلع الكوكب فخشيت أن يطرق الدخان »^(١) قال ابن كثير : وهذا إسناد صحيح وكذا صححه السيوطي ولكن ليس فيه أنه سبب نزول الآية^(٢) .

وقد عرفنا أنه لا منافاة بين كون هذه الآية نازلة في الدخان الذي كان يتراءى لقريش من الجوع ، وبين كون الدخان من آيات الساعة وعلاماتها

(١) الطبري ١١٣/٢٥ .

(٢) ذكره البخاري بالفاظ مختلفة ٣٩٤/٨ - ٤٢٠ - ٤٤٠ ورواه مسلم أيضاً .

وأشراطها ، فقد وردت أحاديث صحاح وحسان وضعاف بذلك . وليس فيها أنه سبب نزول الآية فلا حاجة بنا إلى التوطيل بذكرها .

والواجب التمسك بما ثبت في الصحيحين وغيرهما أن دخان قريش عند الجهد والجوع هو سبب النزول ، وبهذا تعرف اندفاع ترجيح من رجح أنه الدخان الذي من أشراط الساعة كابن كثير في تفسيره وغيره في غيره ، وهكذا يندفع قول من قال : إنه الدخان الكائن يوم فتح مكة متمسكاً بما أخرجه ابن سعد عن أبي هريرة قال : « كان يوم فتح مكة دخان ، وهو قول الله فارتقب الخ » فإن هذا لا يعارض ما في الصحيحين على تقدير صحة إسناده مع احتمال أن يكون أبو هريرة رضي الله تعالى عنه ظن من وقوع ذلك الدخان يوم الفتح أنه المراد بالآية ، ولهذا لم يصرح بأنه سبب نزولها .

﴿ يغشى الناس ﴾ صفة ثانية للدخان أي يشملهم ويحيط بهم ﴿ هذا عذاب أليم ﴾ أي يقولون هذا أو قائلين ذلك أو يقول الله لهم ذلك ﴿ ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون ﴾ أي يقولون ذلك « وقد روي أنهم أتوا النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا : إن كشف الله عنا العذاب أسلمنا » والمراد بالعذاب الجوع الذي كان بسببه ما يرونه من الدخان أو يقولونه إذا رأوا الدخان الذي هو من آيات الساعة أو إذا رأوه يوم فتح مكة على اختلاف الأقوال .

والراجح منها أنه الدخان الذي كانوا يتخيلونه مما نزل بهم من الجوع وشدة الجهد ، ولا ينافي ترجيح هذا ما ورد أن الدخان من آيات الساعة ، فإن ذلك دخان آخر ، ولا ينافية أيضاً ما قيل إنه الذي كان يوم فتح مكة ، فإنه دخان آخر على فرض صحة وقوعه .

﴿ أنى لهم الذكرى ﴾ أي كيف يتذكرون ويتعظون بما نزل بهم ﴿ و ﴾ الحال أنه ﴿ قد جاءهم رسول مبين ﴾ يبين لهم كل شيء يحتاجون إليه من أمر

الدنيا والدين ﴿ ثم تولوا عنه ﴾ أي أعرضوا عن ذلك الرسول الذي جاءهم ولم يكتفوا بمجرد الإعراض عنه بل جاوزوه .

﴿ وقالوا معلم مجنون ﴾ أي قالوا في حقه تارة إنما يعلمه القرآن بشر ، وتارة أخرى إنه مجنون ، أو قال بعضهم هذا وبعضهم ذلك فيكف يتذكر هؤلاء وأنى لهم الذكرى ؟ ثم لما دعوا الله بأن يكشف عنهم العذاب ، وأنه إذا كشفه عنهم آمنوا أجاب الله سبحانه عليهم بقوله :

﴿ إنا كاشفو العذاب قليلاً ﴾ أي إنا نكشفه عنهم كشفاً قليلاً أوزماناً قليلاً وهذا جواب بطريق الالتفات لمزيد التهديد والتوبيخ ، وما بينهما اعتراض أي إلى يوم بدر أو إلى ما بقي من أعمارهم ، ثم أخبر سبحانه عنهم أنهم لا ينزجرون عما كانوا عليه من الشرك ولا يفون بما وعدوا به من الإيمان فقال :

﴿ إنكم عائدون ﴾ إلى ما كنتم عليه من الشرك ، وقد كان الأمر هكذا فإن الله سبحانه لما كشف عنهم العذاب رجعوا إلى ما كانوا عليه من الكفر والعناد ، وقيل المعنى إنكم عائدون إلينا بالبعث والنشور والأول أولى .

﴿ يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون ﴾ قرأ الجمهور نبطش بفتح النون وكسر الطاء أي نبطش بهم وقرىء بضم الطاء وهي لغة وقرىء بضم النون وكسر الطاء والظرف منصوب بإضمار اذكر ، وقيل بدل من ﴿ يوم تأتي السماء ﴾ وقيل هو متعلق بـ ﴿ منتقمون ﴾ ، وقيل بما دل عليه منتقمون ، وهو منتقم والبطشة الكبرى هي يوم بدر ، قاله الأكثر .

والمعنى أنهم لما عادوا إلى التكذيب والكفر بعد رفع العذاب عنهم انتقم الله منهم بوقعة بدر . وقال الحسن وعكرمة والمراد بها عذاب النار يوم القيامة ، واختار هذا الزجاج ، والأول أولى .

وعن ابن عباس أنه قال : قال ابن مسعود : البطشة الكبرى يوم بدر

وأنا أقول هي يوم القيامة ، قال ابن كثير وهذا إسناد صحيح ، وقال ابن الخطيب هذا القول أصح لأن يوم بدر لا يبلغ هذا المبلغ الذي يوصف بهذا الوصف العظيم ، وأن الانتقام التام إنما يحصل يوم القيامة ، لقوله تعالى :

﴿ اليوم تجزى كل نفس بما كسبت ﴾ وقال ابن كثير قبل هذا فسر ذلك ابن مسعود بيوم بدر ، وهذا قول جماعة ممن وافق ابن مسعود على تفسيره الدخان بما تقدم ، وروي أيضاً عن ابن عباس من رواية العوفي عنه ، وعن أبي بن كعب وجماعة وهو محتمل والظاهر أن ذلك يوم القيامة ، وإن كان يوم بدر يوم بطشة كبرى أيضاً انتهى .

قال الشوكاني : بل الظاهر أنه يوم بدر ، وإن كان يوم القيامة بطشة أكبر من كل بطشة ، فإن السياق مع قريش ، فتفسيره بالبطشة الخاصة لهم أولى من تفسيره بالبطشة التي تكون يوم القيامة لكل عاص من الإنس والجن انتهى .

﴿ ولقد فتنا ﴾ وقرئ فتنا بالتشديد على المبالغة أو التكرير لكثرة متعلقة أي ابتلينا ﴿ قبلهم ﴾ أي قبل هؤلاء العرب ، ليكون ما مضى من خبرهم عبرة لهم ﴿ قوم فرعون ﴾ معه ومعنى الفتنة هنا أن الله سبحانه أرسل إليهم رسله وأمرهم بما شرعه لهم ، فكذبوهم ، أو وسع عليهم الأرزاق فطغوا وبغوا ، قال الزجاج : بلوناهم أي امتحناهم ، وفعلنا بهم فعل الممتحن ، والمعنى عاملناهم معاملة المختبر ببعث الرسل إليهم ، والتمكين في الأرض .

﴿ وجاءهم رسول كريم ﴾ على الله ، كريم في قومه أي كريم في نفسه حسيب نسيب ، لأن الله لم يبعث نبياً إلا من سراة قومه وكرامهم ، وقال مقاتل : حسن الخلق بالتجاوز والصفح ، وقال الفراء كريم على ربه إذ اختصه بالنبوة وإسماع الكلام ، قال ابن عباس : هو موسى .

أَنْ أَدْوَا إِلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ إِنِّي لَكُم رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ
 مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَأَعَزُّ لَوْ نَزَلْتُ
 رَبِّي أَنْ هَتُولَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢١﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ ﴿٢٢﴾ وَاتْرِكِ الْبَحَرَ
 رَهْوَ إِنْ هُمْ جُنْدٌ مُّفْرَقُونَ ﴿٢٣﴾ كَمْ تَرَ كُوفًا مِنْ جَنَّتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٤﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٥﴾
 وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٦﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٧﴾

﴿ أن أدوا ﴾ أن هذه هي المفسرة لتقدم ما هو بمعنى القول ، أو مخففة من الثقيلة ، والمعنى أن الشأن والحديث أدوا ﴿ إلى عباد الله ﴾ أو مصدرية أي بأن أدوا ، والمعنى أنه طلب منهم أن يسلموا إليه بني إسرائيل الذين كان فرعون استعبدهم ، فأدأؤهم استعارة بمعنى إطلاقهم وإرسالهم معه .

قال مجاهد : المعنى أرسلوا معي عباد الله وأطلقوهم من العذاب ، فعباد الله على هذا مفعول به ، كقوله في سورة طه : ﴿ فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم ﴾ وقيل : المعنى أدوا إلى عباد الله ما وجب عليكم من حقوق الله فيكون منصوباً على أنه منادى مضاف ، وقيل : أدوا إلى سمعكم حتى أبلغكم رسالة ربي وقال ابن عباس : اتبعوني إلى ما أدعوكم إليه من الحق ﴿ إني لكم رسول ﴾ من الله ﴿ أمين ﴾ على الرسالة غير متهم وهذا تعليل للأمر .

﴿ وأن لا تعلوا على الله ﴾ أي لا تتجبروا ولا تتكبروا عليه بترفعكم عن طاعته ومتابعة رسله وإهانة وحيه وهذا أوضح ، وقيل : لا تبغوا على الله وقيل : لا تفتروا عليه ، قاله ابن عباس ، والأول أولى ، والفرق بين البغي والافتراء أن البغي بالفعل والافتراء بالقول ، وقال ابن عباس أيضاً لا تعثوا ، وقال ابن جريج لا تتعظموا ، وقال يحيى بن سلام لا تستكبروا والفرق بينهما

أن التعاضم تطاول المقتدر ، والاستكبار ترفع المحتقر ، أفاده الماوردي .

وجملة ﴿إني آتيكم﴾ تعليل لما قبلها من النهي قرأ الجمهور بكسر همزة إني وقرئ بالفتح بتقدير اللام ﴿بسلطان مبین﴾ أي بحجة بينة واضحة يعترف بصحتها كل عاقل ، ولا سبيل إلى إنكارها ، وقال قتادة وابن عباس بعذر بين ، والأول أولى ، وبه قال يحيى بن سلام .

﴿وإني عذت بربي وربكم﴾ من ﴿أن ترجمون﴾ استعاذ بالله سبحانه لما توعدوه بالقتل ، قال قتادة ترجموني بالحجارة ، وبه قال ابن عباس ، وقيل تشتموني ، كذا قال ابن عباس أيضاً ، وقيل تقتلونني ﴿وإن لم تؤمنوا لي﴾ أي إن لم تصدقوا لي وتقرؤا بنبوتي ، ولم تؤمنوا بالله لأجل برهاني ، فاللام في لي لام الأجل ، وقيل أي وإن لم تؤمنوا بي . كقوله ﴿فأمن له لوط﴾ أي به .

﴿فاعتزلون﴾ أي فاتركوني ولا تتعرضوا لي بأذى ، قال مقاتل دعوني كفافاً لا علي ولا لي وقيل كونوا بمعزل عني ، وأنا بمعزل منكم إلى أن يحكم الله بيننا وقيل فخلوا سبيلي قاله ابن عباس ، والمعنى متقارب ، ثم لما لم يصدقوه ولم يجيبوا دعوته رجع إلى ربه بالدعاء كما حكى الله عنه بقوله :

﴿فدعا ربه إن هؤلاء قوم مجرمون﴾ أي كافرون قرأ الجمهور بفتح الهمزة على إضمار حرف الجر أي دعاه بأن هؤلاء وقرئ بكسرها على إضمار القول ، وفي الكلام حذف أي لكفروا فدعاه ربه ، وسماه دعاء مع أنه لم يذكر إلا مجرد كونهم مجرمين لأنهم قد استحقوا بذلك الدعاء عليهم ، وقيل كان دعاؤه اللهم عجل لهم ما يستحقونه باجرامهم ، وقيل : هو قوله ﴿ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين﴾ والأول أولى .

﴿فأسر بعبادي ليلاً﴾ أجاب الله سبحانه دعاءه ، فأمره أن يسري ببني إسرائيل ليلاً ، يقال : سرى وأسرى لغتان جيدتان ، قرأ الجمهور فأسر بالقطع من أسرى ، وقرأ أهل الحجاز بالوصل من سرى ، وهما سبعيتان ، والجملة بتقدير القول أي فقال الله لموسى أسر بعبادي ليلاً ﴿إنكم متبعون﴾

أي يتبعكم فرعون وجنوده ، وقد تقدم في غير موضع خروج فرعون بعدهم .
﴿واترك البحر رهوا﴾ أي ساكناً ، يقال : رها يرهو رهواً إذا سكن لا يتحرك قال الجوهري : يقال افعل ذلك رهواً أي ساكناً على هيئتك وعيش راه أي ساكن ، ورها البحر سكن ، وقال الهروي وغيره : وهو المعروف في اللغة ، والمعنى اترك البحر ساكناً على صفته بعد أن ضربته بعصاك ، ولا تأمره أن يرجع كما كان ليدخله آل فرعون بعدك وبعد بني إسرائيل ، فينطبق عليهم فيغرقون .

وقال أبو عبيدة : رها بين رجله يرهو رهواً أي فتح ، قال : ومنه قوله ﴿واترك البحر رهواً﴾ والمعنى اتركه منفرجاً ، كما كان بعد دخولكم فيه ، وكذا قال أبو عبيدة ، وبه قال مجاهد وغيره قال ابن عرفة وهما يرجعان إلى معنى واحد ، وإن اختلف لفظهما لأن البحر إذا سكن جريه انفرج قال الهروي ويجوز أن يكون رهواً نعتاً لموسى ، أي سر ساكناً على هيئتك ، وقال كعب والحسن : رهواً طريقاً ، وقال الضحاك والربيع : سهلاً ، وقال عكرمة ييساً كقوله ﴿فاضرب لهم طريقاً في البحر ييساً﴾ وعلى كل تقدير فالمعنى اتركه ذا رهو أو اتركه رهواً على المبالغة في الوصف بالمصدر وقال ابن عباس : رهواً سمناً وعنه قال كهيئة وأمضِ وعنه أيضاً قال الرهو أن يترك كما كان .

﴿إنهم﴾ أي إن فرعون وجنده بعد خروجكم ﴿جند مغرقون﴾ أي متمكنون في هذا الوصف ، وإن كان لهم وصف القوة والتجمع الذي شأنه النجدة الموجبة للعلو في الأمور أخبر سبحانه موسى بذلك ليسكن قلبه ويطمئن جأشه ، قرأ الجمهور بكسر إن على الاستئناف لقصد الإخبار بذلك وقرئ بالفتح على تقدير لأنهم .

﴿كم تركوا﴾ كم هي الخبرية المفيدة للتكثير ، وقد مضى الكلام في معنى الآية في سورة الشعراء ، والتقدير فأغرقوا ، وكم مفعول به أي تركوا أموراً كثيرة وقد بينها بقوله : ﴿من جنات﴾ أي بساتين ﴿وعيون﴾ تجري

﴿ وزروع ومقام كريم ﴾ قرأ الجمهور مقام بفتح الميم على أنه اسم مكان للقيام وقرىء بضمها اسم مكان الإقامة قال ابن عباس ومقام كريم المنابر ، وعن جابر مثله ، وقيل : هو ما كان لهم من المنازل الحسنة ، والمجالس الشريفة والمحافل المزيّنة .

﴿ ونعمة كانوا فيها فاكهين ﴾ النعمة بالفتح التمتع ونضارة العيش ولذاذته يقال نعمه الله وناعمه فتنعم ، وبالكسر المنّة وما أنعم به عليك وفلان واسع النعمة أي واسع المال ، ذكر معنى هذا الجوهري ، وقال المحلي : نعمة أي متعة أي أمور يتمتعون وينتفعون بها ، كالملايس والمراكب قرأ الجمهور فاكهين بالألف ، وقرىء بغير ألف والمعنى على الأولى متنعمين طيبة أنفسهم وعلى الثانية أشرين بطرين . قال الجوهري : فكه الرجل بالكسر فهو فكه إذا كان طيب النفس مزاحاً ، والفكه أيضاً الأشر البطر ، قال وفاكهين أي ناعمين وقال الثعلبي هما لغتان كالحاذر والحذر ، والفاره والفره وقيل : إن الفاكه هو المستمتع بأنواع اللذة كما يتمتع الرجل بأنواع الفاكهة .

﴿ كذلك ﴾ أي الأمر كذلك يجوز أن تكون في محل نصب ، والإشارة إلى مصدر فعل يدل عليه تركوا ، أي مثل ذلك السلب سلبناهم إياها ، وقيل مثل ذلك الإخراج أخرجناهم منها . وقيل مثل ذلك الإهلاك أهلكناهم ، فعلى الوجه الأول يكون قوله ﴿ وأورثناها ﴾ معطوفاً على تركوا وعلى الوجه الآخرة يكون معطوفاً على الفعل المقدر ﴿ قوماً آخرين ﴾ المراد بهم بنو إسرائيل ، فإن الله سبحانه ملكهم مصر ، بعد أن كانوا مستعبدين فصاروا لها وارثين أي أنها وصلت إليهم كما يصل الميراث إلى الوارث ، ومثل هذا قوله ﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها ﴾ وهذا قول الحسن ، وقيل : إنهم لم يرجعوا إلى مصر ، والقوم الآخرون غير بني إسرائيل وهو قول ضعيف جداً قاله الكرخي .

فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَا ابْنَ إِسْرَءِيلَ مِنْ
 الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَا نَهُمْ
 عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَأَعَايَنَهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ ﴿٣٣﴾

﴿فما بكت عليهم السماء والأرض﴾ هذا بيان لعدم الأكتراث بهلاكهم والاعتداد بوجودهم ، كقولك : بكت عليهم السماء وكسفت لمهلكهم الشمس في نقيض ذلك فالبكاء مجاز مرسل ومع ذلك لا بد من جعل الآية استعارة بالكناية ، والمعنى أنه لم يصب بفقدهم وهلاكهم أحد من أهل السماء ولا من أهل الأرض ، وكانت العرب تقول عند موت السيد منهم : بكت له السماء والأرض ، أي عمت مصيبتة ، وقال الحسن في الكلام مضاف محذوف أي فما بكى عليهم أهل السماء والأرض من الملائكة والناس ، وقال الزمخشري ذكر هذا على سبيل السخرية بهم يعني أنهم كانوا يستعظمون أنفسهم ويعتقدون أنهم لو ماتوا لبكت عليهم السماء والأرض ، ولم يكونوا بهذا الحد بل كانوا دون ذلك فذكر هذا تهكماً بهم .

وقال مجاهد إن السماء والأرض تبكيان على المؤمن أربعين صباحاً ، وقيل تبكي على المؤمن مواضع صلاته ومساعد عمله ، وعلى هذا إنه بكاء المعروف من بكاء الحيوان ، وفي معنى الآية وجهان ، والثاني أظهر وأوفق بالأحاديث ونظم القرآن قال السدي : لما قتل الحسين رضي الله عنه بكت عليه السماء وبكاؤها حمرتها .

وعن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما من عبد إلا

وله بابان باب يصعد منه عمله ، وباب ينزل منه رزقه ، فإذا مات فقداه وبكى عليه ، وتلا هذه الآية فما بكت «^(١) الخ وذكر أنهم لم يكونوا يعملون على الأرض عملاً صالحاً تبكي عليهم ، ولم يصعد لهم إلى السماء من كلامهم ، ولا من عملهم ، كلام صالح فيفتقدتهم ، فيبكي عليهم ، «^(٢) أخرجه الترمذي وابن أبي الدنيا وأبو يعلى وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية والخطيب .

وأخرج ابن جرير وعبد بن حميد وابن المنذر والبيهقي في الشعب نحوه من قول ابن عباس ، وعنه قال : « يقال : الأرض تبكي على المؤمن أربعين صباحاً » وعن شريح بن عبيد الحضرمي مرسلًا قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ ألا لا غربة على مؤمن ما مات مؤمن في غربة غابت عنه فيها بواكيه إلا بكت عليه السماء والأرض ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ثم قال إنها لا تبكيان على كافر » أخرجه ابن جرير وابن أبي الدنيا .

وعن علي رضي الله تعالى عنه « إن المؤمن إذا مات بكى عليه مصلاه ومصعد عمله من السماء ، ثم تلا هذه الآية » ﴿ وما كانوا منظرين ﴾ أي مؤخرين للتوبة وممهلين إلى وقت آخر . بل عوجلوا بالعقوبة لفرط كفرهم وشدة عنادهم .

﴿ ولقد نجينا بني إسرائيل من العذاب المهين ﴾ أي خلصناهم بإهلاك عدوهم مما كانوا فيه من الاستعباد ، وقتل الأبناء واستيحاء النساء وتكليفهم

(١) الترمذي ١٥٨/٢ .

(٢) السيوطي في الدر ٣١/٦ .

للأعمال الشاقة ﴿من فرعون﴾ بدل من العذاب إما على حذف مضاف أي من عذابه ، وإما على المبالغة كأنه نفس العذاب ، فأبدل منه أو على أنه حال من العذاب ، أي صادراً من فرعون ، وقرأ ابن عباس من فرعون ؟ بفتح الميم على الاستفهام التحقيري ، كما يقال لمن افتخر بحسبه أو نسبه : من أنت ؟ والأول أولى .

ثم بين سبحانه فقال ﴿إنه كان عالياً﴾ في التكبر والتجبر ﴿من المسرفين﴾ في الكفر بالله ، وارتكاب معاصيه ، كما في قوله ﴿إن فرعون علا في الأرض﴾ ومن إسرافه أنه كان على حقارته وخسته ادعى الإلهية ، ولما بين سبحانه كيفية دفعه للضرر عن بني إسرائيل بين ما أكرمهم به فقال :

﴿ولقد اخترناهم﴾ أي مؤمني بني إسرائيل ﴿على﴾ أي مع ﴿علم﴾ منا بحالهم ، وهي كونهم أحقاء بأن يختاروا ، أو كونهم يزيغون وتحصل منهم الفطرات في بعض الأحوال ﴿على العالمين﴾ أي على عالمي زمانهم على علم منه سبحانه باستحقاقهم لذلك ، وليس المراد أنه اختارهم على جميع العالمين ، بدليل قوله في هذه الأمة ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾ وقيل على كل العالمين لكثرة الأنبياء فيهم ، وهذا خاصة لهم ، وليس لغيرهم ، حكاه ابن عيسى والزنجشري وغيرهما والأول أولى ، وقيل : يرجع هذا الاختيار إلى تخلصهم من الغرق ، وإيراثهم الأرض بعد فرعون .

﴿وآتيناهم من الآيات﴾ أي معجزات موسى ﴿ما فيه بلاء مبين﴾ أي اختبار ظاهر ، وامتحان واضح ننظر كيف يعلمون ؟ وقال قتادة : الآيات إنجاؤهم من الغرق ، وفلق البحر لهم ، وتظليل الغمام عليهم ، وإنزال المن والسلوى لهم ، وقال ابن زيد الآيات هي الشر الذي كفهم عنه ، والخير الذي أمرهم به ، وقال الحسن وقتادة البلاء المبين النعمة الظاهرة ، كما في قوله ﴿وليبلي المؤمنين منه بلاء حسناً﴾ ﴿ونبلوكم بالشر والخير فتنة﴾ .

إِنَّ هَؤُلَاءَ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَتُوا بِآبَائِنَا
 إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهَمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبْعِجُ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا
 مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْبٍ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا
 بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾
 يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾

﴿إن هؤلاء﴾ أي كفار قريش ، لأن الكلام فيهم ، وقصة فرعون
 مسوقة للدلالة على استوائهم في الإصرار على الكفر ، ﴿ليقولون إن هي إلا
 موتتنا الأولى﴾ التي غوتها في الدنيا ، ولا حياة بعدها ولا بعث ، وهو معنى
 قوله ﴿وما نحن بمنشرين﴾ أي بمبعوثين ، يقال أنشر الله الموتى ونشرهم إذا
 بعثهم ، وليس في الكلام قصد إلى إثبات مorte أخرى ، بل المراد ما العاقبة
 ونهاية الأمر ، إلا الموتة الأولى المزيلة للحياة الدنيوية .

قال الرازي وابن الخطيب المعنى أنه لا يأتينا من الأحوال الشديدة إلا
 الموتة الأولى ، وهذا الكلام يدل على أنه لا تأتيهم الحياة الثانية البتة ، فلا
 حاجة إلى التكلف الذي ذكره الزمخشري في هذا المقام ، ثم أوردوا على من
 وعدهم بالبعث ما ظنوه دليلاً ، وهو حجة داحضة فقالوا :

﴿فأتوا بآبائنا﴾ أي أرجعوه بعد موتهم إلى الدنيا ، قال الفراء
 والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وحده ، كقوله ﴿رب أرجعون﴾

والأولى أنه خطاب له صلى الله عليه وسلم ولأتباعه من المسلمين ﴿إن كنتم صادقين﴾ فيما تقولونه وتخبروننا به من البعث ، ثم رد الله سبحانه عليهم بقوله ﴿أهم خير﴾ في القوة والمنعة .

﴿أم قوم تبع﴾ الحميري الذي دار في الدنيا بجيوشه ، وغلب أهلها وقهرهم ، وحير الحيرة وبني سمرقند ، وقيل هدمها وكان مؤمناً ، وكان قومه كافرين ، وكان من ملوك اليمن ، سمي تبعاً لكثرة أتباعه ، وقيل كل واحد من ملوك اليمن يسمى تبعاً لأنه يتبع صاحبه الذي قبله ، كما سمي في الإسلام خليفة ، وفيه وعيد شديد ، وقيل المراد بقوم تبع جميع أتباعه لا واحد بعينه ، وكان تبع هذا يعبد النار فأسلم ودعا قومه وهم حمير إلى الإسلام فكذبوه .

وعن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « لا تسبوا تبعاً فإنه قد أسلم » رواه البيهقي والحاكم وصححه ، وابن المبارك وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا ، وعن سهل بن سعد الساعدي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « فذكر نحوه »^(١) أخرجه أحمد والطبراني وابن ماجه وابن مردويه وروى نحو هذا عن غيرهما من الصحابة والتابعين ، قال الرياشي كان أبو كرب أسعد الحميري من التبابعة ممن آمن بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث بسبعمئة سنة وإليه تنسب الأنصار وهو أول من كسى البيت بعدما أراد غزوه وبعدهما غزا المدينة وأراد خرابها ثم انصرف عنها لما أخبر أنها مهاجر نبي اسمه أحمد وقال شعراً أودعه عند أهلها وكانوا يتوارثونه كابراً عن كابر إلى أن هاجر النبي صلى الله عليه وسلم فدفعوه إليه وقال « كعب ذم الله قومه ولم يذمه » .

والمراد بقوله ﴿والذين من قبلهم﴾ عاد وثمود ونحوهم من الأمم الكافرة ﴿أهلكناهم﴾ مستأنفة لبيان حالهم وعاقبة أمرهم ﴿إنهم كانوا

(١) رواه الحاكم ٤٥٠/٢ مثله .

مجرمين ﴿ أي كافرين منكربين للبعث ، تعليل لإهلاكهم ، يعني أن الله سبحانه قد أهلكهم بسبب كونهم مجرمين ، فإهلاكه لمن هو دونهم بسبب كونه مجرماً ، مع ضعفه وقصور قدرته بالأولى .

﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما ﴾ أي ما بين جنسي السماء والأرض ﴿ لا عيين ﴾ أي بغير غرض صحيح ، قال مقاتل لم نخلقهما عابثين لغير شيء ، وقال الكلبي لاهين ، وقيل غافلين قرأ الجمهور ما بينهما ، وقرئ وما بينهن لأن السموات والأرض جمع .

﴿ ما خلقناهما ﴾ وما بينهما ﴿ إلا بالحق ﴾ أي بالأمر الحق ، والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال ، وقال الكلبي إلا للحق وكذا قال الحسن ، وقيل إلا لإقامة الحق وإظهاره ، وقيل بالعدل ، وهو الثواب على الطاعة والعقاب على المعصية ، وقيل بالجد ضد اللعب .

﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ لقلة نظرهم أن الأمر كذلك ، وهم المشركون ، وفيه تجهيل عظيم لمنكري البعث والحشر ، وتوكيد لأن إنكارهم يؤدي إلى إبطال الكائنات بأسرها ويحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم ، وفي هذه الآية دليل على صحة الحشر ووقوعه .

ووجه الدلالة أنه لو لم يحصل البعث والجزاء لكان هذا الخلق عبثاً ، لأنه تعالى خلق نوع الإنسان ، وخلق ما ينتظم به أسباب معاشهم من السقف المرفوع ، والمهاد المفروش ، وما فيهما وما بينهما من عجائب المصنوعات وبدائع الأحوال ثم كلفهم بالإيمان والطاعة فاقترض ذلك أن يتميز المطيع من المعاصي ، بأن يكون المطيع متعلق فضله وإحسانه ، والمعاصي متعلق عدله وعقابه ، وذلك لا يكون في الدنيا لقصر زمانها ، وعدم الاعتداد بمنافعها ، لكونها مشوبة بأنواع الآفات والمحن ، فلا بد من البعث ﴿ لتجزى كل نفس بما كسبت ﴾ فظهر بهذا وجه اتصال الآية بما قبلها ، وهو أنه لما حكى مقالة

منكري البعث والجزاء ، وهددهم ببيان مآل المجرمين الذين مضوا ، ذكر الدليل القاطع ، الدال على صحة البعث والجزاء فقال : وما خلقنا الخ .

﴿ إن يوم الفصل ﴾ أي يوم القيامة الذي يفصل فيه الحق عن الباطل ، والإضافة على معنى في ، والظاهر أنها بمعنى اللام ﴿ ميقاتهم ﴾ أي الوقت المجمعول لتمييز المحسن من المسيء ، والمحق من المبطل ﴿ أجمعين ﴾ لا يخرج عنهم أحد من ذلك ، وقد اتفق القراء على رفع ميقاتهم على أنه خبر إن ، واسمها يوم الفصل ، وأجاز الكسائي والقراء نصبه على أنه اسمها ، ويوم الفصل خبرها ، ثم وصف سبحانه ذلك اليوم فقال :

﴿ يوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً ﴾ بدل من يوم الفصل أو منتصب بفعل يدل عليه الفصل ، أي يفصل بينهم يوم لا يغني ، والمعنى أنه لا ينفع قريب قريباً ، ولا يدفع عنه شيئاً .

ويطلق المولى على الولي ، وهو القريب والناصر ، وفي المختار المولى المعتق والمعتق وابن العم والناصر والجار ، والحليف ، أي لا يدفع ابن عم عن ابن عمه ولا صديق عن صديقه شيئاً ، ومولى الأول مرفوع بالفاعلية ، والثاني مجرور بعن ، وإعرابها إعراب المقصور كفتى وعصا ورحى ، والمراد بالمولى الثاني الكافر ، وبالأول المؤمن ، أي لا يغني مولى مؤمن عن مولى كافر شيئاً فهذه الآية نظير قوله تعالى ﴿ واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ﴾ الآية .

﴿ ولا هم ينصرون ﴾ الضمير راجع إلى المولى وإن كان مفرداً في اللفظ ، لأنه في المعنى جمع لأنه نكرة في سياق النفي ، وهو من صيغ العموم ، أي ولا هم يمنعون من عذاب الله ، والجملة تأكيد لما قبلها ، فالمعنى لا ينصر المؤمن الكافر ، ولو كان بينهما في الدنيا علاقة من قرابة أو صداقة أو غيرها ، كما أشار له القرطبي .

إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ
 الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلِي الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خَذُوهُ فَاَعْتَْلُوهُ
 إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ
 أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ
 أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ
 مُتَقَابِلِينَ ﴿٥٣﴾

﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ﴾ قال الكسائي الاستثناء منقطع أي لكن من رحم الله ، وكذا قال الفراء ، وقيل هو متصل ، والمعنى لا يغني قريب عن قريب إلا المؤمنين ، فإنه يؤذن لهم في الشفاعة فيشفعون في بعضهم أو مرفوع على البدلية من مولى الأول ، ويغني بمعنى ينفع ، قال الحوفي أو مرفوع المحل أيضاً على البدلية من واو ينصرون ، أي لا يمنع من عذاب الله إلا من رحمه الله ذكره السمين .

﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ أي الغالب الذي لا ينصر من أراد عذابه ، الرحيم بعباده المؤمنين ، ثم لما وصف اليوم ذكر بعده وعيد الكفار فقال :

﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ﴾ هي الشجرة التي خلقها الله في جهنم على صورة شجر الدنيا ، وسماها الشجرة الملعونة ، والزقوم ثمرها ، وهو كل طعام ثقيل ، فإذا جاء أهل النار التجأوا إليها فأكلوا منها ، وقد مضى الكلام على شجرة الزقوم في سورة الصافات ، وشجرت ترسم بالتاء

المفتوحة ، ووقف عليها بالهاء أبو عمرو وابن كثير والكسائي ، ووقف الباقون بالتاء على الرسم قاله الخطيب .

وفي القرطبي : كل ما في كتاب الله من ذكر الشجرة فالوقف عليه بالهاء إلا حرفاً واحداً في سورة الدخان : ﴿إن شجرة الزقوم﴾ انتهى أي فيجوز الوقف عليها بالتاء والهاء ، وفي القاموس كلام مبسوط على الزقم والزقوم فليرجع إليه ، والأثيم الكثير الإثم ، قال في الصحاح : أثم الرجل بالكسر إثماً ومأثماً إذا وقع في الإثم فهو آثم وأثيم وأثوم فمعنى طعام الأثيم طعام ذي الإثم ، قيل هو أيو جهل ولا وجه للتخصيص .

﴿كالمهل﴾ وهو دردي الزيت وعكر القطران وقيل : هو النحاس المذاب وقيل كل ما يذوب في النار من ذهب أو فضة وكل منطبع سواء كان من صفر أو حديد أو رصاص وقيل الصديد والقيح .

﴿يغلي في البطون كغلي الحميم﴾ قرأ الجمهور تغلي بالتاء على أن الفاعل ضمير يعود على الشجرة والجملة خبر ثالث أو حال أو خبر مبتدأ محذوف أي تغلي غلياً مثل غلي الحميم وهو الماء الشديد الحرارة وقرئ بالتحتية على أن الفاعل ضمير يعود إلى الطعام ، وهو في معنى الشجرة ولا يصح عوده إلى المهل لأنه مشبه به وإنما يغلي ما يشبه بالمهل .

﴿خذوه﴾ أي يقال للملائكة الذين هم خزنة النار : خذوه أي الأثيم ﴿فاعتلوه﴾ العتل القود بالعنف ، يقال عتله يعتله إذا جره وذهب به إلى مكروه ، وقيل : العتل أن تأخذ بتلابيب الرجل ومجامعه فتجره ، قرأ الجمهور فاعتلوه بكسر التاء ، وقرئ بضمها وهما لغتان وقراءتان سبعيتان ﴿إلى سواء الجحيم﴾ أي إلى وسطه ومعظمه كقوله ﴿فأراه في سواء الجحيم﴾ ﴿ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الجحيم﴾ من هي التبعية أي صبوا فوق رأسه بعض

هذا النوع ، وإضافة العذاب إلى الحميم للبيان أي عذاب هو الحميم وهو الماء الحار كما تقدم أو من إضافة الصفة للموصوف أو المسبب للسبب فالمصبوب هو الحميم لا عذابه وصب العذاب استعارة ، كقوله ﴿أفرغ علينا صبراً﴾ فقد شبه العذاب بالمائع ثم خيل له بالصب .

﴿ ذق ﴾ الأمر للإهانة به أي قولوا له تهكماً وتقريعاً وتوبيخاً ذق العذاب ﴿ إنك ﴾ قرأ الجمهور بكسر الهمزة وقرأ الكسائي بفتحها ، وروي ذلك عن عليّ أي لأنك ﴿ أنت العزيز الكريم ﴾ قيل إن أبا جهل كان يزعم أنه أعز أهل الوادي وأكرمهم فيقولون له : ذق العذاب أيها المتعزز المتكرم على زعمك ، وفيما كنت تقوله قال الفراء أي لهذا القول الذي قلته في الدنيا - عن ابن عباس في الآية قال : « يقول لست بعزيز ولا كريم » أخرج الأموي في مغازيه عن عكرمة قال : لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا جهل فقال : « إن الله أمرني أن أقول لك ﴿ أولى لك فأولى ﴾ ، ثم أولى لك فأولى ﴾ قال فنزع يده من يده وقال ما تستطيع لي أنت ولا صاحبك من شيء ، لقد علمت أني أمنع أهل بطحاء ، وأنا العزيز الكريم ، فقتله الله يوم بدر وأذله وغيره بكلمته ، وأنزل ﴿ ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾ .

﴿ إن هذا ﴾ العذاب أو هذا الأمر ﴿ ما كنتم به تمترون ﴾ أي تشكون فيه حين كنتم في الدنيا والجمع باعتبار جنس الأئيم ، ثم ذكر سبحانه مستقر المتقين فقال :

﴿ إن المتقين ﴾ الذين اتقوا الكفر والمعاصي ﴿ في مقام ﴾ قرأ الجمهور مقام بفتح الميم وهو موضع القيام ، وقرئ بضمها وهو موضع الإقامة قاله الكسائي وغيره وهما سبعيتان وقال الجوهري قد يكون كل واحد منهما بمعنى الإقامة وقد يكون بمعنى موضع القيام والمراد المكان وهو من الخاص الذي وقع

مستعملاً في معنى العموم ، ثم وصف المقام بقوله :

﴿ أمين ﴾ يا من فيه صاحبه من جميع المخاوف ، قال النسفي : هو من أمن الرجل أمانة فهو أمين وهو ضد الخائن فوصف به المكان استعارة لأن المكان المخيف كأنما يخون صاحبه بما يلقي فيه من المكارِه انتهى .

وأصل الأمن طمأنينة النفس وزوال الخوف والأمن والأمان والأمانة في الأصل مصادر ويستعمل الأمان تارة اسماً للحالة التي عليها الإنسان في الأمن ، وتارة لما يؤمن عليه الإنسان كقوله : ﴿ وتخونوا أماناتكم ﴾ أي ما ائتمنتم عليه .

﴿ في جنات وعيون ﴾ بدل من مقام أمين ، جيء به للدلالة على نزاهته واشتماله على ما يستلذ به من المأكَل والمشارب ، أو بيان له أو خبر ثان .

﴿ يلبسون من سندس وإستبرق ﴾ خبر ثان أو ثالث أو حال من الضمير المستكن في الجار والمجرور ، والسندس مارق من الديباج ، وفي المصباح الديباج ثوب سدهاء ولحمته إبريسم ويقال إنه معرب انتهى والاستبرق ما غلظ منه وهو تعريب استبر واللفظ اذا عرب خرج من أن يكون عجمياً لأن معنى التعريب أن يجعل عربياً بالتصرف فيه ، وتغييره عن منهجه وإجرائه على أوجه الاعراب فساغ أن يقع في القرآن العربي ، وقد تقدم تفسيره في سورة الكهف .

﴿ متقابلين ﴾ أي في مجالسهم ينظر بعضهم الى بعض وهو أتم للأنس فلا يرد ما قيل من أن الجلوس على هذه الصفة موحش ، لأن قليل الثوب اذا اطلع على حال كثير الثوب يتنغص ، لأن أحوال الآخرة بخلاف أحوال الدنيا وقال المحلي : لا ينظر بعضهم الى قفا بعض لدوران الأسرة بهم .

كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ ﴿٥٥﴾
لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَّعَهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾
فَضَلَّأَ مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسْتَرْئِيهِ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ
﴿٥٨﴾ فَأَرْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾

﴿ كذلك ﴾ أي نفعل بالمتقين فعلاً كذلك أو الأمر كذلك
﴿ وزوجناهم ﴾ أي أكرمناهم بأن زوجناهم ﴿ بحور عين ﴾ الحور جمع
حوراء وهي البيضاء والعين جمع عياء ، وهي الواسعة العين ، وقال
مجاهد إنما سميت الحوراء حوراء لأنه يحار الطرف في حسنها ، وقيل هو
من حور العين وهو شدة بياض العين في شدة سوادها ، كذا قال أبو
عبيدة ، وقال الأصمعي : ما أدري ما الحور في العين ، قال أبو عمرو :
الحور أن تسود العين كلها مثل أعين الظباء والبقر قال وليس في بني آدم
حور ، وإنما قيل للنساء : حور لأنهن شبهن بالظباء والبقر .

وقيل المراد بقوله ﴿ زوجناهم ﴾ قرناهم ، وليس من عقد التزويج
لأنه لا يقال زوجته بامرأة ، وقال أبو عبيدة وجعلناهم أزواجاً لهن كما يزوج
البعل بالبعل ، أي جعلناهم اثنين اثنين ، وكذا قال الأخفش ، واختلف
أيهما أفضل في الجنة النساء الآدميات أم الحور ذكر ابن المبارك أن نساء
الآدميات من دخل منهن الجنة فضلن على الحور العين بما عملن في
الدنيا ، وروي مرفوعاً « أن الآدميات أفضل من الحور العين بسبعين ألف
ضعف » ، وقيل إن الحور العين أفضل لقوله عليه الصلاة والسلام
« فأبدله زوجاً خيراً من زوجه » والله أعلم .

﴿ يدعون فيها ﴾ أي في الجنة ﴿ بكل فاكهة ﴾ أي يأمرون بإحضار ما يشتهون من الفواكه حال كونهم ﴿ آمنين ﴾ من التخم والأسقام والآلام قال قتادة آمنين من الموت والوصب والشيطان وقيل من انقطاع ما هم فيه من النعيم .

﴿ لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ﴾ أي لا يموتون فيها أبداً إلا الموتة التي ذاقوها في الدنيا والإستثناء منقطع أي لكن الموتة كذا قال الزجاج والفراء وغيرهما ، ومثل هذه الآية قوله ﴿ ولا تنكحوا ما نكح آبائكم من النساء إلا ما قد سلف ﴾ وقيل إن إلا بمعنى بعد واختاره الطبري كقولك ما كلمت رجلاً اليوم إلا رجلاً عندك ، أي بعد رجل عندك وأباه الجمهور لأن مجيء إلا بمعنى بعد لم يثبت .

وقيل هي بمعنى سوى أي سوى الموتة الأولى نقله الطبري وضعفه . قال ابن عطية وليس تضعيفه بصحيح بل كونها بمعنى سوى مستقيم متسق ، قال ابن قتيبة إنما استثنى الموتة الأولى ، وهي في الدنيا لأن السعداء حين يموتون يصيرون بلطف الله وقدرته إلى أسباب من الجنة يلقون الروح والريحان ويرون منازلهم من الجنة ويفتح لهم أبوابها فإذا ماتوا في الدنيا فكأنهم ماتوا في الجنة لاتصالهم بأسبابها ومشاهدتهم إياها فيكون الاستثناء على هذا متصلاً

قال الزمخشري فإن قلت كيف استثنيت الموتة الأولى المذوقة قبل دخول الجنة من الموت المنفي ذوقه فيها قلت أريد أن يقال لا يذوقون فيها الموت البتة فوضع قوله : إلا الموتة الأولى موضع ذلك لأن الموتة الماضية محال ذوقها في المستقبل ؛ فهو من باب التعليق بالمحال ، كأنه قيل إن كانت الموتة الأولى يستقيم ذوقها في المستقبل فإنهم يذوقونها في الجنة انتهى . قلت وهذا عند علماء البيان يسمى نفي الشيء بدليله .

﴿ ووقاهم عذاب الجحيم ﴾ قرأ الجمهور وقاهم بالتخفيف وقرئ

بالتشديد على المبالغة ﴿ فضلاً من ربك ﴾ أي لأجل الفضل منه ، أو اعطاهم ذلك عطاء فضلاً منه .

﴿ ذلك ﴾ الذي تقدم ذكره من صرف العذاب ودخول الجنة ﴿ هو الفوز العظيم ﴾ الذي لا فوز بعده ، المتناهي في العظم ، لأنه خلاص عن المكاره ، وظفر بالمطالب ثم لما بين سبحانه الدلائل ، وذكر الوعد والوعيد قال .

﴿ فإنما يسرناه بلسانك ﴾ أي إنما أنزلنا القرآن بلغتك كي يفهمه قومك فيتذكروا ويعتبروا ويعملوا بما فيه ، أو سهلناه بلغتك عليك وعلى من يقرأه وهذا فذلكه للسورة وإجمال لما فيها من التفصيل ﴿ لعلهم يتذكرون ﴾ أي يتعظون فيؤمنون ، لكنهم لا يؤمنون .

﴿ فارتقب ﴾ أي فانتظر ما وعدناك من النصر عليهم وإهلاكهم على يدك ﴿ إنهم مرتقبون ﴾ أي فإنهم منتظرون ما ينزل بك من موت أو غيره ، وقيل انتظر أن يحكم الله بينك وبينهم فإنهم منتظرون بك نوائب الدهر والمعنى متقارب قال المحلي وهذا قبل الأمر بجهادهم أي فهو منسوخ وليس بصحيح لأن رفع الاباحة الأصلية ليس نسخاً إنما النسخ رفع حكم ثبت في الشرع بحكم آخر .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الجاثية

وتسمى الشريعة قاله الخازن هي ست أو سبع وثلاثون آية

وهي مكية كلها في قول الحسن وجابر وعكرمة ، وقال ابن عباس وقتادة إلا آية منها . وهي قوله : ﴿ قل للذين آمنوا الحمد أيام الله ﴾ فإنها نزلت بالمدينة في عمر بن الخطاب ، ذكره الماوردي ، وقال المهدوي والنحاس : «إنها نزلت في عمر شتمه وجعل من المشركين بمكة قبل الهجرة فأراد أن يبطش به ، فأنزل الله : قل للذين آمنوا ، الآية ثم نسخت بآية القتال فالسورة كلها مكية على هذا من غير استثناء .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْدٌ ﴿١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ
 ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ ءَايَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَخِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ
 مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ ءَايَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ
 ءَايَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَءَايَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَلِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ
 ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللَّهِ تُنْزِلُ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِيرَةٌ بِعَذَابِ الْعِيمِ ﴿٨﴾ وَإِذَا
 عَلِمَ مِنْ ءَايَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٩﴾

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ حَمْدٌ﴾ قد تقدم الكلام على هذا في فاتحة
 سورة غافر ، وما بعدها والله أعلم بمراده به ﴿تنزيل الكتاب﴾ أي القرآن مبتدأ
 ﴿من الله﴾ خبره ﴿العزیز﴾ في ملكه ﴿الحكيم﴾ في صنعه ، ثم أخبر سبحانه بما يدل على
 قدرته الباهرة فقال : ﴿إن في السموات والأرض﴾ أي في
 خلقهما ﴿آيات﴾ دالة على قدرة الله ووحدانيته ﴿للمؤمنين﴾ قال الزجاج :
 ويدل على أن المعنى في خلقهما قوله :

﴿وفي خلقكم﴾ أنفسكم على أطوار مختلفة ، قال مقاتل : من
 تراب ، ثم من نطفة الى أن يصير إنساناً ، وحاصل ما ذكر هنا من الدلائل ستة
 على ثلاث فواصل ، الأولى للمؤمنين الثانية يوقنون ، الثالثة يعقلون ، ووجه
 التغاير بينها أن المنصف من نفسه اذا نظر في السموات والأرض وأنه لا بد
 لهما من صانع آمن ، وإذا نظر في خلق نفسه ونحوها ازداد إيماناً فأيقن ، وإذا

نظر في سائر الحوادث عقل واستحكم علمه .

﴿ و ﴾ في خلق ﴿ ما يبيث ﴾ أي ما يفرقه وينشره ﴿ من دابة آيات ﴾ وللنحاة في هذا الموضع كلام طويل في رفع آيات ونصبها ، والبحث في مسألة العطف على معمولي عاملين مختلفين ، وحجج المجوزين له ، وجوابات المانعين منه مقرر في علم النحو ، مبسوط في مطولاته ﴿ لقوم يوقنون ﴾ يعني أنه لا إله إلا هو .

﴿ واختلاف الليل والنهار ﴾ أي في تعاقبهما أو تفاوتهما في الطول والقصر والظلام والضياء وذهابهما ومجيئهما ﴿ وما أنزل الله من السماء من رزق ﴾ معطوف على اختلاف والرزق المطر لأنه سبب لكل ما يرزق الله العباد به ﴿ فأحيا به الأرض بعد موتها ﴾ إحياء الأرض إخراج نباتها ، وموتها خلوها عن النبات ويبسها .

﴿ وتصريف الرياح ﴾ في مهاها أي أنها تهب تارة من جهة وتارة من أخرى ، وتارة تكون حارة وتارة تكون باردة ، وتارة نافعة وتارة ضارة ، والرياح أربعة بحسب جهات الأفق ﴿ آيات لقوم يعقلون ﴾ مراد الله سبحانه في كتابه ، ويفهمون الدليل فيؤمنون .

﴿ تلك آيات الله نتلوها عليك ﴾ أي هذه الآيات المذكورة هي حجج الله وبراهينه ﴿ بالحق ﴾ أي محقين أو متلبسة بالحق ، أو الباء للسببية فتعلق بنفس الفعل ﴿ فبأي حديث بعد الله وآياته ﴾ أي حججه ، قيل : إن المقصود فبأي حديث بعد آيات الله ، وذكر الاسم الشريف ليس إلا لقصد تعظيم الآيات فيكون من باب أعجبنني زيد وكرمه ، وقيل المراد بعد حديث الله ، هو القرآن كما في قوله : ﴿ الله نزل أحسن الحديث ﴾ وهو المراد بالآيات ، والعطف لمجرد التغاير العنواني ﴿ يؤمنون ﴾ قرأ الجمهور بالفوقية وقرئ بالتحتية والمعنى يؤمنون بأي حديث ، وإنما قدم عليه لأن الاستفهام له صدر الكلام .

﴿ويل﴾ واد في جهنم أو كلمة عذاب ﴿لكل أفاك أثيم﴾ أي لكل كذاب كثير الاثم مرتكب لما يوجبه ثم وصف هذا الأفاك بصفة أخرى فقال ﴿يسمع آيات الله﴾ أي القرآن ﴿تتلى عليه ثم يصر﴾ على كفره ، وقيم على ما كان عليه ، حال كونه

﴿مستكبراً﴾ أي متمادياً على كفره ، متكبراً على الإيمان ، ومتعظماً في نفسه عن الانقياد للحق ، والاصرار مأخوذ من إصرار الحمار على العانة ، وهو أن ينحى عليها ، صاراً أذنيه ، وثم للتراخي الرتي عند العقل ، أي اصراره على الكفر بعد ما قررت له الأدلة المذكورة وسمعها مستبعد في العقول ، قال مقاتل : إذا سمع من آيات القرآن شيئاً اتخذها هزواً ، وجملة ﴿كأن لم يسمعها﴾ في محل نصب على الحال ، أو مستأنفة ، وأن هي المخففة من الثقيلة واسمها ضمير شأن محذوف .

﴿فبشره بعذاب أليم﴾ هذا من باب التهكم ، أي فبشره على إصراره واستكباره وعدم استماعه الى الآيات بعذاب شديد الألم قيل : نزلت في النضر ابن الحرث ، وما كان يشتري من أحاديث العجم ، ويشغل بها الناس عن استماع القرآن ، والآية عامة في كل من كان مضاداً لدين الله .

﴿وإذا علم من آياتنا شيئاً﴾ قرأ الجمهور بفتح العين وكسر اللام مخففة على البناء للفاعل وقرىء على البناء للمفعول ، والمعنى أنه اذا وصل اليه وبلغه شيء وعلم انه من آيات الله ﴿اتخذها﴾ أي الآيات ﴿هزواً﴾ وقيل الضمير في اتخذها عائد الى شيء لأنه عبارة عن الآيات ، والأول أولى .

﴿أولئك﴾ أي كل أفاك متصف بتلك الصفات ﴿لهم عذاب مهين﴾ بسبب ما فعلوا من الاصرار والاستكبار عن سماع آيات الله ، واتخاذها هزواً ، والعذاب المهين هو المشتمل على الازلال والفضيحة .

مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ
 عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا ابْتَئَتْ مِنْهُمْ لُحْمٌ عَذَابٌ مِنْ رَجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾
 اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لَتَجْرَى الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ
 ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ
 يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا
 كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾

﴿ من ورائهم ﴾ أي من وراء ما هم فيه من التعزز بالدنيا والتكبر عن الحق ﴿ جهنم ﴾ فإنها من قدامهم ، لأنهم متوجهون إليها ، وعبر عن القدام بالوراء كقوله : ﴿ من ورائه جهنم ﴾ والوراء مستعمل بمعنى الأمام كما يستعمل بمعنى الخلف ، وهو مشترك بين المعنيين ، فيستعمل في الشيء وضده ، كالجون يستعمل في الأبيض والأسود على سبيل الاشتراك ، وقيل : جعلها باعتبار إعراضهم عنها ، كأنها خلفهم ، وقيل الوراء اسم للجهة التي يوارىها الشخص من خلف أو قدام .

﴿ ولا يغني ﴾ أي لا يدفع ﴿ عنهم ما كسبوا ﴾ من أموالهم وأولادهم ﴿ شيئاً ﴾ من عذاب الله ، ولا ينفعهم بوجه من وجوه النفع ﴿ ولا ﴾ يغني عنهم ﴿ ما اتخذوا من دون الله أولياء ﴾ من الأصنام ، وما في الموضعين إما مصدرية أو موصولة ، وزيادة لا في الجملة الثانية للتأكيد ﴿ ولهم عذاب عظيم ﴾ في جهنم التي هي من ورائهم .

﴿ هذا ﴾ أي القرآن ﴿ هدى ﴾ للمهتدين به ﴿ والذين كفروا بآيات

ربهم ﴿ القرآنية ﴾ لهم عذاب من رجز أليم ﴿ الرجز أشد العذاب ، قرأ الجمهور أليم بالجر صفة للرجز ، وقرى بالرفع صفة لعذاب .

﴿ الله الذي سخر لكم البحر ﴾ أي جعله على صفة تتمكنون بها من الركوب عليه بأن جعله أملس السطح ، يطفو عليه ما يتخلله كالأخشاب ولا يمنع الغوص فيه ﴿ لتجري الفلك فيه بأمره ﴾ أي بإذنه وإقداره لكم ﴿ ولتبتغوا من فضله ﴾ بالتجارة تارة والغوص للدر والمعالجة للصيد وغير ذلك ﴿ ولعلكم تشكرون ﴾ أي ولكي تشكروا النعم التي تحصل لكم بسبب هذا التسخير للبحر .

﴿ وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه ﴾ أي سخر لعباده جميع ما خلقه في سمواته وأرضه ، مما يتعلق به مصالحهم ويقوم به معاشهم ومما سخره لهم من مخلوقات السموات الشمس والقمر والنجوم النيرات والمطر والسحاب والرياح ، وجميعاً حال من ما في السموات أو تأكيد له ، وقوله ﴿ منه ﴾ متعلق بمحذوف هو صفة لجميعاً أي كائناً منه ، أو متعلق بسخر ، أو حال من ما في السموات ، أو خبر لمبتدأ محذوف والمعنى أن كل ذلك رحمة منه لعباده ، وقال ابن عباس ﴿ جميعاً منه ﴾ أي منه النور والشمس والقمر وكل شيء هو من الله ، وعن طاوس قال : « جاء رجل إلى عبد الله بن عمرو بن العاص فسأله مم خلق الخلق ؟ قال من الماء والنور والظلمة والهواء والتراب ، قال فمم خلق هؤلاء ؟ قال لا أدري ، ثم أتى الرجل عبد الله بن الزبير فسأله فقال : مثل قول عبد الله بن عمرو فأتى ابن عباس فسأله مم خلق الخلق ؟ فقال من الماء والنور والظلمة والريح والتراب ، قال فمم خلق هؤلاء فقرأ ابن عباس وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه ، فقال الرجل ما كان ليأتي بهذا إلا رجل من أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم » .

﴿ إن في ذلك ﴾ المذكور من التسخير ﴿ لآيات لقوم يتفكرون ﴾ خص

المتفكرين لأنه لا ينتفع بها إلا من تفكر فيها ، فإنه ينتقل من التفكير الى الاستدلال بها على التوحيد ﴿ قل للذين آمنوا يغفروا ﴾ أي قل لهم اغفروا يغفروا أي يعفوا ويصفحوا ، قاله علي بن عيسى واختاره ابن العربي . وقيل التقدير قل لهم ليغفروا ، والمعنى قل لهم ليتجاوزوا .

﴿ للذين لا يرجون أيام الله ﴾ أي عن الذين لا يرجون وقائع الله بأعدائه أي لا يتوقعونها ، ومعنى الرجاء هنا الخوف ، وقيل هو على معناه الحقيقي ، والمعنى لا يرجون ثوابه في الأوقات التي وقتها الله لثواب المؤمنين ، والأول أولى ، والأيام يعبر بها عن الوقائع كما تقدم في تفسير قوله ﴿ وذكرهم بأيام الله ﴾ قال مقاتل لا يخشون مثل عذاب الله للأمم الخالية ، وذلك أنهم لا يؤمنون به ، فلا يخافون عقابه وقيل المعنى لا يأملون نصر الله لأوليائه وإيقاعه بأعدائه ، وقيل : لا يخافون البعث .

قيل والآية منسوخة بآية السيف والأقرب أن يقال : إنه محمول على ترك المنازعة ، وعلى التجاوز فيما يصدر عنهم من الكلمات المؤذية وعن ابن عباس في الآية قال « كان نبي الله صلى الله عليه وسلم يعرض عن المشركين إذا آذوه وكانوا يستهزئون به ويكذبونه فأمره الله أن يقاتل المشركين كافة » ، فكان هذا من المنسوخ والأولى القول بعدم النسخ .

﴿ ليجزي ﴾ الله ﴿ قوماً ﴾ قرىء بالتحية وقرىء بالنون أي لنجزي نحن ، والجملة لتعليل الأمر بالمغفرة ، والمراد بالقوم المؤمنون ، أمروا بالمغفرة ليجزيهم الله يوم القيامة ﴿ بما كانوا يكسبون ﴾ في الدنيا من الأعمال الحسنة التي من جملتها الصبر على أذية الكفار ، والإغضاء عنهم ، بكظم الغيظ ، واحتمال المكروه ، وقيل المعنى ليجزي الكفار بما عملوا من السيئات كأنه قال لا تكافئوهم أنتم لنكافئهم نحن ، قيل المراد بالقوم كلاهما فيكون التنكير للتعظيم أو التحقير أو التنويع والأول أولى ، ثم ذكر المؤمنين وأعمالهم والمشركون وأعمالهم فقال :

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ
 آتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى
 الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ ۖ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ
 الْعِلْمُ بَغْيًا يَبِغْتُهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۖ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ
 ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ
 ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ
 الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَذَا بَصِيرَتُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾

﴿ من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ﴾ أي إن عمل كل طائفة من
 إحسان وإساءة لعامله لا يتجاوزه الى غيره ، وفيه ترغيب وترهيب ، والجملة
 مستأنفة لبيان كيفية الجزاء ﴿ ثم الى ربكم ترجعون ﴾ أي تصيرون فيجازي
 كلاً بعمله إن كان خيراً فخير وإن كان شراً فشر .

﴿ ولقد آتينا بني اسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ﴾ المراد بالكتاب
 التوراة كذا في الكشف وتبعه القاضي ، ولعل الأولى أن يحمل الكتاب على
 الجنس حتى يشمل الانجيل والزبور أيضاً لكن جمهور المفسرين على تفسيره
 هنا بالتوراة لأنه ذكر بعدها الحكم ونحوه وما ذكر لا حكم فيه إذ الزبور أدعية
 ومناجاة ، والإنجيل أحكامه قليلة جداً ، وعيسى مأمور بالعمل بالتوراة والمراد
 بالحكم الفهم والفقه الذي يكون بهما الحكم بين الناس ، وفصل خصوماتهم ،
 وبالنبوة من بعثه الله من الأنبياء فيهم .

﴿ورزقناهم من الطيبات﴾ أي المستلذات التي أحلها الله لهم ، ومن ذلك المن والسلوى ، وهذه نعم دنيوية وما قبله من الكتاب والنبوة نعم دينية .

﴿وفضلناهم على العالمين﴾ من أهل زمانهم حيث آتيناهم ما لم نؤت من عداهم من كثرة الأنبياء فيهم ، وفلق البحر ، وغرق العدو ، ونحوها ، وقد تقدم بيان هذا في سورة الدخان ، قال ابن عباس : لم يكن أحد من العاملين في زمانهم أكرم على الله ولا أحب إليه منهم .

﴿وآتيناهم بينات من الأمر﴾ أي شرائع واضحات في الحلال والحرام ، أو معجزات ظاهرات ، وقيل : العلم بمبعث النبي صلى الله عليه وسلم وشواهد نبوته ، وتعيين مهاجره ﴿فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم﴾ أي فما وقع الاختلاف بينهم في ذلك الأمر إلا بعد مجيء العلم إليهم ببيانه ، وإيضاح معناه ، فجعلوا ما يوجب زوال الخلاف موجباً لثبوتيه ، وقيل المراد بالعلم يوشع بن نون فإنه آمن به بعضهم ، وكفر بعضهم وقيل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فاختلفوا فيها حسداً و :

﴿بغياً بينهم﴾ قيل بغياً من بعضهم على بعض يطلب الرياسة ﴿إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ من أمر الدين فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته .

﴿ثم جعلناك على شريعة من الأمر﴾ ثم للاستئناف والشريعة في اللغة المذهب والملة والمنهاج ويقال لمشركة الماء وهي مورد شاربيه شريعة ، والجمع شرائع ، فاستعير ذلك للدين لأن العباد يردون ما تحيا به نفوسهم ، ومنه الشارع لأنه طريق الى المقصد ، فالمراد بالشريعة هنا ما شرعه الله لعباده من الدين ، أي جعلناك يا محمد على منهاج واضح من أمر الدين يوصلك الى الحق وقال ابن عباس : على هدى من أمر دينه ، قال قتادة الشريعة الأمر والنهي والحدود والفرائض البينة ، لأنها طريق الى الحق ، وقال الكلبي السنة ، لأنه يستن بطريقة من قبله من الأنبياء ، وقال ابن زيد : الدين لأنه

طريق الى النجاة وقال ابن العربي : الأمر يرد في اللغة بمعنيين أحدهما بمعنى الشأن كقوله :

﴿ واتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد ﴾ والثاني ما يقابله النهي وكلاهما يصح أن يكون مراداً هنا وتقديره ثم جعلناك على طريقة من الدين ، وهي ملة الاسلام ، كما قال تعالى ﴿ ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً ﴾ ولا خلاف أن الله تعالى لم يغير بين الشرائع في التوحيد والمكارم والمصالح ، وإنما خالف بينها في الفروع حسب ما علمه سبحانه وتعالى .

﴿ فاتبعها ﴾ أي فاعمل بأحكامها في أمتك ﴿ ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون ﴾ توحيد الله وشرائعه لعباده ، وهم كفار قريش ومن وافقهم ، ثم علل النهي عن اتباع أهوائهم فقال : ﴿ إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً ﴾ أي لا يدفعون عنك شيئاً مما أَرَادَهُ الله بك ان اتبعت أهوائهم .

﴿ وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض ﴾ أي أنصار ينصر بعضهم بعضاً لأن الجنسية علة الانضمام قال ابن زيد إن المنافقين أولياء اليهود ﴿ والله ولي المتقين ﴾ أي ناصرهم ، والمراد بالمتقين الذين اتقوا الشرك والمعاصي والاشارة بقول ﴿ هذا ﴾ الى القرآن او الى اتباع الشريعة .

﴿ بصائر للناس ﴾ أي براهين ، ودلائل لهم فيما يحتاجون اليه من أحكام الدين وبينات تبصرهم وجه الفلاح ، ومعالم يتبصرون بها في الأحكام والحدود جعل ذلك بمنزلة البصائر في القلوب ليتوصل بكل واحد منها الى تحصيل العرفان واليقين ، وجمع الخبر باعتبار ما في المبتدأ من تعدد الآيات . والبراهين ، وقرئ هذه بصائر أي هذه الآيات لأن القرآن بمعناها .

﴿ وهدى ﴾ أي رشد وطريق يؤدي الى الجنة لمن عمل به ﴿ ورحمة ﴾ من الله في الآخرة ﴿ لقوم يوقنون ﴾ أي من شأنهم الإيقان وعدم الشك والتزلزل بالشبهة .

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
 سَوَاءٌ مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
 بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ
 إِلَٰهَهُ هَوْنَهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ
 يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾

﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات ﴾ أم هي المنقطعة المقدرة ببل ،
 والهمزة وما فيها من معنى بل للانتقال من البيان الأول إلى الثاني ، والهمزة
 لإنكار الحساب بطريق إنكار الواقع واستقبحه ، والتوبيخ عليه ، والاجترار
 الاكتساب ، ومنه الجوارح ، وقد تقدم في المائدة ، والجملة مستأنفة سيق
 لبيان تباين حالي المسيئين والمحسنين إثر بيان حالي الظالمين والمتقين ، وهو معنى
 قوله :

﴿ أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ ؟ أي نسوي بينهم مع
 اجترارهم السيئات وبين أهل الحسنات ، قيل نزلت في قوم من المشركين ،
 وقيل المسيئون عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، والوليد بن عتبة ، والمحسنون علي وحمزة
 وعبيدة بن الحرث حين برزوا إليهم يوم بدر فقتلوهم والعموم أولى .

﴿ سواء محيائهم ومماتهم ﴾ في دار الدنيا ، وفي الآخرة ؟ كلا لا يستوون
 في شيء منها ، فإن حال أهل السعادة فيها غير حال أهل الشقاوة ، فهؤلاء في
 عز الإيمان والطاعة وشرفها في المحيا ، وفي رحمة الله تعالى ورضوانه في
 الممات ، وأولئك في ذل الكفر والمعاصي وهو انهما في المحيا ، وفي لعنة الله

والعذاب الخالد في الممات ، وشتان بينهما ، وقيل المراد إنكار أن يستووا في الممات ، كما استووا في الحياة .

قرأ الجمهور سواء بالرفع على أنه خبر مقدم ، والمبتدأ محياهم ومماتهم والمعنى إنكار حسابهم أن محياهم ومماتهم سواء ، وقرئ بالنصب على أنه حال من الضمير المستتر في الجار والمجرور ، في قوله : كالذين آمنوا ، أو على أنه مفعول ثان لحسب ، واختار قراءة النصب أبو عبيدة ، وقال : معناه نجعلهم سواء ، وقرئ محياهم ومماتهم بالنصب على معنى سواء في محياهم ومماتهم . ولما سقط الخافض انتصب .

﴿ ساء ما يحكمون ﴾ أي ساء حكمهم هذا الذي حكموا به وقال مجاهد في الآية المؤمن في الدنيا والآخرة مؤمن ، والكافر في الدنيا والآخرة كافر ، وقال مسروق : قال لي رجل من أهل مكة هذا مقام أخيك تميم الداري ، ولقد رأيته قام ذات ليلة حتى أصبح أو قرب أن يصبح يقرأ آية من كتاب الله يركع بها ويسجد ، ويبكي ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات ﴾ الآية ، وعن الفضيل أنه بلغها فجعل يرددّها ويبكي ويقول يا فضيل ليت شعري من أي الفريقين أنت ؟ .

﴿ وخلق الله السموات والأرض بالحق ﴾ المقتضي للعدل بين العباد وهذا كالدليل لما قبله من نفي الاستواء ، ومحل بالحق النصب على الحال من الفاعل ، أو المفعول ، أو الباء للسببية ﴿ ولتجزى كل نفس ما كسبت ﴾ أي خلق الله إياهما ليدلّ بهما على قدرته ولتجزى ، أو اللام للصيرورة قاله ابن عطية أي صار الأمر من حيث اهتدى بها قوم وضل بها قوم آخرون ﴿ وهم ﴾ أي النفوس المدلول عليها بكل نفس .

﴿ لا يظلمون ﴾ بنقص ثواب ، أو زيادة عقاب وتسميته ذلك ظلماً مع أنه ليس كذلك على ما عرف من قاعدة أهل السنة لبيان غاية تنزهه ساحة لطفه تعالى عما ذكر ، بتنزيله منزلة الظلم الذي يستحيل صدوره عنه ، أو سماه ظلماً

نظراً إلى صدوره منا كما في الابتلاء والاختبار ، ثم عجب سبحانه من حال الكفار فقال :

﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه﴾ قال الحسن وقتادة : ذلك الكافر اتخذ دينه ما يهواه ، فلا يهوى شيئاً إلا ركبه وقال عكرمة يعبد ما يهواه أو يستحسنه فإذا استحسن شيئاً وهواه ، اتخذته إلهاً ، قال سعيد بن جبير ؛ كان أحدهم يعبد الحجر فإذا رأى ما هو أحسن منه رمى به وعبد الآخر .

وقال ابن عباس : ذلك الكافر اتخذ دينه بغير هدى من الله ولا برهان ، والمعنى هو مطواع لهوى النفس ، يتبع ما يدعو إليه فكأنه يعبد كما يعبد الرجل إلهه .

﴿وأضله الله على علم﴾ قد علمه ، قال ابن عباس : يقول أضله في سابق علمه تعالى ، وقيل المعنى أضله عن الثواب على علم منه بأنه لا يستحقه ، وقال مقاتل على علم منه أنه ضال لأنه يعلم أن الصنم لا ينفع ولا يضر ، قال الزجاج : على سبق في علمه أنه ضال قبل أن يخلقه ، وقال الكرخي : أضله وهو عالم بالحق ، وهذا أشد تشنيعاً عليه .

﴿وختم﴾ أي طبع ﴿على سمعه﴾ حتى لا يسمع الوعظ ﴿و﴾ طبع على ﴿قلبه﴾ حتى لا يفقه الهدى ولا يعقله ﴿وجعل على بصره غشاوة﴾ أي ظلمة وغطاء حتى لا يبصر الرشد ، قرأ الجمهور غشاوة بالألف مع كسر الغين وقرئ بغير ألف مع فتح الغين . وقرأ ابن مسعود والأعمش بكسرة الجمهور مع فتح الغين ، وهي لغة ربيعة ، وقرئ بضمها وهي لغة عكل .

﴿فمن يهديه من بعد الله﴾ أي بعد إضلال الله له أي لا يهتدي ﴿أفلا تذكرون﴾ تذكر اعتبار ، حتى تعلموا حقيقة الحال ؛ قال الواحدي : ليس يبقى للقدرية مع هذه الآية عذر ولا حيلة ، لأن الله صرح بمنعه إياه عن الهدى حتى أخبر أنه ختم على سمعه وقلبه وبصره ، ثم بين سبحانه بعض جهالاتهم وضلالاتهم فقال :

وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تَنَتَّلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبَوْنَا أَتَابِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِذِرُ يَحْسَرُ الْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾

﴿ وقالوا ﴾ أي منكرو البعث ﴿ ما هي إلا حياتنا الدنيا ﴾ أي ما الحياة إلا الحياة التي نحن فيها ﴿ نموت ونحيا ﴾ أي يصيبنا الموت والحياة فيها وليس وراء ذلك حياة ، وقيل نموت نحن ونحيا فيها أولادنا ، وقيل نكون نطفاً ميتة ثم نصير أحياء ، وقيل في الآية تقديم وتأخير أي نحيا ونموت وكذا قرأ ابن مسعود وعلى كل تقدير فمرادهم بهذه المقالة إنكار البعث وتكذيب الآخرة وقيل : هذا من كلام من يقول بالتناسخ أي بموت الرجل ثم تجعل روحه في موات فيحيا به .

﴿ وما يهلكنا إلا الدهر ﴾ أي مرور الليالي والأيام ، والدهر في الأصل مدة بقاء العالم ، من دهره إذا غلبه . وفي القاموس : دهرهم أمر كمنع نزل بهم مكروه ، فهم مدهور بهم ، ومدهورون ، وقرئ إلا دهر يمر قال مجاهد يعني السنين والأيام انتهى .

كانوا يزعمون أن مرورها هو المؤثر في هلاك الأنفس وينكرون ملك الموت وقبض الأرواح بإذن الله ، وكانوا يضيفون كل حادثة تحدث إلى الدهر والزمان ، ألا ترى أن أشعارهم ناطقة بشكوى الزمان ؟ وقال قتادة : إلا العمر ؛ والمعنى واحد ؛ وقال قطرب المعنى وما يهلكنا إلا الموت وقال عكرمة : وما يهلكنا إلا الله .

عن أبي هريرة قال : « كان أهل الجاهلية يقولون : إنما يهلكنا الليل والنهار ، وهو الذي يحيينا ويميتنا ، فيسبون الدهر ، فقال الله تعالى : يؤذيني ابن آدم بسب الدهر وأنا الدهر بيدي الأمر أقلب الليل والنهار .

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما من حديثه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « قال الله عز وجل : يؤذيني ابن آدم الحديث » ، وفي الموطأ عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا يقولن أحدكم : يا خيبة الدهر ، فإن الله هو الدهر » ، وقد استدلل بهذا الحديث من قال : إن الدهر من أسماء الله تعالى ، ومرادهم بهذا الحصر إنكار أن يكون الموت بواسطة ملك الموت وإضافة الحوادث إلى الدهر والزمان ، وأن المؤثر في هلاك الأنفس هو مرور الأيام والليالي^(١) .

﴿ وما لهم بذلك ﴾ أي بنسبة الحوادث إلى حركات الأفلاك وما يتعلق بها على الإستقلال ﴿ من علم ﴾ ثم بين كون ذلك صادراً منهم لا عن علم فقال : ﴿ إن هم إلا يظنون ﴾ أي ما هم إلا قوم غاية ما عندهم الظن ، فما يتكلمون إلا به ، ولا يستندون إلا إليه .

﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ﴾ أي إذا تليت آيات القرآن على المشركين حال كونها واضحة ظاهرة المعنى والدلالة على البعث أو مبینات لما يخالف معتقدتهم قاله الكرخي .

﴿ ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا ﴾ أحياء ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ أنا نبعث بعد الموت أي ما كان لهم حجة ولا متمسك ولا متشبث يتعلقون ويعارضون به إلا هذا القول الباطل الذي ليس من الحجة في شيء وإنما سماه حجة مع أنه ليس بحجة لأنهم أدلوا به كما يدلي المحتج بحجته ، وساقوه مساقها فسمي حجة على سبيل التهكم ، أو لأنه في حسابهم وتقديرهم حجة ، ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم أن يرد عليهم فقال :

(١) روى مسلم ١٧٦٣/٤ لا تسبوا الدهر فإن الدهر هو الله .

﴿ قل الله يحييكم ﴾ في الدنيا ﴿ ثم يميتكم ﴾ عند انقضاء آجالكم ﴿ ثم يجمعكم إلى ﴾ أي في ﴿ يوم القيامة ﴾ بالبعث والنشور ﴿ لا ريب فيه ﴾ أي في جمعكم لأن من قدر على ابتداء الخلق قدر على إعادته ، وفي هذا رد لقولهم ، ﴿ وما يهلكنا إلا الدهر ﴾ .

﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ بذلك لإعراضهم عن التفكير بالدلائل ، فلهذا حصل معهم الشك في البعث وجاءوا في دفعه بما هو أوهن من بيت العنكبوت ، ولو نظروا حق النظر لحصلوا على العلم اليقين ، واندفع عنهم الريب ، وأراحوا أنفسهم من ورطة الشك والحيرة ، ثم لما ذكر سبحانه ما احتج به المشركون وما أجاب به عليهم ذكر اختصاصه بالملك فقال :

﴿ والله ملك السموات والأرض ﴾ أي هو المتصرف فيهما وحده كما أراد لا يشاركه أحد من عباده ، وهو شامل للإحياء والإماتة المذكورين قبله ، وللجمع والبعث ، وللمخاطبين غيرهم ، ثم تواعد أهل الباطل فقال :

﴿ ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون ﴾ أي المكذبون الكافرون المتعلقون بالأباطيل ، يظهر في ذلك اليوم خسراهم ، لأنهم يصيرون إلى النار ، والعامل في يوم هو يخسر ، ويومئذ بدل منه ، والتنوين عوض عن المضاف إليه المدلول عليه بما أضيف إليه المبدل منه فيكون التقدير : ويوم تقوم الساعة يوم تقوم الساعة فيكون بدلاً توكيدياً ، والأولى أن يكون العامل في يوم هو ملك أي الله ملك يوم تقوم الساعة ، ويكون يومئذ معمولاً ليخسر ، والجملة مستأنفة من حيث اللفظ ، وإن كان لها تعلق بما قبلها من حيث المعنى أفاده السمين ، وقال التفتازاني وهذا بالتأكيد أشبه ، وأنى يتأتى أن هذا مقصود بالنسبة دون الأول ؟ وقال الحفناوي : اليوم في البدل بمعنى الوقت ، والمعنى وقت أن تقوم الساعة ، وتحشر الموتى فيه ، وهو جزء من يوم تقوم الساعة فإنه يوم متسع مبدؤه من النفخة الأولى ، فهو بدل البعض . والعائد مقدر ولما كان خسراهم وقت حشرهم كان هو المقصود بالنسبة .

وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِئَةٍ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ
عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّكُمْ أَنْتُمْ تَنْسِيحُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا
أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تُلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ
وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَيْقِينَ ﴿٣٢﴾

﴿ وترى كل أمة ﴾ الخطاب لكل من يصلح له أو للنبي صلى الله عليه وسلم ، والأمة الملة والرؤية بصرية أو علمية ، وفيه بعد ومعنى قوله :
﴿ جائية ﴾ مستوفزة والمستوفز الذي لا يصيب الأرض منه إلا ركبتاه ، وأطراف
أنامله قال الضحاك : وذلك عند الحساب ، وقيل معنى جائية مجتمعة ، قال
ابن عباس ، وقال الفراء : المعنى وترى أهل كل دين مجتمعين ، وقال عكرمة
متميزة عن غيرها ، وقال مؤرج : معناه بلغة قريش خاضعة ، وقال الحسن
باركة على الركب والجلو الجلوس على الركب تقول : جثا يجثو ويجثي جثوا .
وجثياً إذا جلس على ركبتيه ، والأول أولى ، ولا ينافيه ورود هذا اللفظ لمعنى
آخر في لسان العرب ، وقد ورد إطلاق الجثوة على الجماعة من كل شيء في
لغة العرب .

وعن عبد الله بن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« كَأَنِّي أَرَاكُمْ بِالْكَوْمِ دُونَ جَهَنَّمَ جَائِثِينَ » ، ثم قرأ سفيان هذه الآية أخرجه
البيهقي في البعث ، وعبد الله ابن أحمد في زوائد الزهد ، وابن أبي حاتم
وسعيد بن منصور .

وعن ابن عمر في الآية قال : « كل أمة مع نبيها حتى يحيى رسول الله

صلى الله عليه وسلم على كوم قد علا الخلائق ، فذلك المقام المحمود » ،
وظاهر الآية أن هذه الصفة تكون لكل أمة من الأمم من غير فرق بين أهل
الأديان المتبعين للرسول وغيرهم من أهل الشرك ، وقال يحيى بن سلام : هو
خاص بالكفار ، والأول أولى ويؤيده قوله :

﴿ كل أمة تدعى إلى كتابها ﴾ وقوله فيما سيأتي ، فأما الذين آمنوا الخ ،
ومعنى إلى كتابها إلى الكتاب المنزل عليها ؛ وقيل إلى صحيفة أعمالها وقيل :
إلى حسابها ، وقيل اللوح المحفوظ ؛ والأول أولى قرأ الجمهور كل أمة بالرفع
على الابتداء ، وخبره تدعى ، وقرئ بالنصب على البدل من كل أمة .

﴿ اليوم ﴾ أي يقال لهم اليوم ﴿ تجزون ما كنتم تعملون ﴾ من خير وشر
﴿ هذا كتابنا ﴾ لا منافاة بين هذا وقوله كتابها لأنه كتابهم بمعنى أنه مشتمل على
أعمالهم ، وكتاب الله بمعنى أنه هو الذي أمر الملائكة بكتبه وإليه أشار في
التقرير قاله الكرخي .

﴿ ينطق عليكم ﴾ بما عملتم ﴿ بالحق ﴾ بلا زيادة ونقصان وهذا من تمام
ما يقال لهم ، والقائل بهذا هم الملائكة ، وقيل : هو من قول الله سبحانه أي
يشهد عليهم ؛ وهو استعارة ، يقال : نطق الكتاب بكذا أي بين وقيل : إنهم
يقرأونه فيذكروهم ما عملوا فكأنه ينطق عليهم دليله قوله تعالى :

﴿ ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا
أحصاها ﴾ قال ابن عباس هو أم الكتاب فيه أعمال بني آدم ، وقيل هو ديوان
الحفظة ، ومحل ﴿ ينطق ﴾ النصب على الحال أو الرفع على أنه خبر آخر لاسم
الإشارة .

وجملة ﴿ إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴾ تعليل للنطق بالحق أي نأمر
الملائكة بنسخ أعمالكم أي بكتبتها وتثبيتها عليكم ، وليس المراد بالنسخ إبطال

ما في اللوح قال الواحدي : وأكثر المفسرين على أن هذا الاستنساخ من اللوح المحفوظ ، فإن الملائكة تكتب منه كل عام ما يكون من أعمال بني آدم فيجدون ذلك موافقاً لما يعملونه ؛ قالوا لأن الاستنساخ لا يكون إلا من أصل وقيل إن الملائكة تكتب كل يوم ما يعمله العبد فإذا رجعوا إلى مكانهم نسخوا منه الحسنات والسيئات وتركوا المباحات ، وقيل إن الملائكة إذا رفعت أعمال العباد إلى الله سبحانه أمر عز وجل أن يثبت عنده منها ما فيه ثواب وعقاب ، ويسقط منها ما لا ثواب فيه ولا عقاب .

وقال ابن عباس « الملائكة يستنسخون أعمال بني آدم ، فقام رجل فقال يا ابن عباس ما كنا نرى هذا تكتبه الملائكة في كل يوم وليلة ، فقال إنكم لستم قوماً عرباً هل يستنسخ الشيء إلا من كتاب ؟ » .

وعن علي بن أبي طالب « إن لله ملائكة ينزلون كل يوم بشيء يكتبون فيه أعمال بني آدم » ، وعن ابن عمر نحو ما روي عن ابن عباس ، وعن ابن عباس أيضاً في الآية قال : يستنسخ الحفظة من أم الكتاب ما يعمل بنو آدم ، فإنما يعمل الإنسان ما استنسخ الملك من أم الكتاب ، وأخرج نحوه الحاكم عنه ، وصححه .

وأخرج الطبراني عنه أيضاً في الآية قال : « إن الله وكل ملائكة ينسخون من ذلك العام في رمضان ليلة القدر ما يكون في الأرض من حدث إلى مثلها من السنة المقبلة ، فيتعارضون به حفظة الله على العباد عشية كل خميس ، فيجدون ما رفع الحفظة موافقاً لما في كتابهم ذلك ، ليس فيه زيادة ولا نقصان » .

﴿ فاما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم في رحمته ﴾ التي من جملتها الجنة قاله البيضاوي ، وهذا تفصيل لحال الفريقين ، فالمؤمنون يدخلهم الله برحمته الجنة ، وفسر المحلي كالزخشي الرحمة بنفس الجنة ، وهو

أظهر ﴿ ذلك ﴾ الإدخال في رحمته ﴿ هو الفوز المبين ﴾ أي الظاهر الواضح لخلوصه عن الأكدار والشوائب التي تخالطه .

﴿ وأما الذين كفروا ﴾ فيقال لهم : ﴿ أفلم تكن آياتي ﴾ أي القرآن ﴿ تتلى عليكم ﴾ الاستفهام للتوبيخ لأن الرسل قد أتتهم وتلت عليهم آيات الله فكذبوا أو لم يعملوا بها ﴿ فاستكبرتم ﴾ أي تكبرتم عن قبولها وعن الإيمان بها

﴿ وكنتم قوماً مجرمين ﴾ أي من أهل الاجرام وهي الآثام والاجترام الاكتساب يقال فلان جريمة أهله إذا كان كاسبهم فالمجرم من كسب الآثام بفعل المعاصي .

﴿ و ﴾ كنتم ﴿ إذا قيل ﴾ لكم أيها الكفار : ﴿ إن وعد الله حق ﴾ أي وعده بالبعث والحساب ، والجزاء ، أو بجميع ما وعد به من الأمور المستقبلية واقع لا محالة ، والعامّة على كسر الهمزة لأنها محكية بالقول وقرئ بفتحها وذلك مخرج على لغة سليم يجرون القول مجرى الظن مطلقاً قاله السمين .

﴿ والساعة ﴾ قرأ الجمهور بالرفع على الابتداء أو العطف على موضع اسم إن وقرئ بالنصب على اسم إن أي القيامة ﴿ لا ريب فيها ﴾ أي في وقوعها ﴿ قلتم ﴾ استغراباً واستبعاداً وإنكاراً لها :

﴿ ما ندري ما الساعة ﴾ أي أي شيء هي ﴿ إن نظن إلا ظناً ﴾ أي نحس حساً ، ونتوهم توهماً ، قال المبرد : تقديره إن نحن إلا نظن ظناً وقيل التقدير إن نظن إلا أنكم تظنون ظناً ، وقيل : إن نظن مضمن معنى نعتقد أي ما نعتقد إلا ظناً لا علماً ، وقيل : إن ظناً له صفة مقدرة أي إلا ظناً بيناً وقيل إن الظن يكون بمعنى العلم والشك ، فكأنهم قالوا ما لنا اعتقاد إلا الشك ، ولعل ذلك قول بعضهم ، تحيروا بين ما سمعوا من آبائهم وما تلى عليهم في أمر الساعة ﴿ وما نحن بمستيقنين ﴾ أي لم يكن لنا يقين بذلك ولم يكن معنا إلا مجرد الظن أن الساعة آتية .

وَبَدَأْهُمْ سِثَاتٍ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسِفُكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّصِيرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَلِكُمْ بِأَنكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يَخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْنَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾

﴿وبدا لهم سيئات ما عملوا﴾ أي ظهر لهم سيئات أعمالهم على الصورة التي هي عليها أي جزاؤها ﴿وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾ أحاط بهم ونزل عليهم جزاء أعمالهم بدخولهم النار ﴿وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا﴾ أي نترككم في النار كما تركتم العمل لهذا اليوم والنسيان أريد به الترك مجازاً إما بعلاقة السببية أو لتشبهه في عدم المبالاة ، وأضاف اللقاء إلى اليوم توسعاً لأنه أضاف إلى الشيء ما هو واقع فيه كمر الليل ﴿ومأواكم النار﴾ أي مسكنكم ومستقركم الذي تأوون إليه ﴿وما لكم من ناصرين﴾ ينصرونكم فيمنعون عنكم العذاب .

﴿ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزواً﴾ أي ذلك العذاب العظيم ، بسبب أنكم اتخذتم القرآن هزواً ولعباً ﴿وغرتكم الحياة الدنيا﴾ أي خدعتكم بزخارفها وأباطيلها فظننتم أنه لا دار غيرها ولا بعث ولا نشور .

﴿فاليوم لا يخرجون منها﴾ أي من النار ، قرأ الجمهور بضم الياء ، وفتح الراء مبنياً للمفعول وقرئ بفتح الياء وضم الراء مبنياً للفاعل وهما سبعيتان والالتفات من الخطاب إلى الغيبة لتحقيرهم ، وللايذان بإسقاطهم عن رتبة الخطاب ﴿ولا هم يستعنبون﴾ أي لا يسترضون ولا يطلب منهم الرجوع إلى طاعة الله لأنه يوم لا تقبل فيه توبة ولا تنفع فيه معذرة .

﴿ فلله الحمد ﴾ أي الوصف بالجميل ، على وفاء وعده في المكذبين
 ﴿ رب السموات ورب الأرض رب العالمين ﴾ أي خالق ما ذكر لا يستحق
 الحمد سواه ، والعالم ما سوى الله وجمع لاختلاف أنواعه ، قرأ الجمهور رب
 في المواضع الثلاثة بالجر على الصفة للاسم الشريف ، أو البيان أو البدل
 وقرئ بالرفع في الثلاثة على تقدير مبتدأ أي هو رب السموات الخ .

﴿ وله الكبرياء في السموات والأرض ﴾ أي الجلال والعظمة
 والسلطان ، وخص السموات والأرض لظهور آثار ذلك فيهما ، وهو القهر
 والتصرف لأنفسها لأنها صفة ذاتية للرب تعالى ، وإظهارهما في موضع الإضمار
 لتفخيم شأن الكبرياء .

﴿ وهو العزيز الحكيم ﴾ أي العزيز في سلطانه فلا يغالبه مغالب والحكيم
 في كل أفعاله وأقواله ، وجميع أقضيته ، عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله
 عليه وسلم : « يقول الله تبارك وتعالى : الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن
 نازعني واحداً منهما ألقيته في النار » أخرجه ابن أبي شيبة ومسلم وأبو داود
 وابن ماجه والبيهقي .

خاتمة الجزء الثاني عشر

تم بعون الله تعالى الجزء الثاني عشر ويليه الجزء الثالث عشر وأوله :
سورة الاحقاف .



فهرس الجزء الثاني عشر

- ٧ قوله عز وجل : (سورة ص)
 قوله عز وجل : بل الذين كفروا في عزة وشقاق ، فنادوا ولات حين
 ١٠ مناص
 ١٣ قوله عز وجل : أجعل الآلهة إلهاً واحداً
 ١٤ قوله عز وجل : وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آهتكم
 : تكذيب الأمم السابقة لرسلمهم وعواقبه وتهديد قرش
 ١٧ بمثلها
 ٢٠ قوله عز وجل : وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب
 قوله عز وجل : اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه
 ٢١ أواب ، إنا سخرنا الجبال معه .. والطير محشورة ...
 ٢٣ قوله عز وجل : وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة
 قوله عز وجل : وهل أذاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب ، وتفصيل
 قصتهم وأن أحدهما له تسعة وتسعون نعجة والآخر له
 ٢٥ نعجة واحدة ، وقصة أوريا المفتراة
 ٣٠ قوله عز وجل : وإن كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض
 قوله عز وجل : إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم ، وظن
 ٣٠ داود أنما فتناه فاستغفر ربه
 ٣٣ قوله عز وجل : يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض

- ٣٦ قوله عز وجل : أم نجعل المتقين كالفجار
- قوله عز وجل : ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب ، اذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد ٣٧
- قوله عز وجل : فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي ٣٩
- قوله عز وجل : حتى توارت بالحجاب . ردوها عليّ فطفق مسحاً بالسوق والأعناق ٤٠
- قوله عز وجل : ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب (راجع استدراك في آخر هذا الجزء) ٤٢
- قوله عز وجل : ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي ، فسخرنا له الريح والشياطين ٤٢
- قوله عز وجل : مسني الشيطان بنصب وعذاب ٤٨
- قوله عز وجل : ووهبنا له أهله ومثلهم معهم .. وخذ بيدك ضعفثاً ٥٠
- قوله عز وجل : واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار ٥١
- قوله عز وجل : واذكر اسماعيل واليسع وذا الكفل ٥٦
- قوله عز وجل : وإن للمتقين لحسن مآب ، وعندهم قاصرات الطرف أتراب ٥٨
- قوله عز وجل : وإن للطاغين لشر مآب جهنم ٥٩
- قوله عز وجل : وآخر من شكله أزواج . المجادلة بين الأتباع والمتبوعين
- قوله عز وجل : وقالوا ما لنا لا نرى رجالاً كنا نعدهم من الأشرار ... ٦٢
- قوله عز وجل : قل إنما أنا منذر وما من إلّه إلا الله ، ما كان لي من علم بالملا الأعلى ٦٣
- قصة خلق آدم والأمر بالسجود له ٦٦
- احتجاج إبليس على عدم سجوده لآدم ٦٨
- استجابة الله دعاء إبليس فأمهله ، وفيه درس للذين يتخذون الأولياء وسائط بحجة أنهم عصاة ٧٠

- قوله عز وجل : قل ما أسألكم من أجر وما أنا من المتكلفين ٧٢
- قوله عز وجل : (سورة الزمر) إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق ٧٧
- قوله عز وجل : فاعبد الله مخلصاً له الدين ، والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى ٨٠
- : تنفيذ دعوى اتخاذ الله للولد ٨٢
- قوله عز وجل : وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج وبيانها ٨٣
- قوله عز وجل : خلقنا في ظلمات ثلاث ٨٤
- قوله عز وجل : إن تكفروا فإن الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر ٨٥
- قوله عز وجل : وإن تشكروا يرضه نكم ، وإذا مس الإنسان ضرر دعا ربه ٨٥
- قوله عز وجل : ثم إذا صرفه عنه نسي وأشرك ٨٦
- قوله عز وجل : مقارنة بين هذا المشرك وبين قانت لله أيستويان ٨٧
- : وجوب الهجرة اليوم على من لا يستطيع إقامة واجباته في بلده ٩١
- قوله عز وجل : إنما يوفى الصابرون أجرهم ٩١
- قوله عز وجل : قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم ٩٣
- قوله عز وجل : لهم من فوقهم ظلل من النار ٩٥
- قوله عز وجل : والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها لهم البشري ٩٦
- قوله عز وجل : فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ٩٧
- قوله عز وجل : أفأنت تنقذ من في النار ٩٨
- : قدرة الله في إنزال الماء وإخراجه به الزرع ثم يجعله حطاماً ٩٩
- قوله عز وجل : أفمن شرح الله صدره للإسلام ؛ فويل للقاسية قلوبهم عن ذكر الله ١٠٢
- قوله عز وجل : الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني ١٠٤
- قوله عز وجل : وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون ١٠٨

- قوله عز وجل : ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجل سلماً
 ١١٠ لرجل
- قوله عز وجل : إنك ميت وإنهم ميتون ١١٢
- قوله عز وجل : والذي جاء بالصدق وصدق به ١١٥
- قوله عز وجل : أليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه - ولئن
 ١١٧ سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله
- : إذا أراد الله الضر لأحد فلا يصرفه أحد ، وكذلك إذا
 ١١٨ أراد الخير لأحد فلا يمسه أحد
- قوله عز وجل : إنما أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق فمن اهتدى فلنفسه
 ١٢٠ ومن ضل فعليها وما أنت عليهم بوكيل
- قوله عز وجل : الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها ... ١٢٠
- قوله عز وجل : أم اتخذوا من دون الله شفعاء ؟ قل أولو كانوا لا يملكون
 شيئاً .. قل لله الشفاعة جميعاً .. وإذا ذكر الله وحده
 ١٢٢ اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون
- قوله عز وجل : وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون ١٢٤
- : هؤلاء لا يملكون الفدية من عذاب يوم القيامة ١٢٥
- قوله عز وجل : إذا مس الإنسان ضر دعانا وإذا جاءته نعمة من الله قال
 ١٢٧ إنما أوتيته على علم
- قوله عز وجل : بل هي فتنة .. وسعة الأرزاق وضيقها لله وحده ١٢٨
- قوله عز وجل : يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا ١٢٩
- : دعوة العباد الى الإنابة الى الله واتباع أحسن ما أنزله الله
 ١٣٤ قبل أن تتحسر النفوس فلا فائدة
- قوله عز وجل : ويوم القيامة ترى الذين كفروا وجوههم مسودة وينجي
 ١٣٨ الله الذين اتقوا
- قوله عز وجل : الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل ١٣٩
- قوله عز وجل : ولقد أوحى إليك .. لئن أشركت ليحبطن عملك ... ١٤١

- ١٤٢ قوله عز وجل : وما قدرُوا الله حق قدره
- ١٤٣ قوله عز وجل : والسموات مطويات بيمينه
- قوله عز وجل : ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض
- ١٤٥ إلا ما شاء الله
- قوله عز وجل : وأشرقَت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب . ووفيت كل نفس ما عملت ، مناقشة خزنة جهنم للكافرين .
- ١٤٨ ترحيب خزنة الجنة بالداخلين
- ١٥٧ قوله عز وجل : (سورة غافر)
- قوله عز وجل : غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول . ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا . وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم
- ١٥٨ : استغفار الملائكة للذين تابوا . اعتراف الكفار بذنوبهم وسؤالهم هل الى خروج من سبيل . رفيع الدرجات ذو العرش . لمن الملك اليوم .. اليوم تجزى كل نفس بما كسبت . وأنذرهم يوم الأزفة .. ما للظالمين من حميم
- قوله عز وجل : والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء ، الأمر بالسياحة للاعتبار . قصة موسى وفرعون وهامان وقارون
- ١٦٣ : قصة رجل مؤمن من آل فرعون يدافع عن موسى .
- ١٧٥ محاجة أهل النار فيها وما يقوله الأتباع للمتبوعين وما يقوله هؤلاء لأولئك ، وما يرجوه الجميع من الخزنة وتوبيخ الخزنة لهم - إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد . ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بني إسرائيل الكتاب - فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك
- ١٧٨ قوله عز وجل : الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم
- ١٨٦

- قوله عز وجل : لا يستوي المحسن والمسيء ، إن الساعة لآتية ، وقال ربكم ادعوني أستجب لكم . تعداد بعض النعم وإنها من الله فادعوه مخلصين ٢٠٤
- قوله عز وجل : قل إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله . تطور خلق الانسان ٢٠٨
- قوله عز وجل : قول المشركين بل لم نكن ندعو من قبل شيئاً ٢١٢
- قوله عز وجل : الرسل منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك .. وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله . ٢١٦
- قوله عز وجل : فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم ٢١٨
- : الإيمان عند معاناة العذاب لا ينفع ٢١٩
- : (سورة حم السجدة) ٢٢٣
- قوله عز وجل : كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً ٢٢٣
- قوله عز وجل : وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا اليه ٢٢٤
- قوله عز وجل : قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي . فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة .. ٢٢٦
- قوله عز وجل : قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين ٢٢٧
- قوله عز وجل : ثم استوى الى السماء وهي دخان . تعنت الكفار وقولهم لو شاء الله لأنزل ملائكة . غرور عاد بقتلهم فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً ٢٢٩
- قوله عز وجل : وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى . ويوم يحشر أعداء الله الى النار فهم يوزعون وشهادة سمعهم وأبصارهم وجلودهم عليهم ٢٣٨
- : ظنهم أن الله لا يعلم كثيراً مما يعملون وعاقبته ، وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ٢٤٣
- قوله عز وجل : وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه ... ٢٤٥
- قوله عز وجل : إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا وعاقبتهم . ومن

- قوله تعالى : أحسن قولاً ممن دعا الى الله وعمل صالحاً ٢٤٧
- قوله عز وجل : ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ٢٥١
- قوله عز وجل : ادفع بالتي هي أحسن وعاقبته ٢٥٢
- قوله عز وجل : وإما يترغبك من الشيطان نزع فاستعذ الله ٢٥٤
- : قدرة الله في انزال الماء على الأرض فإذا هي اهتزت
- وربت ٢٥٦
- قوله عز وجل : إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا - القرآن لا
- يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ٢٥٩
- قوله عز وجل : ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته ٢٦٠
- قوله عز وجل : قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء وهو على غيرهم عمى
- قوله عز وجل : إليه يرد علم الساعة . ويوم يناديهم أين شركائي قالوا
- آذنك ما منا من شهيد ٢٦٣
- قوله عز وجل : وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض - سنريهم آياتنا في الآفاق
- وفي أنفسهم ٢٦٦
- قوله عز وجل : (سورة الشورى) - كذلك يوحي إليك وإلى الذين من
- قبلك ٢٧٣
- قوله عز وجل : وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً ، وتنذر يوم الجمع لا
- ريب فيه - ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة ٢٧٥
- قوله عز وجل : وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه الى الله ، ليس كمثله
- شيء ، شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً ، أن
- أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ٢٧٩
- قوله عز وجل : فلذلك فادع واستقم كما أمرت ، والذين يجاجون في الله
- من بعد ما استجيب له ٢٨٧
- قوله عز وجل : يستعجل بالساعة الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا
- مشفقون منها ٢٩١
- قوله عز وجل : من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه - أم لهم

- ٢٩٣ شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله
- ٢٩٣ قوله عز وجل : قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى
- قوله عز وجل : فإن يشأ الله يختم على قلبك ، ولو بسط الله لعباده لُبغوا في الأرض وهو الذي ينزل الغيث من بعدما قنطوا ، وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ، حقارة متاع الدنيا وعظمة ما عند الله ، وصف المؤمنين بصفات منها الشورى ، ومن عفا وأصلح فأجره على الله ، وإنما السبيل على الذين يظلمون الناس ، وما كان لهم من أولياء ينصرونهم ، إن عليك إلا البلاغ . وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو
- ٣١٠ قوله عز وجل : وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ، ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان
- ٣٢٢ (سورة الزخرف) إنا جعلناه قرآناً عربياً وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم ، أفنضرب عنهم الذكر صفحاً ، الأمم إذا كذبت رسلها أهلكها الله
- ٣٢٧ قوله عز وجل : وجعلوا له من عباده جزءاً
- ٣٣٣ قوله عز وجل : وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ، وقالوا لو شاء الله ما عبدناهم ، ما لهم بذلك من علم
- ٣٣٥ : ذم تقليد الآباء في الدين
- ٣٣٨ : قصة إبراهيم مع أبيه وقومه
- ٣٤٥ قوله عز وجل : وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ، نحن قسمنا بينهم معيشتهم
- ٣٤٧ قوله عز وجل : ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ، حقارة الدنيا وأنها سجن المؤمن وجنة الكافر ، ومن يعيش عن ذكر الرحمن نقیض له شیطاناً ، أفأنت تسمع الصم أو تهدي العمي
- ٣٤٩ قوله عز وجل : فاستمسك بالذي أوحى إليك ، وإنه لذكر لك

- ولقومك . قصة موسى مع فرعون وملته . ولما ضرب
ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون ، إن هو الا عبد
أنعمنا عليه . وإنه لعلم للساعة ، الأخلاء يومئذ
بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ، وصف ما في الجنة ،
كونها بالعمل الصالح ، وصف جهنم وأنها للظالمين ،
قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين ، وهو الذي
في السماء إله وفي الأرض إله ٣٦٥
- قوله عز وجل : (سورة الدخان) إنا أنزلناه في ليلة مباركة ٣٨٧
- قوله عز وجل : فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين ٣٩٢
- قوله عز وجل : وجاءهم رسول كريم أن أدوا الى عباد الله ، واترك البحر
رهوا ٣٩٧
- قوله عز وجل : إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين يوم لا يغني مولى عن
مولى شيئاً ٤٠٤
- قوله عز وجل : إن شجرة الزقوم طعام الأثيم كالمهل يغلي في البطون .. ٤٠٨
- : إن المتقين في مقام أمين في جنات وعيون ٤١٠
- قوله عز وجل : (سورة الجاثية) ٤١٧
- قوله عز وجل : ويل لكل أفاك أثيم يسمع آيات الله ثم يصر مستكبراً ٤١٨
- : تسخير الله لنا البحر وما في السموات والأرض ٤٢١
- : تفضيل بني اسرائيل على العالمين ، فما اختلفوا إلا من
بعدهما جاءهم العلم ٤٢٣
- : خطأ التسوية بين الذين أساءوا والذين آمنوا في الدنيا
والآخرة ٤٢٦
- قوله عز وجل : أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم ٤٢٨
- : الرد على منكري البعث بحجة اثبتوا بآياتنا ٤٢٩
- قوله عز وجل : وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى الى كتابها ، الحكم
بالعدل يوم القيامة ٤٣٢

قوله عز وجل : يقال لأهل العذاب : ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزواً
وغرتكم الحياة الدنيا ٤٣٦